

دراسات سوسيولوجية

الكتاب الأول

دكتور حيدر إبراهيم
قسم الاجتماع
جامعة الإمارات العربية المتحدة

دكتور محمد عبده محجوب
أستاذ ورئيس قسم الأنثروبولوجيا
جامعة الإسكندرية

دكتور محمد عباس إبراهيم
قسم الأنثروبولوجيا
جامعة الإسكندرية

دكتور مجدى حميدة
المشرف على قسم الاجتماع
جامعة المنصورة

الناشر
دار المعسرة الجامعية
الأزاريطة - اسكندرية

منتہی سورا الازہکیہ

WWW.BOOKS4ALL.NET

دراسات سوسيوانثروپولوجية

الكتاب الأول

دكتور حيدر ابراهيم
قسم الاجتماع
جامعة الإمارات العربية المتحدة

دكتور محمد عبده محب
أستاذ ورئيس قسم الأنثروپولوجيا
جامعة الإسكندرية

دكتور محمد عباس ابراهيم
قسم الأنثروپولوجيا
جامعة الإسكندرية

دكتور مجدى حميدة
المشرف على قسم الاجتماع
جامعة المنصورة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فهرس المحتويات الكتاب

رقم الصفحة	الموضوع
٧	مقدمة
	الجزء الأول — ترجمة الاستاذ الدكتور محمد عبده محجوب
١٧	أولاً : مجال علم الاجتماع
	Albert J. Reiss, J. : «Sociology, The Field», International Encyclopedia of Social Sciences, Vol. 15, pp. 122.
	ثانياً : ملاحظات حول علم الاجتماع السوفيتي — نظرة من خلال سوسيولوجيا العلم
٩٣	Warren L Sauer, Prof., «Observations on Soviet Sociology: A View from the Sociology of Science» ; Advancement of Science, Dec. 1967, pp. 237—244.
١١٩	ثالثاً : مدى أزمة علم الاجتماع في جمهورية ألمانيا الديمقراطية
	Alphons Silbermann, «How Sick is Sociology in the Federal Republic of Germany», in International Social Science Journal, Vol. xxvii, 4, 1975.
١٢٩	رابعاً : النقد الأدبي وعلم الاجتماع
	David Daiches : «Criticism and Sociology», in Critical Approaches to Literature; Longmans, 1956, pp. 358-375.

الموضوع رقم الصفحة

خامساً : الإثنوجرافيا ١٦٣

Harold E. Driver, « Ethnography », International Encyclopedia of Social Science, 1968 ed., Vol. 5, pp. 172—178.

سادساً : الأنثروبولوجيا التطبيقية ١٧٩

Luey Mair, « Applied Anthropology », International Encyclopedia of Social Sciences 1968 ed., Vol. 1, pp. 325—330.

الجزء الثاني : الدكتور مجدى حميدة

فروع الأنثروبولوجيا العامة

الجزء الثالث : ترجمة الدكتور حميد إبراهيم ٩٣

— العلاقات العرقية

— التغير الاجتماعى

— الدين والمجتمع

الجزء الرابع : الدكتور محمد عباس إبراهيم ١٦١

— الثقافات الفرعية

مقدمة

يقوم التعريف « القاموسى » العربى بعلم الاجتماع والانثروبولوجيا كمبحثين متميزين على أن « علم الاجتماع هو العلم الذى يدرس النماذج الاجتماعية Patterns أو النظم الاجتماعية Institutions . وممظم علماء الاجتماع الانجليز والامريكيين يأخذون بهذا التعريف ، أما الفرنسيون والاطليان فإنهم يميلون إلى تعريفه بأنه علم دراسة الوقائع الاجتماعية Faits sociaux أو الظواهر الاجتماعية Phénoméues sociaux . وثمة قلة من العلماء يعرفونه بأنه دراسة العلاقات الاجتماعية مثل ديبيريل ، أو البناء الاجتماعى مثل عدد كبير من العلماء الالمان وعلى رأسهم فون فيزى ، وبعضهم يعرفه بأنه دراسة العمليات الاجتماعية .

والواقع أن كل هذه التعريفات لا تعارض بينها ، لأنها جميعاً تدرس الحقيقة الاجتماعية من زوايا مختلفة . فالنماذج الاجتماعية والوقائع الاجتماعية - وهما تقريباً فى معنى واحد - هى الأحداث التى تحدث فى المجتمع ، وتكون فاحية من الحياة الاجتماعية . فإذا نظرنا إلى النماذج أو الوقائع من حيث كيانها القانونى - ومن حيث التواعد التى تتبعها - فإننا نكون بصدد الكلام عن النظم الاجتماعية ، ولكن إذا نظرنا للوقائع من حيث مدى انتشارها فى المجتمع - ومن حيث مظهرها الخارجى - فإننا نكون بصدد الكلام عن الظواهر الاجتماعية . ثم إن كل واقعة اجتماعية تعد فى نهاية الامر علاقة بين طرفين أو أكثر ، فالبيع والشراء والزواج والطلاق والملكية والحكومية والتعليم . . كلها نماذج اجتماعية . . ولكنها فى الوقت نفسه تعد علاقات تنظم حياة الافراد إزاء بعضهم بعضاً . وهكذا نجد أن اختلاف هذه التعاريف هو اختلاف ظاهرى ،

فهى تتناول الحقيقة الاجتماعية من زوايا مختلفة (١) .

ويقوم بالتمريف بمجال الانثروبولوجيا على إبراز التمايز بين الجوانب الطبيعية والجوانب الاجتماعية والثقافية التى يكون كل منها فرعاً رئيسياً بين فروع الانثروبولوجيا العامة — أعنى "الانثروبولوجيا الفيزيكية" من ناحية والانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية من ناحية أخرى — كما يتبين فى النص التالى :

و تدرس الانثروبولوجيا بشكل رئيسى المجتمعات البدائية . وفى ذلك يقول عالم الانسان الأمريكى ما تشب وايت M. White : "إننا فى استخدامنا لتعبير علم الانسان لا نقصد دراسة الانسان بقدر ما يقصد: دراسة الانسان البدائى، وهذا يعنى دراسة المجتمعات الفطرية أو التى لازالت أقرب الفطرة ، وذلك لان دراسة الانسان المتطور المعقد لمجتمعاتنا المتطورة أو المتحضرة — بالمعنى الحضرى لهذه الكلمة — ليست من مهمة عالم الانسان ، بل من مهمة عالم الاجتماع ."

والانثروبولوجيا حين تدرس الإنسان تتناوله من زاويتين : الأولى من حيث كونه جزءاً من الطبيعة (أو الظواهر الطبيعية التى تسود الكون ، وهذه الناحية هى موضوع الانثروبولوجيا الفيزيكية Physical Anthropology التى تدرس علاقة الإنسان فى نشأته وتطوره بالمجموعات الحيوانية، وكيف انفصل الإنسان عن الأنواع الحيوانية الأخرى، وتعنى بتقسيم الجماعات الإنسانية إلى سلاسل بشرية ، وبيان الأساس الفيزيقي الذى يعطيه ذلك

(١) معجم العلوم الاجتماعية — الهيئة المصرية العامة للكتاب — ١٩٧٥

— مادة "علم الاجتماع" — ص ٤٧ .

التقسيم وبيان المقاييس المستخدمة في ذلك

أما الزاوية الثانية فهي تتناول الإنسان من حيث كونه كائناً حياً ذا عقل وثقافة . وتلك هي الأنثروبولوجيا الثقافية Cultural Anthropolgy والأنثروبولوجيا الاجتماعية Social Anthropolgy وهما يدرسان الثقافات والنظم الاجتماعية في المجتمعات البشرية المختلفة في نشأتها وتطورها وانتشارها . . ويكتشفان القوانين التي تخضع لها كل تلك الظواهر .

وهناك أخيراً الأنثروبولوجيا التطبيقية Applied Anthropolgy وهي العلم الذي يستعين به رجال السياسة والعلماء عندما يريدون إصلاح المجتمعات البدائية وتطويرها في النواحي الاجتماعية المختلفة كإصلاح النظم التعليمية القضاء على الأمية والوسائل التكنولوجية في الزراعة والشئون الاقتصادية عامة . . ذلك أن هناك متخصصين في تطبيق وسائل الإصلاح الحديثة على المجتمعات البدائية ، وهؤلاء يراعون في تطبيق تلك الوسائل الاتجاهات الدينية والفكرية التي تسود المجتمع ، والتي قد تقف بعنف في سبيل تلك الوسائل (١) .

وفي محاولتنا للتعريف بمقومات تلك الثنائية القائمة في الوقت الحاضر بين علم الاجتماع ، و الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية ، كباحثين في دراسة الجانب غير الفيزيقي في الإنسان نجد تلك المقومات مرتبطة بنشأة

(١) معجم العلوم الاجتماعية - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٥ -

مادة الأنثروبولوجيا ، ص ٧١ .

الأنثروبولوجيا العامة ذاتها كعلم عني بمشكلات معينة في الحياة البشرية أو الإنسانية — وبخاصة فيما يتعلق بالتمايز السلالي والاختلافات اللغوية والعرقية ، والنظم القبلية وأنماط الزعامة الدينية والسياسية والسحر والفن البدائي وغيرها من الموضوعات — فنشأت الأنثروبولوجيا العامة على حشد تعبير ساخر كسلة تلقى بها كل الموضوعات التي لا تصنف بين المجالات التقليدية لعلم الاجتماع وبخاصة في الأنماط المجتمعية البدائية أو التقليدية .

كذلك فقد كانت هناك مظاهر للتمايز بين علم الاجتماع والأنثروبولوجية وبخاصة الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية ، التقليدية ، — فيما يتعلق بطرق البحث ، ومدى القضية التي ينتهي إليها كل من التحليل السوسيولوجي والأنثروبولوجي ، والاتجاهات التي ينتهجها هذا التحليل . وقد حاولنا في كتابنا بعنوان : مقدمة في الاتجاه السوسيو أنثروبولوجي أن نشير إلى بعض التطورات التي حدثت فيما يتعلق باهتمامات الباحثين السوسيولوجيين والأنثروبولوجيين والتبادل المشترك فيما بينهم في استخدام طرق البحث وأساليب التحليل التي اعتمدت عليها كل من الدراسات السوسيولوجية والدراسات الأنثروبولوجية . وقد كان الاتجاه إلى استخدام الكمبيوتر في التحليل العلمي يمثل ثورة منهجية في العلوم الاجتماعية ، ومنها علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية بالتأكيد .

ويضم الجزء الأول من هذا الكتاب ترجمة عربية قام بها الأستاذ الدكتور محمد عبده محبوب لعدد من الدراسات باللغة الانجليزية كما يضم مقالات التعريف بمجالات متنوعة في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا . . وهي — في الجزء الأول — تتناول : مجال علم الاجتماع ، وملاحظات حول علم الاجتماع السوفييتي — نظرة

من خلال سوسيولوجيا العلم ، والنقد الادبي وعلم الاجتماع ، ووضع علم الاجتماع في ألمانيا الديمقراطية ، والاثنوجرافيا ، والاثروبولوجيا التطبيقية .. وقد أختيرت تلك المقالات لما تعالجه من موضوعات ، وما تنطوى عليه من اتجاهات نظرية تؤصل الاتجاه السوسيوي اثروبولوجي في دراسة المجتمع .

فالدراسة الاولى بعنوان : مجال علم الاجتماع تعنى بالتعريف بالوحدات السوسيولوجية ، وأنماط النظرية في علم الاجتماع ، وموضعه بين العلوم الاجتماع الاخرى وبخاصة فيما يتعلق بالعلاقة بين علم الاجتماع والاثروبولوجيا ، وتعرض لإنجازات علم الاجتماع الامريكى قبل عام ١٩٤٠ ، ومجالات علم الاجتماع الامريكى ، وأهمية الدراسات العقلية في التحليل السوسيولوجي الامريكى ، كما تعالج وضع النظرية الماركسية في التحليل السوسيولوجي ، وبجانب هذا كله فهى تعالج أهمية المعلومات الكمية في التحليل السوسيولوجي ، كما تعالج الدراسات السوسيولوجية العقلية وأهميتها في تأصيل ود العلمية ، القضية السوسيولوجية .

وتعنى الدراسة الثانية والثالثة بوضع الدراسات السوسيولوجية في ألمانيا الديمقراطية وأزمة علم الاجتماع السوفيتي في اتجاهه إلى عدم التوقع في حدود إبراز الحقائق الاجتماعية التى تنطوى على بيانات على صدق النظرية الماركسية وهما من هذه الناحية يبرزان أهمية الخاصية العقلية ، - أو بقول آخر أهمية البحث الإثنوجرافى - كركيزة لامندوحة عنها فى صياغة القضية الاثرونولوجية ، كما تبرزان مدى وفقر ، علم الاجتماع فى ابتعاده عن الامبريقية ، التى تسهم البحوث الاثروبولوجية العقلية إلى حد بعيد فى تحقيقها .

أما الدراسة الرابعة بعنوان : النقد الادبي وعلم الاجتماع ، فهى تبين عن

مدى أهمية الاستعانة بالمعطيات الانثروبولوجية في معالجة بعض القضايا السوسولوجية ، في هذا الفرع الهام من فروع علم الاجتماع . فالمادة الانثوجرافية تعتبر من أهم روافد الادب . بوجه عام وفن الرواية بوجه خاص ، ونحن نستطيع أن نستخدم المعلومات التي يزودنا بها المتخصصون في التاريخ الاجتماعي في اختيار أسباب انتشار قراءة مقالات مجلة معينة بين طبقة معينة نترقب بظلال ظهور هذه المجلة ، وهو ما يبين لنا عن علاقة ماثرة للاهتمام بين ما تقرأه طبقة معينة وأسباب قراءة تلك الطبقة لموضوعات معينة ، وهي موضوعات تلقى الكثير من الاهتمام وتنطوي على معلومات مفيدة لدى المشتغلين بتاريخ الادب .

وقد عالجت الدراسات المتخصصة في النقد الادبي تلك العلاقة الوثيقة بين الانثروبولوجيا والنقد الادبي وسوسولوجيا الادب مبرزة أهمية والتفسير الاجتماعي ، لشخصيات الرواية وأحداثها . مثلاً فيما يتعلق بوضع المرأة وعلاقتها بالرجل حيث تعتبر المادة الانثوجرافية والتاريخ الاجتماعي من أهم المراجع في التعرف بالمقومات التي تستند إليها مكانة المرأة في أئمة وروما القديمة . فقد ظلت مخلوقاً يحل «الموت» الادبي ، بصورة جوهرية طوال حياتها كما أن المرأة في أوروبا العصور الوسطى لم يكن لها حق التملك كما لم يكن في استطاعتها الطلاق بعد زواج صديق قلبها ، وكانت تصاق إلى الموت حين ترتكب جريمة الزنا في الوقت الذي يعنى فيه الزواج الوثني . ولقد كانت المرأة حتى في عصور النهضة طبقاً للقانون العام في إنجلترا والولايات المتحدة تساق إلى السجن وتفقد معظم حقوقها المدنية حين تزوج ، فهي لم تكن تستطيع أن ترفع أوريا أو تسمع لها شبهة أدلة أو تصير في قبضة تملكها ولم يستطع لها التخليقة مكتسباتها أو مكتسبات أبنائها إذا اختار فوجها أن يتولى عليها . وقد

أوجز السير وليام بلاكستون المركز القانوني للمرأة في كتاب بعنوان :
وملاحظات على قوانين إنجلترا عام ١٧٦٥ - ١٧٦٩ ، في قوله بأن الوجود
الحقيقي - أو الوجود القانوني للمرأة - معلق أو على الأقل متضمن ومندمج في
وجود الرجل . أما في فرنسا قال جان جاك روسو أن النساء يتمتعون - أو يجب
عليهم أن يتمتعوا - فقط بالقليل من الحرية . وقد كان الرجل الانجليزي إلى وقت
متأخر حتى الحرب العالمية الأولى يعاني لصديقه ميلاد ابنته له بشئ إلا إذا كان
قد سمع عما حل به من إخفاق تام (١) ،

وحيث لا بد من المادة العلمية ، أتى بأيدينا بشكل مؤكد على كيف نشأت
فكرة أفضلية الذكر فإن العلماء قد اتجهوا اتجاهين متمايزين في تفسير هذا
الوضع . . يعتمد أحدهما على حقيقة أن الذكور بصفة عامة أقوى من الإناث
ويعتمد الآخر على أن الشعور بأن النساء كن دائما أكثر التصاقا بالطبيعة في
مقارنتين بالرجال .

وبناء على التفسير الأول فإن الرجال قد بدأوا في فرض سلطانهم على النساء
لأن قوتهم الفيزيائية كانت ضرورية للبقاء في المجتمعات القديمة ، مما جعل الرجال
قيمة أكبر من قيمة النساء . فقد كان الرجال يستطيعون الجترى بصورة أسرع
وإلى مدى أبعد ، كما أن الرجال أفضل من النساء حين يتعرض لهجوم الحيوانات
المفترسة أو الغارات البشرية ، كما فرضت متطلبات الحيض والحمل والولادة أن
تعتمد النساء على الرجال في الحصول على الطعام والحماية الكافية ضد مخاطر الحياة

Simone de Beauvoir, "Nature of the Second Sex"; The New (١)

English Library, edition, 1963, p. 11.

البداية (١) .

وفي هذا كله تعتبر المادة الإثنوجرافية التي يأتي بها الباحثون الأنثروبولوجيون الحقليون مصدرًا خصيصًا ومعقولًا في تفسير تلك العلاقة بكل أبعادها الجنسية والقرابية والاقتصادية والسياسية والدينية . كما تعتبر المادة الإثنوجرافية من أهم الروافد التي تثري الإنتاج الأدبي ، وقد صدر الكثير من الأعمال الأدبية العربية والاجنبية على استلزام « التقاليد الاجتماعية » .. فقد كانت المعتقدات الدينية « الشعبية » من أهم الروافد التي صدرت رواية قنديل أم هاشم ، كما نجح أوسكار لويس في كتابه بعنوان : « لافيدا أو الحياة » ، في صياغة نص أدبي ينطوي على دراسة أنثروبولوجية حقلية لتاريخ حياة أسرة في ثقافة الفقر . وقد استهدف ذلك النص الأنثروبولوجي الأدبي « الإعلام » ، في الدرجة الأولى فقد كان « هذا الكتاب في جوهره عبارة عن شرط تسجيل لحياة أسرة من الأسر محدودة الدخل التي يقيم بعض أعضائها في أحد الأحياء الفقيرة في مدينة سان جوان في بورتوريكو إحدى الولايات المتحدة الأمريكية ، ويقيم البعض الآخر في مدينة نيويورك ، وقد حاول أوسكار لويس في هذا الكتاب أن ينقل صوت تلك الفئة من السكان الذين تمثلهم هذه الأسرة إلى آذان الفئات السكانية والاجتماعية الأخرى في المجتمع الأمريكي من الذين يندر أن يسمعوا بوجود مثل هذه الأسر بظروفها الاجتماعية السيئة ، كما أراد من ناحية أخرى أن يسجل بقلمه صورة داخلية لنوع الحياة في كثير من المناطق والجماعات المحرومة أو الهامشية في ذلك المجتمع والتي يحملها الكثير من أبناء الطبقة الوسطى (٢) .

Ibid., p. 16.

(١)

(٢) محمد عبده محجوب : « لافيدا أو الحياة » ، — عالم الفكر ، المجلد الأول ،

العدد الثاني ، يوليو ١٩٧٠ ، ص ٢٦٨ .

ولقد عرضت الدراسة الأخيرة للتعريف بمجال الأنثروبولوجيا التطبيقية وبخاصة في حدود تلك الاتجاهات التقليدية التي ترى الآلة وبولوجيا معينة أكثر ما تكون بتغيير المجتمعات البدائية والاتجاه بها إلى التخصر والتحديث . وبقدر ما تصدق هذه الرؤية لمجال الأنثروبولوجيا إلى حد بعيد ، حيث نجد أن الأنثروبولوجين مازالوا يؤجسون جل اهتمامهم إلى المجتمعات التقليدية أو المجتمعات المحدودة أو الجماعات البدوية والمناطق الصحراوية بوجه خاص فإننا نجد الباحثين الوطنيين ، يقومون ببحوث أنثروبولوجية في مجتمعاتهم الجديدة ، المتحضرة . فلم تكن الدراسات التي تقوم في جامعة الاسكندرية لتقييم مشروع التخطيط الاقليمي لمحافظة أسوان والاتجاهات المجتمع المصري نحو العمل اليدوي ومشكلات تدهور المناطق الحضرية في مدينة الاسكندرية دراسات بليغات بدائية ، . ولكن هذه الدراسة تنطوي على بيان بأحد البسات التي تميز ما نطلق عليه الاتجاه السوسيوانثروبولوجي في دراسة المجتمع فهي تبين عن أهمية البعد النظري في الدراسة الأنثروبولوجية الحقلية والتطبيقية .

أما الجزء الثاني في كتابنا هذا فقد كرس للتعريف بفروع الأنثروبولوجيا العامة وبمجالاتها والاتجاهات المختلفة في معالجتها وبخاصة فيما يتعلق بعلم آثار ما قبل التاريخ واللغويات والأنثروبولوجيا الفيزيائية والأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية . وقعت وضحت في هذا الجزء العلاقات التي تربط بين الأنثروبولوجيا وغيرها من العلوم الانسانية والطبيعية، كما أبرز بوجه خاص ما أضافته البحوث الأنثروبولوجية من معطيات في تلك العلوم .

أما الجزء الثالث فيضم فصول مترجمة من كتاب أستاذة مرموقة في علم الانسان هي لوسى مير وهنو بعنوان : مقدمه في الأنثروبولوجيا وقد عنى هذا

الفصل بالتعريف بموضوع هام فى الدراسات الانثروبولوجية المعاصرة وهو العلاقات العرقية كما عالج بكثير من الایجاز والدقة موضوع فى التفكير الاجتماعى والعلاقة بين الدين وبنية المجتمع .

وأخيراً فقد جاء الجزء الرابع ليعالج موضوعاً هاماً فى الانثروبولوجية الثقافية والاجتماعية هو الثقافات الفرعية وقد عنى بتعريف الثقافة والثقافات الفرعية والجماعات العرقية والمجتمعات الفرعية وهو أحد فصول بحث قيم واستحق مؤلفه درجة دكتوراه مع مرتبة الشرف الاولى .

ولعل الكتاب فى مجموعة يسهم فى تأصيل العديد من المفاهيم الانثروبولوجية والسوسيولوجية التى تتداول فى الكتابات الاجتماعية كثيراً .
والله من وراء القصد .

محمد عبده محبوب

الشاطي - اسكندرية

مجال علم الاجتماع

من المعروف والمقبول أن يقوم التعريف بعلم الاجتماع كعلم خاص على أنه دراسة للتجمعات والجماعات في انتظامها واتساقها في تنظيم معين ، وأنه دراسة للنظم والتنظيم - كما هو دراسة لأسباب ونتائج تغير النظم والتنظيم الاجتماعى . وتتكون الوحدات الرئيسية للبحث السوسيولوجى من الاتساق الاجتماعية وما يرتبط بها من اتساق فرعية ، كما تضم النظم الاجتماعية والبناء الاجتماعى ، والتجمعات والعلاقات والجماعات والتنظيمات الاجتماعية .

الوحدات السوسيولوجية :

ونجد أن أكثر الوحدات السوسيولوجية شمولاً هى النسق الاجتماعى الذى يتكون بتفاعل جميع من الأشخاص الذين يشتركون فى أن علاقاتهم كل منهم بالآخر تسقى فى نظم معينة . أما المجتمع فهو النسق الاجتماعى الامبريى الذى يتوطن وحدة اقليمية متبايزة والذى يتجدد كما يتجدد أعضاؤه عن طريق التوالد الجندى فى داخله ، ولكنه يبقى إلى أبعد من مدى حياة أى عضو معين فيه من خلال التطبيع الاجتماعى لمؤلاء الأعضاء الجدد وانتظامه لهم . ولكل نسق اجتماعى اتساقه الفرعية التى تكون اتساقاً جزئية ترتبط وظيفياً به كذلك الاتساق الايكولوجية البشرية ، والاتساق الفرعية القانونية أو التشريعية والتعليمية والايديولوجية والدينية .

وتعتبر النظم الاجتماعية ، أنماطاً عامة من المعايير التى تحدد السلوك فى العلاقات الاجتماعية ، وبقول آخر تحدد النظم الطريقة التى ينبغى على الناس أن يتصرفوا بها ، كما تحدد مشرعية الجزاءات التى يخضع لها السلوك ويعتبر للمعايير

مثالاً طبيباً للنظام الاجتماعي ، فهو كنظام يتكون من المعايير المعتمدة كذلك التي تقنن التقيد بالانفاقيات التعاقدية ربما يترتب عليها ، ولكنها لا تقرر أو تحدد من سرف يدخلون في مثل تلك الانفاقيات ، كما لا تقرر في حدود معرفة ومنظمة معينة ما قد تحتويه تلك الانفاقيات . أما البنيان الاجتماعي أو المورفولوجيا الاجتماعية .. فهو يعبر عن ذلك التكامل والاستقرار في التفاعل الاجتماعي الذي يقوم من خلال تقييم المراكز والأدوار مثلاً على أساس العمر أو الجنس أو الطبقة .

ويهتم علماء الاجتماع في الدرجة الأولى بالكائنات الإنسانية كما تظهر في مواقف التفاعل الاجتماعي التي يأخذ فيها الممثلون كل منهم الآخر في حسابه أثناء سلوكهم ، أما تلك الانساق أو الوحدات الرئيسية التي يهتم بها علماء الاجتماع فهي تضم الجماعات الاجتماعية مثل العائلة أو جماعة اللعب ، والعلاقات الاجتماعية والعلاقات الشئانية ، والتنظيمات الاجتماعية ابتداء من تلك التنظيمات الرسمية أو البيروقراطية والاتحادات والانساق - إلى مثل تلك التنظيمات المحلية كالزمر أو الجماعات المحلية أو المدارس والمصانع والكنائس وغيرها من الجماعات التي تتكون من زمر عديدة - وذلك يعني ان علماء الاجتماع وإن كانوا معنيين بصفة مبدئية بالكائنات الإنسانية في تفاعلها فهم يعنون أيضاً بالتجمعات الاجتماعية أو الجماعات السكانية في تنظيمها المتسق أو المنظم .

كذلك يهتم علماء الاجتماع بالخصائص التحليلية لتلك الوحدات السوسولوجية ، كما يعالجون العلاقات القائمة فيما بينها باعتبارها تكون مشكلة ، ومن ثم فهم يهتمون بخصائص تلك العمليات التي من شأنها أن تحقق الانتظام كالشرعية والقوانين والترتيب ، ويشتلون أنفسهم بعناصر العلاقات الاجتماعية

كالقوة والسيطرة ، وبينما نرى التفاعل كالتقسر أو التبادل ، كما يقومون بفحص خصائص الجماعات والتنظيمات وعملياتها .. مثلاً فيما يتعلق بقدرتها على اتخاذ فعل جمعى لتحقيق أهدافها . كما هو الحال في مجازاة السلوك المنحرف أو تعيين المصادر التنظيمية .

أنماط النظرية في علم الاجتماع :

وحيث تتخذ نظريات علم الاجتماع من العلاقات بين الخصائص التحليلية مشكلة تحاول انتظامها ، فإنه نوع للنظرية يحدد في كل حالة المشكلات التى تكون موضوعها . ومثال ذلك ان النظرية الايكولوجية في علم الاجتماع — تعنى بصفة أولية بالعلاقات المتبادلة والسببية في المركب الايكولوجى البشرى الذى يتكون من التراكم التكنولوجى السريع واستخدام البيئة والتحول الديموجرافى والثورة التنظيمية . ونجد أن نظرية معينة في علم الاجتماع الذى يتجه اتجاهها شمولياً كنظرية تالكوت بارسونز Talcott Parsons تجعل أصلاً من طريقة التوافق بين القيم المتنوعة من ناحية - والدوافع المستقرة لدى الأشخاص من ناحية أخرى - كما تجعل من طريقة تقوُّل هذا التوافق فى النظم التى تنسق فى أنساق اجتماعية موضوعاً لها . ويركز بارسونز - فى توضيحات جاء بها مؤخراً لنظريته - على الديناميات الداخلية للأنساق الاجتماعية ، وذلك على الرغم من أنه ينض النظر إلى حد بعيد عن اتخاذ العلاقات الخارجية مشكلة تعنى بها نظريته فى علم الاجتماع .

وحيث كانت كتابات علماء الاجتماع الأوائل تصدر إلى حد بعيد عن .. أو كانت عبارة عن إنجازات فلسفية كبرى من نوع الفيلسوف — فهم لم تعر نفسها انتقاهاً إلى نمو بنية المعرفة التى كانت ذات خاصية تراكمية ، والتى انفتحت

أيضاً وقوانين أو قواعد العلم — أما بمرور الوقت فقد أصبح علماء الاجتماع يستخدمون ما أطلق عليه روبرت ميرتون Robert Merton نظريات المدى الاوسط .

وتميز المدرسة الثالثة باتجاهها إلى التأويل التاريخي في علم الاجتماع ، كما تتميز بتأكيدا للخاصية العمولية — وذلك على العكس من علم الاجتماع الهنري الذي يؤكد الخاصية الجزئية لهذا العلم . وقد بذلت محاولات لوصف السمات العامة لتاريخ الانسان ، ولرسم الابعاد المختلفة في العالم التاريخي ، ولفهم الأفكار المعبرة عن الفترات أو الأحداث التاريخية ، وقد أفادت الأعمال الرئيسية لماكس فيبر Max Weber . أو بقول آخر أفادت أعمال المدرسة التاريخية الألمانية وبوجه خاص كتابات فيبر . في تقديم نموذج لعلم الاجتماع التاريخي المعاصر .

ونجد أن معظم الكتابات في علم الاجتماع المعاصر تركز بطريقة أو أخرى على الخصائص العلاقاتية بين الأشخاص كممثلين اجتماعيين — وهو تركيز يقدم به كثير من الأعمال في علم النفس الاجتماعي — أو تركز على العلاقة بين خصائص النظم والتنظيمات في المجتمعات أو الانساق الاجتماعية ، وهو تركيز يحدد بوجه خاص مجال التنظيم الاجتماعي .

مجال علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى :

واقده كانت العلاقة بين علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى موضوع مناقشات كثيرة ، وكان هناك تساؤل عما إذا كان علم الاجتماع كما تصوره أوجست كونت هو سيد العلوم الاجتماعية ، وعن كونه العلم الاجتماعي العام في دراسة المجتمعات ، أم هو علم اجتماعي أكثر تخصصاً يبرز الانساق بين تلك

المشكلات التي يمكن تحديدها كمشكلات سرسيولوجية متميزة ومختلفة عن المشكلات الاقتصادية أو السيكولوجية أو الثقافية .

وبعد أكثر المحاولات الحديثة انساقاً في معالجة ذلك التساؤل توجد في كتابات بارسونز . وتقوم وجهة نظر بارسونز على أن النظرية السوسيولوجية إنما تكون جانباً في نظرية الانساق الاجتماعية ، ومن ثم فإن علم الاجتماع يحدد كعلم خاص . ويهتم علم الاجتماع بظواهر استقرار أنماط من القيم تتخذ شكل النظم في النسق الاجتماعي ، كما يهتم أيضاً بالظروف التي يتحقق فيها ذلك الاستقرار أو تطراً معها التغيرات في تلك الأنماط ويهتم كذلك بظروف توافق تلك النظم مع بنية تلك الأنماط — وبظروف الإحراف عنها — وبجانب هذا فهو يهتم بالعمليات الدافعية ما دامت تدخل في هذا كله .

أما النظرية الرئيسية الأخرى في الانساق الاجتماعية من وجهة نظر بارسونز فهي النظرية الاقتصادية — التي تعنى بظواهر معقولة اتخاذ القرارات في نسق منظم من علاقات التبادل ، وفي داخل هذا الإطار ينظر إلى علم السياسة كعلم تطبيقي قبل كونه علماً اجتماعياً خاصاً يقوم على مجموعة من المتغيرات المحددة التي تعنى بالقوى الحيوية .. قبل أن يقوم على خطة تحليلية متميزة علمياً .

وفضلاً عما سبق فقد حددنا لكورت بارسونز نظرية النسق الاجتماعي بكونها ليست سوى واحدة من ثلاثة علوم تحليلية في الفعل ، والانتساب الآخرين هما : « نظرية الشخصية ، و « نظرية الثقافة ، حيث تكون نظرية الانساق الثقافية المجال الخاص للأنثروبولوجيا ، كما تكون النظريات في انساق الشخصية صلب غلم النفس .

ولقد اشتغل الباحثون السوسيولوجيون بالمشكلات المرتبطة بموضوع

البحث في مباحث انسانية وعلمية أخرى ، وإن كانت تلك المشكلات تدخل إلى حد بعيد بطريقة أو أخرى في المجالات التي تكون جانباً من علم الاجتماع والتي تلقى العناية بها من أبعاد سوسيولوجية ، وهنا نجد أنه على الرغم من أن مشكلات المعرفة قد عولجت في الحقيقة بواسطة علم اجتماع المعرفة ، وسوسيولوجية المعرفة ، ومع أن علم اجتماع المعرفة هو بمعنى هام فرع في نظرية المعرفة ، فإن هذا العلم لم يتحقق له النمو لكونه مجالاً متوسطاً بين علم الاجتماع والفلسفة .. وهو ما يصدق قوله أيضاً على تلك المجالات السوسيولوجية الأخرى ، كعلم الاجتماع التاريخي ، و علم الاجتماع اللغوي ، اللذين أحرزنا تقدماً بعيداً في داخل علم الاجتماع .

أما من الناحية التاريخية فقد ظهرت عدة مباحث وحيدة بين أخرى هي منها في مرتبة الأبوين ، وأكثر المجالات وضوحاً في تاريخ علم الاجتماع هي الايكولوجيا البشرية — أو الجغرافيا البشرية كما تسمى في بعض البلدان — والديموجرافيا وعلم النفس الاجتماعي . . حيث نجد علم النفس الاجتماعي كجال فرعي في كل من علم النفس وعلم الاجتماع — يعني بنسبة أولية بالخصائص والعمليات الدافعية في ارتباطها واتساقها مع التنظيم الاجتماعي في المجتمعات ، أما الديموجرافيا والايكولوجيا البشرية فهما في وضع مختلف إلى حد ما عن علم النفس الاجتماعي . . وربما كانا غير مؤهلين بصورة تامة ليكونا مبحثين وسيطين .

ولقد كانت الايكولوجيا البشرية تفهم بهكل واسع كجانب في نظرية النسق البيئي يتوسط بين علم البيئة المناخية والعلوم الاجتماعية . ومهما يكن من شيء فإن نمو نظرية في النسق البيئي إنما يمثل حالة أولية ، وهي ثم فإن العمل

في الايكولوجيا البشرية قد قام في داخل علم البيئة المناخية والعلوم الاجتماعية منفصلة قبل أن يقوم في أى مبحث هامشى بينهما . كذلك فقد قام العمل في الديموجرافيا بشكل واسع بواسطة علماء الاجتماع وعلماء الاقتصاد ، ثم جاء علماء الطب البيولوجي لينضموا إليهم مؤخراً في مجال تليفقي أخذ يعسرف بالدراسات السكانية .

مجالات علم الاجتماع :

لا يوجد هناك تقسيم معقول لعلم الاجتماع على هيئة مجالات للمبحث تابع من النظرية السوسيولوجية العامة ولا يمكن الشك في أن كلا منها يكون مبحثاً له استقلاله النسبي ، كما تمكن صياغتها كأبنية منفصلة من المعرفة . ولما كنا ننتقل إلى نظرية سوسيولوجية مقبولة بوجه عام تسمح بتلك القسمة المعقولة في علم الاجتماع ، فقد انشغل علماء الاجتماع باهتمامات في تلك الوحدات الرئيسية للمبحث السوسيولوجي التي عرضنا لها في سبق ، كما هنوا بمشكلات اجتماعية معينة كجناح الأحداث مثلاً الذي أصبح يكون مجالات اهتمام ينظر إليها من آفاق سوسيولوجية .

ولقد سيطر تقسيم أوجست كرونت لعلم الاجتماع بين الاستاتيكا الاجتماعية — الثبات الاجتماعي — والديناميكا الاجتماعية — التغير الاجتماعي — على أعمال هربرت سبنسر Herber Spencer ولستر وارد Lester Ward . وارتبط ظهور علم الاجتماع كمبحث أكاديمي بميل — في علم الاجتماع الأمريكي بوجه خاص — نحو تصنيفه بطريقة تتميز بكتشده من التفصيل والتقسيم في مجالات موضوعية متبايزة .. وذلك كوسيلة لتنظيم خطة هذا العلم ، وهذا في نفس الوقت الذي كان فيه العلماء الرواد — وبخاصة هند ما كانوا مثل دوركايم

محررين للدجلات العامية — يدهرون بأنهم خاليون بتقسيم علم الاجتماع الى مجالات ، متميزة متفقة مع ذلك للتمايز القائم بين الآفاق السوسيولوجية .

ويمثل عدد عام ١٩٠٢ في مجلة حوليات علم الاجتماع L'annee sociologique ذلك التصنيف المدرسي الذي ينسب الى دوركايم وزملائه من محسرى تلك المجلة ، حيث قاموا بتقسيم علم الاجتماع الى مجالات متميزة في علم الاجتماع العام هي : علم الاجتماع الدينى ، وعلم الاجتماع القانونى ، وعلم الاجتماع الاخلاقى ، وعلم الاجتماع الجنائى ، والإحصاءات المعنوية ، وعلم الاجتماع الإقتصادى ، والمورفولوجيا الاجتماعية ، ومجموعة أخرى من الفروع المختلفة تعظم علم الاجتماع الجمالى ، والتكنولوجيا ، واللغة ، والحرب .

وقد لاحظ الناشرون أن مجلة علم الاجتماع الألمانية Zeitschrift fur Socialwissenschaft ، والمجلة الإيطالية لعلم الاجتماع Rivista Italiana di Sociologia والمجلة العلمية الفعلية للفلسفة وعلم الاجتماع Vierteljahrschrift fur Wissenschaftliche Philosophie und Soziologie قد اعتمدت على مقولات أخرى في تحديد فروع علم الاجتماع .. حيث نجد مثلاً علم نفس الجماهير ، وعلم النفس الفسردى والطبى ، والطب الوقائى ، والتاريخ الطبيعى ، والتشريح الاجتماعى ، وعلم النفس الاجتماعى ، والديموجرافيا .. بينما تتضمن المجلة العلمية الفصلية للفلسفة ، وعلم الاجتماع ، وعلم النفس ، وعلم اللغة ، والجمال ، والتربية . ولكن يمكن القول أنه بمضى عام ١٩٠٢ قدم علماء الاجتماع تحديداً تام الوضوح لمجالات الإهتمام المدرسى الرئيسية في علم الاجتماع ، وهو تحديد قد استمر خمسة عقود تلت ذلك التاريخ .

وسنرى وقت قريب جداً لم تكن تلك المجالات المتنوعة في علم الاجتماع

تغطي بعنايه متساوية في كل البلاد المختلفة . كالم يفعل علماء الاجتماع في أى بلد معين أكثر من توجيه العناية إلى بعض من تلك المجالات . وقد كانت هناك اختلافات مثيرة وهامة بين البلاد المختلفة فيما يتعلق بمدى الإهتمام الذى لقيته تلك المجالات المتنوعة في علم الاجتماع ، فنجد مثلاً ان بعض الفروع التى تقدمت في وقت مبكر جداً في البلاد الأوروبية — ظلت لا تلقى سوى القليل من الإهتمام في الولايات المتحدة حتى الحرب العالمية الثانية ، حيث تقدمت بعدها بهكل سريع حقاً . ونجد بين تلك المجالات التى نالت قدراً أكبر من الأهمية علم الاجتماع السياسى ، وعلم الاجتماع القانونى — وسociولوجية القانون — وعلم الاجتماع الدينى — وسociولوجية الدين .. كما نجد تلك المجالات التى لا تزال لا تلقى سوى الإهتمام الطارىء في علم الاجتماع الأمريكى مثل : سوسيولوجية الفنون التهكميائية والتعبيرية — علم الاجتماع الجمالى ، وسوسيولوجية الرياضة ، وسوسيولوجية اللغة — علم الاجتماع اللغوى . كما أنه يمكن القول دون تحديد لصورة معينة للتقدم الذى حققه علم الاجتماع العام بأن علماء الاجتماع الأمريكان قد قطعوا شوطاً غير بعيد في مجال سوسيولوجية المعرفة ، وذلك كله على العكس مما تناله تلك المجالات من إهتمام في بعض البلاد الأوروبية .

انجازات علم الاجتماع الأمريكى قبل عام ١٩٤٠ :

لعل ذلك النمو أو التقدم الذى تحقق مؤخراً في علم الاجتماع الأمريكى — وبخاصة في بعض المجالات التى أشرنا إليها فيما سبق — كان نتيجة لمجموعة من العوامل المتنوعة التى يحتل حاملان منها أهمية خاصة ، ويتمثل أولها في أن الجامعات الأمريكية قد فصلت بين علم الاجتماع وبعض الباحثين الأكاديمية

الأخرى بطريقة أكثر تحديداً وذلك بالمقارنة بما فعلته الجامعات الأوروبية ،
ويلاحظ هذا بوجه خاص في حالة القانون الذى يدرس في مدارس مهنية
متخصصة منفصلة عن كليات الفلسفة والعلوم والإنسانيات . وفي الحقيقة كانت
لعلماء الاجتماع الأمريكان حتى عام ١٩٤٠ اتصالات قليلة بالمدارس المهنية
للمتخصصة الأخرى ، وذلك فيما عدا مدارس الخدمة الاجتماعية والتربية .
وفضلاً عن هذا كله فقد كانت كل العلوم الاجتماعية في الجامعات الأمريكية —
في اندفاعها نحو تثبيت أركانها كبحاثة علمية — تدعم انفصالها عن المباحث
الإنسانية والآداب والفنون ، ولما كان هذا يصدق حتى الوقت الحاضر ، فإننا
لا نزال نجد علماء الاجتماع الأمريكان يوجهون قليلاً من أعمالهم نحو
سوسيولوجية الفنون التشكيلية والنميرية كما سبقنا الإشارة إلى ذلك ، وحيث
نجد أن التاريخ يميل لأن يكون مبحثاً إنسانياً — أكثر من ميله إلى عكس هذا
الاتجاه — فقد كان علماء الاجتماع غير تاريخيين . ولا شك فقد كان لاتخاذ
كثير من علماء الاجتماع الأمريكان العلم الطبيعي نموذجاً يحتذى به في
أبحاثهم أن يؤدي إلى فصل علم الاجتماع عن للتاريخ والإنسانيات متضمنة
الفلسفة .

أما العامل الرئيسى الثانى الذى يمكن تبينه في فشل علم الاجتماع الأمريكى
في أن يتطوع شوطاً في معالجة بعض المشكلات التى عنى بها علماء الاجتماع
الأوروبيون — كان هو الأهمال المقصود لمشكلات القيمة أو للهيمنة التى تفتظم
فيها القيم في المجتمع الأمريكى أو غيره من المجتمعات . وفيما عدا بعض
الاستثناءات — مثل دراسة توماس وفلوريان زنايمكي W, I. Tomas and Florian
Znaniecki جماعات المهاجرين ، فقد كان علماء الاجتماع الأمريكان يصادقون

مبدئياً على وجود القيم ، كما ضاقت الحدرد ان كانوا يعملون فيها الى اتخاذ
القيم كمشكلات تبدأ منها بحوثهم — وذلك لانهم اعتقدوا أن علم الاجتماع
الحقيقي يجب أن يكون منحرراً عن القيمة . وفضلاً عن هذا كله فهم يرجع
حالم لم ينظروا الى القيم على أنها صالحة لتكون موضوعاً للفحص الأمبريقي —
إلا حين تتجسد في صورة اتجاهات أو آراء شخصية ، ومن ثم فلم يكن هناك
ميل إلى استقصاء الدراسات المقارنة للقيم في أنساق المعتقدات مثل الأنساق
الأيديولوجية أو الدينية أو القانونية .

وبالأكد فقد بدأ علماء الاجتماع تدريجياً باستقصاء المشكلات في بعض
تلك المجالات ، ولكن ذلك كان إلى حد بعيد من خلال الاهتمامات الأصلية في
علم الاجتماع كدراسة الوظائف أو المهين أو التنظيم الاجتماعي للعمل ، قبل
كونه من خلال الاهتمام بالنظم أو الأنساق المقارنة .. ومن ثم فإن علم
الاجتماع القانوني قد بدأ بشكل واسع بدراسات حول المحامين ، كما بدأ علم
الاجتماع الطبي . سوسيولوجية الطب — بدراسات حول الأطباء والتنظيم
الاجتماعي للعلاقات القائمة بين الطبيب والمريض ، وبدأ علم الاجتماع الفني
والآدبي — سوسيولوجية الفن والآدب — بدراسات حول الموسيقيين
والكتاب .

ومما يكن من شيء فقد كان علم الاجتماع الأمريكي يكاد أن يكون وحيداً
في محاولته تنمية البحث في المنهجية كجال خاص في علم الاجتماع ، ومع أن
علماء الاجتماع الأمريكيين لم يخترعوا سوى القليل من طرق جمع وتحليل المادة
فمعز أن ما قبلت تلك الطرق كجزء من المنهاج السوسيولوجي ، كما أصبحت
تقبل محكاً أو معياراً يطبق أحياناً بطريقة خاطئة في تقييم وضع علم الاجتماع .

ولقد عمل علماء الاجتماع الأمريكيان مؤخراً — وقبل أن يكون ذلك بطريقة واعية — على تنمية علم الاجتماع الرياضى ، ويبرز هذا بصورة تستحق النظر فى محاولات هذا العلم لصياغة نماذج السلوك والتنظيم بوسائل رياضية ، أكثر مما يبرز فى الإضافات النظرية أو الجوهرية التى أضافها هذا الفرع فى علم الاجتماع العام .

ومع أن الجغرافيا البشرية قد استمرت فى النمو والتقدم فى البلدان الأوروبية — فقد نشأت بصفة أولية خارج علم الاجتماع . ولقد اتجه علماء الاجتماع الأمريكيان بطريقة أو أخرى إلى تنمية الايكولوجيا البشرية التى تهتم فى الكثرة مع الجغرافيا البشرية ، أما التقدم الوحيد القابل للمقارنة فى أوربا فقد كان فى مجال المورفولوجيا الاجتماعية . وقد كان هذا فى فرنسا بفضل دوركايم وحواريه مورييس هالفاكس Maurice Halbwachs

وحتى عام ١٩٤٠ كان علم الاجتماع الأمريكى يبدو وكأنه يضم هـدداً جوهرياً من مجالات البحث — بالإضافة إلى النظرية السوسولوجية ومناهج البحث — وكانت هناك جبهة تضم دراسات الجماعة المحلية ، ودالايكولوجيا البشرية ، وعلم الاجتماع الريفى ، وعلم الاجتماع الحضرى ، كأقسام رئيسية ، وكانت هناك جبهة أخرى تضم المشكلات الاجتماعية ، والعلاقات السلالية ، والفقر والعوز ، وجناح الأحداث كمجالات تخصصية هامة فى علم الاجتماع . ولقد ظهر علم النفس الاجتماعى المرضى كمجال خاص فى علم الاجتماع يهتم اهتماماً قوياً بالصحة العقلية ، وإن كان لا يلقى حالياً سوى القليل من العناية كما أصبح يعتبر نسبياً فى علم النفس الاجتماعى .

وكانت داليدجوجرافيا ، ودالعائلة ، تكونان المجالين الرئيسيين الآخرين بين

مجالات الاهتمام خلال الفترة التي سبقت عام ١٩٤٠ . كما تضمنت خطة علم الاجتماع مقررات أو موضوعات أخرى تغطي مجالات عديدة من الاهتمام السوسيولوجي، وكانت المقررات الرئيسية التي تتمتع بهذه الخاصية هي : والنظم الاجتماعية ، و د التنظيم الاجتماعي ، ، و د النفي الاجتماعي ، . وقد تكاملت موضوعات البحث في تلك المقررات بعد عام ١٩٤٥ مع تلك المجالات الخاصة بالجديدة التي عنى بها علم الاجتماع .

مجالات علم الاجتماع الأمريكي :

وحيث يمكن النظر إلى نمو مجالات الاهتمام في علم الاجتماع كمشكلة في سوسيولوجية المعرفة ، فإننا نجد أيضاً أنه بينما يكون وجود مشكلة معينة في علم الاجتماع نتيجة لنمو في النظرية والمنهج في هذا العلم . فإن هناك بالضرورة ظروف اجتماعية تحتم وجود المشكلة في المجتمع الذي يكون موضوع هذا العلم . ومثال ذلك أن مشكلات الهجرة في المجتمع الأمريكي - وغيرها من المشكلات الأكثر حدة كمشكلات الأقلية السوداء - قد أثرت بلا شك في نمو مجال العلاقات العرقية والعرقية في علم الاجتماع الأمريكي ، وذلك بأكثر مما فعلت نظرية الاتصال الثقافي ، أو نظرية العلاقات بين الجماعات ، . وبالمثل فإن الاهتمام القوي بالقيم في علم الاجتماع السياسي الأوربي - وسيطرة علم الاجتماع الماركسي في بلدان أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي - إنما يرتبط جذرياً بالتغيرات التي طرأت على الأنساق السياسية في تلك البلدان .

أما فيما يتعلق بأهمية الظروف والأحداث التاريخية في تحديد مجالات ومشكلات علم الاجتماع ، فقد كانت ذات تأثير أبعد مدى من أي تأثير آخر نتج عن النمو التراكمي في العلم ذاته ، كما أن من الطبيعي أن تؤثر المعطيات

المتاحة - لتقوى المشكلات في مجالات معينة في أى مجتمع - في الأمور النسبية بين المتخصصين في أى علم يعنى بتلك المشكلات والمجالات ، كذلك فإن تلك المصادر تتكون تبعاً للدلالة التاريخية لتلك المشكلات .

ولقد نما عدد مجالات البحث الخاصة في علم الاجتماع الأمريكى نمواً كبيراً لدرجة أن برنامجاً مقالياً للرابطة الأمريكية لعلم الاجتماع قد تضمن مقالات في نيف وأربعين مجالاً متمايزاً . وقد حصر السجل القومى للأفراد العلميين والفنيين في الولايات المتحدة ثلاثة وخمسين تخصصاً في علم الاجتماع - ولكن تلك التخصصات تجمع عادة في عدد أقل من مجالات البحث الواسعة - ويمكن وصف التنظيم الشائع لعلم الاجتماع الآن فيما يلى :

١ - النظرية ومناهج البحث السوسيولوجى .

٢ - التنظيم الاجتماعى متضمناً : النظم المقارنة التنظيم الاجتماعى المقارن - البناء الاجتماعى المقارن ، كما يعنى في بعض الأحيان بالمورفولوجيا الاجتماعية .

٣ - الجماعات الاجتماعية ، والديمقراطية ، والايكولوجيا البشرية ، وعلم النفس الاجتماعى كمبحث وسيط رئيسى تخصصى له برامج قوية في الأقسام الأكاديمية لعلم الاجتماع - أو كبرامج ملحقة بأقسام العلوم الأخرى - ويبقى بعد هذا كله اهتمام قوى بما يسمى الآن بوجه عام بعلم الاجتماع التطبيقي ، متضمناً التخطيط الاجتماعى ، والمشكلات الاجتماعية .

ولقد كان علماء الاجتماع يميلون باستمرار الى زيادة استلزام مشكلاتهم من النظرية السوسيولوجية ، وقادراً ما كانوا يفصلون بين النظرية والمنهج .

ومن ناحيته أخرى فقد اتجه علماء الاجتماع الذين اشتغلوا بتلك المجالات الوسيطة - وبعلم الاجتماع التطبيقي - أكثر فأكثر إلى تحديد أشكال تخصصاتهم في حدود المشكلات الجوهرية الأصلية في الاهتمامات السوسولوجية . ونجد اليوم أن أعمال علماء الاجتماع في علم الاجرام مثلا لا يمكن أن تغطي المجال كله وإن كانت تركز على سوسولوجية الجريمة التي تشمل مشكلات التفاعل بين الضحايا والجناة ، والطبيع الاجتماعي بالسلوك المنحرف أو السلوك الجنائي ، والجزاءات والتنظيمات الرسمية للاتفاق الجزائية ، كما اتجه علماء الاجتماع الذين اشتغلوا بعلم النفس الاجتماعي نحو الاهتمام بالمشكلات الجوهرية التي تدخل في صلب علم الاجتماع ، والتي تعنى بدور الطبيعة الاجتماعي وعلاقته البناء الاجتماعي والتنظيم الاجتماعي بالخصيصة ، وعلاقته النظم الاجتماعية بأصاق الشخصية ، وبمتغيرات التوافق والسلوك المنحرف . أما علماء الأيكولوجيا البشرية فهم يهتمون بشكل رئيسي بأصاق العلاقات المشتركة المنظمة ، وبتقسيم العمل وترتيبه ، وبنمو التكنولوجيا وتنظيمها . كما ازداد تحول علماء الاجتماع المهتمين بالدراسات الديموجرافية إلى مواجهه أسئلة عن كيفية مساعدة النظم الاجتماعية والبناء الاجتماعي في تحديد العمليات الأساسية للخصوبة ونسبة الوفيات والمرض ، كما في تحديد العمليات الثانوية كالهجرة والتمايز أو الاختلاف البنائي في قوة العمل ، وقد ازدهرت الديموجرافيا الصوريه والديموجرافيا المقارنة كمجالين تخصصيين متميزين .

وفي حدود تلك الأقسام الرئيسية في علم الاجتماع لم تكن مجالات النظم المقارنة ، والتنظيم الاجتماعي المقارن قد قسمت بعد إلى أقسام فرعية في مجالات تحليلية متبايزة ، وقد كانت هناك بعض المجالات التحليلية المتبايزة التي تنبثق إما عن اهتمام ببعض الخصائص التحليلية الرئيسية لوحدة التنظيم الاجتماعي أو

النظم الاجتماعية ، أو من اهتمام ببعض مجموعات من المشكلات في النظم والتنظيم الذي تنسق فيه تلك النظم .

واعل الاهتمام بالتغير الاجتماعى قد انعكس في دراسه الحلول الجمعى والحركات الاجتماعية ، أو في دراسة التنمية الاجتماعية والاقتصادية في الدول الحديثة ، كما نتج التخصص في مجالات الترتيب الاجتماعى والوظائف والامن من اهتمام أشد أصالة بالبناء الاجتماعى أو المورفولوجيا الاجتماعية كما ظهر التنظيم الرسمى والبيروقراطى كمجال تخصص فى التنظيم الاجتماعى المقارن .

وبعد فإن الهدف الكبير للاحاطه بالكتابات فى النظم وتنظيماتها — فضلا عن التنظيم الاجتماعى للبحث والتدريب الأكاديمى — قد دفع إلى مجموعات يكاملها من مجالات التخصص التى ترتكز على نظم معينة ، كما تعنى بانتظامها فى أنساق فرعية من المجتمعات . وبين أكثر تلك المجالات الخاصة شهرة كان الاقتصاد والمجتمع ، وعلم الاجتماع السياسى وعلم الاجتماع الصناعى ، وعلم النفس التعليمى أو سوسيولوجية التعليم ، وعلم الاجتماع القومى أو سوسيولوجية الدين ، وعلم الاجتماع الطبى أو سوسيولوجية الطب ، وعلم الاجتماع القسائونى أو سوسيولوجية القانون ، وسوسيولوجية الفراغ والرياضة ؛ وسوسيولوجية المعرفة التى تربطها جذور قوية بنظرية المعرفة وعلم الاجتماع معاً .

وبجانب هذا كله نجد هناك اهتماماً متزايداً فى مجالات تلافيفية معينة وربما ظهرت تلك المجالات كمباعدات وسيطة بين الفروع الرئيسية لعلم

الاجتماع ، حيث ونجد علم الاجتماع اللغوى ، ودسوسيولوجية الثقافة ، كما نجد ودراصة الثقافة الشعبية ، ومجال الانصالات الجواهرية والرأى العام . وقد عنى علم الاجتماع التطبيقى بالمجالات التقليدية لعلم الاجرام وجناح الاحداث ، كما كانت هناك مجالات أخرى أكثر جدة مثل الصحة العقلية والفقر والعوز ، وبعد مرور تلك الفترة التى شهدت تحولا نحو التركيز على الاصلاح الاجتماعى ظهر اهتمام خاص بالبحوث الامبريقية ذات الصلة بالمشكلات والسياسات والتنظييات الرسمية . وترتب على ذلك ان وجدت بحوث تأخذ فى اعتبارها التطبيقات العملية ، وذلك فى كل المجالات الرئيسة لعلم الاجتماع تقريبا .

أصول علم الاجتماع كعلم :

ولقد ظهر علم الاجتماع كبنية متسقة من المعرفة متأخراً بشكل أو بآخر بين المباحث العلمية الأخرى . وعلى الرغم من وجود اعتقاد بأن المشكلات الرئيسة فى النظرية السوسيولوجية قد تكررت فى كتابات العلماء والمتفكرين فى كل العصور . حيث ارتبطت تلك المشكلات بالبحث فى طبيعة الانسان فى تأثيرها بالسلوك الجمعى والنظام الاجتماعى بوجه عام . فلم تكن هناك وحتى وقت متأخر فى القرن التاسع عشر محاولات لتنظيم مسائل أو مشكلات علم الاجتماع كعلم يدرس المجتمع كنسق له مبادئ محددة فى تنظيمه وتغييره .. أو بقول أكثر تحديداً فى كونه محاولة متسقة لوصف وتفسير كيفية دخول القيم والمعايير فى التنظيم الاجتماعى ، كما هو محاولة لوصف وتفسير طريقة انتظام النظام فى المجتمعات ، وللقيمة التى تنغير بها تلك المجتمعات والتى تنغير بها أنساقها الفرعية المنظمة .

ولقد عولج علم الاجتماع بين العلوم فى ذاته كشكيلة فى علم الاجتماع ، أو

بقول آخر كم مشكلة في معرفسيولوجية المعرفة . ويمكن ارجاع الظروف المسببة لظهوره إلى التيارات الفكرية التي بدأت بعصر التنوير ، كما يمكن إرجاعها أيضاً إلى التغيرات الاجتماعية التي حدثت في القرن التاسع عشر - التي تولدت عنها مشكلات اجتماعية ، كما تولدت عنها أيضاً حركات اصلاحية . وقد وضعت تلك المظاهر من التقدم طبيعة المجتمعات وتغيرها تحت ضوء الفحص العلمي .

ويقرر ماكيفر في معالجته الموجزة لتاريخ علم الاجتماع في دائرة معارف العلوم الاجتماعية Encyclopaedia of Social Sciences أن ظهور علم الاجتماع قد جاء مع ادراك انه ليس هناك نسق للظواهر الاجتماعية قادر بطريقة أو أخرى على احتواء كل النشاطات والعمليات والاتجاهات المتنوعة في المجتمع . وقد تعمق هذا الادراك ذاته بتزايد مدى تعقد العلاقات الاجتماعية - الذي بدأ مع عصر المدنية الحديثة . وعلى هذا فإن ظهور علم الاجتماع كمبحث متمايز لم يكن موازياً بآية صورة محددة لظهوره كمبحث علمي يقوم ليس فقط على اعتبار ان المجتمعات تكون أنساقاً لها مبادئها الخاصة في التنظيم والتغير ، ولكنه يعتمد أيضاً على تطبيق المنهج العلمي وطرق البحث العلمي الملائمة - ان لم تكن الفريدة - في الدراسة الامبيريقية للمجتمعات .

ومع أن تلك الاهتمامات كلها كانت مقرررة بطريقة عامة في مؤلفات أوجست كونه وهي دروس في الفلسفة الوضعية Course de philosophie positive (١٨٣٠ - ١٨٤٢) ونسق السياسة الوضعية Systeme de politique positive (١٨٥١ - ١٨٥٤) ، فقد كان أوجست كونه بمثابة الاب الروحي أكثر من كونه الجدل الحقيقي لعلم الاجتماع ، حيث أعطانا اسمه ووضعيته كفلسفة ساعدت في تشكيل هذا المبحث الذي نطابق عليه : علم الاجتماع ، كعلم .

ولعلنا نجد الآن ان تصور أوجست كونت لعالم الاجتماع كعلم اجتماعى عام وخاص فى آن واحد - ونفريعه لمشكلاته . قد أصبح موضوعاً للاهتمامات التاريخية .. حيث عنى أوجست كونت بصورة رئيسية بالتنظيم السياسى والعمل للجمعية ، كما يفهم فى كونه المجموع الكلى للخبرة الانسانية والفكر الانسانى . كما اعتقد أوجست كونت فى تطور العقل البشرى أكثر من اعتقاده بتطور الصور والعمليات الجمعية ، ومن ثم فقد لجأ كونت للدفاع دون اثبات عن تطبيق ما أسماه بالمناهج الوصفية فى ترسيخ الاعتقاد بخضوع تطور العقل البشرى لقوانين محددة .

وحيث شهد القرن التاسع عشر فى اتجاهه الى نهايته ظهور علم الاجتماع كبحث خاص بين العلوم الاجتماعية ، فإن إرجاع ظهوره الى ظرف تاريخى معين - أو الى كتابات رجل معين - يعتبر بطريقة أو أخرى أمراً اعتباطياً . ولكن المرء يستطيع بنفس الدرجة من القوة الادعاء بأن علم الاجتماع - كعلم خاص فى المجتمع - كانت جذوره فى فرنسا ، وأن عالم الاجتماع الذى أعطى الجانب الأكبر فى ظهوره هو إميل دوركايم .

البحوث الاجتماعية كتقليد فى علم الاجتماع :

ونحن نصادف بأن ظهور علم الاجتماع كبحث خاص بين العلوم الاجتماعية قد تحقق فى القرن التاسع عشر ، نجد أن هناك تقليدين للبحث المدرسى يتلاحمان فى أعمال دوركايم: أحدهما هو تقليد البحوث الامبريقية ، والآخر هو للتوسع فى التصورات المجردة عن المجتمع . وأول ما ندر له أن يظهر من هذين التقليدين تمثل فى جمع المادة الاجتماعية وصياغتها فى صورة كمية باعتبارها ذات دلالة بالنسبة لمسائل الدولة ، وكان ذلك بمثابة بداية مبهكرة لعلوم السياسة . أما

التقليد الثاني — وهو لم يعتمد عن الصياغة الكمية — فقد كان معنياً بدرجة أكبر بملاحظة الحياه الاجتماعية وبترقية طرق جمع وتحليل المادة الاجتماعية .

ولقد تأصل تقليد الصياغة الكمية في البحوث الاجتماعية بجهود علماء الحساب السياسي الانجليز من أمثال الشيرين جـون جـرونت John Graunt ووليام بتي William Petty ، ونمو الاحصاء المعنوي في بلجيكا وفرنسا . وكان موضوع الحساب السياسي — كما يتضمن اسمه — هو الحصول على احصاءات وصفية تستخدم في السياسة العامة والادارة . ومما يكن من شيء فإن ظهور أنساق التأمين والنشاطات التجارية الأخرى ربما يكون قد وجه الاهتمام نحو العناية بأهداف أخرى غير الحاجات السياسية لذلك للنوع من الصياغة الكمية . وقد كان وصف سكان الجماعات المحلية والدول بين تلك الأغراض الاحصائية الأولى التي انشأت مباشرة ، ومن ثم فإن تقليد الحساب السياسي في إنجلترا قد ارتبط بطريقة مباشرة بنمو الديموجرافيا الحديثة — أكثر من ارتباطه بعلم الاجتماع كعلم خاص .

وكان النمو الرئيسي الثاني في التاريخ المبكر للصياغة الكمية فيما يسمى بالاحصاء المعنوي يعزى في العادة الى العالم البلجيكي أدولف كتييلية Adolphe Quetelet . ونجد انه على الرغم من أن أدولف كتييلية قد حظى باهتمام جمهور أكبر مما حظى رجل آخر ارتبط اسمه بالاحصاء المعنوي ، فإنه يمكن الاختلاف حول الادعاء بأنه كان الرجل الأول في هذا المجال .. حيث نجد مصطلح الاحصاء المعنوي — كما نجد كثيراً من العمل الاحصائي ليس فقط في مجال الجريمة ، ولكن فيما يتعلق أيضاً بالانتحار واللقطاء والظواهر المشابهة — يظهر في أعمال أندريه ديغوري شنيوب Andre de Gury Champneuf مدير قسم القضاء الجنائي في وزارة

العدل الفرنسية في الفترة من عام ١٨٢١ حتى عام ١٨٣٥ . وقد كانت هناك أعمال
سارت في نفس تلك الخطوط لمجون باتست فورييه Jean Baptiste Fourier
واندريه ديها-ابرول ديكروسول Andre de Chabrol de Crousol . وقد
تمثلت مساهمات هؤلاء العلماء في الدراسات الاحصائية خلال الفترة من عام
١٨٢١ حتى عام ١٨٢٩ في بحوث احصائية في مدينة باريس ومنطقة السين
Recherches statistiques sur la civile de Paris et la department de Seine
كما قام العالم الطبيعي الفرنسي الأب دو شاتليه Parent-Duchatlet — في نفس
الوقت — بإنجاز بحثه في الصحة العامة ، وقد كان بحثاً رائداً لدرجة من
المشهورات من نفس النوع كان أكثرها شهرة دراسته للغذاء التي ظهرت في عام ١٨٣٤
والتي تمثل أهمية باعتبارها إحدى الإضافات المبكرة في الايكولوجيا البشرية كما
هي إضافة في الاحصاءات المعنوية.

وإذا تفاضينا عن محاولة رسم الادعاءات فيما يتعلق بالاولويات ، فيجب
علينا أن نخلص من البيئات المتاحة إلى أن أكثر الاحمال الامبريقية في الاحصاءات
المعنوية كان في فرنسا .. وذلك بالمقارنة بما تحقق بلجيكا في هذا المجال. ولقد أدى
الاهتمام الذي اجتذبه تلك الاعمال إلى تعريف المثقفين الفرنسيين بالبحوث
الامبريقية في الحقائق الاجتماعية ، حيث ألهم الأب دو شاتليه مثلاً في إنجاز
عمل أصيل في جمع وتحليل مادة حول العلاقة بين تلك الاصول الاجتماعية
لبغايا باريس واختيارهن لهذه المهنة . وربما كان من نتائج ذلك التقدم الذي
تم إحرازه في فرنسا أن يألف دوركايم تقليد البحث الكمي مثلًا في الاحصاءات
المعنوية أكثر من ألفه بإنجازات الحساب السياسي .

وكان الفرع الرئيسى الثانى في البحوث الامبريقية التي تأصلت بوضوح في
فرنسا مرتبطاً بأعمال فريدريك لبلاي Fredric le Play الذي كان مسج اهتمامه

بشكل واضح بالهياغة الكمية قد نجح في اختراع طرق في جميع وتحليل المادة غير الكمية . وحيث يمكن القول بأن شهرة فريدريك لبلاى ترجع إلى تركيزه على الملاحظة الامبريقية للحياة الاجتماعية المعاصرة - وبوجه خاص إلى دراساته في ميروانيات الأسرة - فقد كان لبلاى كثير العناية بتمهيد المؤشرات الاجتماعية ، وبمفاهيم التفسير التي ظهرت في تحليل المادة الاجتماعية .

ومع ما يتمتع به لبلاى من أصالة عميقة ، فلم يكن لأعماله أثر مباشر في نمو علم الاجتماع كعلم خاص في فرنسا . ويبدو أن السبب الرئيس لذلك يكمن في حقيقة أن لبلاى كان شديد الانتماء بحركته الإصلاحية الخاصة التي اتخذت وجهة نظر محافظة في المجتمع ، كما كانت محافظة أيضاً في البحث الاجتماعي . وقد أسس أتباع لبلاى مجلة تحمل ذلك الاسم المعهود في العلم الاجتماعي ، Science sociale ، ولكنهم أخيراً انقسموا إلى فريقين أحدهما كانت له نزعة إصلاحية واضحة ، وكان الآخر أكثر توحداً بمنهج لبلاى . وفي غضون ذلك احتل دور كايم وضعاً مهيمناً في علم الاجتماع الفرنسي ، وقد يرجع هذا في جانب منه إلى كون دور كايم كمضو فعال في تلك الجماعة الناهضة من المثقفين الفرنسيين الذين حققوا نجاحاً في مسألة دريفوس Drefus .

تقليد النظرية العوسميولوجية :

وكان التقليد الرئيس الآخر قبل دور كايم يشمل في الفكر العوسميولوجي أو بقول آخر أكثر تحديداً يشمل في تنميه النسورات المجردة عن المجتمع ، وقد دار البعض منها بحكم الصنعة إلى حد بعيد . ويمكن هنا أن نعطي ثباتاً بالانتماء بالختمية الجغرافية من أمثال فريدريك راتزل Friedrich Ratzel وبكل T. Buckle والداروينيين الاجتماعيين من أمثال هربرت سبنسر

وسنر W.G. Sumner ، وأصحاب النظرية المضوية مثل شافيل A. Schaeffle وليلينفيلد P. Lillienfeld ورينيه ورمز Rene Worms ونوفيكو J. Novicow كما أن هناك بعض شخصيات الاعلام الآخرين من أمثال إنجلز Engels وماركس الذين كانوا أشد انصافاً وتوحداً طوال حياتهم بالمذاهب الشيوعية أو النظريات الاقتصادية ، وذلك بصورة أبدت من عنايتهم بتنمية علم الاجتماع في ذاته . وقد جاء تأثير ماركس في تهكيل النظرية السوسيولوجية بعد وفاته بصورة رئيسية في وجود ماكس فيبر Max Weber الذي حقق مجموعة من المشكلات السوسيولوجية ، كما تمثل أيضاً في التقدم الذي حققه علم الاجتماع الماركسي الذي تطلب مقررأ واسعاً متمايزاً .

ويمكن القول بأن كل هؤلاء الكتاب الأوائل تقريباً قد فشلوا إما في تمييز علم الاجتماع كعلم خاص في دراسة المجتمع ، أو في أن يتخذوا من مركزه العلمي مشكلة يبحثونها . وحتى إذا كان القرن التاسع عشر قد شهد كتاباً يدافعون عن قضية علم الاجتماع كعلم خاص في دراسة المجتمع ، فقد بقي دوركايم أن يقرر وأن يصل هذه القضية بطريقة فعالة ، وذلك عن طريق إدماج العناصر العلمية واتخاذها مشكلة في هذين التقليدين الذين سبقت الإشارة إليهما .

دوركايم وعلم الاجتماع العلمي :

لقد نظر كثير من علماء الاجتماع إلى دوركايم على أنه قد أنشأ علم الاجتماع العلمي من خلال بحوثه الامبريقية الكمية في الانتحار التي اتجه فيها إلى رؤية معدلات الانتحار كظواهر سوسيولوجية ، قبل كونها ظواهر سيكولوجية . ولكن فقد كان في الامكان الادعاء بصورة أيضاً بأنه قد أنشأ علم

الاجتماع العلمى من خلال بحوثه التاريخية غير الكمية - ومشاكلها كتاباته فى الدين . ولقد كان المنهج - وايسر الصياغة الكمية - هو الذى يمثل القضية المركزية بالنسبة لدور كايم الذى عني بوجه عام ببحث المشكلات النظرية الاساسية فى دراسة التنظيم الاجتماعى الانسانى ، كما عني ببحث المنهج الذى لا مندوحة عنه فى مثل هذا البحث . ولما كان علم الاجتماع من وجهة نظر دور كايم هو دراسة للحقائق الاجتماعية ، فلا يجب أن ننسى ان موضوع رسالته لنيل الدكتوراه التى كتبها باللغتين الفرنسية واللاتينية هو قواعد المنهج فى علم الاجتماع . وقد أوضح فى مقدمته لهذا العمل العلمى أنه يعتبر أسلافه قد فشلوا فى التقدم إلى أبعد من تلك التعميمات الفجة فى طبيعة المجتمعات أو فى العلاقة بين الجوانب الاجتماعية والجوانب البيولوجية والاتجاه نحو التقدم . ويذهب دور كايم فى الواقع إلى أبعد من ذلك فيقول أن علماء الاجتماع وقد قنعوا بالمقارنة بين امكانيات الاستدلال والاستقراء فى محاولتهم لإجراء فحص ظاهرى لأكثر الوسائل والمناهج عمومية بين يدي الباحثين السوسيولوجيين ، فهم لم يحددوا نوع المحاذير التى يجب أن تؤخذ فى الاعتبار حين نقوم بملاحظة الحقائق - وفى الاعتماد على طريقة معينة تصاغ بها المشكلات الرئيسية ، وفى تحديد الاتجاه الذى يجب أن يتخذه البحث والمناهج المحددة للعمل .. والتى قد تساعد البحث فى الوصول إلى نتائج .

ومهما يكن من شئ فإن القول بأن دور كايم قد نجح فى جعل علم الاجتماع علماً خاصاً - وذلك بنض النظر عن كونه قد اعتبره علماً اجتماعياً تليفيقياً خاصاً - مع اتخاذ مقالاته فى علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية بيئة على هذا القول لا يزال يعتبر قضية تقبل المناقشة والجدل . وفصلاً عن هذا فلم يكن دور كايم يرضى بشكل واضح عن محاولاته الخاصة ، ويبرز هذا إلى حد بعيد

فى محتويات مجلة حوليات علم الاجتماع تصنيف البحث فى هذا الحقل ، ومع هذا فهو لم يكف عن تلك المحاولات سواء حين كانت تتمثل فى تصور علم الاجتماع كدراسة للورفولوجيا الاجتماعية ، أو كانت تمثل فيما بعد فى تحليل المجتمع فى حدود أنساق مشتركة من القواعد والقيم الاخلاقية . وكنتيجة اذلك فقد أقامت كتابات دوركايم المشكلات الرئيسية فى علم الاجتماع الحديث وذلك بالمعنى النظرى والمنهجى على حد سواء .

ويخلص دوركايم إل ان دراسته تتطلب منهجاً توليدياً أو مقارناً حيث يقول ان علم الاجتماع المقارن ليس فرعاً معيناً فى علم الاجتماع ، وانما هو يكون علم الاجتماع ذاته ، وذلك إلى الحد الذى يتكشف فيه ليبقى علماً وصفيّاً . بحثاً يستلهم حصر الحقائق . ولكن ما لم يتنبأ به دوركايم يتمثل فى أن الحوار حول المنهج كان بعيداً عن الاستقرار ، ليس فقط لأن تلك المجادلات القديمة قد استمرت ولكنها قد اتخذت صوراً جديدة ، فنذ زمن بعيد وقد انخرط علماء الاجتماع فى مجادلات حادة حول المناهج الامبريقية الأكثر اتفاقاً مع الحاجات السوسيولوجية ، وحول مركز علم الاجتماع كعلم ، وحول دور الصياغة الكمية فى البحوث السوسيولوجية .. ولكن سرعان ما تكافأت تلك الاتجاهات — التى سارت خلالها هذه المعركة — كأوضاع جدلية .

الدراسات الامبريقية المبكرة :

قبل أن تأخذ فى اعتبارنا ذلك الجدل الكلى حول المنهج السوسيولوجى ، فقد يكون من المفيد أن نعرض بإيجاز لتاريخ البحوث الاجتماعية الكمية فى البلاد المختلفة ، حيث انها تتعلق بنمو علم الاجتماع . ومع انه لا توجد دراسة تاريخية شاملة للبحوث الاجتماعية الكمية — سواء بوجه عام أو فيما يتعلق بعلم

الاجتماع بوجه خاص - فان هناك عدداً من الخصائص التي عولجت مع ظهوره ونموه في بلاد معينة .

ألمانيا

لقد قال أوبرشال Oberschall بنائية في عام ١٩٦٥ انه قد كان هناك الكثير من البحوث الاجتماعية الكمية في ألمانيا خلال الفترة من عام ١٨٤٨ حتى عام ١٩١٤ ، ولكن ذلك الوضع قد افنقر إلى الاستمرارية وأخفق في الاستقرار على صورة نظام سواء في الجامعات أو حتى في تلك المنظمات مثل منظمة علم الاجتماع السيامي Verien fur Social Politik ، ومن ثم فإن البحوث الكمية وعلى الرغم من محاولات ماكس فيبر وغيره من علماء الاجتماع في القرن العشرين لم تصبح جزءاً لا يتفصل في نمو علم الاجتماع في ألمانيا . ولقد ساق أوبرشال كثيراً من الحجج على هذا الاخفاق ووجد أن السبب الجذري يكمن في التراث العقلي الألماني حيث تسلط أو سيطرة النزعة التاريخية وتركز الفلاسفة المثالية التي أثمرت اتجاهاتاً جديدة وظاهراتياً تجاه الظواهر الاجتماعية .

كذلك لم ينجح علماء الاجتماع الألمان أيضاً في تنمية تقاليد في البحوث الاجتماعية الكمية إلى حد ما لأن علم الاجتماع الألماني لم ينتظم إطلاقاً كبحوث محدد ، كما ان علماء الاجتماع الأكاديميين الألمان من أمثال تونيس Tonnies وماكس فيبر قد فشلوا في تخطي المناخ القيمي العدائي للجامعة والتغلب على جمود زملائهم والافتقار إلى المصادر التي تتيح لهم السير بعيداً في محاولاتهم تشييع البحوث الامبريقية كجور في الخطة العلمية للجامعة . وربما يكون هؤلاء العلماء قد فشلوا أيضاً لأن محاولاتهم الخاصة في تلك البحوث الامبريقية كانت

١٠٠

تعتبر فاشلة بالمقارنة إلى الانجازات التي تحققت في دراساتهم التاريخية والنظرية .

فرنسا

ولقد عرض لازارfeld Lazarsfeld للتقاليد الكمية القوية في الديموجرافيا الفرنسية وفي مدرسة لبلاي ، ولكن عناصر الإصلاح الاجتماعي التي تضمنتها مدرسة لبلاي قد فصلتها في المدى الطويل عن علم الاجتماع كبحث خاص ، كما كان تلاميذ لبلاي أكثر ميلا إلى نقد أسنادهم منهم إلى تنمية منهجه وطرقه في البحث . فضلا عن هذا فلم يتوحد أتباع لبلاي ومجلتهم المعروفة بمجلة العلم الاجتماعي Science Sociale أبداً وبأى معنى كلى بالنسق الجامعي الفرنسي ، وقد ساهم ذلك الوضع أيضاً في الاتجاه إلى التخلي عن مدرسة لبلاي .

وليس من الواضح معرفة الأسباب التي لم تجعل للبحوث الكمية التي قام بها دوركايم أثراً بعيداً في تنمية علم الاجتماع الفرنسي ، حيث كان هناك القليل في علم الاجتماع الفرنسي الذي اتخذ صورة كمية والذي يخرج عن مجال الدراسات الديموجرافية . وقد استمر هذا الوضع لسنوات بعد الحرب العالمية الثانية ، بل أننا لا نجد حتى الآن جماعة ذات تأثير في فرنسا تؤكد على المصياغة الكمية في علم الاجتماع ، وهذا يصدق أيضاً مع تلك التفسيرات العديدة التي لم يكن أحدها مرضياً بصورة كلية . وحيث من الحقيقي أن دوركايم قد أنجز القليل من العمل الكمي الهام في الوقت الذي كان فيه علم الاجتماع الفرنسي في سبيل التكوين ، ولكن خلال تلك الفترة نشرت دراسة كمية لموريس هالفاكس Maurice Halbwachs في « الانتعاش » ، كانت أكثر طرانة من وجهه النظر الإحصائية - حين تقارن بدراسة دوركايم في الموضوع ذاته .

كما نشرت رسالة أخرى لفرانسوا سيمياند Francois Simiand تصنف في فرع القياسات الاقتصادية ، وفحصا عن هذا كله فإن التقدم السريع الذي حققته الدراسات التكنولوجية في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الفرنسية قد ساعد على تحقيق نمو في الاتجاه الكمي .

انجلترا

تختلف حالة البحوث الاجتماعية الكمية في إنجلترا عنها في فرنسا بشكل أو بآخر . وقد ارتبطت تلك البحوث الكمية بأواخر القرن التاسع عشر وبأعمال شارلز بوث Charles Booth وسيبوم راوترى Seebohm Rowntree ، واستمرت تلك البحوث الكمية حتى الوقت الحاضر لتتساقط ببطء وبثبات إلى قلب تقاليد البحوث الاجتماعية ، وبوجه خاص من خلال تنمية طريقة المسح الاجتماعي . ولقد بذل كل من بيانريس وسيدنى ويب Beatrice and Sidney Webb وبصورة جدئية خلال ذلك الارتباط المبكر بين بيانريس ويب وشارلز بوث — كثيراً من الجهد والمثابرة في جعل للبحوث الاجتماعية في إنجلترا أساساً للسياسة العامة . وقد كتبت بيانريس وسيدنى ويب في أوائل الثلاثينيات من هذا القرن تعريفاً لا يزال يعتبر مرجعاً في مناهج البحث الاجتماعي ، يبرز أهمية الطرق الكمية ، كما يبرز أهمية طريقة الملاحظة في البحوث الاجتماعية .

ولقد أثرت طرق الاحصائيين الانجليز في الاعتماد على المعينات في البحوث الاجتماعية في إنجلترا ، قبل أن تكون لها نفس الطليعة والفعالية في الولايات المتحدة . ومع هذا كله فقد حتمت البحوث الاجتماعية في إنجلترا تقديمها بصورة أولية خارج الجامعات ، وفي استقلال تام عن علم الاجتماع . كما اننا نجد في الواقع أن عدداً قليلاً من الإدارات الحكومية والمؤسسات الخاصة قد

اختص وحده تقريباً بكل البحوث الاجتماعية الامبريقية في انجلترا بعد عام ١٩٣٠ ، كما انه لم تكن هناك أية بحوث اجتماعية كمية بصورة جوهرية في الجامعات البريطانية حتى الخمسينيات من القرن الحالى ، وذلك فيها عدا مدرسة الاقتصاد في لندن Loden School of Economics التى احتضن فيها علم الاجتماع الاكاديمى وبناثير بياتريس وسيدنى ورب بعض البحوث الاجتماعية الكمية .

الولايات المتحدة

واقعد كان من الصعب حتى نهاية القرن التاسع عشر التنبؤ بكون علم الاجتماع الكمي خايق بأن يحقق أعظم تقدم له فى الولايات المتحدة . والواقع انه ليس من الواضح كلية فى الوقت الحاضر الاسباب التى كانت ستؤدى إلى هذا الوضع الحالى ، حيث لم تكن الظروف المسبقة التى أحاطت بهذا التقدم كلها ظروفأ مشجعة ، وذلك لأنه على الرغم من الانجاء المبكر نحو إحصاءات وأنساق الحصر العام التى تمتخضت عن بعض الإحصاءات — فقد كان هناك تركيز أقل على البحوث الاجتماعية الكمية فى الولايات المتحدة ، وذلك فى نفس الوقت الذى اكتسب فيه علم الاجتماع مركزه الاكاديمى بها ، وذلك قبل أن يتحقق هذا فى انجلترا أو فرنسا أو ألمانيا أو إيطاليا .

واقعد كان هؤلاء الرواد من علماء الاجتماع من أمثال إيستروارد Lester F. Ward — الذين يستندون إلى أرضية من العلوم الطبيعية — يبدون قليلا من العناية بالبحوث الامبريقية ، كما كان الآخرون من أمثال سمنر Sumner يهتمون بصورة أولية بمقارنات ثقافية أو تاريخية عامة متفقين فى ذلك مع طريقة سبنسر Spencer . وعلى الرغم من أن رسالة كولي Cooly لنيل

درجة الدكتوراه كانت بحسباً إمبريقياً رئيسياً فى موضوع النقل ، فسرمان
ماحقق شهرة باهتمامه بفن الاستبطان والملاحظة المنعكسة أكثر من اهتمامه
بالبحوث الإمبريقية .

ولقد ظهرت خلال تلك الفترة — وبطريقة أو أخرى — بعض الدراسات
الإحصائية التى يرعاها علم الاجتماع الأكاديمى ، كما تضمن برنامج تدريب
تلاميذ فرانكلين جيدنجوز Franklin H. Giddings فى جامعة كولومبيا مدخلا
فى الإحصاء ، وكانت إحدى أوائل الرسائل العلمية إلى جامعة كولومبيا دراسة
إحصائية تقدمت بها أدنا فيبر Adna F. Weber فى موضوع نمو المدن فى
العالم خلال القرن التاسع عشر . وقد تضمن العدد الأول من المجلة الأمريكية
لعلم الاجتماع مقالا فى الإحصاءات السكانية لوالتر ويلكوكس Walter Willcox
وقد كان هذا المقال فاتحة لسلسلة طويلة من المقالات فى هذا المجال .

ولكن مع هذا كله فقد كان نمو تقبل علم الاجتماع الأكاديمى فى
الجامعات يعتبر أكثر أهمية من أى مؤلف معين فى تقدم علم الاجتماع الإمبريقى
فى الولايات المتحدة الأمريكية . وحيث كان نيل الدرجات العليا يتطلب
كتابة رسائل — وذلك سواء لنيل درجة الماجستير أو الدكتوراه — فسرمان
ما أصبح تلك الرسائل التى قدمت فى علم الاجتماع تكون مضبوطة للبحوث
الإمبريقية فى الحياة الاجتماعية المعاصرة . ومع أن تلك الدراسات التى قام بها
طلاب تلك الدرجات العلمية العليا لم تكن بالضرورة دراسة كمية — كما أنها
لم تكن فى بدايتها عادة ما تتضمن تحليلات كمية — فقد كانت مع ذلك دراسات
إمبريقية بالمعنى الواسع للكلمة عنيت ببحوث أصيلة فى بعض جوانب الحياة
الاجتماعية .

وحيث كانت هناك محاولات تبذل عادة لتأسيس تلك الدراسات على نظرية هامة فى الحياة الاجتماعية فقد كانت أكثر ميلا إلى الاستناد على الكتابات والبحوث التى أجريت بالفعل مولعة لتقليد أصيل فى البحوث الامبريقية ، ولو أن ذلك لم يؤد إلى نمو تراكمى فى بنية المعرفة العلمية . كما أننا نجد من ناحية أخرى أنه مع أن الكثير من تلك الدراسات الامبريقية المبكرة كان شديد الاتصاف بحركات الاصلاح الاجتماعى والتقدم الاجتماعى فى المجتمع الأمريكى .. فهى لم تكن متقاربة فى أى نموذج للبحوث المقارنة ، كما كانت غالبية تلك البحوث أكثر ميلا نحو عدم العناية إلا بحالة ، أو جماعة ، أو تنظيم ، أو حركة اجتماعية ، معينة .

وجاهات نظر مختلفة حول علم الاجتماع :

يكاد انتشار علم الاجتماع فى الولايات المتحدة يصاحبه فى نفس الوقت نمو اهتمام بالغ بمركزة كعلم . وقد كان هناك إلى جانب من حاولوا إثبات علمية هذا المبحث آخرون ساقوا الحجة على أنه لا يستطيع أن يكون كذلك . وحيث كانت المجادلات بنفس الحرارة فى كلا الجانبين ، فقد كانت بطريقة أو أخرى تنطوى على تنافس غير متكافئ .. وذلك لأن الجماعة التى كانت تنادى بعلمية البحوث السوسيولوجية تقوى من وضعها بقبول انجساح امبريقى قوى حقق نجاحاً متزايداً فى صياغة المادة الاجتماعية فى صورة كمية — كما نجح فى اختراع طرق ملائمة للبحث — وذلك فى نفس الوقت الذى كان فيه معارضون من الناحية الأخرى لا يتوفرون لهم من قليل ليعطوه سوى دعاوهم المؤيدة لتقليد الفلسفى التاريخى .

وبالأكيد حيث لم يكن علماء الاجتماع الأمريكيون وحدهم فى هذا الجدل

ولكن الخطوط كانت مرسومة بصورة أكثر وضوحاً في الولايات المتحدة . ويرجع ذلك في جانب منه إلى أن تلك الدولة تضم عدداً من العلماء الاجتماع يزهد عن عدد من أي بلد آخر ، كما يرجع أيضاً إلى أن هؤلاء العلماء الأمريكيين كانوا منخرطين في مزيد ومزيد من البحوث الامبريقية . وقد بدا ظاهراً ابعض الوقت ان الجدل أو الدفاع في جانب البحوث الامبريقية المتسقة يكاد يكون أكثر أهمية من استخدام تلك البحوث في أعمال هؤلاء المدافعين أنفسهم . ولهذا فقد دافع عالم الاجتماع الايطالى الشهير فيلفريدو باريتو Vilfredo Pareto في مؤلفه بعنوان : «رسالة في علم الاجتماع العام» باقتناع في جانب تنمية علم اجتماع ينأى عن كل الاحكام القيمية ، ويعتمد بدلاً منها على المنهج المنطقي التجريبي ، وذلك في نفس الوقت الذى ظلت فيه مناقشاته للبقايا والاصول كبواعث حية في علم الاجتماع الايطالى ، كما كانت نظريته المهيمنة في دورة «الصفوة» التى تقوم في الدرجة الاولى على مادة اجتماعية ذات طبيعة تهويرية وقصصية .

ومنذ العشرينيات من القرن الحالى بدأت المحاورات بين علماء الاجتماع الأمريكيين — حول المنهجية أو المناهج وطرق البحث المناسبة للبحوث السوسيولوجية — تعجب الجدل حول وضع النظرية السوسيولوجية . وسرعان ما نما اسقطاب للأوضاع والأشخاص في تلك المحاورات التى كان المتحدثون الرئيسيون في جانب منها هم علماء الاجتماع الذين تدرّبوا في أوروبا من أمثال : بتريم سوروكين P. A. Sorokin وفلوريان زنانيكى Florian Znaniecki ، وكان في الجانب الآخر علماء الاجتماع الذين تدرّبوا في أمريكا وكان المنحدث الرئيسى باسمهم هاجورج لندبرج George Lundberg وسجوارت

دود *Sturrd Dodd* يؤيدهما كل من وليام أوج-برن *W. F. Ogburn* —
الذى كان يتمتع بصوت أكثر هدوءاً ، مع أنه كان مؤلفاً مشهوراً في الدراسات
الكمية — وتلميذه صموئيل ستوفر *Samuel A. Stouffer* .

وقد زعم سوركين وزنايسكى ان للعلوم الاجتماعية هي علوم ثقافية ، كما
ادعى سوركين أن الظواهر الاجتماعية للثقافية-وهي تختلف بصورة جوهرية
عن الظواهر الطبيعية الكيميائية أو الظواهر البيولوجية - إنما تقوم على ثلاثة
مكونات رئيسية هي :

أ — المعايير غير المادية التي لا يحددها مكان أو زمان .

ب — الأشياء المادية التي تجسم المعاني .

ج — الكائنات البشرية التي تنتج وتعمل وتستخدم وتضع تلك المعاني
موضع العمل بمساعدة الأشياء المادية .

كذلك فزعم سوركين أن نماذج السبب والاثـر القائمة في العلوم
التقليدية لا تنطبق على الظواهر الاجتماعية الثقافية ، لأن أعضاء الرتبة الاجتماعية
الثقافية إنما تربطهم معاً المعاني الثقافية وليست الخصائص الجوهرية . . ومن ثم
فإن العلوم الاجتماعية الثقافية تتطلب منهجية خاصة تعتمد على العملية المنطقية أو
المنهج التكاملي . ويرى زنايسكى أيضاً أن العلوم الثقافية تختلف عن العلوم
الأخرى بسبب العامل الانساني - الذي يلتزم بالقيم والمعاني المحددة ثقافياً -
كما يدعى أيضاً بأن المنهج المناسب لعلوم الاجتماع هو المنهج الاستقرائي التحليلي .
واقـد شهدت هذه الفترة أيضاً حواراً بين علماء الاجتماع عن بعض المسائل
الفلسفية الكلاسيكية . التي تدور حول المسـئـولـة الطبيعية الاسمية أو الحقيقية للعقائد

الاجتماعية، والتي تتسائل عما إذا كان علم الاجتماع قد تخلى عن الإرادة الحرة بتبني الحتمية الاجتماعية .

ولكن فقد كان ذلك الخط الذي فصل بين الاوضاع المختلفة في ذلك الجدل حول المنهج السوسيولوجي لا يبين كثيراً عما إذا كانت المادة الاجتماعية يجب أن تصاغ في صورة كمية — أم أنه ليس من الضروري أن تتخذ تلك الصورة وذلك كاختيار بين أسس منطقية متنايزة في تعيين علاقات العلة والثار بين المخبرات السوسيولوجية . ومن وجهة نظر أولئك النقاد من أمثال سوروكين وماكيفر *Mc Iver* وروبرت ليند *Robert S. Lynd* فإن المدرسة الكمية مع ميلها نحو الاحصائيات — وبخاصة فيما يتعلق بمنهج الارتباط — وانجذابها إلى الاعتماد على الطريقة التجريبية أو التجارب الطبيعية التي تعقبها . ومن وجهة نظر نقدية أيضاً كان من الخطأ تطبيق منطق جون ستيوارت ميل *J. S. Mill* على الظواهر الاجتماعية . ومن ثم فلم يكن سوروكين رافضاً لصياغة المادة الاجتماعية في صورة كمية ، واسكنه كان رافضاً لمنطق يتوقف عند نماذج معينة للتحليل الكمي .

ولقد أبدى ماكيفر شكوكاً مشابهة لشكوك سوروكين ، مدعياً أن التعامل الاجتماعي — وذلك على العكس من التعامل الطبيعي أو البيولوجي — يتضمن صلة اجتماعية نفسية . كذلك فقد هوجم أنصار الصياغة الكمية — كما أخذوا يعرفون بذلك — هجوماً يستند إلى مقومات أخرى ، حيث وجدوا مثلاً بأنهم يختبرون فروضاً تولوجية بسيطة ، أو بأنهم شغولون ببحث مشكلات هزيلة فيما تتضمنه من مساهمة في تكوين النظرية السوسيولوجية . ولقد كان مؤلف *الموسوم بالمعرفة لماذا ؟ Knowledge for What ?* الذي صدر

عام ١٩٣٩ صرخة استنكار ضد تلك القابليات وغيرها في العام الاجتماعى الأمريكى خلال العشرينيات والثلاثينيات من القرن الحالى .

علم الاجتماع منذ الحرب العالمية الثانية :

انقسمت أرض المعركة ابتداء من عام ١٩٤٥ بطريقة أو بأخرى إلى مجادلات حول الطبيعة الاجرائية في علم الاجتماع ، وحول مقاييس اختيار النماذج التحليلية في البحث الاجتماعى . ولكن تلك المجادلات لم تصبح أبداً ذات صورة استقطابية كتلك المجادلات التى شهدتها فترة ما قبل الحرب . وبينما قوبل دخول علم الاجتماع الرياضى فى المجال بالهشك من كثير من علماء الاجتماع ، فقد أثار كثيراً من الجدل الحاد فى ذلك البحث ككل ، وأن كنا نجد اليوم فى الواقع كثيراً من علماء الاجتماع الذين يتكلمون عن آثار التفاعل بالمعنى الاحصائى والمعنى النظرى معا .

وربما كان المانع الهام فى استمرار ذلك الجدل خلال هذه الفترة هو تقاضى الفصل بين النظرية والمنهجية فى علم الاجتماع . ويرجع هذا بصورة جزئية إلى ما قام به تالكوت بارسونز *Talcott Parsons* لدفع النظرية السوسيولوجية إلى الاستناد على الفحص السوسيولوجى . وسواء قبل علماء الاجتماع نظرية بارسونز أو لم يقبلوها ، فقد أصبحوا أكثر وعياً بمدى أهمية تلك النظرية لأبحاثهم . وقد أصبح روبرت مертون *Robert Merton* المعبر الرئيسى عن التكامل بين النظرية السوسيولوجية والفحص الامبرىقى ، كما عمل المنادون الجدد بالصياغة السكمية فى علم الاجتماع من أمثال بول لازارفيلد *Paul F. Lazarsfeld* ولويس جرتمان *Louis Guttman* فى اتجاه تحقيق تكامل أكبر بين نماذج التحليل السكمى والنظرية السوسيولوجية : وفضلاً عن

هذا كله فإن البحوث الامبريقية في علم الاجتماع قد نهضت بطريقة أو أخرى ومن ثم فإن عدداً متزايداً من الدراسات قد انبثق مباشرة عن مشكلات في النظرية السوسيولوجية أكثر منه عن اهتمامات عملية آتية . كما كانت تلك الدراسات أكثر استغرافاً في إجراءاتها للتكنيكية بالمقارنة بما تم من دراسات سابقة .

وقد كانت هناك بحوث امبريقية رئيسية معينة كرسّت لمشكلات في النظرية السوسيولوجية ، وبالمثل فقد أُرِكت آثاراً يجب أن تؤخذ في الاعتبار فيما يتعلق بفترة ما بعد الحرب مباشرة — وبخاصة فيما يتعلق بدراسات توماس *Thomas* وزنانيكى *Znaniecki* ، وتلك الدراسات التي قامت في مدرسة شيكاغو بإشراف برجس *Burgess* وروبرت بارك *Robert Park* خلال العشرينيات من هذا القرن . وتعتبر دراسة الجندي الأمريكى ، التي تقسج في مجلدين — والتي أشرف عليها ستوبفر *Stogdoffer* وزملائه التي صدرت عام ١٩٤٩ — والتي جماعت ثمرة لمائة سنوات عديدة من البحوث التي قام بها علماء اجتماعيون في فرع الأبحاث في جيش الولايات المتحدة — تعتبر بلاشك كنموذج رئيسي لعصرها يعبر عن كينمية إلمسكان تكامل النظرية السوسيولوجية والبحوث والتحليلات الكمية الامبريقية . كما نجد نفس هذا الطراز في دراسات أخرى هندية للعوامل الاجتماعية والسيكولوجية المؤثرة في الخصوبة البشرية قامت بإشراف ويلبتون *P. K. Welpton* وكلايد كايزر *Clyde Kiser* ، وقد أعادت تلك الدراسة إلى الأذهان أهمية البحوث الديموجرافية . كما كانت هناك دراسة مؤثرة إلى حد بعيد في نفس تلك الفترة لآردورنو *Ardorne* وزملائه موضوعها التخصية المسيطرة *The Authoritarian Personality* ، وكانت مع غيرها من الدراسات الرئيسية الأخرى في موضوع التحامل *Prejudice*

معبرة عن تحول في علم النفس الاجتماعي نحو الاهتمام بالدراسة الامبريقية للعلاقة بين الشخصية والبناء الاجتماعي ، وهو مجال كان قد تعرض للاهمال بعد أعمال توماس وزنايمكي . ومع أن تلك الدراسات كلها كانت فيما بعد موضوعاً قد أعيد تقييمه بطريقة سلبية ، فقد كانت بلا شك مؤثرة إلى حد بعيد في تشكيل بحوث علماء الاجتماع الأمريكيين في فترة ما بعد الحرب .

تجاهل النظرية الماركسية :

كانت الماركسية والمذاهب الاشتراكية الأخرى ذات تأثير رئيسي في علم الاجتماع الأوربي خلال الثلاثينيات والاربعينيات من القرن الحالي . ولعل امدادية التاريخية التي يقوم عليها الفكر الماركسي قد عاقت نمو علم الاجتماع الامبريقي في أوربا خلال تلك الفترة . ولكي نجيب على سؤال يتعلق بالاسباب التي تقوم وراء كون ماركس كان له تأثير محدود في الولايات المتحدة ، نجد أن علم الاجتماع الأمريكي بالتأكيد قد اتسم بسمات الالفة بمشكلات علم الاجتماع الماركسي ، ولكننا من ناحية أخرى نجد أنه حتى كتابات وليام أوجسبون Ogburn و ليند Lynd - ومؤخراً كتابات رايت ميلز G. Wright Mills التي يبدو أنها تدين بدين عقل الماركس — بأكثر مما تدين كتابات معظم علماء الاجتماع الأمريكيين الآخرين — لم تكن كتابات في علم الاجتماع الماركسي ؛ ولقد استمر تأثير ماكس فيبر ودوركايم في نمو علم الاجتماع الأمريكي ليبقى أعظم بكثير من تأثير ماركس في هذا العلم .

وهناك عدد من الاسباب في أن علم الاجتماع الماركسي لم تتوفر له أبداً فرص النمو في الولايات المتحدة ، وربما كانت الحجة القريية في هذا تتمثل في أن المناخ الايديولوجي والسياسي للولايات المتحدة كان مناخاً عداًئياً تجاه

مثل ذلك النمو ، وبالتأكيد فإن الماركسية لم تلق أبدأ في الولايات المتحدة التشجيع الذي احببته نموها في البلاد الأخرى ، ولكن هذا يفسر بصعوبة تجادل الماركسية بين أعضاء التخصص السوسيولوجي في أمريكا - الذين اعتبروا أنفسهم من المثقفين ، وربما أمكن إرجاع ذلك - كما اقترح ميلز - إلى أن الأصول الاجتماعية لعلماء الاجتماع الأمريكيين قد حالت بينهم وبين تلك الاهتمامات . ومع ذلك فقد أصبح كثير من المثقفين بعلم الاجتماع من جيل ميلز ذوي معرفة واسعة بماركس والأفكار الماركسية في شبابهم . وربما كان ميل علماء الاجتماع الأمريكيين منذ أوائل العشرينيات من هذا القرن نحو الانخراط في علم الاجتماع المبريق - أكثر من ميلهم اتخاذ موقف نظري أيديولوجي معين - يعتبر أكثر أهمية بين تلك الأسباب .

وفي نهاية هذا التحليل نجد أن علماء الاجتماع الأمريكيين ، وإن كانوا يوافقون على أن بعض المشكلات الرئيسية في علم الاجتماع يمكن أن تعالج في ضوء الفكر الماركسي ، فإن تلك الموافقة تنصرف فقط على جانب معين من تلك المشكلات دون الجوانب الأخرى ، حيث أن علم الاجتماع بالنسبة لهم هو علم يمكن أن تخضع فيه النظرية للاختبار لأنها تقدم بمشكلات ليست مغلفة على البحث المبريق . وفي حدود هذا التصور فإن علم الاجتماع الماركسي وكل تقاليد المادية التاريخية تبدو بطريقة أو أخرى موضوعة قديمة من وجهة نظر هؤلاء العلماء .

ظهور علم الاجتماع العلمي :

قد يؤكد علماء الاجتماع أن الإجابة عن سؤال هما إذا كان علم الاجتماع قد وصل إلى مرتبة العلم الخاص تعتبر في ذاتها مشكلة تتطلب بحثاً سوسيولوجياً

ولكن هناك أسماً يقوم عليها الادعاء بأننا في الواقع نجد أن هذا العلم قد اكتسب تلك المرتبة في المجتمع الأمريكي . وفحصنا عن هذا فإنه يبدو واضحاً بطريقة معقولة — على الأقل في بعض مجالات علم الاجتماع — أن المعرفة العلمية المكتسبة من خلال البحث العلمي هي ذات خاصية تراكمية . وبالمثل ، فإنه من الواضح أن تقلص مدى المشكلات المتعلقة بالأهمية النوعية للنظرية والمنهجية السوسيولوجية قد جعل من الممكن تكاملها معاً بشكل أشد التصاقاً .

وفحصنا عن هذا كله فإن علماء الاجتماع والمشتغلين بعلم النفس الاجتماعي قد قاموا — وبإنجاح — بتنمية معاهد البحوث التي يسرت التدريب على البحوث والمنهج الدراسية . ومثال ذلك فقد أنشئ مركز البحوث الاجتماعية التطبيقية في كولومبيا *Bureau of Applied Social Research at Columbia University* ، ومعهد البحوث الاجتماعية في جامعة ميتشيجان *Institute for Social Research at the University of Michigan* الذي تبعه مركز البحوث المسحية *Survey Research Center* ، ومركز بحوث ديناميات الجماعة *Research Center for Group Dynamics* ومركز بحوث الرأي القومي في جامعة شيكاغو *National Opinion Research Center at University of Chicago* وكل تلك المكاتب أو المعاهد أو المراكز تحت جميعها في المراكز الرئيسية للبحوث السوسيولوجية ، وقدمت نماذج لتنمية المراكز الأصغر في الجامعات الأخرى . وعلى الرغم من أن تكاليف إجراء البحوث قد ارتفعت بشكل حاد ، فإن توفر التخصصات أو المنهج الخاصة قد ساعد علماء الاجتماع على النهوض بأعمالهم كعلماء .

وبإثناء من عام ١٩٦٠ تلقى معظم طلبة الدراسات العليا في الجامعات

الأمريكية دعماً مالياً يمكن مقارنته بذلك الذي يتلقاه طلبة العلوم التقليدية . وقد أصبح علم الاجتماع بعد فترة انتظار وجيزة يكون جانباً في برنامج المؤسسة القومية للعلوم ، وقد ألحق منذ فترة طويلة بقسم العلوم السلوكية في المجلس القومي للبحوث *Behavioral Sciences Division of National Research Council* ومنذ عام ١٩٦٧ أصبحت العضوية الموقرة في الأكاديمية القومية للعلوم *National Academy of Sciences* تنتظر علماء الاجتماع الأمريكيين ، وبذلك فقد أزيلت كل العوائق أمام احتلال المهنيين بعلم الاجتماع لمرتبة التخصص المهني .

وبالتأكيد فإن تأويل علم الاجتماع بعلم النفس في ذلك المجال الذي أصبح يعرف بعلم النفس الاجتماعي قد أثر في نمو علم الاجتماع الأمريكي كعلم . وفي الوقت ذاته فإن علم النفس أيضاً قد قام إلى حد بعيد بتشكيل علم الاجتماع الأمريكي ، وذلك لأن مناهج هذا العلم — علم الاجتماع — قد تكييفت بدراسة الممثلين الأفراد أكثر من انساقها مع دراسة المحتوى أو المجال التنظيمي الذي تقع فيه أدوارهم . وقد جاءت النماذج الرئيسية الأخرى للصياغة الكمية من الديموجرافيا وعلم الاحصاء اللذين ساهما أيضاً في تشكيل خصائص علم الاجتماع ، حيث كان تطبيقهما في دراسة التجمعات الاجتماعية أكثر سهولة منه فيما يتعلق بدراسة العلاقات بين خصائص التنظيمات . وقد كانت البحوث الاجتماعية في ميادين النظم والتنظيم الاجتماعي المقارن لهذا كله أقل إظهاراً للجدل التكميلي ، وذلك بالمقارنة بما أظهرته تلك الميادين الوسيطة في الديموجرافيا وعلم النفس الاجتماعي . ولقد أصبح محور علم الاجتماع — وهو النظم الاجتماعية وتنظيمها — هو الذي يعمل على تنمية مناهج بحثه الخاصة .

علم الاجتماع كبـحث أكاديمي :

لقد كانت الولايات المتحدة أول الدول التي تمنح مقررأ جامعيأ رسمياً يؤدي للحصول على درجة الدكتوراه في علم الاجتماع . وكان نمو علم الاجتماع كبـحث متميز بطيئأ في جامعات الدول الأخرى . كما لم يعرف بلد آخر قبل الولايات المتحدة مصأ لمقرر رسمي في علم الاجتماع في الأقسام الأكاديمية أو الكليات في نسق التعليم العالي . وفضلا عن هذا كله فإنه في الولايات المتحدة وحدها انتشر مقرر رسمي في علم الاجتماع في المناهج الدراسية في المرحلة قبل الجامعية .

وبالتأكيـد فإن الجامعات الأخرى خارج الولايات المتحدة قد عرضت بصورة أو أخرى مقررات في علم الاجتماع سواء من خلال النسق الذي كان شائعأ في جامعات القارة الأوروبية — والذي كان يسمح بمحاضرات يلقيها باحثون بصفتهم الخاصة المستقلة عن تلك الجامعات — أو من خلال ما كان يتحقق بالصدفة من إنشاء كرسي لعلم الاجتماع معالم شهير . كذلك فكثيرأ ما كان أستاذ في الاقتصاد أو التاريخ أو القانون أو الاقتصاد السياسي أو الفلسفة يلقى مقررأ في علم الاجتماع ، وإن كان ذلك المقرر لم يكن عادة يلقى تحت هذا الاسم . ولقد كان جورج سيمل *George Simmel* هو الوحيد الذي نال درجة الأستاذية في الفلسفة وقد ظل لفترة خمسة عشر عاماً يشغل وظيفة ليس لها مرتب ثابت من الجامعة ، كما كان قائماً على أساس الاستثناء . وقد كان ماكس فيبر *Max Weber* وباريتو *Parato* أستاذين في الاقتصاد ، أما دوركايم — وهو من الأوربيين القلائل الذين حصلوا لقبأ أكاديميأ في علم الاجتماع طوال القرن التاسع عشر — فقد كان أستاذاً لعلم الاجتماع والتربية في جامعة باريس .

الولايات المتحدة

ولقد تحقق وجود أول مقرر رسمي في منهج يسمى علم الاجتماع في الولايات المتحدة عام ١٨٧٦ في جامعة ييل ، حيث ألقى وليام جراهام سمر *William Graham Sumner* ذلك المقرر . ومع ذلك فإن سمر — وسبق وقائه في عام ١٩١٠ - كان يحتل مركزه في جامعة ييل كأستاذ في العلوم السياسية والاجتماعية . ولقد قام لوثر برنارد *Luther L. Bernard* ، وألبين سمول *Albion W. Small* وجيسي برنارد *Jessie Bernard* — في مناقشتهم للمقررات الموسيولوجية في الولايات المتحدة — بعرض لخصائص المناهج الأولى في علم الاجتماع ، والاشارة إلى الانقسام الأكاديمية الرائدة التي خصصت لهذا العلم . ولقد أنت الفترة ما بين عام ١٨٨٩ وعام ١٨٩٢ بمقررات رسمية في علم الاجتماع إلى ثمان عشرة كلية جامعية وجامعة في الولايات المتحدة ، ولكن فقد بقى لجامعة شيكاغو عند افتتاحها في عام ١٨٩٣ أن تنشئ أول قسم أكاديمي في الولايات المتحدة ، يقوم فيه عمل علمي يؤدي لنيل درجة الدكتوراه في علم الاجتماع .

وحيت كانت المقررات في علم الاجتماع تنشأ في البداية غالباً في أقسام مشتركة أكثر من وجودها في أقسام مكرسة بصفة كلية لهذا العلم ، كما كانت تلك المقررات ترتبط أبعد ما يكون بالاقتصاد ، ثم بالتاريخ الذي يأتي في الدرجة الثانية وتفصله مسافة بعيدة عن الاقتصاد . الذي كانت تلك المقررات ترتبط به في الدرجة الأولى — فإنه يمكن القول بوجه عام أنه في الوقت الذي كان فيه علم الاجتماع غير مؤهل ليحتل مركزه كقسم علمي مستقل أو مشترك ، فقد كان هذا العلم يدرس بوجه عام في أقسام الاقتصاد والتاريخ والفلسفة والعلوم السياسية أو الأقسام العامة للعلوم الاجتماعية .

وعلى الرغم من حقيقة أن أول قسم لعلم الاجتماع في جامعة شيكاغو كان قسماً مشتركاً لعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا ، فإن الأنثروبولوجيا لم تكن مرتبطة بشكل عام بعلم الاجتماع في تلك الفترة المبكرة - وإن كان علم الاجتماع في الواقع قد أضاف الأنثروبولوجيا إلى روافده - ولهذا فقد تأسس مع مجيء العشرينيات من هذا القرن عدد محترم من أقسام علم الاجتماع والأنثروبولوجيا ، كما كان في مجيء منتصف العقد العدايع من هذا القرن علاج بطريقة أو أخرى لسلك تلك المشاركات الأكاديمية ، وقد نجحت الأنثروبولوجيا في اكتساب مركزها كباحث أكاديمي منفصل .

ومع بداية العقد الثاني من القرن الحالي كانت غالبية الكليات والجامعات في الولايات المتحدة تعطي مناهج في علم الاجتماع ، ولكن التأسيس الفعلي لأقسام منفصلة لعلم الاجتماع قد حدث بمعدل أكثر بطءاً . وفي عام ١٩٦٠ كانت في غالبية الجامعات والكليات الأمريكية أقسام لعلم الاجتماع - وحيث كان ٧٠ ٪ منها فقط هو الذي يمنح درجة الدكتوراه في علم الاجتماع ، فقد كان عدد برامج الدراسات العليا في علم الاجتماع في الولايات المتحدة أكبر من عدد تلك البرامج في كل الدول الأخرى مجتمعة .

ولقد ظهرت ظروف على درجة عالية من الأهمية أدت إلى استقرار علم الاجتماع كباحث أكاديمي في الولايات المتحدة إلى درجة أبعد مما هي عليه في أي بلد آخر . وكان أول هذه الظروف يتمثل في أن علم الاجتماع في الولايات المتحدة كان موجهاً نحو اهتمامات عملية منفعية « براجماتية » ، كما كان موجهاً نحو اهتمامات نظرية وفلسفية . وعلى الرغم من أن أواصر الصلة والاعتماد المتبادلة التي قامت بين علماء الاجتماع والمصلحين الاجتماعيين لم تكن سهلة في بعض الأحيان ،

فقد ظل علم الاجتماع الأمريكى يعنى إلى حد بعيد بتسمية علم امبريقى يعتمد على بحوث فى المشكلات الاجتماعية . ولقد كانت الأعداد الأولى من المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع *The American Journal of Sociology* — وعلى العكس تلك الأعداد فى حورية علم الاجتماع الفرنسية *L'annee Sociologique* — مكرسة إلى حد بعيد لعلم الاجتماع التطبيقى ، كما هى مكرسة لعلم الاجتماع النظرى أو علم الاجتماع العلمى .

ويتمثل العامل الرئيسى الثانى بلا شك فى النمو السريع الذى حققه التعليم الجامعى العام فى الولايات المتحدة عقب الحرب العالمية . ومع ذلك التوسع السريع فى الجامعات الذى بدأ منذ عام ١٨٩٧ فقد قل — بلا شك — الضغط على الإدارات الجامعية لى تقصر درجات الأستاذية على المباحث المستقرة ، كما قل الضغط على الأساتذة لى يتنافسوا على اجتذاب التلاميذ الذين توفر الكثيرون منهم . وفى الواقع بينما كان هناك بعض الكراهية بين العلوم الاجتماعية الأخرى نحو علم الاجتماع فى الجامعات الأمريكية — كما كان هو الحال فى الجامعات الأوروبية — فإن تنظيم الجامعات الأمريكية فى صورة أقسام تتمتع بالاستقلال الذاتي إلى حد بعيد قد جعل من الممكن لتلك الأقسام أن تضيف مقررات فى علم الاجتماع إلى معطياتها الأخرى . وأيضاً فقد كان اتولى سبعة — على الأقل — من رؤساء الجامعات الأمريكية أعباء المحاضرة فى مقررات رسمية لعلم الاجتماع فى تلك الجامعات نفس تلك الأهمية فى تثبيت واستقرار علم الاجتماع كبحوث أكاديمى منفصل فى الولايات المتحدة .

ولعل التنظيم الإدارى للجامعات الأمريكية كان له نفس الأهمية فى تلك النقطة ، حيث تتوفر لدينا بينات واضحة وغزيرة على أن فصل الإدارة الجامعية

عن الرقابة المباشرة للكلية — بما تضمنه من أقسام أكاديمية — في الجامعة الأمريكية قد يسر دخول موضوعات جديدة تتضمن علم الاجتماع في الخطة العلمية لتلك الجامعة .

وفضلاً عن هذا كله ربما كان هناك عامل آخر ذو دلالة في نمو علم الاجتماع الأمريكي يتمثل فيما ترتب على الصورة التي انتظم فيها ذلك العلم في تلك الجامعات الأمريكية ، والتي تضمنت الاعتماد منذ وقت مبكر تماماً في تدريس ذلك المنهج على كتب أو مراجع مقررّة ظهر أولها عام ١٨٩٤ . وقد كان كتاب سمول *Small* وفيانصنت *Vincent* من قديم الاجتماع في جامعة شيكاغو وعنوانه : « مقدمة لدراسة المجتمع » ، *An Introduction to the Study of Society* ، وتلاه في عام ١٨٩٦ كتاب فرانكلين جيدنج *Franklin Giddings* وعنوانه : « مبادئ علم الاجتماع » ، *Principles of Sociology* وقد أثرت تلك الأعمال وغيرهما في تدريب عدد كبير من طلبة المرحلة الجامعية الأولى في علم الاجتماع ، كما ساعدت في تأهيل بعضهم على التدريب على الدراسات العليا في هذا المجال . وحيث يعتبر تحديد المرجع أو الكتاب المقرر في الواقع علامة مميزة في المرحلة الجامعية الأولى في الولايات المتحدة — وذلك على الرغم مما يبدو من تنوع أو تشتت بين اتجاهات المؤلفين — فإن الكتب المقررة تعتبر عنصراً هاماً في تقنين المبحث العلمي .

وقد سجل علماء الاجتماع الأمريكيان — بعناية — تقدم علم الاجتماع الأكاديمي ونموه كعلم وتخصص منفى . ونجد بين الكتب الرئيسية التي تتضمن مسيحاً لذلك التقدم تلك التي قام بنشرها سمول *Small* (١٩١٦) ، وويرث *Wirth* (١٩٤٨) وأودم *Odum* (١٩٥١) ، وبيرنادر وبيرنارد *Bernard*

واحد يؤرخ اظهور وتقدم علم الاجتماع كبحث أكاديمي في الاجزاء الأخرى من العالم سوى كتاب جورفيتش ومور *Gorvitch and Moore* — الذي صدر عام ١٩٤٥ بعنوان : علم الاجتماع في القرن العشرين *Twentieth Century Sociology* ، والذي يعرض البحوث مختصرة عن أصول ونمو علم الاجتماع في البلاد الرئيسية .

إنجلترا

ولم يكن التقدم الذي حققته المقررات الخاصة في علم الاجتماع على صورة واحدة سواء في القارة الأوروبية أو إنجلترا أو روسيا أو الدول الشرقية أو أمريكا اللاتينية ، وكانت بعض الكراسي أو الوظائف تضاف من وقت لآخر في جامعات متنوعة ، لكن حتى الحرب العالمية الثانية كان جل التركيز في التهيئات في وظائف المشتغلين بعلم الاجتماع الأكاديمي في الولايات المتحدة وألمانيا .

وعلى الرغم من النجاح الباهر الذي حققه سبنسر *Spencer* في جعل علم الاجتماع مألوفاً ليس فقط في إنجلترا ، ولكن أيضاً في الولايات المتحدة — حيث كانت كتبه هي الكتب الأكثر مبيعاً بها .. وعلى الرغم من الانجازات العظيمة لبحوث بوث *Booth* ومايو *Mayhew* ، والنحايـلات المقارنة الرائدة لموهـاوس *Hobhouse* وزملائه (١٩١٥) ، فإن علم الاجتماع الأكاديمي قد تقدم بكثير من البطء في إنجلترا . وربما كان أحد الأسباب التي طأقت تقدم علم الاجتماع فيها يتمثل في ذلك الاستمرار الناجح الذي حققته الأنثروبولوجيا الاجتماعية في الجامعات البريطانية ، وبصورة خاصة من خلال أعمال رادكليف براون *A. R. Radcliffe-Brown* ومالينسكي

Bronislaw Malinowski ، وقد حدد الأول مجالها على أنه علم الاجتماع المقارن .

ويدعى عالم الاجتماع الأمريكي إدوارد شيلز *Edward Shils* في كتابه الذى ظهر عام ١٩٦٠ - الذى حاول فيه تقصى الأسباب التى تكمن وراء فشل علم الاجتماع فى تحقيق استقراره فى الجامعات البريطانية خلال النصف الأول من القرن العشرين - أن السبب الاساسى كان يكمن فى رفض الصفوة الأكاديمية البريطانية إثارة أسئلة حول الحياة المعاصرة فى إنجلترا . وحيث كانت تلك الصفوة التى تكوّنت فى أكسفورد وكمبريدج تتمتع بقدراتها على دعم ذاتها والالتحاق على نفسها - وحيث أن وجودها قد قام على التحديد للامتياز والطبقة - فهى لم تكن فعالة فى تشجيع ظهور علم اجتماع قد يقوم ببحوث نقدية فى المجتمع الذى أنبته ، هذا ولم تكن تحيط بالأنثروبولوجيين البريطانيين من الناحية الأخرى تلك الهاذير فيما يتعلق بدواستهم للسكان البدائيين فى أقاليم المستعمرات البريطانية .

فرنسا

ومع أن المبشرين بعلم الاجتماع كـونفيسكيه *Montesquieu* وغيره من الموسوعيين من أمثال أوجست كونت - الذى يعتبر الأب الروحى لعلم الاجتماع - وكثير من العلماء المصهورين الأوائل من المشتغلين به مثل ألفرد إسبيناس *Alfred Espinas* وفريدريك لبلاي *Fredéric Le Play* كانوا من المثقفين الفرنسيين ، فإن علم الاجتماع كان غير موثوق به إلى حد بعيد فى الدوائر الأكاديمية الفرنسية . ولقد بقى لدوركايم أن يحقق لعلم الاجتماع مركزه الجامعى من خلال تلك المحاضرات التى أنشئت له أولا فى جامعة بوردو

University of Bordeaux عام ١٨٨٧ ، ثم بعدها فى جامعة السوربون
التي دعى إليها عام ١٩٠٢ . وقد رجح هنرى بير Henry Bayre القول بأن
مقاومة علم الاجتماع فى الدوائر الأكاديمية الفرنسية — كانت مركزة إلى حد
أنه من المحتمل القول بأنها كانت حلة ذلك الحاس الاعترافى بكتابات دوركايم .

وقد كان علم الاجتماع الأكاديمى فى فرنسا — وكما كان هو الوضع فى
بريطانيا وإلى حد ما فى الولايات المتحدة خلال العقدين الأولين من هذا
القرن — وثيق الصلة بالانثروبولوجيا وقد كان هذا العلم هو الطرف المسيطر
فى تلك الثنائية القائمة بين علم الاجتماع والانثروبولوجيا فى الولايات المتحدة ،
أما فى فرنسا — كما فى إنجلترا — فقد كان العكس صحيحاً ، ونتج عن ذلك
أن تطور علم الاجتماع الأكاديمى بهجرة أشد بطءاً . ولكن مع هذا كله فقد
نجح دوركايم فى إعداد أوراق الاعتماد الأكاديمى لمجالات سوسيولوجية
معينة يمثل الرئيس منها فى علم الاجتماع التعليمى « سوسيولوجية التعليم » ،
وعلم الاجتماع الدينى « سوسيولوجية الدين » ، وعلم الاجتماع القانونى
« سوسيولوجية القانون » ، وعلم الاجتماع الاقتصادى « سوسيولوجية
الاقتصاد » . ومع أن علم الاجتماع التاريخى والفلسفى انتشر بهذه الطريقة
بين هديد من كليات الجامعات الفرنسية ، فإن علم الاجتماع الكلى قد بقي
مركزاً إلى حد بعيد خارج الجامعات ، وفى عدد من المعاهد التي كان أغلبها
يكون بطريقة أو أخرى قسماً من نسق التعليم العالى الفرنسى ، ولهذا كله فقد
هناك بوجه عام شىء من الاتصال والتداخل أيضاً بين علم الاجتماع الأكاديمى
فى الجامعات وبين علم الاجتماع فى المعاهد الفرنسية .

ألمانيا

توحى النظرية البرانية بأن علم الاجتماع في ألمانيا قد افتقر إلى الاعتراف التام والتأييد والدعم الذى ناله هذا العلم في انجلترا والولايات المتحدة من خلال ارتباطه باسم سبنسر . وبينما أصبح علم الاجتماع في وقت مبكر موضوع عناية العلماء الذين احتلوا كراسى في الجامعات الألمانية الرئيسية ، لكنه بقى مبهماً إنسانياً أكثر من كونه كبحث علمي ، كالم يلقى تأييداً واسماً حتى بين المشتغلين بالإنسانيات . ومع هذا فقد كانت ألمانيا — وبصورة أوسع بما هي عليه في بلد آخر — هي التي أنجبت خلال القرنين التاسع عشر والعشرين كتاباً في علم الاجتماع ، كان لهم تأثير رئيسي في النظرية السوسيولوجية الحديثة من أمثال تونيس *Tonnies* ، وسيمل *Simmel* ، وماكس فيبر *Max Weber* ، وكارل مانهايم *Karl Mannheim* . ولقد كانت الاتصالات الأكاديمية بين هذه المجموعة من العلماء وبين الجامعات الألمانية — ولأسباب متنوعة — اتصالات رقيقة أو محدودة بطريقة أو أخرى . وكان ماركس هو المثقف المتجول الذى جعلته آراؤه السياسية قابلاً لتصحيحة العيش في المنفى معظم حياته . ولم يزل زيمل *Simmel* مرتبة الاستاذية في الفلسفة من جامعة برلين سوى في أواخر حياته ، وقد يعود ذلك لأنه كان يهودياً كما كان ماركس أيضاً . وقد حضر فيبر في جامعة هيدلبرج *Heidelberg* بصورة متقطعة ، وكان ذلك إلى حد بعيد بسبب مرضه ؛ كما أصبح مانهايم لاجئاً من النازية وأنهى حياته العلمية في مدرسة الاقتصاد بلندن . ونجد بين تلك المجموعة الفريدة تونيس *Tonnies* وحده الذى قضى كل حياته الأكاديمية في جامعة بألمانيا هي جامعة كييل *University of Kiel* . ورغم أنه كانت هناك فرص للعمل أمام علماء الاجتماع في معظم

الجامعات الألمانية قبل عام ١٩٣٣ ، فقد كانوا وكأنهم يميلون إلى احتلال كراسي في الاقتصاد السياسي أو الفلسفة ، بنفس الصورة التي يميلون بها إلى احتلال كراسي في علم الاجتماع . ولم يبرز مركز قوى للبحث السوسيولوجي في داخل نسق الجامعات الألمانية ، ويرجع ذلك إلى ظروف متعددة - تتمثل في التقاليد الجامعية ، والتنظيم الجامعي الألماني ، وطبيعة البحث السوسيولوجي بين علماء الاجتماع الألمان - وقد أنتجت تلك الظروف إلى جعل علم الاجتماع الأكاديمي محصوراً في دائرة صغيرة تتكون من الاستاذ ومساعديه .

وبلا شك فقد طأ نمو علم الاجتماع الأكاديمي في ألمانيا من الاضطرابات القائمة في داخل المجتمع ، بأكثر مما عانى هذا العلم ذاته في الدول الأوروبية الأخرى . وابتداء من عام ١٩٣٣ كانت معظم الجامعات الألمانية بها مقررات تؤهل لنيل درجات علمية في علم الاجتماع ، ومن ثم فإنه منذ ذلك الوقت أيضاً كان هناك عدد جوهري من علماء الاجتماع الألمان الشباب الذين تم تدريبهم ، ولكن معظمهم تقريباً قد هرب خلال سنوات قليلة بعد ظهور الحكم النازي ، ومن بين هؤلاء العلماء الشباب شخص واحد هو ليوبولد فون فيزي *Leopold von Wiese* الذي بقي في الجامعة الألمانية ، وأصبح واحداً من علماء الاجتماع الرئيسيين في ألمانيا خلال العشرينيات من القرن الحالي ، ولكنه بدأ وكأنه متعاون بطريقة أو أخرى مع النظام النازي .

وفي خلال عشر سنوات من اندسار الحكم النازي أعاد علم الاجتماع تثبيت أركانه في الجامعات الرئيسية في ألمانيا الغربية . وكانت الكراسي في تلك الجامعات يشغلها في الغالب علماء الاجتماع الذين هربوا خلال الفترة النازية ، والذين كانوا يفتقرون إلى الدراية العميقة بعلم الاجتماع الكمي . ومن ثم فقد تكيفوا

جميعاً — مع استثناءات قليلة — بارتياح مع التقاليد الفلسفية والتاريخية في علم الاجتماع الألماني .

اسرائيل

لم يزدهر علم الاجتماع في دولة من الدول الصغرى في العالم كما ازدهر في اسرائيل ، ولقد كان نمو هذا العلم في الحقيقة مساوياً لنمو دولة اسرائيل . وقد قام أحد المثقفين الهنأخين الموسويين الذين كانت لهم جولات بين حدود المباحث العلمية وهو مارتن بـ *Martin Buber* — بتأسيس قسم الاجتماع ، كما تولى رئاسته في الجامعة العبرية وقد عمل تليذ بـ النجيب صمويل أرنشبات *Shammuel Eisenstadt* على تنمية تقاليد يقوم على المزاوجة بين الدراسات النظرية والبحوث الامبريقية في الجامعة العبرية ، كما كانت هناك مدرسة قوية في علم الاجتماع التطبيقى في اسرائيل . وكان أحد علماء الاجتماع الذين تلقوا تدريبهم العلمى فى أمريكا — وهو لوى جوتمان — مـضراً فعالاً فى المهـد الاسرائيلى للبحوث الاجتماعية التطبيقية فى القدس . وقد كان معظم علماء الاجتماع الاسرائيليين على صلات وثيقة بالخبراء والزعماء فى الحكومة الاسرائيلية ، ومن ثم فعالباً ما كانت البحوث الاجتماعية فى اسرائيل مرتبطة بالقرارات السياسية . وبلا شك فإن بعضاً من هذا الولاء الوثيق بين علم الاجتماع والسياسية الاجتماعية فى اسرائيل إنما يرجع إلى صغر حجم هذا البلد ، ومن ثم فقد كان المثقفون فى الجامعات الاسرائيلية أكثر انصافاً فى ارتباطهم بحكومتهم ، كما صاهم فى التقاليد العبرية أيضاً فى تكوين تلك العلاقة .

روشيا

ظهر علم الاجتماع كبحث أكاديمي في روسيا مع انتهاء قسم العلوم الاجتماعية في موسكو ، الذي تضمن كرسيًا في علم الاجتماع ، وقد ألغى هذا القسم عام ١٩٢٤ . وعلى الرغم من وجود بعض البحوث الامبريقية التي قام بها بعض علماء الاجتماع الروس الثقبان ، فإن علم الاجتماع كان حتى تلك الفترة معتمداً إلى حد بعيد على الفلسفة والتاريخ ، وسرعان ما أصبح علم اجتماع ماركسي . كما لا بد من ملاحظة أن علم الاجتماع قد أصبح خلال الفترة السوفيتية في التاريخ الروسي واقعاً تحت الرقابة المباشرة للفرع الايديولوجي في الحزب الشيوعي ، وأن علم الاجتماع السوفيتي كعلم ماركسي يدرس بشكل واسع في داخل الجامعات الروسية وخارجها ، وذلك مع أنه حتى وقت قريب لم يكن يتمتع باعتراف أكاديمي أو جامعي خاص ، حيث أنه حتى عام ١٩٦٦ على الأقل كان معظم علماء الاجتماع في الاتحاد السوفيتي يحاضرون ويقومون ببحوث في كليات الفلسفة أو المعاهد الأخرى .

اليابان

ولقد دخل علم الاجتماع في مقررات الجامعة الامبراطورية في طوكيو تقريباً في نفس الوقت المبكر الذي دخل فيه هذا العلم لائحة مقررات أية جامعة أمريكية . وقد جاء الفيلسوف الأمريكي إرنست فينولوزا *Ernest Fenollosa* إلى الجامعة الامبراطورية بطوكيو عام ١٨٧٨ ، وألقى محاضرات في علم الاجتماع تعتمد على كتابات هيربرت سبنسر . كما أنشئ كرسي لعلم الاجتماع في تلك الجامعة أيضاً في عام ١٨٩٣ . أما قبل الحرب العالمية الثانية فإن المراكز الرئيسية لعلم الاجتماع الأكاديمي في اليابان كانت في طوكيو وكيو تو - وكانت

كل منها تمثل مدرسة متباينة في الفكر السوسيولوجي — فقد اعتبرت مدرسة طوكيو أكثر ميلا إلى الاتجاه الامبريقي بالمقارنة بمدرسة كيوتو التي اعتبرت مدرسة صورية وفينومينولوجية « ظاهرة » .

الهند

ولعل التأخر النسبي في وصول علم الاجتماع إلى الجامعات الهندية يعكس الاتجاه الفلسفي الاساسي للثقافة الهندية الذين كانوا يواجهون عام لا يحترمون فكرة علم الاجتماع الامبريقي ، فقد كانت هناك مقاومة في النسق الجامعي لمحو إقامة علم الاجتماع على هذه الصورة ، كما يمكن القول بصورة قاطعة بأن تلك المقاومة قد أثارها بناء الخدمة المدنية في الجامعات الهندية .

ولم يدخل علم الاجتماع كنسج في أية جامعة هندية قبل سنة ١٩١٧ ، حينما بدأ قسم الاقتصاد بجامعة كلكتا في منح هذا المنهج . وقد ظلت تلك الجامعة — التي تضم حوالي مائة ألف طالب — فيما فيهم طلبة الاقسام التي تطبق نظام الانتخاب — حتى وقت كتابة هذا المقال — وليس بها قسم اعلم الاجتماع . وقد أنشأت جامعة بومباي أول قسم هندسي في علم الاجتماع عام ١٩١٩ . وكانت كل بحوث الدكتوراه في علم الاجتماع عام ١٩٦٥ مركزة تقريبا في جامعات بومباي ودلهي وآجرا *Agra* وبارودا *Baroda* ولسكنو *Lucknow* ، في نفس الوقت الذي لم تكن فيه جامعة كلكتا أو مدراس تقوم فيها برامج بحوث تمهد لنيل تلك الدرجة ، كما لا تزال غالبية الجامعات الهندية تفتقر خططها العلمية إلى مقررات في مستوى الدراسات العليا تؤهل لنيل درجات جامعية في علم الاجتماع .

أمريكا الجنوبية والوسطى

ولقد كان البناء السياسي — كما كان المناخ السياسي في جمهوريات أمريكا الجنوبية بمثابة عوائق نحو تقدم علم الاجتماع كبحث أكاديمي، ونحن لانزال نجد في كل تلك الجمهوريات تقريباً وحتى وقت كتابة هذا المقال أن كراسي علم الاجتماع تنشأ في كليات القانون والفلسفة أو العلوم الاجتماعية، ونادراً ما تنشأ في مدارس علم الاجتماع. — ومع ذلك أن هناك كثيراً من التشابه بين الاتجاهات السوسيولوجية في جامعات تلك المنطقة، فإنه يمكن القول بأن بلاد الاطلنطي كانت أكثر ميلاً نحو تنمية علم اجتماع أكاديمي يعتمد على علم الاجتماع الأوروبي — وبوجه خاص على التقاليد والكتابات اللاتينية — بينما كانت دول المحيط الهادئ أكثر ميلاً نحو تنمية تقاليد علم الاجتماع الأميريقي. — ومنذ عام ١٩٤٥ أصبحت الجمهوريات الكبرى في تلك المنطقة لدى كل منها معهد واحد على الأقل يكرس بصفة أولية للبحوث الاجتماعية، كما يبرز ذلك التمايز بوجه خاص حيث نجد أنه بينما تفتتح جامعات البرازيل والمكسيك المجال لاوسع مدى من البرامج الأكاديمية التي تمثل المجالات المختلفة في علم الاجتماع، نجد أن الأرجنتين التي يوجد بها أكبر عدد من الجامعات بين دول تلك القارة قد خبرت نهضة علم الاجتماع خلال الفترة بين عهد بيرون *Peron* وعهد أوجينيا *Ogencia*.

شرق أوروبا

وكان نمو علم الاجتماع في دول شرق أوروبا وثيق الصلة باستقلالها السياسي، فبينما كانت جامعات أوروبا الشرقية قبل عام ١٩٢٠ تضم بعض علماء الاجتماع لم يكن هناك اعتراف بعلم الاجتماع ذاته كبحث أكاديمي في

تلك الجامعات . وحتى الحرب العالمية الثانية كان نمو علم الاجتماع يسير ببطء في جامعات تلك الدولة ، حيث كانت بولندا وهنغاريا وجمهورية التشيك في تنمية مراكز رئيسية في علم الاجتماع . وقد أنجبت بولندا بوجه خاص وقبل الحرب العالمية الثانية عدداً من الباحثين المهورين الذين يمثلون اتجاهات نظرية واضحة وبخاصة في مركز وارسو للبحوث الأمبريقية في علم الاجتماع القانوني ، أما في فترة ما بعد الحرب فلقد أصبح علم الاجتماع في دول شرق أوروبا — وإلى وقت قريب جداً — واقعاً تحت سيطرة علم الاجتماع الماركسي المحافظ ، وأن كنا نجد آثاراً بينة لعلم الاجتماع الفرنسي والأمريكي في ذلك العلم ابتداء من الستينيات من هذا القرن .

جنوب أوروبا

تستطيع إيطاليا وجمهورية بلاد جنوب أوروبا أن تدعى بأن جامعاتها عرفت التقاليد السوسيولوجية قبل الحرب العالمية الثانية ، ومع هذا فلم يظهر علم الاجتماع الإيطالي مستقلاً في قسم أكاديمي ، ولكنه كان ملحوظاً في الغالب بكتابات الحقوقي أو الفلاسفة أو الاقتصاد ، وكما حدث في ألمانيا — بتأثير ظهور النازية فيها — تعلق ظهور الفاشية في إيطاليا مناهجاً غير مضيافة لعلم الاجتماع الأكاديمي على نفس الصورة التي تطورت بها هذا العلم في بلاد أخرى .

الدول الاسكندنافية

على الرغم من صغر حجم تلك الدول الاسكندنافية فهي ربما قد شهدت أسرع نمو في علم الاجتماع في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية — باستثناء فنلندا — حيث كان هناك القليل من علم الاجتماع الأكاديمي في

تلك البلاد قبل ذلك الوقت . وحتى وقت كتابة هذا المقال فإنه يمكن القول
بطريقة أو أخرى أنه نتيجة للعنق النسبي لمدى التعليم العالي الاسكتلندي فقد
احتل معظم علماء الاجتماع في تلك البلاد مراكز خارج الجامعات ، ولقد كان
لعلم الاجتماع الاسكتلندي جذور تاريخية في الديموجرافيا ، كما أنه يميل إلى
الاتجاه الوظيفي والاتجاه السكني نحو الظواهر الاجتماعية ، وغالباً ما كان هذا
العلم مرتبطاً باهتمام عميق بالسياسة الاجتماعية والتشريع .

أسباب نمو علم الاجتماع :

لعل هذا الاستعراض الموجز لظهور ونمو علم الاجتماع يجعل من الواضح
أن ظموره ونموه كبحث عقلي وأكاديمي كان يعتمد على الظروف الاجتماعية
والسياسية في الأمم والدول المختلفة . وربما كان هذا حقيقة بضرورة خاصة فيما
يتعلق بعلم الاجتماع الأكاديمي الذي نشأ من أعظم من نموه الكبير في
نسق التعليم العالي الإجمالي العام الذي وجد في الديمقراطية الصناعية الحديثة .
ولا شك أن علم الاجتماع الأكاديمي لا شك ما قاسى في البلاد التي اعتبرته حكوماتها
الاستبدادية خطراً على الأرضيات الأيديولوجية ، والتي كان معظم علماء الاجتماع
في الوحدات الجامعية فيها يرغبون على الخضوع لتلك الحكومات والتدخل من
الاشتغال به ، أو كانوا يجسدون أنه من القبح والفطنة أن يفعلوا ذلك . وقد
صدق هذا بوجه خاص بالنسبة لألمانيا في الفترة بين عام ١٩٣٤ وحتى عام
١٩٤٦ ، كما يصدق بالنسبة للاتحاد السوفيتي خلال فترة الاشتراكية القومية
منذ عام ١٩٢٤ ، وبالنسبة لليابان خلال فترة طويلة من تاريخها ، وبالنسبة
لدول شرق أوروبا منذ أواخر الثلاثينيات . كذلك فقد أثرت الحرب العالمية
الأولى والثانية في تدوير علماء الاجتماع الذين كانوا أثر في المستقبل العلق .

للعلماء الناضجين سواء في البلاد التي دخلتها قوات الاحتلال أو تلك التي تعرضت
للمحصار . ولعل أعظم علماء الاجتماع شهرة ممن أصبحوا ضحايا مباشرين
لمثل تلك الاضطرابات هو العالم هاليفاكس *Halbwachs* — الذي توفي في
عام ١٩٤٥ في بوشينو والد *Buchenwald* .

وبلا شك فقد لعب بناء نسق التعليم العالي — والجامعة في الدول الأخرى —
الدور الأعظم أهمية في تنمية علم الاجتماع الأكاديمي بطريقة أو أخرى . وقد
كانت هناك مقاومة قوية من كل الكليات التقليدية نحو دخول علم الاجتماع
ونمو أي أدعاء بأنه قد يكون علماً . وحيث أن التعميمات الجامعية في الكليات
كانت في كل الدول تقريباً تحت الرقابة المباشرة لتلك الكليات ذاتها — ولم تكن
تتدخل في تلك التعميمات إدارة منفصلة — فإن نمو علم الاجتماع الأكاديمي
اصطدم بمقاومة نسبية في كل الجامعات فيما هذا الجامعات الأمريكية .

وفضلاً عن هذا كله فقد كانت التعليم العالي في معظم الدول مصمماً على أنه
تعليم للصفوة وليس للجمهير ، ولم تتوفر لهذا التعليم المصادر التي تمكنه
من تنمية علم الاجتماع بصورة جوهريّة . والواقع أنه يجب الاعتراف بأن
العامل الرئيسي في استقرار علم الاجتماع الأكاديمي — وبصورة خاصة فيما
يتعلق باستقراره كعلم — قد تمثل في نوع مصادر التمويل التي يتم تكريسها
كمخصصات للبحوث الإمبريقية . ومن الناحية التاريخية فقد توفرت تلك
المصادر للجامعات في الدرجة الأولى عن طريق المؤسسات الخاصة والهيئات أو
المنح الحكومية . وقد لعبت المؤسسات الخاصة في بلاد معينة — مثل إنجلترا
والولايات المتحدة — دوراً هاماً في تحقيق تقدم مبكر في علم الاجتماع كعلم إمبريقي .
ولكن فقد بدأ دور الحكومة في السنوات الأخيرة في تدعيم البحوث يصبح

الدور الأكثر أهمية في كل الدول بدون استثناء ، ويعنى هذا بقول آخر أن علم الاجتماع أصبح يعتمد على الدولة في نموه باعتباره مشروعا لمجموعة من البحوث . ومن ثم فقد أصبح علم الاجتماع يحقق تقدما سريعا كبحث في إجراء البحوث الاجتماعية في البلاد التي يتزايد فيها تدعيم الدولة لبحوثه . وحيث يمكن نمو علم الاجتماع كبحث عقلى أهمية نفس ذلك المصدر الأساسى لتمويل ، نجد أن علم الاجتماع الرفي وسوسيولوجيا المشكلات الاجتماعية بين المجالات الأخرى التي تنمو أيضاً مع توفر المصادر — وبوجه خاص المصادر الحكومية — لتمويل بحوثها .

وبعد فيجب أن يتضح أمامنا أن كل تلك الظروف التي سبقت الإشارة إليها — باعتبارها ظروفاً أحاطت بنمو علم الاجتماع كبحث أكاديمى وكعلم لمبريق — هي ظروف يمكن الاقتناع بها بسهولة شديدة فقط فيما يتعلق بالمجتمع الأمريكى . ولكن تلك الظروف — التي تناهض في توفر حرية البحوث داخل الجامعة أو خارجها ، والتعليم العام الاجمالى ، ومرونة التنظيم واللامركزية في النسق الجامعى ، ووفرة مصادر التدعيم المالى للبحوث — تبدو كظروف جوهرية لظهور علم الاجتماع وتقدمه السريع بالطريقة التي سبقت الإشارة إليها . ولما كان علم الاجتماع واحداً من تلك العلوم التي يمكن أن تصبح مصدر خطر للدولة والمجتمع ، فإن نمو أو تقدم مثل تلك العلوم كبحاثة أكاديمية يرتبط بصفة نهائية بحالة المجتمع .

التدريب المهنى المتخصص لعلماء الاجتماع :

كان علماء الاجتماع في أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين علماء تدرّب معظمهم في فروع المعرفة غير علم الاجتماع ، فقد كان علماء الاجتماع

في الجامعات الألمانية والفرنسية والأمريكية مثلاً من خريجي كليات الحقوق والاقتصاد أو الاقتصاد السياسي والفلسفة ، ولكن مع انشاء انسام أكاديمية وكراي لعلم الاجتماع في الجامعات أصبح تدريب المشتغلين بعلم الاجتماع يقع بالتدريب على طاق العلماء أو المتخصصين الذين تدربوا على الدراسات السوسيولوجية . ومع ذلك فقد خضع التخصص السوسيولوجي لفترة طويلة من تاريخه في معايير لشغل الوظائف أو المراكز الأكاديمية أو لمنح الدرجات العلمية للعلماء الاجتماع — خضع لتغليب الخاصية السوسيولوجية لكتابات وبحوث المرشحين لشغل تلك المراكز أو لنيل تلك الدرجات على نوع التدريب الأكاديمي كحرك في الاختيار .

ولم يتحرك التخصص المهني في علم الاجتماع في أي من الدول بنفس السرعة التي تحرك بها هذا التخصص في الولايات المتحدة، فمع أن الرابطة السوسيولوجية الأمريكية *American Sociological Association* لا تزال تقبل في عضويتها أشخاصاً لم يحصلوا على درجة عليية في علم الاجتماع ، فإنها تشترط في النتمتع بعضوية الزمالة أو العضوية العاملة ذات حق التصويت — مع استثناءات قليلة — الحصول على درجة دكتوراه الفلسفة في علم الاجتماع .

وقد وفرت الجامعات الأمريكية أفضل الفرص لنمو سريع في علم الاجتماع كتخصص مهني ، حيث قامت ببنيتها على الاقحام الأكاديمية التي تؤهل لنيل درجة الدكتوراه ومع منتصف الستينيات من القرن الحالي كان هناك بضع وسبعين جامعة في الولايات المتحدة تضم دراسات عليا تؤهل للحصول على درجة الدكتوراه في علم الاجتماع تمنح سنوياً ما يزيد على ٢٦٠ درجة . ولقد كان منح الجامعات الأمريكية خلال العقد من السنوات الراضع بين عام ١٩٥٠

وسام ١٩٦٠. لذلك الدرجات مركزاً بطريقة أو أخرى إلى سمد بعيد في ثلاث جامعات منحت ربع ذلك العدد تقريباً ، في حين منحت تسع جامعات منها النصف تماماً ، ومنحت ٢٣ جامعة أربعة أخماس هذا العدد تقريباً .

وحيث أن عدد علماء الاجتماع المدربين مهنيًا قد نما بطريقة جوهرية منذ عام ١٩٥٠ في دول القارة الأوروبية — وإنجلترا والهند واليابان وأمريكا اللاتينية — فلقد كان في الولايات المتحدة عام ١٩٦٧ أكبر تركيز مفرد لعلماء الاجتماع المدربين مهنيًا ، حيث لم يكن هناك في الواقع في كل بلد حديث سوى عدد قليل من علماء الاجتماع مع أول السبعينيات من القرن الحالي . وقد ضم المؤتمر العالمي السادس لعلم الاجتماع — الذي عقدته الرابطة الدولية لعلم الاجتماع . *International Sociological Association* عام ١٩٦٦ حوالي ألفين من علماء الاجتماع ، وهو المؤتمر الذي لا يسمح لأي بلد أن يشارك فيه بأكثر من عشر الحاضرين .

وقد قدمت الولايات المتحدة أكثر المعلومات تفصيلاً حول علماء الاجتماع المتخصصين فيها . ومع أنه من الصعب حصر أعدادهم الإجمالية بسبب تنوع في تعريف المتخصصين في علم الاجتماع ، فقد كان هناك إحصاء لثلاثة آلاف شخص حاصل على درجة الدكتوراه في علم الاجتماع في الولايات المتحدة عام ١٩٦٦ ، كما كان هناك إحصاء لألفين وسبعمائة وثلاثة متخصصين في علم الاجتماع يضمهم سجل المؤسسة القومية للعلوم الذي يضم الأفراد العليين والفنيين الأمريكيين .

National Science Foundation Register of Science and Technical Personnel

وقد بلغ عدد الأعضاء العاملين والمنتمين بعضوية الزمالة في الرابطة الأمريكية لعلم الاجتماع والذين يحمل معظمهم درجة الدكتوراه في علم الاجتماع ثلاثه آلاف وستمائة وستة وعشرين عضواً في عام ١٩٦٥ .

ونجد أن علماء الاجتماع في الولايات المتحدة ، على العكس من زملائهم في بلاد كثيرة من العالم يعملون في الدرجة الأولى في الكليات والجامعات الأمريكية . وقد كان ٧٧٪ من علماء الاجتماع المسجلين في السجل القومى عام ١٩٦٤ يعملون في تلك الكليات والجامعات . وقد جاء اشتغال علماء الاجتماع في الولايات المتحدة خارج الجامعات متأخراً نسبياً ، ولهذا فقد كان علم الاجتماع الأمريكي أكاديمى قبل أن يكون علم اجتماع المشتغلين بالادارة أو الاصلاح الاجتماعى . وكان العمل بالجامعة خلال الستينيات من القرن الحالى لا يزال يعطى لعلماء الاجتماع الأمريكيين منزلة أعظم من المنزلة التى تعطىها مجالات العمل الأخرى ، ولكن كانت هناك أيضاً مؤشرات تدل على أنه كلما تزايد العدد الاجمالى لعلماء الاجتماع ، كلما اضمحلت حقيقة هذه القضية بصورة تدريجية . وحيث لا تتوفر في متناول يدينا احصاءات مقارنة الراكز التى بوظف بها علماء الاجتماع في بلاد آخر غير الولايات المتحدة ، فإنه يبدو — بطريقة أو أخرى — أنه في تلك البلاد — فيما عدا كندا — أن أقلية جوهرية منهم هى التى تعمل في الجامعات . وفضلاً عن هذا فإن جانباً متزايداً من مجالات عمل علماء الاجتماع في إنجلترا وأوروبا والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى أصبح مكرساً للخدمة المدنية والمعاهد البحوث .

ويعتمد المدى الذى وصل اليه اشتغال علماء الاجتماع الأمريكيين بوظائف مهنية تخصصية خارج الجامعات — إلى حد بعيد — على نمو المجالات التطبيقية

في علم الاجتماع ، ومثال ذلك أنه يعتمد مثلاً على ما إذا كان هناك متخصصون في علم الاجرام — أو في إدارة مشروعات الرعاية الاجتماعية أو في التخطيط الاجتماعي — ممن يتمتعون بخبرة سرسبولوجية . وحيث لم تتضمن التدريبات المهنية للتخصصية للذين يعلمون الاجتماع — وعلى العكس من المشتغلين بعلم النفس — برامج تدريبية علاجية متخصصة ، نجد في الحقيقة أن الاختلاف في حجم الروابط المهنية لكل من المتخصصين في علم النفس والمتخصصين في علم الاجتماع في الولايات المتحدة ، إنما يرجع كله تقريباً إلى العدد الكبير من المتخصصين في علم النفس المصلاحي المنضمين إلى الرابطة الأمريكية لعلم النفس .

وقد كان علم الاجتماع في كل من إنجلترا والولايات المتحدة مرتبطاً لوقت طويل بمهنة الخدمة الاجتماعية — ولكن مع أول الخمسينيات من القرن الحالي بدأ اهتمام أقسام علم الاجتماع الكبرى في الولايات المتحدة بتضمين خططها العلمية برامج تدريبية لإعدادية لتلك المهنة — الخدمة الاجتماعية — في الانحسار . ومع أنه لا يزال هناك القليل من البرامج العلمية التي تؤهل لنيل درجة الدكتوراه في علم الاجتماع والخدمة الاجتماعية في الجامعات الأمريكية الرائدة حتى أواخر الستينيات ، فإنه يمكن القول بوجه عام أنه لم يعد هناك بعد ارتباط وثيق بين المتخصصين في علم الاجتماع والمتخصصين في الخدمة الاجتماعية .

وفي الحقيقة لقد أدى نمو علم الاجتماع كببحث أكاديمي إلى قليل من التركيز في الخطط العلمية على تلك المجالات التي صنف من قبل في مقولة علم الاجتماع التطبيقي . ويمكن أن يعزى انحصار الاهتمام بتدريب متخصصين

فى علم الاجتماع التطبيقى - فى جانب كبير منه - إلى المجهودات التخصصية المهنية لتأهيت مركز علم الاجتماع كعلم ، ولكنه يعزى أيضاً - فى جانب منه - إلى حقيقة أن تلك المباحث الأخرى بدأت الآن تنفرد هى الأخرى كخدمة الاجتماعية مثلاً بتدريب العاملين بها .

واعلم هذا كله لم يكن يسمح له بأن يحجب حقيقة أن علماء الاجتماع فى معظم البلاد كانوا منخرطين بعمق فى المشكلات التى تواجه مجتمعاتهم ، وأن كانت أدوارهم فى الدرجة الأولى هى أدوار للفناخس العلمى وأدوار علماء السياسة . كذلك فقد تزايدت أيضاً تنمية علم الاجتماع لمجالات تخصصية فرعية مثل علم الاجتماع الطبى ، وعلم الاجتماع التعليمى ، وسociology of education ، التى ارتبطت بالممارسة العملية فى تخصصات مهنية أخرى .

الروابط والمجالات التخصصية المهنية :

أن الاعتراف الذى تمتع به علماء الاجتماع بالتدريج فى جامعات بلادهم لم يكن بالضرورة ليخلص علم الاجتماع من المأزق الذى وضع فيه ، فقد كانت الغالبية العظمى من علماء الاجتماع الأكاديميين الأوائل يكتبون بغير معرفة بأعمال زملائهم من علماء الاجتماع الذين يحتلون أهمية فى داخل بلادهم أو خارجها على السواء . ومثال ذلك أن دوركايم وقد زار ألمانيا لبعض الوقت فلا يبدو أنه أخذ فى حسبانته كتابات جورج زيمل *Simmel* . وقد أنتج عالم الاجتماع الأمريكى الرائد ليستر وارد *Lester F. Ward* كثيراً من أعماله المبكرة بغير وعى حتى بوجود العلماء الرئيسيين فى علم الاجتماع فى أمريكا ذاتها . ويقول آخر فإن الحقيقة تبدو متمثلة فى أنه بينما كان معظم علماء الاجتماع الأوائل ينتمون إلى مجتمع العلماء أو دوائر المثقفين فى بلادهم ، فإن تنوع

لأصولهم العلمية — أو بقول آخر تبوع التخصصات العلمية التي كانوا ينتمون إليها في الأصل — كان لا يتيح لهم في الغالب سوى القليل من فرص اتصال كل جنهم بالآخر. ولكن فقد هذا علماء الاجتماع جذور الباحثين والعلماء الآخرين في تأسيس جميعاتهم العلمية الخاصة التي كان البعض منها يتمتع بميل تخصصي منى واضح .

وفي تقرير الولايات المتحدة عن التعليم الذى صدر عام ١٩٠٠ فى القسم الاقتصادى لمعرض باريس لعام ١٩٠٠ ، كتب إيستر وارد عن علم الاجتماع وتقدمه بطريقة إنشائية - إلى حد ما — وذلك على الرغم من أن تلك لم تكن نظريته: فى كل كتاباته الأخرى — حيث يقول أن كل بلاد العالم المنتمين تساهم فى الحركة السوسولوجية ، ولكن فاعلية مساهمة بعض تلك البلاد أكبر بالمقارنة إلى فاعلية مساهمة البعض الآخر . ولعل فاعلية تلك المساهمة هى أقل ما نكون فى انجلترا . كما أن تلك المساهمة فى ألمانيا طبيعة خاصة تزداد على ميل إلى تفادى اسم علم الاجتماع . أما فى الولايات المتحدة فإن تلك الفاعلية كانت مركزة إلى أبعد حد كما كانت حقيقية ومثمرة جداً . ولكن لا يمكن الشك فى أن فرنسا كانت مهداً لعلم الاجتماع ، وأنها للبلد الذى اتخذ فيه ذلك العلم الوضع الأعظم سيطرة بين الطبقات المفكرة ، كما أننا فى فرنسا نجد أكبر حصيلة سنوية من الدراسات السوسولوجية سواء إذا عرنا اهتمامنا بالمؤلفات أو المؤلفين فى حسابنا التطبيقات العملية لعلم الاجتماع ، مثلاً فيما يتعلق بتتبعنا لخطوط عملية حماية لدى تعليم وتزوير الناس بالمسائل الاجتماعية .

وقد كان علماء الاجتماع الأمريكيون والفرنسيون أول من أنشأ جمعيات علمية ومجلات لعلم الاجتماع ، وكانوا هم أيضاً بين هؤلاء الذين عملوا مبكراً

وبضرورة مستمرة تجاه تثبيت مركز علم الاجتماع كبحث علمي وكنهه مهنى ، وهى أحداث لم تتزامن كلها فى الوقوع . و الفرق هذا كله فقد تحرك علماء الاجتماع الأمريكيون بطريقة أو أخرى - بصورة أسرع من تلك التى تحرك بها زملاؤهم فى البلاد الأخرى فى تشكيل علم الاجتماع كبحث متميز ، ولهذا فقد نجح علم الاجتماع الأمريكى - وفى فترة تقل عن ستين عاماً منذ تدشينه رسمياً - فى أن يثبت مكانه ليس فقط فى داخل الجامعات ولكن أيضاً فى كل الأقسام المنظمة من المجتمع الأمريكى تقريباً .

ولاشك أن التزايد السريع فى أعداد المهتمين بعلم الاجتماع فى الولايات المتحدة قد جعل مظاهر النمو والتقدم فى علم الاجتماع الأمريكى تبدو أكثر وضوحاً ، ومع هذا فن الواضح أنه حتى فى الأيام المبكرة حينما كانت الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع *American Sociological Society* تضم أقل من مائة عضو ، كان لعلماء الاجتماع الأمريكيين السبق فى المبادأة بتنمية الاتصالات والروابط العلمية فى مجتمعاتهم التخصصية . وقد أنشأ *Small* فى جامعة شيكاغو عام ١٨٩٥ المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع *The American Journal of Sociology* ، وقد وعد فى كلمة التحرير الافتتاحية فى تلك المجلة بأن يقرم عدد كبير من العلماء الأوربيين بمحاولة التعبير عن أعظم أفكارهم حول مبادئ العلاقات المجتمعية القابلة للاكتشاف . ولم يعن *Small* فقط بنشر البحوث المبتكرة التى تصدر عن المجلس الاستشارى للتحرير الذى يضم علماء الاجتماع الأوربيين وزملائهم ، ولكنه قام هو بنفسه بترجمة أجزاء من كتاباتهم لينفادى - كما يقول هو نفسه - تنمية علم اجتماع ذى صفة إقليمية .

وقد جاء فى تقرير *Small* فى وقت لاحق أنه قد قابل الكثيرين من جواروا

إقناعه بالعدول حتى عن نشر العدد الأول على أساس أنه لا توجد كتابات
سوسيولوجية كافية لملء صفحات تلك المجلة ، ولم يقل عن ذلك أهمية أن العدد
الأول من تلك المجلة قد ظهر في يوليو ١٨٩٥ ولم تكن هناك مقالات كافية لملء
صفحات العدد ثان يظهر في سبتمبر التالي . وكان تقديم وارد وروس
Ross بأبحاث لنشر هو نتيجة رجاء شخصي من سمول مما أدى إلى ظهور العدد
الثاني من المجلة في موعده المحدد . ومن خلال الاعتماد بصفة رئيسية على مساهمة
الكتاب الأمريكيين - والترجمة بين - وبين وآخر لكتابات علماء الاجتماع
الأوروبيين - سرعان ما منح سمول في تثبيت نجاح المجلة الأمريكية لعلم
الاجتماع .

وكانت أول جمعية لعلم الاجتماع في العالم هي جمعية المعهد الدولي لعلم
الاجتماع *Institut International de Sociologie* ، وقد تكونت
بمبادرة رسمية باجتماع مؤتمرها الأول بباريس في أكتوبر ١٨٩٤ ، وقد بدأ
المعهد في عام ١٨٩٥ بنشر مجلة - إوليات المعهد الدولي لعلم الاجتماع
Annales de l'Institut International de Sociologie التي تولى
رئاسة تحريرها رينيه ورنز *Rene Worms* وكانت أول مجلة لعلم الاجتماع
في العالم وهي المجلة النقدية الدولية لعلم الاجتماع *Revue International de Sociologie* . وقد ظهرت في عام ١٨٩٣ وقد تولى رئاسة تحريرها رينيه
ورنر أيضاً .

وكان المعهد الدولي لعلم الاجتماع يكون رابطة دولية لعلماء الاجتماع
ظلت تعقد مؤتمراتها حتى عام ١٩٦٠ - وقد ظهرت بعد الحرب العالمية
الثانية اهتمامات ضد التعاطف الفاشي من قبل بعض أعضاء المعهد وموظفيه ،

كما كان هناك احتجاج على الظروف التي استمر التنظيم يعمل خلالها أثناء الحرب العالمية الثانية في بلاد خضعت لقوات المحور . وبعد إنشاء منطقة اليونسكو قامت مجموعة من علماء الاجتماع تضم موريس جينزبرج *Moris Ginsberg* من إنجلترا ، وجورج جورفيتش *George Gurvitch* وديفي *Davy* من فرنسا ، ولويس ورت *Louis Wirth* من الولايات المتحدة بإقتراح المنظمة بالدعوة إلى مؤتمر تأسيسي لإنشاء تنظيم دولي جديد لعلماء الاجتماع . وقد تم تنظيم الرابطة الدولية لعلم الاجتماع *International Sociological Association* في اجتماع بمدينة أوسلو عام ١٩٤٨ حضره أربعة وعشرون ممثلاً لواحد وعشرين بلداً . أما في عام ١٩٦٦ فقد حضر المؤتمر الدولي السادس لعلم الاجتماع في إيفيان بفرنسا نحو ألفين تقريباً من علماء الاجتماع من كل بلاد العالم التي توجد بها أقسام أكاديمية لعلم الاجتماع — باستثناء الصين الشعبية .

ومع أن الأصوات التي نادى بتأسيس أول منظمة دولية لعلماء الاجتماع كانت أصوات فرنسية ، فقد فضل علماء الاجتماع الفرنسيون في تأسيس رابطة قومية مرموقة خاصة بهم ، وذلك على الرغم من أن أقدم مجلات علم الاجتماع وهي المجلة النقدية الدراية لعلم الاجتماع قد صدرت في فرنسا . كما أن عالم الاجتماع الفرنسي الشهير إميل دوركايم هو الذي أسس في عام ١٨٩٨ مجلة حوليات علم الاجتماع *L'annee Sociologique* التي كانت لسنوات عدة تمثل الأحداث والأفكار تأثيراً في علم الاجتماع . وقد كان علماء الاجتماع الفرنسيون خلال الخمسينيات من القرن الحالي ذرى فاعلية في تأسيس مجلة الوثائق الأوروبية لعلم الاجتماع *Archivus Europæens de Sociologia* ، والمجلة الأوروبية لعلم

الاجتماع *European Journal of Sociology* ، كما أنها الديموجرافيون
في عام ١٩٤٦ مجلة السكان *Population* — وهي المجلة التي سرعان ما حظيت
باهتمام عالمي بين المهتمين في مجال الدراسات السكانية .

وكانت ثاني جمعية لعلم الاجتماع تنشأ في العالم هي جمعية علم الاجتماع في
لندن *Sociological Society of London* التي تم تنظيمها في لقاء عام تم في
نوفمبر ١٩٠٣ ، وكان أول رئيس لها هو جيمس بريس *James Bryce* . ولم
يتجه علماء الاجتماع البريطانيون إلى تنمية تنظيم قوي يضمهم إلى أن
تأسست الرابطة البريطانية لعلم الاجتماع *British Sociological Association*
في عام ١٩٥١ ، والتي وصل عدد أعضائها في عام ١٩٦١ إلى أكثر من خمسمائة
عضو . وقد ظهر في عام ١٩٥١ أيضاً العدد الأول من المجلة البريطانية لعلم
الاجتماع *British Journal of Sociology* ، والمجلة النقدية لعلم الاجتماع
Sociological Review — التي قامت مع نشرها جمعية علم الاجتماع في
لندن ، ولم تلق هذه المجلة الانتباه العالمي الذي حظيت به المجلات البريطانية
الأكثر تخصصاً مثل مجلة الدراسات السكانية *Population Studies* ، والمجلة
البريطانية لجناح الأحداث *British Journal of Delinquency* .

وفي ديسمبر ١٩٠٥ تجمع حوالى مائة من علماء الاجتماع الأمريكيين في
مدينة بالتيمور لتقرير هدم رضائهم من الرابطة التاريخية الأمريكية ، والرابطة
الاقتصادية الأمريكية ، والرابطة الأمريكية لعلم السياسة .. وذلك لأن واحدة
من هذه الروابط الشقيقة لم تستطع أن تعطي لعلماء الاجتماع الذين كانوا أعضاء
فيها فرصة كبيرة لتمثيل أعمالهم في جلساتها السنوية ، وقد انتهوا في هذا
الاجتماع إلى تكوين الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع *American Sociological*

Society — التي أصبحت الآن الرابطة الأمريكية لعلم الاجتماع *American Sociological Association* ، وقد انعقد أول اجتماع للجمعية في عام ١٩٠٦ متصلاً بإجتماعات الجمعيات الشقيقة ، وانتخب ليستر وارد كأول رئيس لها كما انتخب كل من سمنر *Sumner* وجيدنجز *Giddings* كنواب له .

وقد أصبحت المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع *The American Journal of Sociology* هي الجريدة الرسمية لتلك الجمعية التي كان أعضاء مجلس إدارتها مستشاري تحرير لها . ولكن الجمعية طالت من علاقتها بالمجلة وأسست في عام ١٩٣٦ المجلة النقدية الأمريكية لعلم الاجتماع *American Sociological Review* كجلة رسمية لها . وقد ظهرت في ذلك الوقت أيضاً مجلتان أخرتان في علم الاجتماع هما ، القوي الاجتماعية ، *Social Forces* التي صدرت في جامعة كارولينا الشمالية وأشرفت على تحريرها هوارد أودم *Howard Odum* ، ومجلة علم الاجتماع والبحوث الاجتماعية ، *Sociology and Social Research* التي صدرت في كارولينا الجنوبية وأشرفت على تحريرها إمري بوجاردس *Emory S. Bogardus* .

واقدم طاق علماء الاجتماع الريفي خلال الثلاثينيات من القرن الحالي من ارتباطهم بالجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع ، حيث كان هناك إهمال لاهتمامهم الخاصة ، ومن ثم فقد كونوا جمعية علم الاجتماع الريفي *Rural Sociology Society* وأصدروا مجلة علم الاجتماع الريفي ، *Rural Sociology* كجلة رسمية لهم . ولقد اتخذ علماء الاجتماع المهتمين بالمشكلات الاجتماعية حذوهم في الخمسينيات وأسسوا جمعية دراسة المشكلات الاجتماعية ، *Society for the Study of Social Problems* كما أصدروا مجلة المشكلات الاجتماعية

Social Problems للتحدث باسمهم . وحيث كانت الرابطة الأمريكية لعلم الاجتماع تتوقع مزيداً من الانهطارات فقد وافقت حينئذ على تكوين أقدام متخصصة في داخلها . وقد صدرت ثلاث مجلات رسمية إضافية بمثابة للاهتمامات الجزئية، منها : المجلة التي أشرف على تحريرها مورينو *J. L. Moreno* بعنوان « القياس الاجتماعي، *Sociometry* — والتي يرجع الفضل إلى الرابطة في صدورها، وهي مكرسة الآن لبحوث علم النفس الاجتماعي فقط . كما أصدرت الرابطة في وقت لاحق مجلة علم الاجتماع التعليمي *Journal of Educational Sociology* التي أطلق عليها فيما بعد مجلة «سوسيولوجية التعليم *Journal of the Sociology of Education* ومجلة الصحة والسلوك الانساني *Journal of Health and Human Behavior* ومجلة الصحة والسلوك الاجتماعي *Journal Health and Social Behavior* .

وكانت الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع تنمو كلما يهتد وعيها بذاتها كرابطة تخصصية مهنية ؛ كما هي جمعية تضم فئة معينة من المثقفين . وكانت المجلة الرسمية للجمعية تتضمن أخباراً عن التغيرات التي تطرأ على الوظائف التي يشغلها الأعضاء ، وفرص العمل المتوفرة أمامهم ، كما أصبحت بالتدريج تضم نشرة بالتعيينات ، وكانت تضم بين غلافها مناقشات لمشكلات التخصص المهني في علم الاجتماع . واتقد وصل عدد أعضاء الجمعية في أوائل الخمسينات إلى أربعة آلاف عضو تقريباً — بما فيهم مساعدي الباحثين والطلاب — وقد أصبح من الضروري لإنهاء وظيفة مكرّرة تنفيذي للجمعية التي كان لها في أوائل الستينيات مكتب قوى في واشنطن يرأسه أحد علماء الاجتماع ، والتي أصدرت خلال عام ١٩٦٦ مجلة خاصة تحمل اسم علماء الاجتماع الأمريكيين *American Sociologist* وتكرس لمسائل التخصص المهني .

وقد سار مع انتشار علم الاجتماع في الولايات المتحدة انتشار الجمعيات الإقليمية ، وجمعيات الولايات وانتشار حتى للجمعيات السوسيولوجية المحلية التي قام البعض منها بإصدار مجلاته السوسيولوجية الخاصة ، في حين قام البعض الآخر بالاضطلاع بأعباء نشر مجلات كانت قائمة فعلا .

وقد كان هناك كثير من علماء الاجتماع الأمريكيين الذين ينتمون بهضبة جمعيات أو روابط علم الاجتماع المحلية والقومية معاً . وقد أصبحت الرابطة الأمريكية لعلم الاجتماع خلال نموها تكون كياناً يضم المتخصصين المهنيين ، كما يضم العلماء أيضاً . ولم تذهب رابطة قومية أخرى لعلم الاجتماع — خارج الولايات المتحدة — إلى نفس المدى الذي وصلت إليه الرابطة الأمريكية لعلم الاجتماع في الاعتراف بكل من الاهتمامات المتخصصة المهنية والاهتمامات العلمية الأكاديمية على السواء . . حيث كانت روابط علماء الاجتماع خارج الولايات المتحدة غالباً ما تعصر نفسها في رعاية الاجتماعات التي تعقد سنوياً أو كل سنتين ، والتي تكرر بصفة كلية تقريباً للنقاشات والاهتمامات الأكاديمية البحتة . وكانت تلك الروابط تميل بشكل عام إلى اتخاذ نموذج الجمعيات العلمية أو الثقافية التقليدية ، أكثر من ميلها إلى النموذج الأمريكي الذي يتميز إلى حد بعيد بسمات التخصص المنهني .

وقد أسس علماء الاجتماع الألمان الرابطة الفلنكية لعلم الاجتماع *The Deutsche Gesellschaft für Soziologie* برئاسة ماكس فيبر ومعاصره ، ولكن تلك الرابطة انحلت مع هجرة علماء الاجتماع أثناء سيطرة قوى الحروب الاشتراكي القوي عام ١٩٣٣ ، وقد عقدت الرابطة مؤتمرها الأخير وكان المؤتمر السابع في برلين عام ١٩٣٠ . وكان ليوبولد فون ليرى استضاف

علم الاجتماع في كولون رئيساً لها عند حلها ، كما اضطلع برئاستها عندما أعيد إنشاؤها عام ١٩٤٦ .. حيث استمرت كجمعية علمية رئيسية لعلماء الاجتماع الألمان ، ولم تكن لتلك الرابطة مجلة رسمية ناطقة باسمها .

وقد كانت المجلة الرئيسية لعلم الاجتماع في ألمانيا طوال معظم الفترة التي سبقت عام ١٩٣٠ هي :

« مجلة وثائق رابطة علم الاجتماع والسياسة الاجتماعية » *Archiv fur Sozialwissenschaft und Soziopolitik* التي تولى ماكس فيبر رئاستها تحريرها لبعض الوقت ، وبخاصة فقد قام بنشر الطبعة الأولى لكل مؤلفاته في علم الاجتماع في تلك المجلة . وقد كانت «مجلة كولون الفصلية لعلم الاجتماع» *Kolner Vierteljahrshafte fur Soziologie* تصدر طوال الفترة من ١٩٢١ إلى عام ١٩٣٤ . ويشرف على تحريرها فون فيزي *Von Wiese* . وقد هادت تلك المجلة إلى الظهور بإشرافه أيضاً في عام ١٩٤٨ تحت عنوان «مجلة كولون لعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي» *Kolner Zeitschrift fur Soziologie und Sozialpsychologie* ثم تولى رينيه-كس-ونيج *Rene Konig* رئاسته تحريرها ، وظلت على ذلك الوضع حتى أوائل الخمسينيات .

وقد بقي علم الاجتماع السوفيتي بدون أى تنظيم يضم علماء الاجتماع حتى منتصف الخمسينيات من القرن الحالى ، حينما أُنشئت الرابطة السوفيتية لعلم الاجتماع . ولكن الاجتماع القوي لعلماء الاجتماع السوفيتي لم يتعقد إلا في فبراير ١٩٦٥ ، وهو نفس العام الذى صدرت فيه أول دورية لعلم الاجتماع السوفيتي بعنوان البحوث الاجتماعية *Sotsialnye issledovanija* .

وحيث من الصعب إحصاء العدد الكلى لعلماء الاجتماع السوفيت فقد شارك
ستة مائة منهم في اجتماع رابطتهم لعام ١٩٦٥ .

وبإشهاد جمعية علم الاجتماع *Shakai-Gakky* عام ١٩٢٤ تكرر في اليابان
جمعية قومية لعلم الاجتماع . وكانت المنشورات الرسمية لتلك الجمعية هي «مجلة
علم الاجتماع» *Shakaigakuzasshi* ، و«حولية الجمعية اليابانية لعلم الاجتماع»
Nemposeijigaku ، وقد انضم في دورية واحدة بعنوان : البحوث
الاجتماعية *Shakaigaku Kenkyu* . بعد انشوب الحرب العالمية الثانية . وقد
كان عدد أعضاء الجمعية اليابانية لعلم الاجتماع فيما قبل الحرب العالمية الثانية
حوالى سبعمائة عضو . وبسبب النمو السريع الذى حققه علم الاجتماع الاكاديمى
في فترة ما بعد الحرب فقد تزايد عدد أعضاء الجمعية .. وإن كان من الصعب
تقرير عدد مؤكد للحاصلين على درجات جامعية عليا في علم الاجتماع في
اليابان .

كذلك هناك بعض الصعوبة في حصر علماء الاجتماع في الهند وقد بلغ
عدد أعضاء الجمعية الهندية لعلم الاجتماع في عام ١٩٦٣ مائتين وثمانية وستين
عضواً فقط ، أحدهم كلينارد *Clisard* والدر *Elder* ١٦٪ منهم من غنى
الهنود . ومع أن معاهد الخدمة المدنية وغيرها من المراكز الهندية ربما توظف
متخصصين في علم الاجتماع لا ينتسبون إلى تلك الجمعية الهندية ، فلا شك أن
العدد الإجمالي لعلماء الاجتماع الهنود قليل جداً في الحقيقة . وربما كانت نسبة
عدهم إلى إجمالي السكان في الهند تكاد تصل إلى أقل من تلك النسبة في أية
دولة أخرى تتمتع بنسق جامعى راسخ .

وقد تأسست المجلة الهندية الرئيسية لعلم الاجتماع ، وهي «نشرة علم

الاجتماع ، *Sociological Bulletin* في عام ١٩٥٢ كجريدة رسمية ناطقة باسم
جمعية بومباي لعلم الاجتماع ، *Bombay Sociological Society* . وقد ظهرت
أيضاً بعض البحوث السوسيولوجية الهندية في المجلة الدولية لعلم الاجتماع
المقارن ، *International Journal of Comparative Sociology* التي
تُنشر في ضواوَر *Dharwar* .

ولم تزل الجامعات في البلاد الاسكندنافية — فيما عدا جامعات فنلندا
والهولبارك — تكاد لا تعترف بصورة رسمية بعلم الاجتماع الأكاديمي حتى عام
١٩٤٦ . ومع أن مجال علم الاجتماع لازال محدوداً في كل البلاد الاسكندنافية
فإن هناك تفاعلاً خليق به أن يؤخذ في الاعتبار بين علماء الاجتماع في عدد من
تلك الدول . وقد أنشأ علماء الاجتماع الاسكندنافيون مجلة خاصة بهم *Acta*
Sociologica ، وقد صدر معظم أعدادها باللغة الانجليزية وكان من النادر أن
يصدر عدد في تلك المجلة باللغة الفرنسية أو الألمانية .

وحيث كانت إحدى أقدم المجلات التي يتضمن اسمها كلمة علم الاجتماع هي
المجلة النقدية لعلم الاجتماع *Rivista di Sociologia* ، التي صدرت في إيطاليا
عام ١٨٩٧ ، فإن علم الاجتماع الإيطالي مع أنه كان علماً مثيراً ، فقد أنتج
البعض القليل من الشخصيات الملهورة في القرن العشرين وقد نجح بصعوبة
في الحفاظ على كيانه منذ أيام باريثو الذي عاش في سويسرا .

وبدون شك كان إنشاء مجلات علم الاجتماع عاملاً هاماً في النمو المبكر لعلم
الاجتماع العلمي الأكاديمي . وقد كانت المجلات السوسيولوجية القديمة هي في
الغالب منافذ لمنشورات مدرسة معينة في علم الاجتماع أو لمنشورات المحرر
والإمپذ ، حيث كان من الواضح مثلاً أن مجلة حوليسات علم الاجتماع

الفرنسية هي مجلة دوركايم . وقد سيطر ورده *Worms* على المجلة النقدية
الدواية لعلم الاجتماع ، *Revue Internationale de Sociologie* . وكان
فيبر لونت معين يشكل مجلة وثائق علم الاجتماع والسياسة الاجتماعية ، واستخدم
أودم *Odum* وتلاميذه مجلة القوى الاجتماعية ، *Social Forces* لاحتضان علم
الاجتماع إقليمي *Regional Sociology* ، وكون مورينو *Moreno* مدرسة
عن طريق مجلة لقياس الاجتماعى *Sociometry* ، وحقى المجلة الأمريكية لعلم
الاجتماع *A. J. S* ومجلة البحوث السوسولوجية *Sociological Papers*
اللتين كانتا مفتوحتين لأوسع مدى لتأق مقالات كل علماء الاجتماع كانتا أيضاً
متأثرتين بالتوالى بشخصيات واهتمامات البيون سمول *Albion Small*
وفيكنتور برالفورد *Victor Branford* . وبينهما لا تزال هناك امكانيات
قائمة لمدرسة معينة أو لمجموعة من الافراد أو بين وقت وآخر لخصية رائدة
تلعب دوراً فى تأسيس أو نشر مجلة فى علم الاجتماع ، فإن معظم تلك المجلات
اليوم — سواء كانت عامة أو متخصصة — هي أشد ميلاً إلى أن تكون
عالمية فى مستراها .

ملاحظات حول علم الاجتماع السوفيتي

نظرة من خلال سوسيولوجيا العلم

مقدمة :

تعتبر الظروف التي ينمو خلالها العلم ويتقدم من المشكلات الرئيسية في سوسيولوجيا العلم . ولعل المدهش أن النظرة إلى العلم على المدى العالمي الواسع تكشف عن تنوع في أشكال المناخ الاجتماعي التي تنمو فيها البحوث العلمية المختلفة ، مما يفرض إعادة النظر إلى حد بعيد في تلك الافتراضات المسبقة حول حاجة العلم إلى البيئة الليبرالية . ومع أن الانجازات التي تتم في فروع العلم المختلفة — وفي ظل نظم للحكم لاتصل في مستواها الليبرالي إلى مستوى النظم الديمقراطية — قد أعطت للملاحظ الغربي فرصة للتأني وإعادة النظر في تلك الافتراضات .. إلا أنه حتى وقت قريب كانت وجهة النظر التي ترى أن النسق الديمقراطي يعتبر هو النسق الأفضل الذي يساعد العلم بالمعنى الواسع للكلمة على الظهور تتمتع بحاجات كبير من الصدق، وذلك نظراً لندرة الانجازات التي حققتها العلوم الاجتماعية — وبخاصة علم الاجتماع — في ظل مختلف نظم الحكم الاستبدادي . وقد بدا أن ليس هناك ثمة اختلاف في أن مبحثاً مثل علم الاجتماع لا يتلاءم مع نظم الحكم الاستبدادي — وبخاصة فقد اعتبر ذلك العلم وليداً للمجتمع الغربي — مما جعل من الصعوبة بمكان توقع ظهوره في مجتمع يفنقر على الأقل إلى ما ينسب إلى الثقافة والتقاليد الغربية .

ولهذا كله فقد كان في عبادة علم الاجتماع السوفيتي إلى الظهور — من هذه الناحية — ما يستحق اهتماماً خاصاً ، باعتبارها تقدم لنا دراسة نموذجية للشام

عن خاصية وطبيعة البحث العلمى — الذى ينمو تحت ظروف اعتبرت فى الماضى
ظروفاً مستحيلة لنمو وتقدم مثل هذا العلم . ولهذا أيضاً فقد كان من الضرورى
— على الأقل — إعادة النظر فى هذا الافتراض القائل بانعدام التوافق أو التضاد
القائم بين العلم الموضوعى الذى يعنى بدراسة الظواهر الاجتماعية من ناحية —
والنظم الاستبدادية من ناحية أخرى — وذلك فى ضوء الخبرة السوفيتية ، حيث
يمكن اعتبار مظاهر النمو والتقدم فى الانجاء السوفيتى فى علم الاجتماع بمثابة
دليل للتغير فى الظروف السياسية التى تحقق خلالها هذا النمو والتقدم . كما يمكن
أن يقوم حوار فيما إذا كان ظهور علم الاجتماع السوفيتى يعتبر دليلاً على
صدق ذلك الافتراض ، وفيما إذا كان النمو والتقدم الذى حققه هذا العلم يبين تحولاً
عن النظام الاستبدادى ذاته . وعلى أية حال يمكن القول بأن لنمو وتقدم علم
الاجتماع السوفيتى أهمية خاصة فى ضوء للظروف العامة التى تحيط به —
والتي تتميز بالوضوح — تتمثل فى ارتباطه الوثيق بالسلطة السياسية
والايدولوجية المعروفة . ولهذا الأسباب بالذات يعتبر لنمو ذلك العلم وتقدمه
أهمية خاصة .. لأنه إذا كان فى الامكان الادعاء بوجود تغير فى الظروف السياسية ،
فإن الحكم بأن هذه التغيرات السياسية إنما تعبر عن تغيرات أساسية فى المجتمع —
هو أمر لا يمكن الجزم به إلا من خلال النظر عن كثر الإنجازات التى يحققها
علم الاجتماع .

ومهمة هذا البحث هى تقديم عرض موجز لمظاهر النمو فى الاتجاه
السوفيتى فى علم الاجتماع ، باعتباره يمثل علماً جديداً على ارتباط وثيق
بالبناء السياسى فى المجتمع السوفيتى . والسؤال الهام من وجهة نظر سوسيولوجية
العلم يتمثل فى البحث فى مدى إمكان القبول بتوفر الظروف الملائمة للبحث

العلمى الموضوعى فى المجتمع السوفيتى الذى ظهر فيه هذا الاتجاه ، أو القول بأن هذه الظروف فى سبيلها إلى الظهور . ومما يكن من شىء فإن القول بأن كثيراً من الملاحظين حتى فى الغرب الديمقراطى ذاته يتفهمون فى إمكانية نمو أو تقدم علم اجتماع غير منحاز ، كما أن قابلية علم الاجتماع للتجريح استناداً إلى المؤثرات الخارجية المختلفة التى تحيط به . وقابلية هذا العلم للتعريف — هى من الأمور المعروفة جيداً . وفى ضوء كل هذه الاعتبارات والصعوبات يمكن القول بأن هناك إمكانيات محدودة تحيط بنمو وتقدم الخط السوفيتى فى علم الاجتماع .

أزمات الميلاد وآلام النمو :

يعتبر الدخول بصورة مباشرة فى موضوع علم الاجتماع السوفيتى من المهكلات المثيرة للاهتمام والمنفعة ، فحيث كان هذا العلم يحيطه شىء من الإهمال والركود فى عهد ستالين ، فقد ظهرت بدايات ذلك المبحث الجديد فى منتصف الخمسينيات . وقد حالت ظروف أو أوضاع معينة دون ظهور دراسة موضوعية للمجتمع السوفيتى فى العهد الستالينى وقد تمثلت تلك الظروف أو الأوضاع فى نسق الضبط الاجتماعى الذى كان يستند إلى الأوامر ، فضلاً عن اعتبار الستالينية الماركسية اللينينية وحدها هى النظرية العلمية الثورية التى يجب أن تنم من خلالها دراسة المجتمع ، ونتيجة لهذا أصبح علم الاجتماع السوفيتى سجيناً بصفة رسمية فى حدود تقديم المساعدات إلى الحزب الشيوعى لتحقيق هدفه المعلن فى بناء المجتمع الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى . وقد حل محل ذلك الجانب الاستبدادى فى النظام الشيوعى الذى يعتبر — أو يقول أكثر دقة — أن المعرفة الموسيولوجية أداة من أدوات الضبط الاجتماعى ، فضلاً عن الاعتقاد

بأن تلك المشكلات أو التناقضات التي قامت في المجتمع السوفيتي — إنما كانت في حاجة إلى دراسة دوسولوجية تتصف بالمادية.

وقد نجح هذا الإعلان الشرعي لمجال علم الاجتماع — ونوع الحاجة التي أوجدهته في النظام السوفيتي — في تحقيق الاستقرار لتلك النغمة التي غلبت على علم الاجتماع السوفيتي والتي سادت فيما بعد . ويمكن الاستناد إلى عدد من أدوات القياس للحكم بأن الاتجاه السوفيتي في علم الاجتماع قد حقق تقدماً ملحوظاً ، وإن كانت الجوانب المختلفة في هذا الاتجاه قد أبرزت بوضوح الآثار المترتبة على إخضاع الاستقلالية أو الذاتية العلمية للضرورة السياسية . كما يمكن القول بأن تلك النهضة — التي سمح لعلم الاجتماع السوفيتي لتحقيقها — ترجع في الحقيقة إلى اعتبار حدود الماركسية اللينينية بمثابة نظرية في المجتمع ، كما ترجع من ناحية أخرى إلى تلك النظرية الجديدة بين كبار رجال الحزب الذين رأوا بوضوح أن الماركسية اللينينية لم تستطع أن تستوعب في حساباتها كل المشكلات القائمة في المجتمع السوفيتي المعاصر ، كما رأوا بنفس هذا الوضوح أنه ليس في الإمكان تجاهل تلك المشكلات أو التعامل المتغافل عنها فضلاً عن إلغائها نهائياً .

ولكن المشكلة التي لا تزال قائمة تتمثل فيما تمهياً لنحو تلك المنزلة الاجتماعية التي تحتملها الماركسية اللينينية باعتبارها علم اجتماع إمبريقي ؛ حيث أصبح تحديد ما فسرته أو لم تفسره الماركسية اللينينية — كنظرية في علم الاجتماع — وبالتالي ما هي المشكلات التي يمكن أن يبحثها علم الاجتماع السوفيتي يمثل مشكلة سياسية ودوسولوجية في الوقت ذاته . وعلى أية حال فقد ترتب على ذلك أن الوظيفة المزدوجة للماركسية اللينينية — كأيدولوجية سياسية ونظرية في علم الاجتماع — قد صافت بتحقيق إنجازات دوسولوجية معينة ، وأن

كانت هناك بعض الخطوات الواسعة تمت على الرغم منها .

ويمين لنا علم الاجتماع السوفيتي — في أريخه القصير — ذلك الصراع من أجل المحافظة تلك التفرقة التي نسلم بوجودها بين الصياغة الأيديولوجية والحقائق السوسيولوجية ، والتي نسلم فيها بأن تلك العملية الأولى لا تعتبر بديلاً مقبولا للشأنية . وإن كان التصور الماركسي للمجتمع الشيوعي يعتبر بمثابة نوع من التفسير والمهدف في الوقت ذاته ، فإن افتراضاته حول مستقبل المجتمع يجب أن تفصل بوضوح عن الحقائق التي تتعلق بالواقع المعاصر . ويتصل بهذه النقطة الأخيرة أن تلك الأحكام القيمة التي ينطوي عليها علم الاجتماع السوفيتي — والتي تجسد مثلاً المجتمع اللاطبق — يجب أيضاً أن نميز بينها وبين الملاحظات السوسيولوجية الخاصة .

ولهذا كله نحدد أن مشكلة التحريف الأيديولوجي — وهي تعتبر مشكلة شائعة بالتأكيد في كل الدراسات السوسيولوجية — تبدو حداثتها بصورة غير عادية في الاتجاه السوفيتي في علم الاجتماع بالذات . ونضيف إلى ما سبق أن ذلك الاتجاه السوفيتي في علم الاجتماع ولو أنه لا يزال اتجاهاً أيديولوجياً — بمعنى أنه يعنى بصياغة قضايا برامجية حول مجيء المجتمع الشيوعي في الاتحاد السوفيتي — فإن هذا الاتجاه يبدو واضحاً إلى حد معين منذ سنوات ظهوره الأولى . كما أن ذلك الشعور منذ البداية بضرورة تحديد علم اجتماع ماركسي متأخر — مع تقل الحاجة إلى تنميته — قد تيسر له القليل الوقت لوجود علم اجتماع على نفس الصورة الغربية . كما كان الشعور بالحاجة إلى تجنب علم الاجتماع الغربي نتيجة نوع من التشبه السياسي .. أكثر من كونه يستند إلى دراسة سوسيولوجية .

ولإعتبارات معينة فإن الصعوبات التي تراكمت أو نمت - والتي أحاطت بظهور علم الاجتماع السوفيتي - لم تكن من نمط واحد .. ذلك لأن تحديد طبيعته وبجال هذا العلم ، وتنمية قدرته الفنية في تصنيف فئات الحقائق التي يتنازلها بالبحث ، ومناقشة وتنقية العمليات المنهجية التي يستند إليها في تحليلاته ، ووجه عام لإعداده لاحتلال مركزه كبحث منهجي ، كانت كل هذه المراحل تحتل دائماً جانباً من جوانب تاريخ أى علم من العلوم . وإن كان من الممكن أن نمزج بعض ملامح أو سمات ذلك الاتجاه السوفيتي في علم الاجتماع إلى نوع من النمو الذاتي قبل أن نمزج إلى عامل سياسي ، لكننا يجب أن نلتزم به إلى أنه على الرغم من أن الاتجاهات المختلفة في العلم تمر بذلك الحسرات التي تحصل بمشكلات النمو - بغير نظر بعين الاعتبار إلى المناخ السياسي المحيط بنشأتها - إلا أنه من الصعب في حالة علم الاجتماع السوفيتي أن نفصل ذلك المتغير السياسي عن عملية النمو الطبيعي التي عاشها هذا العلم . ويترتب على ذلك أن ذلك الاتجاه السوفيتي في علم الاجتماع .. وقد أعيدت ولادته في بيئة معينة قد غيرت وضعه المفاهيم الاتجاهات الموضوعية الأخرى التي يتخذها هذا العلم فإنها قد أعطته صكاً شرعياً لا ينهض بالتأكيد أو النضج محددات لإمكانات نموه المحتمل .

إن علماء الاجتماع السوفيتي في محاولاتهم لإحياء مبحث يندى غاملاً إلى أبعد حد يمكن قد اجتاحتهم الشوطة في البداية نحو ضرورة العمل داخل الحدود المملولة للماركسية اللينينية كما أولتها المصاطح العيانية ، وترتب على ذلك ظهور اتجاه نحو ضرورة توجيه النقد إلى علم الاجتماع الغربي ، في نفس الوقت الذي ازداد فيه الشعور بالاعتماد عليه . وذلك لأنه مع وفرة المشكلات الاجتماعية نجد أن الماركسية قد أمدت علم الاجتماع السوفيتي بمجموعة محدودة من

المصطلحات — وبمسدد أقل من الخطوط المنهجية المعاونة — مما نتج عنه نوع من الاستعارة بالاختيار من علم الاجتماع الغربي . . . وكانت هذه الاستعارة بوجه خاص في مجال طرق البحث ، مع تزايد الاعتماد على المصطلحات القائمة في هذا العلم . وهكذا فإن تلك المصطلحات الوجودية المألوفة في مختلف الاتجاهات القائمة في علم الاجتماع — قد عبرت عن نفسها في مجموعة المشكلات الصوفية التي لازالت تجد لها حلاً ظاهرياً بالرجوع إلى الماركسية اللينينية ، ومما يكن من شيء فقد استمر تزايد توجيه الصوفية لمزيد من الاستماع إلى الأفكار البورجوازية الغربية .

سيكون استعراضنا هذا لعلم الاجتماع الصوفية موجزاً للغاية ، وهو لن يذهب إلى أبعد من الملاحظات المدرسية حول طبيعة علم الاجتماع الماركسي . ولقد كان على علم الاجتماع للصوفية أن يذهب إلى أبعد من اهتمامات بالميتافيزيقيا أو بقضايا ما بعد علم الاجتماع والمسائل النظرية ، إذا كان يريد أن يكون شيئاً أكثر من كونه فتناً من أيديولوجية الحزب . ونجد أنه بينما تفسر الماركسية اللينينية في خطوط عريضة النمو والتحسن في مجتمع المستقبل ، فإن المجتمع الصوفي المعاصر — وقد سلم بإبعاده قليلاً عن أهدافه — فقد خسر مشكلات معنية استطاع علم الاجتماع الصوفي أن يساعد في حلها من خلال البحوث الإبداعية .

وفي نهاية هذا التحليل نجد أن نظرتنا إلى نمط البحوث الصوفية . . هي التي تحدد مدى استطاعتنا الحكم بما إذا كان من الممكن — أو من غير الممكن — قيام علم الاجتماع بصورة حقيقية في الاتحاد الصوفي في الوقت الحاضر . وفي حين نجد أنه من المعترف به إلى حد ما أن المعايير التي تحدد على أساسها ماهية علم

الاجتماع الحقيقي إنما هي معايير فجة - وتخضع للنحيز الايديولوجي للشخص الذي يقوم بعملية الملاحظة والحكم - فقد كان من الممكن الاتفاق على أنه من الضروري اختبار المشكلات أو الطريقة التي تتم بواسطتها معاملتها .. في حدود البيانات المنجمعة ، والنتائج التي تنتهي إليها . وحينما نأخذ في اعتبارنا الضغط السياسي وضرورة الالتزام الظاهري بالنظرية الماركسية اللينينية ، فهنا نجد خطر النحيز الايديولوجي يبالغ أقصى مداه . ولعل أعظم الاختبارات التي يمر بها علم الاجتماع السوفيتي يكمن في قدرته على السوفيتي بين الرقابة السياسية الفردية وشروط البحث العلمي الموضوعي كما نجد أنه بينما تكون النتائج القابلة للتعريف مستحيلة ، فإنه بالإمكان إعطاء بعض الأحكام التجريبية العينية .

البحث السوسيولوجي السوفيتي :

لقد استمر تزايد الموضوعات التي عني بفحصها ودراستها علم الاجتماع السوفيتي خلال تاريخه القصير ، وكانت المجالات الرسمية الثلاثة التي استغرقت المشكلات التي عني بها علم الاجتماع السوفيتي تتضمن بناء الأساس المادي للهيكلية ، وتنمية العلاقات الشيوعية ، وتنمية المواطن السوفيتي الجديد . وفي داخل هذا الإطار الواسع عني علماء الاجتماع السوفيتي بدراسة موضوعات تراوحت بين أخلاقيات العمل إلى الصور المتنوعة للسلوك المنحرف ، ولقد امتد الإيمان بالفعل الانفرادي التوجيهي إلى علم الاجتماع السوفيتي ، ونتج عنه أن تمت رؤية جميع موضوعات البحث في هذا العلم في ضوء تطبيقها الاجتماعية . كما قد ترتب على الرغبة في ربط النظرية بالتطبيق القليل من الدراسات التي تم إجراؤها فقط لأهميتها في ذاتها - أو التي أجريت من أجل البحث العلمي - وهذا مع ذلك فيما إذا كانت مثل هذه الدراسات قسيدة أثرت شيئاً في علم الاجتماع السوفيتي .

ولعلنا نستطيع ان نقبين أن علم الاجتماع الغربى يتميز بصورة تقريبية بثلاثة اتجاهات رئيسية — يتمثل أولها فى اتصافه « بالعلمية » كما يتميز بكونه يتمتع بدلالة معينة ففضلاً عن خاصيته العلمية — وهى اتجاهات أو خصائص وإن كانت تتداخل فيما بينها إلا انها تميل إلى تحديد الهدف الذى يقوم من أجله علم الاجتماع بمصطلحات مختلفة نماءً . فالانجاء العلمى فى علم الاجتماع الغربى يركز على تحليل المشكلات السوسيولوجية والوصول إلى المعرفة العلمية دون إعتبار لتطبيقاتها العملية . وهذا الاتجاه هو بالمعنى الواسع للكلمة يهتم بطبيعة النظام والاضطراب والتغير الاجتماعى . كما أن دلالة هذا العلم تتمثل فى كونه يهتم بطريقة نقدية بما يحدده علماء اجتماع معينون من الأمراض الرئيسية فى المجتمع — مثل التهديد الذى تتعرض له القيم ، والصور الأساسية فى الصراع الاجتماعى ، أو أى من هذين الجانبين على حده — كما يتمثل الاتجاه العلمى فى النظر إلى هذا العلم باعتباره يكرس بصفة رئيسية لدراسة المشكلات الاجتماعية المباشرة والملمحة فى ضوء القيم الاجتماعية القائمة . ويعتبر الجناح والفقر والجريمة من الأمثلة النموذجية لهذه المشكلات ولكننا حين نعتمد على هذا التصنيف الذى استخدمناه — فى تحديد الخصائص والاتجاهات المميزة لعلم الاجتماع الغربى — نجد أن الاتجاه العلمى يحتل أهمية خاصة فى علم الاجتماع السوفيتى .

ولقد ترتب على الاتجاه السوفيتى فى علم الاجتماع أمور معارضة ، فنجد من ناحية أن القول بعدم وجود المشكلات ليعنى بها علم الاجتماع السوفيتى من الأمور المعروفة جسدأ ، كما أنه كانى هناك دائماً مجالات معينة

تعتبر محرمة لا يمكن التوصل لدراساتها مثل توزيع وأساس القوى الاجتماعية أو التمييز العرقي . وفي الناحية الأخرى نجد أنه في نفس الوقت الذي يشجع فيه على التوسيع في مدى المشكلات التي يتناولها هذا العلم بالدراسة .. فإن الاتجاه الإصلاحى الذى اتخذه أخذ يبدو كأنه يمثل نوعاً من الاتفاق مع الضبط السياسى . وقد نظر الباحثون في علم الاجتماع السوفيتى إلى الأسس التى تقوم عليها أغلب المشكلات الاجتماعية بصفة أولية .. باعتبارها موجودة في سلوك واتجاهات الأفراد نحو بناء المجتمع السوفيتى — وليست تلك الأسس كاملة في هذا البناء ذاته — عن تسليم بأن ليست هناك عيوب في النسق ، ولكن النقص والعيب إنما هو قائم في الأعضاء الذين يضمهم هذا النسق ، ويترتب على هذا أن البحث النقدى الذى يسهل أغوار المجتمع السوفيتى أمر لم يتم حتى الآن .

وبينا نجد أن الخاصية العملية للاتجاه السوفيتى في علم الاجتماع هي من الأمور التى تنتشر معرفتها بين علماء الاجتماع السوفيت ، فإننا لن نتعد من هذه الخاصية عنواناً لهذا المقال ، ولكننا سوف نحاول فقط أن نؤكد ما إذا كانت تلك الخاصية سوف تؤدي إلى معرفة سوسيولوجية ذات دلالة . وإذا كان علم الاجتماع مكرس بصفة أولية لدراسة مشكلة الضبط الاجتماعى — كما هو الشأن في علم الاجتماع السوفيتى — فإن هذا القول يتصف بالتشويش لهذا الاعتبار ذاته إذا كانت أبحاث هذا العلم قد فشلت في أن تختبر — عن قرب — وبطريقة نقدية الترتيبات النظامية التى يمارس من خلالها ذلك الضبط الاجتماعى . والافتراض القائم في الحالة السوفيتية حقاً يتمثل في بساطة في أنه لا توجد عيوب ذات أهمية على المدى الواسع في المجتمع السوفيتى .. ان يؤدي الوقت والعمليات الاشتراكية الجديدة إلى القضاء عليها أو إزالتها .

ونقول ثانية إن ذلك التناقض القائم في الوضع الذي تحمله النظرية الماركسية اللينينية يتميز بالوضوح .. وذلك لعدم قابلية النظرية الماركسية أو أية نظرية أخرى للاختبار — أو بما تنطوى عليه النظرية من عدم القابلية الفعلية للبرور بهذا الاختبار في البحوث الإمبريقية — وينتج عنه الاتجاه إلى نوع من المحافظة على الحقائق التي يتم التوصل إليها . ولذلك نجد هناك نوعاً من عدم الترابط الغريب بين النظرية والبحوث ، بحيث أن البحوث التي تناوَلت مشكلات معينة — مثل : انخفاض الانتاجية في العمل ، أو الاختلافات الطباقية — لا تستند إلى فروض معينة يمكن اختبارها . ولما كانت الماركسية في الحقيقة تنوقع مقدماً اختلاف تلك المشكلات في المجتمع الشيوعي ، ففي هذا ما يظهر بوضوح نوع المعضلة التي ينطوى عليها تحليل هذه المشكلات في المجتمع السوفيتي في الوقت الحاضر .

وفيما يتعلق بنمو الاتجاه السوفيتي في علم الاجتماع ، فإن الافة إلى فروض متسقة وتحليل علمي يحول بصورة واضحة دون ذلك النمو التراكمي في الوقت الحاضر . كما نجد أنه على الرغم من وجود نوع من التكليف الرسمي للباحثين بتفسير المشكلات التي لم تفسرها الماركسية ، فإن علم الاجتماع السوفيتي لم يتوصل بعد إلى ما قد يتوقعه المرء في مثل هذه الظروف من فروض متتابعة أو نظريات ترتبط بالبحوث القائمة . وإن كانت الماركسية تحتل الآن في المجتمع السوفيتي مركزاً متقدماً فإنه لم يبلغ بوضوح بعد حد التساهل ، ونجد أن الحقائق التي يتم التوصل إليها — من خلال الاتجاه السوفيتي في علم الاجتماع — إنما تشجع إلى أبعد مدى وبفاعلية المتطلبات السياسية ، كما نجد أن المادة الوصفية استخدامات متعددة في هذا الاتجاه .

ولسكننا يجب أيضاً ألا نبالغ في القسور بالافتقار إلى نمو تراكمي في علم

الاجتماع السوفيتى . كما أن وجود الاعتماد المتبادل بين النظرية والبحث في علم الاجتماع الغربى ، إنما هو بالتأكيد أمر يقبل المناقشة ، فضلاً عن أن المرء يستطيع أن يدعى بأن الحاجة إلى مثل هذا الاعتماد المتبادل تدبر أمراً واضحاً لعلماء الاجتماع السوفيت مثلاً هو واضح بالنسبة لزملائهم الغربيين ، وذلك على الرغم من خضوع هؤلاء السوفيت من الناحية اللفظية فقط للماركسية . ومع زيادة وتراكم المادة التى يقوم بجمعها علماء الاجتماع السوفيت فهم ربما يذهبون إلى أن يزعموا — كنوع من قبيل الترف العلى وبصورة غير رسمية — بوجود فروض متتالية أو نظريات ، ولكن المشكلة تكمن فى التزام هؤلاء العلماء بالعمل داخل حدود التأويلات الماركسية .

علم الاجتماع الصناعى السوفيتى :

أن اشتغال العلماء السوفيت بعلم الاجتماع الصناعى يصور مدى الصفو بات ونوع الغرابة التى تكمن فى انجاههم العام نحو علم الاجتماع . ومع المحافظة على البقاء داخل الحدود الماركسية الصارمة للبناء الاقتصادى فى المجتمع السوفيتى ، فقد كانت هناك بحوث يمكن النظر إليها بعين الاعتبار كرسى لدراسة سلوك العمل — باعتبارها دراسات تساهم فى رفع الانتاجية — وذلك مع وجود افراض مسبق بأن رفع الانتاجية إنما هو مرتبط بنمو المجتمع الشيوعى ، وأن العمل على القطاء على الطبقات الاجتماعية يمثل أحد الاهداف أو المشكلات كما يمثل بصفة رسمية على الأقل الهدف المعلن للبحث السوسيولوجى . وقد انعكس هذا كله فى علاج هذه المشكلة ، كما يبدو أن الغرض من وراء هذا البحث هو رؤية العوازل التى تقـوم وراء الانتاجية المنخفضة ووجود الطبقات الاجتماعية .

ومثل تلك المناقضات التي توجد في المجتمع السوفيتي في الوقت الحاضر إنما هي في الحقيقة بمثابة دلائل أو شاهد على كون النظرية الماركسية نظرية محدودة ولذا فإن الورطة التي تحيط بعلم الاجتماع السوفيتي الآن تتمثل في ضرورة تفسير مثل هذه الظواهر بدون إنكار صدق النظرية الماركسية أو العلم في المبادئ التي يقوم عليها علم الاجتماع السوفيتي المعاصر .

وقد ترتب على هذا كله أن علم الاجتماع السوفيتي يقوم الآن بمعالجة مبتورة لتلك الموضوعات التي نجد فيها الاهتمام بالوصف أكثر من الاهتمام بالتحليل . وإذا كانت تلك التقارير التي تنتهي إليها البحوث السوسيولوجية، تعترف بوجود الفروق الطبقة ، فهي تعني بمثل هذه المشكلات فقط بين العمال الصناعيين .. مع وابع بتجاهل تلك التكوينات الطبقة في المستويات العليا من المجتمع السوفيتي . كما إن هناك إتجاهاً إلى إبراز الإيجابية التي تؤكد وتدهم البقاء الطبقات ، من خلال تجاهل الفروق الأساسية التي تقوم بينها .. كما في الدور الذي يلعبه التقدم في التدريب المهني الذي يؤدي إلى انضمام على الأسس المهنية للفروق الطبقة ورفع الانتاجية ، وارتباط هذا كله بالتقدم الملحوظ في التكنولوجيا الصناعية — وهي كلها من الأمور التي عرضت بالتفصيل في علم الاجتماع السوفيتي .

ومثل هذا الاتجاه الذي يسميه فيه علم الاجتماع الصناعي في المجتمع السوفيتي إنما يشهد في الحقيقة لوجود حاجة إلى تحليل سوسيولوجي واسع يتضمن علاج هذه المشكلات بصورة فعلية ، فالقول بأن انخفاض الانتاجية يرجع أساساً إلى أسباب تتعلق بالتكنولوجيا والتدريب العالي ، وإعطاء هذا التعريف المبني يجعل علم الاجتماع السوفيتي مفرقاً إلى الاستقلاسية الذاتية في صياغة

مشكلاته الخاصة ومتابعاتها . ويمكن القول بسخرية بأن هذا ينطبق حتى على الجوانب السوسيولوجية التي تنطوي عليها النظرية الماركسية ذاتها . ولهذا نجد أن البحوث الصناعية السوفيتية هي بحوث محدودة ، تتخذ شكل تقارير اجتماعية يتم فيها تأكيد أو إبراز أبعاد المشكلة أكثر من تأكيد أو إبراز العمل التي تقوم وراءها .

وهناك الآن ميل غير طبيعي بين الباحثين السوسيولوجيين الغربيين لإعادة تأويل المادة التي ينطوي عليها علم الاجتماع السوفيتي ، بما يقترب عليه سهولة تحديد كثير من نقاط الالتقاء أو التقارب بين جوانب النمو في كل من المجتمع السوفيتي والمجتمع الغربي . والواقع أن مشكلات المجتمع السوفيتي تبدو متشابهة تماماً مع تلك المشكلات التي توجد في أية أمة دخلت نسبياً في طور الصناعة ، كما تشابه أيضاً الاسم الاجتماعي التي تقوم وراء تلك المشكلات .

وبقول آخر فإن هناك خطأ شائعاً من تلك المشكلات الاجتماعية المرتبطة بالتصنيع قد أعلن ظهوره في الاتحاد السوفيتي . وتلك الملاحظات التي تبدو حتمية والتي تصاحب التصنيع — وهي تتضمن الانفصال الذي يطأ به بين النشاطات التنظيمية ، وخذش القيم الاجتماعية ، وزيادة الحراك الاجتماعي والجغرافي — قد ساهمت جميعها في فقدان روابط التكامل الاجتماعي في الاتحاد السوفيتي . كما أن العلاقات التي تقوم بين عملية التصنيع ، والمشكلات الاجتماعية المتنوعة — التي تتضمن انهيار الأسرة ، والجريمة ، والجناح والأمراض العقلية — تبدو بوضوح تام . وطوال أكانت هذه العلاقة في المجتمع السوفيتي هي علاقة مؤقتة — كما يدعى علماء الاجتماع السوفيت — أم لم تكن كذلك ، فإن القول بهذا الإدعاء لا يمكن أن يكون قائماً على الغن أو التعميم .. مع وجود

التحليل السوسيولوجي السوفيتي للمشكلات الاجتماعية وهو تحليل ضمني وشاق
لغاية في سعيه لتدعيم هذا الادعاء .
مشكلة القيم :

طالما كانت الماركسية اللينينية تستند إلى جزاءات سياسية — أو
غير سياسية — كذا تضاهات فائدتها كنظرية سوسيولوجية إسمية . كما أن
الأفكار القائمة في هذه الماركسية اللينينية — حول الحقيقة الإمبريقية التي تعتبر
في الوقت الحاضر مسألة حكمية — تمثل الأهداف التي ينبغي بلوغها، كما تمثل
أيضاً تفسيرات للظواهر الاجتماعية تجعل منها بمثابة أيديولوجية كما هي نظرية
في علم الاجتماع . ولكن الانغماس في نزعة التقييم والإمبريقية الماركسية — كما في
أية نظرية أخرى — يضعف من فاعلية هذه النظرية في التفسير العلمي .

ولما كانت كل المجتمعات تظهر اختلافاً أو تبايناً بين المثالي والواقع —
أو بين ما هو مرغوب فيه وما هو موجود في الحقيقة فعلاً — فهي تنطوي
على توترات أو بقول آخر أكثر بساطة مشكلات . وتفسير هذه المشكلات
يمكن من طريق المعرفة العلمية الإمبريقية والأيديولوجيات ، أو بالرجوع إلى
هذه الأخيرة وحدها . ولكن الفارق الرئيس بين النظرية السوسيولوجية
والأيديولوجية يتمثل في أن تلك النظرية السوسيولوجية تحاول
فقط أن تفسر الحقيقة .. بينما نجد الأيديولوجية تقيمها وتحدد لنا ضمير
ما كان ينبغي أن يكون . وهذه هي المشكلة القائمة لفترة طويلة في علم الاجتماع
وهي تتمثل في ضرورة الفصل بين القضايا القيمية — أو التقويمية — وبين
الملاحظات الواقعية .. وهذه القضايا وتلك الملاحظات تميل إلى الاتصال في
الفكر الأيديولوجي . وهذه هي المشكلة في علم الاجتماع السوفيتي — حيث
يجد أن ما يعتقد في أنه سوف يوجد — أو ما كان يجب أن يوجد في

مستقبل المجتمع الشيوعي - في حدود النظرية الماركسية يمتزج بحرية بالملاحظات التي تقوم حول المجتمع السوفيتي المعاصر . كما نجد أن المشكلات - أو التوترات الرئيسية - في المجتمع السوفيتي محدودة في الإطار الماركسي ، فهي تتزامن مع طرق علاجها الخنمي بمجيب الشيوعية . ويبدو أن هذا يحد من الحاجة إلى ملاحظات إمبريقية معاصرة ، كما أننا في دراسة أي حدث من الأحداث الاجتماعية نجد تلك الخاصة المستقبلية - لعلم الاجتماع الماركسي - تشترك باتجاهه الانقاضي في علاج المشكلات التي تنصل بالمجتمع السوفيتي المعاصر .

والواقع أن مشكلة الأيديولوجية في علم الاجتماع تنطوي على تهديد الموضوعية ، حينما يكون هناك تباين بين ما يعتقد بوجوده في العالم الاجتماعي ، وبين ما يمكن أن يؤسس عليه - أو في هذه الحالة ما يمكن أن يتأسس سوسيولوجيا - على أنه الصحيح . ونجد في النظريات الأيديولوجية ميلا نحو ملء الثغرات أو الفجوات في المعرفة الإمبريقية حول المشكلات المجتمعية بالاعتقادات القيمية ، وهنا يحل الحكم القيمي محل الحقائق الإمبريقية .

ولعل هناك صعوبة تواجه علم الاجتماع في اتجاهاته المختلفة ، وتكمن في محاولة البعد عن الاستناد إلى الحقائق القيمية في البحث العلمي وهو الأمر الذي يتحقق إما عن طريق خلط الحقائق بالقيم ، أو السماح بإقحام القيم في تقرير ماهية الحقائق . وإن كنا نجد في جوانب معينة أنه ما زال هناك إنكار لإمكانية وجود علم اجتماع موضوعي ، فهذه المشكلة وجدما - دون مشكلة الأيديولوجية - تبدو بشكل جاد في

موقف علم الاجتماع السوفيتي ، وذلك بحسب الايديولوجية كخاصية جوهرية في الفكر الماركسي الذي يقوم على مجموعة من القيم . كما أن هناك اعتقاداً في أن الفكر الماركسي يعتبر قيمة في حد ذاته — وبغض النظر عن المحتوى التقييمي للماركسية ذاتها — ولعل الموقف بهذه الصورة يهيئ تربة فقيرة للمو علم اجتماع متحرر من القيم .

ومع هذا كله فليس هناك عيب في علم الاجتماع الماركسي إذا تم استخدامه بطريقة إمبريقية ، وإذا نظرنا إلى الماركسية ذاتها باعتبارها نظرية إمبريقية يمكن أن تكون موضوعاً لنفس الاختبار الإمبريقي الذي تخضع له كل النظريات الأخرى . وحتى يجيء الوقت الذي يتحقق فيه هذا فإن علم الاجتماع السوفيتي سوف يستمر في تميزه بخاصية الموضوع إلى حد بعيد نسبياً للتصورات المعاصرة من الماركسية وما تقدمه من أحكام قيمية باعتباره معرفة سوسيولوجية .

ولا يعني هذا أننا نميل إلى القول بأن علماء الاجتماع السوفيتي ليسوا على وعي تام بالفرق بين الحقيقة والقيمة .. أو بمشكلة التحيز الايديولوجي كمشكلة عامة . ولكننا نضيف إلى ذلك إشارة إلى أنواع الضغط السياسي الذي يمتثل في علم الاجتماع السوفيتي . وفطلا عن هذا كله فإن النتائج السوسيولوجية التي تتضمنها التقارير التي تكتب في علم الاجتماع السوفيتي سوف تستمر قراءتها باعتبارها تقارير حول التقدم الذي تم خلاله قطع بعض المسافة في طريق الرحلة إلى الشيوعية ، وتحديد المسافة المتبقية في هذه الرحلة . فمثل هذه الموضوعات أو المسائل تمثل أوع الاهتمامات — كما تمثل نوع التأريلات — التي تخضع لها المادة السوسيولوجية في علم الاجتماع السوفيتي . كما تبدو البيانات التي تتضمنها هذه المادة مهمة أكثر ببيان هذا التقدم ، أكثر من اهتمامها

بمجميل العلاقات القائمة بين المنهجيات السوسولوجية ذاتها .

النزعة التطبيعية السوفيتية - مشكلة أخرى من مشكلات علم الاجتماع السوفيتي :
نلاحظ الآن ومنذ فترة تبلغ حوالي العقد من السنوات - ومنذ بدأ علم الاجتماع السوفيتي الجديد حتى وصل إلى تلك الدرجة العالية في طريق نموه - وحتى الوقت الحالي ، وهذا العلم يعيش مرحلة مملوءة بالحرص على الالتزام بالنزعة الإمبريقية - أو على حد تعبير علماء الاجتماع يعيش فترة من الإمبريقية الحذرة ، - وهي مرحلة تلت تلك المرحلة الابتدائية التي شقها هذا العلم لتأسيس نفسه باعتباره اتجاهًا اجتماعيًا أكاديميًا جدير بالاحترام كما يتمتع بالاعتراف السياسي . وبينما نجد أن النقد بالنسبة لعالم الاجتماع الغربي يعتبر أمراً يمكن ممارسته بكثير من السهولة - وهو ما يتسق مع القصور بخطر التحيز في أية تقديرات قد ينهض إليها هذا العلم - ففي هذا إبراز لمناخ الموضوعية التي يتميز بها علم الاجتماع الغربي ، كما أن فيه من ناحية أخرى إبرازاً لمسدى الانجازات التي حققتها علم الاجتماع السوفيتي ، وتعبيراً عن طبيعة الحدود التي يقف عندها هذا العلم .

وحيث يعتبر الاتجاه الذي يسير فيه علم الاجتماع السوفيتي الآن نحو الدخول إلى حين الفحص الإمبريقي ، بمثابة تقدم بعد تلك المرحلة الأولى التي كانت تقوم على المحاورات النظرية أو حتى المحاورات السياسية - وسواء أكانت هذه الحركة التي حاولنا أن نشير إليها هي الآن حركة انتقائية أو محافظة في اتجاهها - فإن كلا من هذين الانجسامين قائم في نوع الموضوعات التي توفرت على دراستها ، والطريقة التي أمسكت بها تلك الموضوعية . ونضيف إلى ذلك كله أن تلك الرغبة القائمة في النظر بعين الاعتبار لعدد متزايد

من الأمراض الاجتماعية في المجتمع السوفيتي تعتبر خطيرة هامة وضرورية نحو علم الاجتماع الموضوعي ، وإن كان الحذر لا يزال يفرض شيئاً من الترفع بطريقتنا أو بأخري في تطبيق التحليل السوسيولوجي في صياغة وفحص المشكلات السوسيولوجية ، فإننا نجد أن الانحدار السوفيتي في علم الاجتماع لم يحقق بعد نجاحاً كبيراً .

وسواء أكان من الممكن أن نصف المجتمع السوفيتي المعاصر بأنه مجتمع منفعي أم أنه ليس مجتمعاً غير مادي — فهو لم يصل بعد إلى النقطة التي يمكن معها أن يوجد فيه علم اجتماع مكتمل . ولا نعلم هنا بعلم الاجتماع المكتمل البنني الكلي للنظريات وطرق البحث القائمة في علم الاجتماع الغربي ، ولكننا نود أن نشير إلى أن أي اتجاه لعلم اجتماع نظري محدود في اتجاه واحد — مثل علم الاجتماع السوفيتي — إنما يتطلب اعتباراً لنظريته ، كما يجب عليه أن يتقبل بهدر رحب وجهات النظر المختلفة في طبيعة علم الاجتماع والمجتمع الذي يوجد فيه . وبدون مثل هذه الدرجة من المرونة فإن الإبداع السوسيولوجي يتعرض لنوع من المعاناة ، إذا كان لنا أن نحكم — في ضوء الخبرة السوفيتية ، والظاهر — بأن المناخ السياسي في المجتمع السوفيتي لا يساعد في الوقت الحاضر على وجود مثل هذه المرونة .

كذلك فإن الخاصية الآلية التي يتمتع بها علم الاجتماع السوفيتي تشير مشكلة جديدة أخرى في ضوء للتقاليد السوفيتي الذي تحقق ظهوره ، حيث نجد أنه من الصعب تأكيد مدى الثقة في المادة الدالة أو المثبتة التي تجمع من أعضاء المجتمع ، تلك المادة التي تحررت مؤخراً فقط من الخضوع المنسق الضبط الاجتماعي الذي يقوم على أساس الخوف . حقيقة إن سلوك أعضاء المجتمع

بمثل هذه الصورة ينظر إليه في الوقت الحاضر على أنه « مشكلة »، يجب القضاء عليها ، إلا أن ذلك لا شك يسبب مصاعب جديدة في عملية جمع المعلومات . وهذا ينطبق بوجه خاص على دراسة تلك « البقايا » — مثل السلوك الديني — حيث أن مثل هذا السلوك غير المرغوب فيه من جانب « الذم » الرسمى ، يؤدي حذساً بمن يمارسه أن يرفض فكرة قيامه كمتبر في بحث يقوم به عالم الاجتماع بهدف القضاء عليه أو استبعاده من المجتمع .

والقد أدى اخذ حلال الماضي المنفعي والحاضر الذي يستند إلى الخبرة العملية — وإن كان أكثر استرخاء — إلى أن يصبح هدف علم الاجتماع السوفيتي هدفاً مهيئاً إلى حد بعيد . فهذا العلم هو في الجوهر يحمل بأعباء دراسة السلوك بغرض تغييره .. إلا أن تباين الأهداف لدى من يخضع للملاحظة — ومن يقوم بها — وهو أمر قد يكون مبنياً فقط على شئ من التخمين .. إلا أن مثل هذا التباين — إلى جانب المناخ غير الملائم الذي يتم فيه البحث السوسيولوجي — يؤدي إلى تعقيد عملية الحصول على معلومات سوسيولوجية موثوق بها . وينتهي هذا — بقول آخر — إلى أن تنهار تلك « مشكلات الوصول إلى المعرفة السوسيولوجية الصادقة » كما هي مفيدة . كذلك يجب أن نسال أنفسنا عما إذا كان علم الاجتماع السوفيتي يمكن أن يصل إلى معرفة سوسيولوجية من وجهة نظر الإبداع العلمي تحت وطأة هذه الظروف . وإن كانت تلك الدرجة العالية نسبياً من التوافق بين علم الاجتماع وموضوعات بحثه تعتبر ظرفاً لا بد من توفيرة لقيام البحث العلمي ، فإن ذلك التوافق في الاتجاه السوفيتي في علم الاجتماع يأخذ شكلاً مبهماً غير محقق للغاية ، مما يؤدي إلى الحكم بأن جوهر علم الاجتماع — ومدى ما يترتب عليه من فائدة — هو أمر مشكوك في صدقه أو وجوده .

الخلاصة :

عندما نقوم بتحديد المهمة التي يقوم بها علم الاجتماع السوفيتي ، يجب علينا في الحقيقة ألا نأخذ هذا الأمر بصورة حرفية إلى حد بعيد . فقد كانت إقامة بناء الشيوعية تمثل الهدف المعلن لهذا العلم ، وقد شاركته في هذا الهدف كل النشاطات الأخرى في الاتحاد السوفيتي . ولكن ما يكون موضع الاهتمام في مبعث أكاديمي — مثل علم الاجتماع — هو كيفية ترجمة هذا الاعلان الرسمي إلى نشاط علمي في الواقع ، أو الحكم على ما إذا كانت هذه الترجمة قد تمت أو لم تتم بعد فملا ، وهل ساعد هذا الاعلان الرسمي على وجود علم اجتماع حقيقي .. وذلك مع النظر بعين الاعتبار إلى تلك المناصب أو الانتقادات التي تؤخذ على أي من العلوم المعنية بدراسة المجتمع .

أما فيما يتعلق بما يقوم به علم الاجتماع السوفيتي في الوقت الحاضر ، فإنه من الواضح أن مثل هذا الاعلان الرسمي لا يزال حتى الآن يكون إطاراً محدوداً لنشاط ذلك العلم . وفي داخل حدود هذا الاعلان فقد حقق علم الاجتماع السوفيتي شيئاً من التقدم . وبالمعنى السوسيولوجي للكلمة فإن تلك التطبيقية الملتزمة الواعية في ذلك العلم — قد أثرت معلومات مسحية جوهرية حول الظروف المتنوعة في الاتحاد السوفيتي . وإن كانت القيمة السياسية لمثل هذا البحث تعتبر أمراً واضحاً . إلا أنها تعكس المجال المحدود للحرية التي منحت لذلك العلم . وقد كان نوع الحقائق المستخلصة ونفسها محدوداً بالضرورة بالمطالب المستمرة من الاستبدادية السياسية الفردية وما يسببها من أيديولوجيات ، ومع ذلك فإن الرغبة في الاعتماد على المساعدات التي يقدمها علم اجتماع محدود فيما يتعلق باتخاذ القرار السياسي كانت في حد ذاتها نوعاً من التقدم المشجع للاتجاه السوفيتي في علم الاجتماع .

إن تلك الصورة الجانبية غير المستوية لعلم الاجتماع السوفيتي — ولتي يقع عليها نظرا علم الاجتماع الغربي — تبرز الحاجة إلى نمو سوسيولوجي متحرر ومستمر ، وإن كنا لا نستطيع أن نقول بوجود علم اجتماع ماركسي مغمور .. إلا حين يسمح للباحثين السوسيولوجيين السوفيت بحرية ممارسة الفكر كميّار علمي لا بد منه ، وعلى أن تنعكس تلك الحرية في الممارسة الفعلية وليس في الخسوع باللسان فقط لهذا المقيار . وبغير هذا كله فليسوف يتميز هذا الاتجاه السوفيتي في علم الاجتماع بصورة أو بأخرى ليس بإضافاته السوسيولوجية ، ولكن بوصمة تفرقه في ارتباطه الثقافي إن لم يوصف بالعقم . وسوف يعبر هذا الاتجاه الشكي في علم الاجتماع السوفيتي عن وجوده بالتحديد في تقديرات مختلفة حول المجتمع السوفيتي .. ولا نشير في هذا الصدد إلى الرؤى — أو وجهات النظر — المختلفة التي تقوم نحو طبيعة وإمكانات علم الاجتماع ذاته ، أو في تطبيقاته لدراسة المجتمع السوفيتي . كما سيتمين على علماء الاجتماع أن يحرموا أنفسهم تماماً من الارتباط بأوضاع المجتمع السوفيتي ، كما فعل ذلك أشقاؤهم الغربيون ، وسوف يكون في هذه الحالة من الممتع — وبما يثير الاهتمام — أن نلاحظ كيف أن الشككية النسبية في علم الاجتماع السوفيتي تتصل بوجهة نظر تفاؤلية نحو المجتمع السوفيتي .

ونضيف إلى هذا كله أنه من ناحية لا يوجد علم اجتماعي محلي يستطيع أن يصادق هو نفسه على مشروعيته ما دام هذا العلم ينتمي إلى التيار الرئيسي للفكر السوسيولوجي العام ، ومن ناحية أخرى لكي يتحقق نمو علم الاجتماع العالمي فهو يحتاج إلى نتائج علم الاجتماع السوفيتي ، وليس علم الاجتماع السوفيتي أقل حاجة في نموه إلى نتائج علم الاجتماع العالمي . وبجانب هذا كله فإن

الوصول إلى تعميمات ماركسيولوجية — ماركسية كانت أم غير ماركسية — يتطلب الأخذ والعطاء من خلال التبادل العالمى دون أن نشير في هذا إلى ذلك التوسع في دراسات التقاطع الثقافي . وإله من الصعب أن ندعى سواء بوجود اختلاف أو وجود تماثل بين المجتمع السوفيتى والمجتمعات الصناعية الغربية .

ويمكن لنا أن نقرر بعد هذا كله أن الاتجاه السوفيتى في علم الاجتماع يحتاج عقبات في حيل نموه . وهذه العقبات ترجع لأسباب داخلية تتعلق بوضعه الحالى في المجتمع السوفيتى ، كما ترجع إلى أسباب خارجية تتمثل في علاقته بعلم الاجتماع الغربى . ولأن هذا العلم لا يتجه إلى الانفلاق العرقى فهو بسبب هذه الخاصية ذاتها سوف يسير في طريقه إلى أن يلحق بعلم الاجتماع الغربى . وبالنظر إلى تلك الامتيازات التى حققها علم الاجتماع الغربى ، فقد كان للمرء أن يتوقع مثل هذا الاختلاف بين علم الاجتماع السوفيتى وعلم الاجتماع الغربى ، كما أن ملء تلك الفجوات يعتبر مشكلة سياسية أكثر بكثير من كونه مشكلة عقلية .

ولكننا من ناحية أخرى إذا استندنا إلى مقاييس محددة نجد أن علم الاجتماع الغربى لا يستطيع — إلا بصعوبة — أن يكتسب تقريرنا بنحقيقه لمعرفة ماركسيولوجية ذات دلالة وقادرة على تفسير جانب كبير من الظواهر أو التنبؤ بها . ولهذا فإننا نرى أن أسباب علو تلك الميزة التى يحتلها علم الاجتماع الغربى كاشنة في اتساع مدى المشكلات التى توصل إلى اكتشافها — وفي سيرة البحث نحو المعرفة المتمعة — أكثر من كونها ترجع إلى نوع المعرفة التى تختص بها هذا العلم . . فهو وإن لم يكن لم يتوصل بعد إلى علاج مشكلات المجتمع الصناعى ، لكنه قد حقق مزيداً من الاستيعاب العميق بمداهها وتعقدها ، وهو بهذا يكون قد حقق ما هو أكثر مما أنتجته أو ما هو من المستحب أن ينتجه علم الاجتماع

السوفيتي في هذا المجال ، وفي داخل تلك الحدود التي تقيدته في الوقت الحاضر .

مستقبل علم الاجتماع السوفيتي :

هناك الآن بلا شك دوافع إلى اتساع علم الاجتماع السوفيتي ، ويمكن لعالم الاجتماع أن يشير إلى علامات واضحة ملموسة تدل على ملامح هذا الاتجاه .. ولكن ما يبدو مرسوياً على وجه الخصوص هو الرغبة في القيام بعدد مختار من دراسات النقط النقيض ولكن لما كان هذا العلم لا يزال أسير قيود الكريملين — كما هو معروف أنه لا يزال أسير الاحكام القائمة على أساس النسبوية فيما يتعلق بمواهب المجتمع السوفيتي — فإننا لا نستطيع أن نعتمد على هذه النبوءة أيضاً في تحديد اتجاهات النمو الذي قد يحققه علم الاجتماع السوفيتي في المستقبل ، ولكن يمكن القول بأن اتجاه هذا العلم في الاتجاه الغربي يعتبر أمراً غير مستحب في ظل الظروف القائمة .

ونحن فقط نستطيع للأسف أن نحدد تلك الظروف بالنظر إلى ما يقوم بتحقيقه هذا الاتجاه السوفيتي في علم الاجتماع ، فنجد أن بحوثه الإمبريقية المتواضعة نسبياً لم تضارع فيما أنجزته تلك الانجازات التي ترتبت على خاصية التراكم العلمي في الانجازات الأخرى في علم الاجتماع ، كما تبرز الموقف الذي يقضي على الاستقلالية العلمية ويقضي معها على احتمال قيام علم الاجتماع حقيقياً كما أنه من الصعب أن تصور وجود علم اجتماع سوفيتي يتعدى مرحلته الحالية بدون تعديلات أساسية في البناء السياسي ، حيث أن النظرية في علم الاجتماع الإمبريقى القائم في الاتحاد السوفيتي تقوم على أساس من مشروعية القرارات السياسية التي تستند إلى تأويل معين للباركسية الفينينية العلمية . ولهذا فإن

توسعاً — أو نمواً ذو دلالة — في علم الاجتماع السوفيتي يبدو أنه يتطلب نوعاً من اختزال السلطة السياسية والمركز الذي تحتله الماركسية ، أو على الأقل يتطلب اختزال هذا المركز وحده .

وحيث أن من المفيد أن نرى الاتجاه السوفيتي في علم الاجتماع في حدود المراحل التي مر بها ، فإن مسنده الرؤية ذاتها تقودنا في طريق خاطيء عندما نحاول تحديد اتجاهات نمو هذا الاتجاه في المستقبل . وليس وجود علم اجتماع سوفيتي كامل طبقاً للتقاليد الغربية بأمر وشيك الحدوث إذا كنا نتصور في الحقيقة أن هذا هو الاتجاه الذي سيتهجه إليه هذا العلم في مرحلته القادمة من مراحل نموه . ومع النظر بعين الاعتبار للمعلومات التي يعمل خلالها ذلك العلم في الوقت الحاضر ، فإن مستقبله يصرى على أحسن وجه كاستمرار متسق مع الاتجاهات السياسية التي تتجابه ، كما أن وانتقال هذا العلم إلى مرحلة جديدة أعلى — إذا كان لها أن تأتي — يبدو أنه سيكون من خلال انتقال بطيء ومؤلم وفي غير موضعه .

ونقول في نهاية هذا التحليل ان الدفعة التي ستؤدي إلى نمواً أو تقدم أعظم في ذلك العلم سوف تأتي من خلال النمو المستمر في تعقد المجتمع السوفيتي ذاته . فالمشكلات التي تلزم هذا التعقد تعتبر مصدراً هاماً للضغط على نظامه السياسي . بعض النظر عن شكله ، كما أن ذلك الدافع إلى تحقيق مزيد من المعرفة العميقة بتلك المشكلات قد يفت في قدرة تلك المعوقات السياسية على الاحتفاظ بعلم الاجتماع السوفيتي داخل حدودها .

كذلك في نهاية هذه الدراسة التي نقوم بها في سوسيولوجيا المعرفة

نستطيع أن نقول أن الخبرة السوفيتية تعطينا رؤية للبحث السوسيولوجي الذي يعمل في مجال من الضغط السياسي وعدم التثبيت في أحسن الظروف الاجتماعية ، وهي تبرز لنا أيضا كيف كانت انجازات علم اجتماع كهذا انجازات متواضعة ومع ما يراجه علم الاجتماع السوفيتي - في الوقت الحاضر - من مناخ اجتماعي يفتقر إلى الحدود المثالية لنمو المعرفة ، فإن هذا العلم يفتقر بالتالي إلى التقدرات الضرورية والجوهرية للنمو الخالق .

وبعد فإن علم الاجتماع الذي تديره السياسة ويعنى بعدد مختار من المشكلات يبدو ممكناً . كما نجد في الحالة السوفيتية بصورة أو بأخرى أن القيود المفروضة لا تتفق مع نوع الاتساع في التفكير المنوط بعلم الاجتماع ، حتى إذا كانت تلك القيود متصلة بجانب محدود من الموضوعات .. لأنه حتى مثل هذا النوع من علم الاجتماع المنضبط أو علم الاجتماع الملتزم ، إنما يحتاج إلى تعدد وتنوع في الاتجاهات ، وهذا يعني بقول آخر أنه إذا تحققت لعلم الاجتماع السوفيتي مثل تلك الظروف فمن المحتمل ألا يصبح مختلفاً من علم الاجتماع الغربي .

مدى أزمة علم الاجتماع في جمهورية ألمانيا الديمقراطية

عقد المؤتمر السابع لعلماء الاجتماع الألمان الذي نظمته الجمعية الألمانية لعلم الاجتماع في مدينة كاسل في الفترة من الحادى والثلاثين من أكتوبر إلى الثانى من نوفمبر سنة ألف وتسعمائة وأربعة وسبعين. وقد اجتذب هذا المؤتمر كثيراً من الاهتمام ، فحيث كان من المتوقع أن يشارك فيه ثمانمائة من علماء الاجتماع نجد أن الحضور قد بلغوا ألفاً وأربعمائة ، منهم حوالى خمسمائة من الطلاب الذين كان من بينهم مائتان وخمسون فقط أعضاء في الجمعية . ولم يسل بالامكان أن نقرروا أنه كان من بين هذا الجمع الكبير من الأشخاص الذين شاركوا في أعمال المؤتمر جانب من غير المتخصصين ذوى الاهتمام بعلم الاجتماع . ولكن أرقام المشاركين في هذا المؤتمر مطابقة في ذاتها إلى حد معين - لوضع علم الاجتماع في جمهورية ألمانيا الديمقراطية كما أنها متفقة مع عدم ارتباط المؤتمرين - كما هو الشأن في مثل هذه الاجتماعات - بمسألة علمية معينة ، حيث كان هذا المؤتمر يهدف إلى صياغة « كشف حساب مبدئى » لوضع علم الاجتماع في ألمانيا خلال منتصف السبعينيات من القرن الحالى .

ولقد كان من الطبع أن تتمايز في ذلك الهدف العام للمؤتمر اهتمامات بجوانب متصلة بمسائل معينة ، ولهذا فقد تضمن جدول أعمال المؤتمر تخصيص اليومين الأولين فيه للمقارنة بين نظريات علم الاجتماع ، وتبع ذلك مناقشة مستفيضة للمناهج تضمنت كل العمليات التحليلية الممكنة في الدراسات فى العوسولوجية والمشكلات المرتبطة بها .

وقد كرست الجلسات التالية لمعالجة من الموضوعات تناولت ترتيب الفئات الاجتماعية والثقيل الاجتماعى - والتطبيع الاجتماعى - والدولة والتنظيم

السياسى — ومشكلات التعليم — ومشكلات البحوث الحقلية — والثريسة
والعمل — وعلم الاجتماع الطبى والمؤشرات الاجتماعية — والمدينة
وتخطيط الضواحي والبحث العلمى — وعلم اجتماع التنمية — والعائلة
والشباب .

وبقدم لنا اثبت الموضوعات التى تناولتها جلسات المؤتمر — بهذا الشكل
ومع النظر إليها ككل — صورة معبرة بالنأ كيد عن النشاطات السوسولوجية
في الجمهورية الديمقراطية ، كما نجد أنفسنا خاليق بنا أن نؤكد أن الأوراق
التي قدمت للمؤتمر — قد تضمنت بعض الأعمال التي تنصف بالاضطلاع
والجددة .

ومع هذا كله فإننا لا نستطيع أن نقول ، ونحن على درجة عالية من النقيض ،
أن المؤتمر — على الرغم من هدفه المعلن — قد عكس في الحقيقة وضع وموقف
علم الاجتماع في جمهورية ألمانيا الديمقراطية بأية طريقة وفي أى موقع . وعلى
العكس من ذلك تماماً فإن ذلك الاهتمام في الموضوعات التي حددت بطريقة
انتقائية — كما أن تلك المصطلحات الجافة المحايدة التي تمت فيها صياغة هذا
التنوع متعدد الجوانب في مضمون علم الاجتماع — قد أدت إلى اتسام
الموضوع الرئيسى أو الجوى للمشكلات التي يتضمنها كهدف الحساب المبدئى
لعلم الاجتماع في الجمهورية الديمقراطية بهالة مهيبه من النصوص المتعمد ،
وبخاصة فيما يتعلق بما إذا كان هذا الوضع يعبر عن اتجاه تقدمى أو رجعى ،
وما إذا كان بالإمكان مقارنة علم الاجتماع الألماني — في تدريسه ودارسيه
وبحوثه — بما تم إنجازه في أى مكان آخر ، وفوق هذا كله فيما يتعلق بما إذا
كان من الممكن لنا في الوقت الحاضر أن نتكلم عن علم الاجتماع الألماني بنفس

التعبيرات الرائعة التي جاءت في مؤلف البرت سايم الذي صدر عام ١٩٥٤
وعنوانه : علم الاجتماع الألماني .

وإذا تساءلنا عن الأسباب التي أدت بذلك الجمعية التي تمثل علم الاجتماع
في الجمهورية الفيدرالية — وهي الجمعية التي نظمت هذا المؤتمر — إلى تجاهل
تلك المشكلات الأساسية وما يترتب عليها أيما تجاهل ، فسوف نجد أن ذلك
لم يكن يرجع فقط للرغبة في استغلال الفرصة لتنظيم تجمع يمثل مؤتمراً هاماً
عالمياً لعلم الاجتماع — كما أنه لا يرجع للرغبة في إتاحة الفرصة لأكبر عدد
ممكن من المدرسين الجامعيين لكي ينتموا إلى تقديرات معينة — ولكن ذلك
يرجع في الدرجة الأولى إلى الشعور المتعمق في قلوب كل المهتمين
في أعمال المؤتمر بهول الكارثة التي تعرض لها علماء الاجتماع في جمهورية
ألمانيا الديمقراطية والتي اتخذت صورة المرض الخبيث الذي لا يرغب أحد
في تشخيصه ، ولكنه يترك لكي يمالج نفسه بنفسه مخافة أن يؤدي ذلك
بصورة مبدئية إلى إتلاف لوضعه الخاص .

ولقد كان لجذور ذلك المرض سببان رئيسيان يتمثلان فيما يلي :

أولاً : نجد من يطلع على برامج المحاضرات في مؤسسات التعليم
العالي — كالجوامع ومعاهد التعليم المتخصصة وما إليها — في جمهورية
ألمانيا الديمقراطية كثيراً من الامكانيات المتاحة في كل مكان للعمل
السوسيولوجي ، كما أن المخطط الدراسية التي تقرها وزارات التعليم
بشعبه المختلفة تبين من أن المتخصصين في الاقتصاد والسياسة والفلسفة
والتربية ليس هم وحدهم الذين يجب أن يقرأوا في علم الاجتماع بقدر

إجبارى .. ولكننا نجد المحامين والأطباء والفنانين النخطيطيين والنحاتين والموسيقين والمدربين الرياضيين وخبراء المسرح والمعلمين فى مدارس الطب الطبيعى هم أيضا يتلقون مقررات إجبارية فى علم الاجتماع .

ولقد جاءت فكرة وضع « علم المجتمع » فى مرتبة المقرر الإجبارى أو المقرر الثانوى فى كل فروع المعرفة مواكبة لتنوع وزارات التعليم التى نظمت على أسس فيدرالية ، كما جاءت متفقة مع الاعتقاد بوجود نوع من الانتماء حول « الزام اجتماعى » ، وبالإضافة الى ذلك فهى ترجع أيضا للطريقة البدائية جداً فى التفكير فلقد بدأ — بطريقة أو أخرى — أن هناك دلائل على وجود اتجاه توفيقى يعمل لامتناس ما بثورات الطلاب .

ويقول آخر فلقد كان هناك اتجاه عام — وإن لم يكن محددًا — سيطرت فيه آراء نقول بأن علم الاجتماع كقرر دراسى ربما يعتبر أفضل مقرر مناسب لتلبية القليل من مطالب الماركسية لدى الأحزاب الحاكمة — والطلاب اليساريين وذلك دون أن تظهر الماركسية ذاتها كقرر فى خطط الدراسة .

ولقد كانت النتيجة التى ترتبت على انتماء علم الاجتماع كدراسة فى المجتمع جمالية فى الوضع الراهن للأحداث — ليس فقط فيما يتعلق بغزارة المادة السوسيولوجية ولكن أيضاً لأن هذا المبحث قد أنتج متخصصين يتسمون بضيق الأفق — وهو ما يعتبر أكثر الأشياء خطورة بالنسبة لهذا التخصص — حيث نجد أن طلاباً قد استمعوا إلى عدد قليل من المحاضرات فى أساسيات علم الاجتماع يعتبرون أنفسهم علماء اجتماع مدربين بما يجعلهم يتكفون بما تيسر لهم من خبرات محدودة تتيح لهم احتلال مراكز فى أجهزة الإدارة والتعليم فى الاقتصاد والفنون .. الخ .

وفيما يتعلق بالسبب الثاني في جذور أزمة علم الاجتماع في الجمهورية الفيدرالية فيما يتعلق بالمستوى الأكاديمي للتخصص، فلقد أصبح علم الاجتماع الألماني ذي أهمية وتأثير وصلا إلى حد تخصيص كتب بأكلها للتعريف به، وذلك بفضل شخصيات مثل ماكس فيبر وفريزاند تويس وجورج سمبل والفرد فير كانت وكارل مانهيم .

ثم جاءت الفترة المظلمة للحكم النازي وفيها وصم علم الاجتماع بكونه « عدو للشعب » . وتلت هذه مرحلة جديدة هي مرحلة إعادة الانعاش التي احتل فيها كثير من علماء الاجتماع الألمان المبرزين مكانتهم . وبدأ علم الاجتماع الألماني بخطواتها وسريعة في إقامة صلات جديدة بالدوائر العلمية العالمية في محاولة ليكون له أثر محسوس في مجتمعاتنا .

ولقد كان على مؤتمر كاسل - في صياغته لكشف حساب مبدئي لوضع علم الاجتماع في ألمانيا - أن يعنى بتوقف التساؤل في الوقت الحاضر حول مثل هذا التأثير . كما أن علماء الاجتماع في جمهورية ألمانيا الديمقراطية لا يشاركون في الإدارة الشعبية أو في صياغة القرارات السياسية ، كما أنهم لا يشاركون في شئون الاقتصاد والعدل والرعاية الاجتماعية والتمويل . وفي نفس الوقت فهم قد استطاعوا أن يكونوا عمالا جيدين - بقدر عدم الرغبة فيهم - في كل المجالات الاجتماعية . فحيث لم تنح لهم الفرصة لتطبيق ما تعلوه - إلا بصورة هامشية - فقد عملوا كمرافقين في البنوك وبائعين في متاجر الملابس ، ومندوبين متجولين لبيع الأدوية ، ومطيعين في محطات الإذاعة ، ومديرى دعاية ، كما عملوا كمساعدين مطيعين سياسياً في بحوث مسح الرأي العام .

وإذا نساء لنا عن الأسباب التي أدت بالمتخصصين الألمان في علم الاجتماع إلى وضعهم الحالي ، فإننا نجد صعوبة في تصور أن يكون ذلك مرجعه افتقارهم للذكاء ، أو مرجعه الكسل العقلي أو عدم الاهتمام من جانب هذا الجيل من المتخصصين في علم الاجتماع . كما أننا نعتبر — بناء على تقييم مباشر — أن ذلك الوضع المؤسف للأحوال إنما يرجع إلى ما يوضع على بساطه المناقشة في غرف المحاضرات ، ومن ثم فقد كان اضمحلال علم الاجتماع في جمهورية ألمانيا الفيدرالية خلال السنوات القليلة الماضية متمثلاً في انحساره من المعرفة والأفكار بصورة تقريبية إلى ما يلي :

لقد أعيد بناء الكثير في ألمانيا مرة أخرى بعد الحرب العالمية الثانية — كما سبقت الإشارة إلى ذلك — وعلى وجه الخصوص فيما يتعلق بتحقيق ذلك التوازن البراجماتيكي — المنفعي — الذي تقوم عليه المدرسة الأمريكية ، بجانب التبني — إلى حد ما — للإطار المرجعي الأخلاقي الفرنسي ، وذلك مع وعي كامل بإمكانات التطبيق العملي الذي ينطوي عليها كل من الاتجاهين . ولكننا نجد أنه أمر طارئ ما سيطرت على تلك المرحلة في تطور علم الاجتماع الألماني — ويمكن القول في فترة منتصف الستينيات من القرن الحالي — نفس الانحماض الفلسفية في البحث عن الحقيقة التي كانت سائدة خلال جمهورية فيمار وبين الحريجين للشبان الذين اعتقدوا بأن حماية النظرية الاجتماعية وتحقيق الأمان لها إنما يتحقق في النهاية عن طريق الاتجاه النقدي الذي تكاد نراه يجمع بصورة جوهرية بين ماركس وفرويد في تكوين لفلسفة علمانية قديمة سبق الاعتماد عليها .

وبعد فنحن خليقون بنوعيته للهكر إلى جماعة النقيدين — المترفين في سلبينهم القوية وانزالهم التهاوى عن الحقائق مكونين صفوة مترفة — وذلك

لأن الكثير جداً من البحوث الأمبريقية والدراسات الحقلية التطبيقية ، والكثير من الدراسات المسحية التي تعتمد على الحقائق المباشرة ، كما كان الكثير القيم من الافتراضات الجردة في مسائل المجتمع مآله الانتهاء إلى سلة لمهمات .. وذلك في نفس الوقت الذي استطاع فيه هؤلاء التقديرون المترفعون وطلابهم أن يعتزلوا المجال منشغلين باختصارهم إلى ما فضلوه من محاولات نظرية حول نظريات لم يكونوا في معظم الوقت قد اتقنوا دراستها .

والمثال الحيوى الذى نضربه هنا يتمثل في المقارنة بين نظريات علم الاجتماع التى كرس لها جالستان كاملتان في مؤتمر كاسل — كما سبقنا الإشارة إلى ذلك — وفيها أخذ خمسة من المتكلمين مكانهم في حلقة المناقشة التى تقدم فيها أحدهم كتمثيل للاتجاه القائم على نظرية الاتصالات ، دون أن يشير إطلاقاً إلى الرائد الاصيل لهذا الاتجاه تشارلو مور تون كولى . كما قدم المتكلم الثانى اقتراحاً فيما أسماه بمحاولة لتحديد هوية وظيفة أى بناء قائم بنظرية وظيفية فى النسق الاجتماعى لا تختلف كثيراً أو قليلاً في خصائصها الجوهرية التى ألبسها إياها عما عرف منذ عشرات السنوات باسم النظرية البنائية الوظيفية .

كما كان هناك أيضاً متكلم آخر يمثل اتجاهاً نظرياً يقوم على مزيج من نظرية الفعل ونظرية التفاعلات والنظرية الظاهرية والفينومينولوجية ، يتمثل في اتجاه به رايت ميلز منذ سنوات فى كتابه بعنوان « الخيال السوسيولوجى » ، مما هو بعيد عن الاتصال بالواقع .

أما المشاركون الرابع فى منافسة المائدة المستديرة فى هذا المؤتمر فقد كان يعبر عن الاتجاه السلوكى وقد أخذ يتلاعب بنظريات التطوريين فى التعلم وهى نظريات تعنى بالتفصيل أكثر من عنايتها بالتعلم ذاته ، وأخيراً فقد كان المتكلم

الخامس يمثل الاتجاه المادى التاريخى الذى لم يتقدم فى وقتنا الحاضر عما أوجزه إنجلز ببلاغة فائقة فى خطاب كتبه منذ سنوات بعيدة جداً .

ولم يكن استعراضنا لهذا المثال بهدف تقديم نماذج مبهمة للتنافس بين المتكلمين الذين نعدنا ألا نشير إلى أسماهم، ولكننا قصدنا بهذا المثال فقط أن نؤكد على أن تلك الاهتمامات التى تميزت بإيجاز فى الفقرات السابقة قد وجدت لتلون وتتغلغل فى برامج تعليم عام الاجتماع فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية . كما قصدنا أن نؤكد بنفس الدرجة أيضاً على أن المشكلات الهامة فى مجتمعنا قد طويت تحت البساط فى نوع من المناقشات التى تجري بين المنكبلين يجلسون على كراسى مريحة وهم بعيدون كل البعد عن الحقائق الحقلية والتى تستمر حول أفكار مثل : الوضعية ، و : الانهال المفتوح ، و : تاريخ المشل ، و : أساق المعانى فى صياغة الانسان المركبة ، . أما مشكلات الفقر والحرب والامية والابداع والتعامل — والمشكلات الأخرى التى تنبع عن الحقيقة التى عشناها ولا نزال نعيشها تلك المشكلات المنكررة التى تؤثر فى الأفراد والجماعات — لا ترقى هى وما يرتبط بها من بحوث عقلية عملية فى الوقت الحاضر لتكون مجال الاهتمام الرئيسى سوى بين فئة من علماء الاجتماع لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة، وهم لا يلتفتون إليها إلا عند ما يساقون إليها بالضرورة المحضة .

وبعد فنحن فى إيجازنا لما اهتمينا إليه فى هذا المقال نجد أنه لدينا من ناحيته قدرأ ما مما يطلق عليه : رايث ميلز ، و : هازل هيندرسون ، على

التوالى استثناءات كمية ، أما فى الناحية الأخرى فنجد عودة إلى التقليد الألمانى القديم الطيب فى النفاسف الاجتماعى مجتمعين معاً بقدر عميق من الأفكار التى صيغت فى قالب أمريكى حديث .

وفى مثل هذه الظروف هل هناك غرابة فى ككون علم الاجتماع الألمانى مريضاً وأنه لا يهتم بكونه العلم الأرقى فى وقتنا الحاضر .

النقد الأدبي وعلم الاجتماع

يسيطر في دراسات النقد الأدبي الحديثة اتجاه لتقصي الأصول الاجتماعية للكاتب — والتعرف على الآثار التي خلفتها العوامل الاجتماعية في أعماله — وهو اتجاه يتسع بنفس القدر الذي نجد عليه الاهتمام بالدراسات السيكولوجية للمعالجة العقلية للكاتب . وكثيراً ما نجد أن هذين الاتجاهين : الاتجاه السوسولوجي والاتجاه السيكولوجي يسيران جنباً إلى جنب .

الاتجاه التطوري الوراثة في الدراسات الأدبية :

واقدر أينا نقاداً — من أمثال إدموند ويلسون *Edmund Wilson* — همدوا إلى تقصي العوامل الاجتماعية المؤثرة في اتجاهات ديكنز *Dickens* مثلاً أو كبلنج *Kipling* ، وحيث كان تتبع الأسباب الاجتماعية للظواهر السيكولوجية واحداً من الاتجاهات المعروفة ، فإن للظواهر السيكولوجية ذاتها قد استخدمت في التفسير أو التحديد — بالمعنى التطوري الوراثة — لخصائص أعمال الكاتب .

ونجد أن المشكلة التي تبرز في أية مناقشة للعلاقة بين علم الاجتماع والنقد الأدبي إنما تتأصل — كما أنها تنوحد في بعض الجوانب — بتلك المشكلات التي تفرض ذاتها في معالجتنا للعلاقة بين النقد الأدبي وعلم النفس ، حيث نجد في كل من هذين المجالين — مجال النقد الأدبي وعلم النفس — أن الاتجاه التطوري الوراثة اتجاه مسيطر ، كما نجد النقاد ينظرون إلى العمل الأدبي في جذوره أصوله بيولوجية كانت تلك الأصول فردية أو اجتماعية أو كانت متضمنة لكلاهما معاً .

ونجد في هذه الدراسة أن هناك ثلاثة أسئلة مبدئية تفرض نفسها وتتمثل
فيما يلي :

السؤال الأول : هل تعتبر العلوم المضبوطة - أو العلوم غير المضبوطة -
في الحدرد التي تفسر فيها تلك الأصول علوماً معيارية ، أم أنها مجرد علوم
وصفية ؟ وهل تساعدنا تلك العلوم لنصل إلى أحكام نسبية ذات قيمة واعتبار ..
أم أن تلك العلوم تخبرنا فقط بما يجري في الواقع ؟

السؤال الثاني : إذا كانت تلك العلوم علوماً معيارية - وإذا كانت لدينا
المحككات التي نستند إليها في تكوين أحكام قيمية حول الحالات العقلية والأنواع
الاجتماعية - فهل نستطيع أن نسقط تلك الأحكام التي تمت صياغتها حول
الظروف المحيطة بأصول العمل الأدبي على هذا العمل ذاته ؟

السؤال الثالث : وإذا كانت تلك العلوم ليست علوماً معيارية ، فما هو
نوع القيمة التي يمكن المباداة المعنية بالأصول السيكلوجية أو السوسيوولوجية
لعمل الأدبي أن تحققها لنا في تمييزه عن المشتغل بتاريخ الأدب ؟
وفي محاولتنا العناية بتلك الأسئلة بالرجوع إلى علم الاجتماع نعوض للنقاط
التالية :

ما هو علم الاجتماع ؟

لعلنا نبدأ التعريف بهذا العلم بسؤال حول مدى ما إذا كان علم الاجتماع
علماً معيارياً . ونحن حين نضع هذا السؤال على هذه الصورة ، فإننا ندعى على
الأقل بأنه د علم ، - وإن كان هذا يمكن أن يكون موضع مناقشة - ونحن
نعلم أن مصطلح العلم ، ذاته ليس بعيداً عن عدم الغموض في مثل هذا المجال ،

ولكن هذه مسألة تدخل في مجال المناقشة بين علماء الاجتماع .

ولعلنا نتفق على الأقل على أن دراسة بنية المجتمع في فترة تاريخية معينة — كما أن دراسة أنماط السلوك التي تصدر عن تلك البنية الاجتماعية — إنما هي أمر واقع وموضوع لمعرفة أصيلة .. ولكننا نقسم هل لمثل هذه المعرفة المتاحة أن تعطينا حكماً آلياً المرض والصحة الاجتماعية ؟ وهل يستطيع علماء الاجتماع في حدود إمكانياتهم كعلماء اجتماع أن يخبرونا عن أشكال التنظيم الاجتماعي التي يرونها أفضل من أشكال أخرى ؟ وما هو ذلك النوع المميز من السلوك الاجتماعي الأكثر أو الأقل أفضلية بالمقارنة بالأنواع الأخرى ؟

ربما كان علماء الاجتماع أنفسهم يتجهون في الإجابة على تلك الاسئلة بالنفي ، فهم قد ينضلون أن يتهوروا قضائهم على أنها إنجازات وصحية بحثية ، وإنما ليست في أية درجة قضايا مقيارية . ولكننا نجد أن علم الاجتماع قد لا يكون في ذاته علماً مقيارياً ، ولكنه يمكن أن يمدنا بنسج من المعرفة نستطيع اتجاهها — كأشخاص غير متخصصين ولكننا نتصف بالعقلانية والذكاء — أن نتجه اتجاهها مقيارياً .

ولما كان الشخص الذي غير المتخصص هو المقصود في هذه المعالجة فإننا نجد أن علم الاجتماع يكون علماً مقيارياً ، وذلك لأن الشخص غير المتخصص الذي يتصف بالذكاء إنما يعني بأكثر مما يعني به الحيوان الاجتماعي ، فهو يضمن رؤيته تلك الجوانب المختلفة في الإنسان — كما أنه يستحضر الأفكار السياسية والأخلاقية وغيرها التي يصفها على تلك المعلومات التي يزوده بها علماء الاجتماع وهكذا فإنه يعتبر مهتلاً غير متخصص بالعلوم الانسانية ، وهو على هذا النحو إنما يعني بإيجاد علاقة بين الدراسات المتخصصة لعلماء الاجتماع من ناحية،

وبين وضع الانسان وحاجاته كإنسان من ناحية أخرى . . . وهو مشلا يقوم بتأويل المادة السوسولوجية تأويلاً أخلاقياً ، ويقبل تلك النظم الاجتماعية التي تحول الحاجات المدوانية إلى قنوات أخرى — أو تلك التي تساعد على تكريس الشعور بالمسؤولية في علاقة أشخاص الجماعة بكل منهم بالآخر — بينما يرفض تلك النظم التي تقوم بوظائف مضادة .

ونجد أن المحك الذي يستند إليه مثل ذلك الشخص أن يكون نابعاً عن علم الاجتماع ، ولكنه سوف يستحضر في استقلالية معايير مفهومة لما هو خير وما هو شر في سلوك الانسان . . . حيث يجد أن ما يروده به علم الاجتماع من معلومات فورية لا يمكنه بالتاكيد من مثل تلك المعالجة . ولعلنا نذهب إلى أبعد من ذلك لنقول أن المعلومات المستمدة من علماء الاجتماع سوف تضيح بمثل تلك المعالجة . وهكذا فإننا نرى أن علم الاجتماع — وإن كان في ذاته ليس علماً معيارياً — فهو يتطلب معالجة معيارية فورية طالما أنه يتبع بين أيدي المتخصصين . كما أننا نريد أن نسأل مباشرة — حينما تجمع بين الأنواع المختلفة من الأنشطة والأعراف الاجتماعية — عما هو الأفضل وما هو الأكثر إثماراً للحياة الطيبة كما نفهمها .

المعرفة السوسولوجية والتقدم الأدبي :

لنفترض أن الجبراه يخبروننا شيئاً عن بنية المجتمع الانجليزي في تلك الفترة المبكرة من القرن الثامن عشر ، كما نفترض أننا نعمل فكرتنا حول قيمة ودلالة تلك البنية المجتمعية — وذلك طالما كان علم الاجتماع معنياً بالاذكياء غيب المتخصصين من الأشخاص — لنبين عن الكيفية التي نطبق بها هذا ، ولنتقل في تقدم المقالات تلك الدورية المروفة بالشاهد *Spectator* . إننا نستطيع حقاً

أن تربط بسهولة بين تلك المعلومات ومثل تلك الأسئلة حول الهدف الاجتماعي للمقال العنصري ، والسبب في كون تلك الصيغة الأدبية كان عليها أن تظهر في ذلك الوقت بالذات أكثر من أى وقت آخر ، كما أننا نستطيع أن نلقى قدراً كبيراً من الضوء على أسلوب واختيار موضوعات تلك المقالات بأن تبرز كونها تمثل بعضاً من الاهتمام الأدبي المبكرة الموجهة بصفة خاصة إلى تلك الطبقة المتوسطة التي تمثل ظهورها ووضعها وتأثيرها بصورة رمزية في ثمرة عام ١٦٨٩ .. والتي تواجه الآن بمسألة القضاء على وظيفة ارسنقراطية دون تقاليد ارسنقراطية .

أننا نستطيع أن نستخدم المعلومات التي يوردنا بها المتخصصون في التاريخ الاجتماعي في اختبار أسباب انتشار قراءة مقالات مجلة المشاهد *Spectator* بين طبقة معينة ترقب بتطلع ظهور هذه المجلة ، وهو ما سوف يبين لنا مرة أخرى عن علاقة مثيرة للاهتمام بين ما تقرأه طبقة معينة وأسباب قراءة تلك الطبقة للموضوعات معينة . ونجد أن تلك الموضوعات ومثيلها تلقى الكثير من الاهتمام والمعلومات المفيدة لدى المهتمين بتاريخ الأدب ، وبخاصة فيما يتعلق بتلخيص أصول وطبيعة الدوريات في القرن الثامن عشر ، ولكننا نساءل كيف تساعد تلك المعلومات المهتمين بالناقد الأدبي ؟ وهل يستطيع الناقد أن يقول من مجموعة معينة من المقالات أنها جيدة لأنها تقوم بوظيفة اجتماعية طيبة وبطريقة مؤثرة ؟

من الواضح أن هذا سيكون تبسيطاً مبالغ فيه وغير مقبول في معالجتنا لطائفة من الأدب كالبلاغة ، ويقول آخرون إن تقييمنا للبلاغة تبعاً للقيمة الاجتماعية للموضوع سيجعلنا نضع وخرافة العام نوم *Uncle Tom's Cabin* في مرتبة أعلى من هاملت ، وذلك على الأقل في عيون الناقد الشهيقين .

ولكننا إذا انتقلنا إلى مثال آخر — ولنفترض أننا مهتمون بالاصول الاجتماعية لنظريات الفن من أجل الفن ، التي انتشرت في نهاية القرن الماضي ، وهنا سنجد أنه من الصعب — وإن كانت هناك في الحقيقة محاولات تكرر كثيرًا — ان نربط بين تلك للنظريات وبين شعور الفنانين بدواء التوافق .. وهو ما نتج من ناحية أخرى عن نمو المجتمع الصناعي في القرن التاسع عشر ، وما نتج عنه من اتجاه اجتماعي للعلاقة المتوسطة المسيطرة .

ومثل تلك الحقائق هي حقائق مستهدفة — وليس هناك من يشتغل بالأدب ولا يرغب فيها حيث أنها تؤدي إلى تقدم الفهم — ولكن كيف يمكن بالتقدير أن تستخدم في النقد الأدبي ؟ إننا إذا كنا نقوم بتقييم الفن فإننا مشددون إلى تلك الرؤية الضيقة للتعظيم الاجتماعي التي تبعدها الفنان بعيداً وبعيداً عن غيره من الناس ، والتي تركه في موضع يقسم إما بالشرعية أو الشذوذ الممجوج . ونحن نقسمال عما إذا كان مما يجب على الممثلين بالنقد الأدبي الادعاء بأن أية أشكال أدبية — أو خروج عليها — من الكتاب في وقت ما إنما هو نتيجة لإعمال تلك العوامل يعتبر أمراً يستوجب الرثاء ؟

وكمثال أخير نأخذ في الاعتبار تفسخ معتقدات الجماعة — وما يترتب عليه من نمو للعوامل الخاصة في المجتمع الحديث — ومثل هذا التفسخ إنما يترتب جزئياً على الأسباب الاجتماعية والاقتصادية ، وهو بالتأكيد له آثار لا يمكن حصرها على الأساليب الأدبية . ويقول آخر فقد أردنا — بين أشياء أخرى — أن نعبّر عن ذلك الاتساع الملحوظ لمجال الرواية من خلال كون الكاتب يفرض عليه الاعتماد على إحساسه الشخصي وبصيرته أكثر من اعتماده على إحساسه الاجتماعي بالقيمة . ولقد أثرت تلك الرؤية في الأسلوب والمهنة

التصنية والألفاظ والموضوع في كل جانب من جوانب فن القصة .

أما إذا أخذنا في الاعتبار مشكلات العصر الحديث في محاولة لإيجاد اللغة والرموز التي تحمل عمل تلك الأساطير المجتمعية التي بدأت بها بواكير العصر خلال قرون كثيرة — والتي لم يعد من الممكن الإبقاء عليها حتى بدون أية مواقف أدبية — فإننا نجد أن علم الاجتماع يستطيع مساعدتنا في رؤية الأسباب التي جعلت كتابات جويس *Joyce* على النحو الذي كانت عليه ، ولماذا نجد الكثير من العصر الحديث الرقيق يتصف بالكتابة ؟ ولكن ماذا يستطيع علم الاجتماع أن يخبرنا عن قيمة طريقة جويس في الكتابة أو تلك الكتابة في العصر الحديث الرقيق . كذلك فإننا نقسامل عما إذا كان علينا أن نرفض التوسع في مجال الرواية باعتبارها ذات أصول اجتماعية هي في أي مستوى من مستويات الصحة الاجتماعية إنما تشير في الكثير من شئنا من الآس ، كما أننا إذا اتجهنا إلى المائلة بالطرف فلا بد لنا من التساؤل عما إذا كان من الممكن أن نعتقد — وهناك محاولات تمت بالفعل في هذا الاتجاه — بأن شعر كيتس *Keats* العبقري وقد ارتبط بمماناته لمرض السل إنما هو شعر غير طيب ، أم نعتقد بأن السل كان خيراً فقد أنتج لنا شعر كيتس الجديد .

القيمة السوسيولوجية والقيمة الأدبية :

وحين لننقل إلى إجابة السؤال الثاني الذي أشرنا في بداية هذا المقال — والذي يدور حول مدى مشروعية تحويل أحكام القيمة حول أنواع مجتمعية معينة إلى الأعمال الأدبية التي أنتجت فيها — وتساءلنا عما إذا كان من الضروري أن يكون موقفنا من هذا التساؤل موقفاً سلبياً في الوقت الحاضر على الأقل ،

فإننا نجد بالتأكيد إنه ليس باستطاعتنا أن نفعل هذا بأية طريقة مباشرة وبسيطة .. وذلك لأننا إذا كنا نعتقد بأن «السبب» غير المرغوب فيه إنما ينتج بطريقة آلية اثرأ غير مرغوب فيه أيضاً ، فإننا لابد أن نعتقد بأنه طالما كانت الأمراض الوبائية تعتبر ظروفأ غير طيبة فإن أى صورة من صور الحاجة الإنسانية تستثيرها تلك الظروف يجب أن تكون أيضاً صورة غير طيبة .

وبقول آخر إذا كنا نعتقد بأن تلك القيمة الكامنة في «السبب» يمكن أن تنتقل كما هي إلى «الآثر» ، وإن أى نمو أدبي يظهر في الظروف الاجتماعية التي نرفضها إنما يستحق رفضنا بالتبعية — فنحن إذاً نتبنى اتجاهأ بسيطأ أحادى الخلية نحو الحياة وكل مشكلاتها ، وبالتالي فإننا منصبح لسنا في حاجة إلى أن نهمل أنفسنا بالقيمة الأدبية كقيمة متمايزة بجانب غيرها من أنواع القيم الأخرى .

إن النقاد الماركسيين — الذين هم في معظم الأحوال أشخاص مستعبدون إلى حد بعيد — حينما يبرزون «الأسباب» مفسرين مثلاً اتجاه ديفو *Defoe* في رواياته بكونها نابعة عن مصالحة الاقتصادية والطبقية ، فهم في الحقيقة ليس لديهم ما يقولونه كتنقاد أو كأشخاص يجدون أعمالاً أدبية مستناداً إلى مقومات أدبية .. وذلك لأنهم ببساطة يسقطون نظرية في الأسباب الاجتماعية في تقنينهم «الآثر» الأدبي .

وبقول آخر فإن النقاد الماركسيين في اعتقادهم بأن الظروف الاجتماعية التي ساعدت على ظهور الاتجاه الحالم الرقيق في الأدب لكتاب من أمثال جيمس جويس كانت ظروفأ غير مرغوب فيها ، فإنهم سيدعون بالتالي أن هملاً أدبياً

كأوليس *Ulysses* إنما هو عمل غير مرغوب فيه أيضاً .. وبالمثل فإن العمل الأدبي الذي ينبع عن ظروف إجتماعية طيبة أو عن اتجاهات إجتماعية طيبة سوف يكون بالتالى عملاً طيباً . ولكن لعل الكثير من غير الماركسيين ربما ينفقون على أن العوامل الاجتماعية التى جعلت جويس ينظر الى الحياة بالطريقة التى فعل بها ذلك كانت عوامل يجب علينا أن نتمنى زوالها ، ولكنهم فى نفس الوقت يعترفون بالاهمية الأدبية والقيمة لتلك العوامل التى دفعت جويس إلى إنتاج أعماله على هذا النحو .

ولقد أصبح الماركسيون الذين ينتمون بكثير من الحررية والمسئولية راضين عن استخدام رؤيتهم الخاصة للتاريخ الاجتماعى والاقتصادى فى تفسير الأسباب التى تجعل كتاب معين يتبنون اتجاهات معينة ، أكثر من تقييم أعمالهم وتركها على مائدة مؤرخي أتباعهم الذين يحملون أحكاماً على المجتمع فى داخل المجال الأدبي .

وإذا كنا نعتقد فى النقد الأدبي أصلاً كبعث متباير مختلف عن التاريخ الأدبي — وهن مجرد التفسير والوصف — فإننا يجب علينا أن نعتقد أيضاً بوجود محكات للاقتياز الأدبي تنبع عن طبيعة الأدب ذاته . إننا نعرف كيف تكون المائدة الجسنة ، والمذايع الحسن ، ورغيف العيش الطيب .. ولعلنا نستطيع أن نقول الآن أن هاملاً داهراً يعمل بفردية فخورة بمسارته الخاصة يستطيع أن ينتج طاولة بطريقة أفنسل بالمقارنة بخص بعتل فى مؤسسة كبيرة تنتج مصنوعات جاهزة للتوق ، إننا نضل إلى هذا الحكم لأننا تعلم ما نريده فى الطاولة ، ولقد اكتشفنا بالتجربة أن الطاولة التى أنتجت فى الظروف الأولى — الإنتاج لخدمة معينة لطبقات معينة — من طاولة

أفضل بناء على فكرتنا عما يجب أن تكون عليه الطاولة كأفضل مما يكون عليه حالها إذا أنتجت في ظروف مختلفة . ونحن ربما نذهب إلى أبعد من هذا في رؤيتنا لماذا يكون الانتاج الجاهز للصوق سمة من سمات الحضارة الحديثة ، ولماذا أصبح من المستحيل اقتصادياً واجتماعياً بالنسبة لنا في الوقت الحاضر أن نحصل على طاولاتنا مصنوعة بواسطة صنّاع حرفيين يقومون بالعمل بمفردهم لانتاج وحدة معينة لعمل معين . ونحن قد نذهب إلى أبعد من هذا لنفسر الظروف التي تنتج فيها الطاولات الجديدة — والطاولات الرديئة — ولكن هذا التفسير لا يضيف إلى فهمنا جيداً سوى الكوننا بدأنا بمحركات مستقلة لماهية الطاولة الجديدة ، كما أننا لا نستطيع القول بأن رداءة الطاولة تنطوي من كونها انتاجاً جاهزاً ، ولكننا نصدر هذا الحكم لنقول — إذا كان هذا ما نعتقد به — بأنها رديئة وذلك بسبب تصميمها أو بسبب شكلها أو بسبب حجمها أو بسبب نقوشها أو بسبب كفاءات أخرى فيها كطاولة من نوع يتميز عن غيره من الأنواع الأخرى . ولعل تلك المعلومة تتضمن أن هذا الشكل الرديء من الطاولات إنما يرتبط بظروف الانتاج الحديثة . وهكذا نجد أننا لم نذهب إلى أبعد من نظريتنا في الطاولات لكي نكشف ما هي الطاولة الرديئة ، ولكننا نذهب إلى أبعد منها لكي نفسر — بصورة جزئية على الأقل — كيف أن هذه قد جاءت رديئة على هذا النحو .

إن الناقد المنحصر في صناعة الطاولات الذي يرى مباشرة أن طاولة ما هي طاولة رديئة — حينما يعلم أنها أنتجت في ظروف معينة يرفضها — فهو يعني أنها رديئة ليست كطاولة . . وإنما كانتاج اجتماعي — لعله قد تم في ظروف غير مرغوب فيها اجتماعياً — ولكنه لا يحكم على الطاولة كطاولة إطلاقاً . أما إذا كان ذلك الناقد المنحصر في صناعة الطاولات يعتقد بأنه يحكم على

الطاوله كطاوله بناء على معرفة الظروف التي تم فيها إنتاجها فهو ببساطه يكون قد اختلط عليه الامر .

وربما كان الماركسيون ليسوا هم وحدهم فقط الذين وقعوا في واحدة أو أخرى من هاتين الفخمين ، حيث نجد أن الاتجاه النقدي الفني لدى جون روسكين John Ruskin ينطوي باستمرار على هذا الخلط بين رجل مرهق الجس بالقيم الجمالية في ذاتها ، ولكنه يبقى في نفس الوقت على إصراره على أنه الأدب الجيد هو فقط ذلك الأدب الذي ينتج في ظروف إجتماعية وخلقية طيبة .

وثمة نقطة يمكن أن توضح في مماثلة أخرى حيث نجد في السنوات التي أعقبت تولى هنرل الزحامة السياسية في ألمانيا أن الكثيرين من الناس في أمريكا ومناطق أخرى رفضوا أن يشتروا مثلاً بنيد الراين الألماني ، وذلك لأنهم لم يرغبوا في إعطاء دعم اقتصادي لنظام يتأهضونه .. لقد رفضوا أن يشتروا البنيد من ألمانيا لأنهم يرفضون بوجه عام الظروف الاجتماعية والسياسية السائدة في ذلك الوقت ، ولستهم ظلوا مغرمين بنيد الراين .

حقاً أن هذه ليست مماثلة دقيقة لأن الأعمال الفنية الأدبية نجدها دائماً تحمل طابع أصولها الاجتماعية في نسيجها الداخلي بنفس الطريقة التي تنعكس في الطاوله أو زجاجة البنيد ، ونحن غالباً نلجأ في الواقع إلى مساعدة للتاريخ الاجتماعي ليفسر لنا ماذا يكون العمل الأدبي في حقيقته ، وهذا يمثل رابطة بين التاريخ - وعلم الاجتماع - والنقد الأدبي كما يمثل رابطة وبين الاتجاه الوارثي والاتجاه التقييمي . ونحن نجد في بعض الأحيان - وفي صورة دائمة بطريقة أو أخرى - أننا إذا رأينا كيف يجيء الشيء على الصورة التي هو عليها ،

فإننا نكون في موضع أفضل لكي نتقبله في صورته التي هو عليها في الواقع — ومن ثم نقيم هذا الشيء لما خلق من أجله .

أنا نقسم هل عنى الرسام بأن تعلق لوحته في معرض ، أو لتزين بها جدران كنيسة معينة ؟ وهل عنى الشاعر الغنائى بأن يغنى شعره على العود ، أو يلقي في حفل معين ، أو ليكون مثالا في قاعة للدرس ؟ وهل كانت رحلات جاليفر *Gulliver's Travels* هي قصة مغامرات طفل ؟ أم هي هجاء للجنس البشرى ؟ وإذا كان الموضوع الأول للناقد هو رؤية العمل في ذاته — كما هو في الواقع — فإن طام الاجتماع مثل المشتغل بالتاريخ يستطيع في معظم الأحوال أن يمد له يد المساعدة ، ولكن هذا الناقد بمجرد أن يرى ماهية الشيء فلا بد له من تطبيق عمكات مناسبة لطبيعة الشيء الذي يراه .

الوظيفة الوصفية للنقد السوسيولوجي :

يمكن للنقد السوسيولوجي أن يساعدنا على تحاشي ارتكاب أخطاء دخول طبيعة صناعة الأدب الذي ورثناه عن الكتاب الذين عاشوا قبلنا .. وذلك بإلقاء الضوء على وظيفته — أو بإلقاء ضوء على تلك الاعراف التي يمكن تفهم جوانب معينة فيه بالرجوع إليها — ومن ثم فإن للنقد السوسيولوجي وظيفة وصفية هامة . ولما كان النقد السوسيولوجي يمثل وصفاً دقيقاً فهو بالضرورة ينطوي على تقييم .. يمكن أن نطلق عليه اصطلاح للنقد ، وهو في معظم الأحوال يكون صناعة نقدية على درجة كبيرة من الأهمية . ونحن إذا قرأنا لشوسر *Chaucer* ، أو لفيكتور هيوغو *Victor Hugo* ، أو لرويلوس وكيم سيد *Troilus and Criseyde* مع معرفة بتقاليد الحب الخجول — التي في ضوءها نما الكثير من المواقف في هذا العمل الأدبي — فإننا نستطيع رؤية هذا العمل بطريقة أكثر وضوحاً ..

حيث أننا نعلم بطريقة أفضل ما نحن معنيون به ، كما أننا نستطيع أن نشير
في تقييمه بكل ثقة .

التفسير السوسولوجي لخصائص العصر :

وبجانب هذا كله لعل للنقد السوسولوجي وظيفة أكثر أهمية بما سبقت
الإشارة إليه ، فهو قادر على تحقيق تقدم المعرفة إلى حد بعيد — وذلك بمساعدة
القارئ على رؤية أسباب وجود بعض الأخطاء كسبب مميزة لعمل معين في فترة
زمنية معينة — كما يمكن للنقد السوسولوجي أن يفسر طبيعة مثل تلك الأخطاء
وذلك مع الاعتراف بأن اكتشاف تلك الأخطاء إنما يتم بالرجوع إلى المعايير
الأدبية الخاصة .

إننا لا نوجه إلى علماء التاريخ الاجتماعي لاكتشاف أن أنواعاً معينة من
الزخات العاطفية — مثل تلك التي تهمز نهاية مؤلف باري *Burke* بعنوان :
الوزير الصغير *The Little Minister* — تمثل هيباً أدبياً ، ولكن عالم التاريخ
الاجتماعي يستطيع بصورة أو أخرى — وبواسطة توجيه اهتمامنا إلى الأسباب
الاجتماعية للزخات العاطفية — أن يساعدنا على فهم أعمق لماهية الزخات العاطفية
الحقيقية . وإذا كنا نواجه بإعجاز اختلاف الزخات والأسلوب في الجزء الأول
في « رومانسية الزهرة » *The Romance of the Rose* التي كتبها غليوم
ديلوريس *Guillaume de Lorris* واستمرارها لدى جين ديمين
Jean de Meung ، فإن المتخصص في التاريخ الاجتماعي يستطيع أن يساعدنا
على رؤية الزخات المسيطرة في الجزء الأول كخاصية لطيفة معينة في فترة معينة ،
وذلك في الوقت الذي نجد فيه الجزء الثاني قد انبعج عن مؤلف يتمتع بأسلوب فكري
قد تكيف إلى حد ما بالآداب العقلية للبطيخة الجديدة الناجمة . وهذا يساعدنا

على تفسير ماذا يجري في الواقع، وبالتالي يساعدنا على رؤيتها بطريقة أكثر وضوحاً. رسواء أكان ذلك عيباً أو فضيلة — أو شيئاً آخر بن هذا وذاك — فإن الناقد الأدبي يلاحظ نوعية أو كمية العمل الأدبي، بينما نجد المتخصص في التاريخ الاجتماعي — شأنه شأن المتخصص علم النفس — يستطيع أن يفسر لماذا تنوفر تلك النوعية الخاصة في أدب كاتب معين .

النقد السوسيولوجي الفعال :

تتعمق الدراسة التي تعتمد على الخلفية الاجتماعية لأعمال المؤلف — ولتأثير تلك الخلفية الاجتماعية على العمل — بالضرورة بشيء من الاستطراد ، وذلك لأنها تتضمن أولاً وصفاً لتلك الخلفية الاجتماعية .. ومن ثم فحص الأعمال الأدبية الفردية في ضوء تلك الخلفية الاجتماعية . ونجد أنه ليس من السهل أن نكون عادلين في عرضنا لهذا الاتجاه النقدي في صورة مجرد مقتطفات قليلة . وحيث يعتبر « عالم ديكنز » *The Dickens world* مؤلفه هــ مـ فـرى هــ ارس *Humphry House* كثال عجب لمثل هذا النقد السوسيولوجي، فهو يصنع نقاطه بالتنقل بين أقسام تتعلق حصراً بالصورة التاريخية المتغيرة في عصر ديكنز، كما يقوم بتوضيح نماذج لانعكاس هذه الصورة المتغيرة في روايات ديكنز . ونجد في النص التالي عرضاً واضحاً للغرض الخاص للمؤلف كثال لما يأمل مثل هذا النوع من الدراسة أن يحققه .

« إن هذا الكتاب يحاول أن يرى بطريقة عريضة وبسيطة الارتباط بين ماكتبه ديكنز .. والأزمة التي كتب فيها تلك المؤلفات — أو الارتباط بين اتجاهه الإصلاحى وبعض الأشياء التي أراد رؤيتها قد تم إصلاحها ، أو بين الاتجاه نحو الحياة كما يتبين في كتبه — والمجتمع الذي عاش فيه ، وهو يعني

إلى حد بعيد بالحقائق ، ويعتمد على الترضيح بالمقتطفات المنقولة عن مصادر متنوعة . . . لا تنا فقط حينما تتوقف لدنيا هذه التفاصيل يمكن أن نرى بشية الكاتب وأن نفهم غرضه . ونجد أن اللغة المعاصرة بالذات هي وحدها التي تنقل الإيقاع والأسلوب الأصيل اللذين يتطلبهما الانعاج بالضرورة . ومسبح مؤلف هوجم بكثير من التنوع والتمديد في تاريخ عصره فإن أعمال خياله يمكن أن يرى على أفضل صورة في معظم الأحوال من خلال رؤية الآخرين للأحداث التي بدأها .

ولمنا تبين بعض الأخطار في مجال النقد السوسيولوجي الحقلي من المقتطفات التالية من الفصل السادس بعنوان المنظر المتغير *The Changing Scene* من كتاب هنري هاوس :

دعاش ديكنز خلال السنوات التي رأى فيها صناعة انجاسترا الحديثة وأوليغارشية الطبقة الوسطى التي كونت حكومتها . واقد انتهت فترة صباه بالانفصال من التحرر الكاوليكي وإعلان الإصلاح . وقد تزامنت حياته في فترة التأليف تماماً وإلى حد بعيد بحكومة العائلات ذات العشرة جنهيات . وكانت حكومة الطبقة الوسطى حينئذ تعنى إصلاح الطبقة الوسطى . وبقول آخر الانقضاض على الامتيازات والأجهزة العتيقة . ولقد ناقش مستر هاوس في فصل آخر في نفس الكتاب كيف أن هذا الانقضاض قد دخل في صلب نصيب روايات ديكنز — كما كان ذلك الإصلاح يعنى القضاء على القيود المفروضة على التجارة والصناعة والتملك ، كما يعنى التكرين المزمع للنسق القانوني والإداري الذي ينفق مع الظروف التي أعطت للطبقة الوسطى قوتها .

وقد كان الانجازات التكنولوجية التي تحققت في السنوات الوانعة بين عام ١٨١٣ وعام ١٨٧٠ أمر بعيد للدى إلى حد كبير على هؤلاء الذين حاصروها أكثر من أية إنجازات أخرى ، فقد غيرت الصكك الحديدية حياة البلاد بصورة أكثر همقا حين تقارن بالآثار التي ترتبت على السيارات والطائرات . ولعله من الصعب علينا - نحن الذين ألفنا هذا الفن المزايد السرعة دائما - أن نستعيد تلك الباهر التي يخرج فيها الاشباع المنفعي والانبهار العاطفي الانفعالي الذي استقبلت بها الصكك الحديدية وأجهزة الاتصال السلكية واللاسلكية . ولقد افتنى آباؤنا بمثل تلك الكتب ككتاب لاندز *Landers* من الآلة البخارية ومنحمة للمعلوم والفنون *Museum of Science and Art* الذي يضم نماذج عفورة من الحطب . ولقد استشارتهم مقاطع ذراع الإدارة - الكرنك - والصبابات إلى شيء . يقبه النحس الجمالي كاجمانهم الاخبصار الفلكية والجيولوجية المفرحة يفكرون بحدية - وفي معظم الاحوال يخرجون بنتائج غم منفائلة - حول خلق العالم .

ولقد اتعنهم لفصول التي كتبت عن الاتصالات السلكية واللاسلكية بالتدخل من مقاومة استعارة افنخار بك *Pace* ، وربما شارك منهم من هم أكثر تفكيرا كإبريل *Carlyle* في قلقة - الذي سمعناه لأول مرة في عام ١٨٢٩ - حول ميكنة الحياة الخارجية التي ربما قصد بها ميكنة مملكة العقل . ولكن الجميع كانوا سواء بعد ذلك في التردد أو المقاومة ، فقد فرض عليهم قبسول العالم الجديد والتغيرات الاجتماعية التي جاء بها وقد كان الجميع جزأ منها ، ولم يعد ديكتور أو أى شخص آخر غيره يستطيع أن يعتمد إلى الهروب .

ولعلنا نستطيع أن نقيم بعض المقاييس لتلك التغيرات إذا لجأنا إلى المقارنة

بين « بيكويك » *Pickwick* و « صديقنا المشترك » *Our Mutual Friend* ، ومن الواضح أن الكتابين هما لنفس المؤلف — ولكننا حينما نعطى كل التسميات لبيان الاختلافات الواضحة في القهنية الرئيسية والاسلوب والخلفية ولتأثير الحياة الحاضرة لديكوز على فنه أو مظاهر النمو في هذا الفن ذاته ، فسيظل من الواضح أن الكتابين هما نتاج لماخين مختلفين . ولقد قيل أحياناً في منقصة تكتيك ديكوز كرواى أن أية واحدة من شخصياته العظيمة يمكن أن تختلف من كتاب مهين إلى غيره دونما إحداث اضطراب ماضى فى ترتيب أى منها ، ولكننا إذا حارنا أن نختار سام ولر *Sam Weller* فى « صديقنا المشترك » فإن حدود هذا النقد الصورى تصبح بيئة فى الزو .

ونجد أن السمات الفيزيائية وتعدد الشخصيات قد اختلفت تماماً فى الكتابين بنفس الدرجة التى تغيرت بها ملابسها ، حيث نجد أن خدوشة سمات الاجلاف قد كوت موضحة جديدة ، كما حدث تحول فى الاخلاق لدرجة أن المرء يمكنه التنبؤ بأن بوفن *Buffin* سوف يصل إلى حالة من السكر كما أن جون هارمون *John Harmon* سوف يدخل فى مبارزة . ونحن نشعر أن الناس يستخدمون الهوكة والسكين بطريقة مختلفة ، وأن الاشخاص قد أصبحوا أكثر كبحاً لمخاض أنفسهم .

ولقد كنا نجد المنحرفين والشواذ فى الكتب المبكرة يمهون فيما يكون تظاهره دون أن يلقوا انتقاداً أو اهتماماً خاصاً . أما فى الكتب المتأخرة فإننا نجدهم كما لو كانوا قد تصدروا الشوارع وقد فرض عليهم النبذ القاسى ، ولقد أصبح الانضباط معنى جديداً . فحينئذ كان سيلاس ويج *Silas Wegg* ومستر فينوس *Mr Venus* فى نزاع فإننا نجدهم قد انتهبوا مع عالمهم وذلك على

عكس الأمر بالنسبة لدانييل كويلب *Daniel Quilp* ؛ ولقد أصبحت الطبقات
المتوسطة أكثر اعتداداً بذاتها كما أصبحت الطبقات الدنيا أقل ثقة بنفسها .

وعلى الرغم من أن لندن كانت أحسب أنساعاً في المدى إلى حد بعيد فقد
كانت أصغر حجماً في الرواية البوليسية .. حيث أصبحت مدينة مفتوحة بواسطة
الشرطة . ولقد بدأ المهمل كلاء أقل أنساعاً وأكثر ازدحاماً ، كما أصبح أكثر
إضجاراً بطريقة عجيبة . ولقد بدأ الجو الحقيقي وقد تغيرت نوعيته كما انجسه
إلى الإصلاح التطويري *Sanitary Reform* إلى الحد الأقصى . ونجد في
Pickwick أن الرائحة غير العاطية هي رائحة غير طيبة أما في
« صديقنا المهترئ » فقد تكونت مشكلة .

إن تلك المشكلات لا يمكن أن تعزى إلى الميكنة وحدها — أو إلى أي
سبب وحيد آخر — ولكن الأثر التراكمي للاختلافات كان ملفتاً لدرجة أن
يصبح ليس في الامكان أن نفهم ديكنز دون أن نتقنع في شيء من التفصيل
وطأة التغيرات الخارجية على أعماله . ولقد اقتطف مستر هاوس من الجوانب
المعاصرة في تلك التغيرات الخارجية ما يلي :

« اننا نجد التزامن العام لأعمال دومبي وولده *Dombey and Son* يعمل
بطريقة طيبة حقاً ، فإذا ادعينا بأن عقدة الكتاب قد انتهت كتابتها في عام
١٨٤٨ ، فقد كانت فلورنس *Florence* حينئذ أمّاً لولده كبير السن إلى
الحد الذي يجعله يتحدث بذلكاء عن عمه الصغير المسكين . وبافتراض
أنها كانت حينئذ في الواحدة أو الثانية والعشرين ، فإن بول *Paul*
يكون قد ولد عام ١٨٢٣ تقريباً ومات عام ١٨٤٠ أو ١٨٤١ — وهذا
يتلاءم مع بعض الأحداث الرئيسية التي يمكن تأريخها بعوادم تاريخية

مدينة ، حيث نجد أن رحله دومبي والميجور *Dombey and the Major* إلى ليمنجتون قد حدثت فور موت بول ، وقد أفتتحت سكك حديد لندن وبرمنجهام — التي سافرا بواسطتها — تماماً في عام ١٨٣٨ ، وقد هدم الفندق الملكي *Royal Hotel* الذي مكثا فيه حوالى عام ١٨٤١ أو ١٨٤٢ .

واقدر كان من الواضح أن ديكنز في وصفه لمشهد ليمنجتون أنه يعتمد في رسمه على أجازة قضاها هناك مع هابوت براون *Haibt Browne* في خريف ١٨٣٨ ، وقد كان براون دليله في تلك الرحلة . وكذلك فقد كان موت مستر كاركر *Mr. Carker* في محطة بادوك ورد محتملاً فقط بعد عام ١٨٤٤ حينما افتتح الخط الفرعى من هناك إلى ميدستون . وهكذا نجد أن الكتاب والفتره التاريخية يمكن أن يقفا معاً دونما أية مشكلات حقيقية في مجال المفارقة التاريخية . كما أنه يبقى هناك الكثير منذ العشرينيات من القرن التاسع عشر ، فنجد أن سول جيلز *Sol Jills* بأعماله المضمحلة التي لم يعد لها مكان في عصرنا هذا — وحتى صرامة دومبي ذاتها في تعاقبه مسع المبادئ الصارمة — أمور قد أسبغت ملاحظتها في عصر تجار القرن الثامن عشر وقد بدوا وكأنهم رواسب من عصر آخر . وبصفة إجمالية فإن الكتاب يبين عن وهى عاطفى — كما هو حلى — بالعيشة في عالم التغير ، كما يبين عن فهم لما تعنيه التغيرات في تفاصيل الحياة اليومية ، وللوعية الجديدة للحياه التي جاءت بها . وقد وضع في دومبي — أكثر من أى عمل آخر من أعمال ديكنز الرئيسية — كيف استطاع المؤلف بسرعه وتأكيد أن يهدم بمزاج عصره ، وأن يندمج مع الاحساسات الجديدة في الادب الخيالى .

واقدر تصيب هذا المزاج والمجالات الجديدة إلى حد بعيد عن السكك الحديدية ،

وقد واكبته جحوشة نشر الكتاب هرس السكك الحديدية في منتصف الاربعينيات ولعله من الصعب أن نبرز آثار تلك السنوات في الحياة الاجتماعية لانجلترا ، فمن الناحية العملية نجد البلاد قبل انبائها كلها هي المقود ، وقد تحول الاتجاه الجماهيري كلية نحو الاستثمار ، وأصبح حينئذ من الواضح لأول مرة أن شركات *Joint Stock* — مما كانت الصورة المعيبة التي أدرت بها — كانت بالتأكيد خليقة بأن تكون مظهراً ثابتاً ومؤثراً لتمويل . وقد ساعدت أعمال السكك الحديدية على امتصاص البطالة وإزاحة مخاوف الثورة ، كما تزايد نمو الاستهلاك المنزلي في صوب عديدة من خلال تحسين وسائل النقل — وبخاصة في مجالات الاغذية والآلات والنفثة . وقد غيرت تلك المظاهر الفيزيقية في الشخصية الروائية بصورة سريعة . كذلك فقد تغير الهيكل العمراني حيث اتخذت جديدة ، وربما بدأ يتخذ مستوى جديداً نتيجة لإقامة السدود والأنفاق والجسور وبجانب هذا كله فقد استثير مجال ووقع الحياة الفردية . وذلك حتى بالنسبة للعامل في عائلة كما هو الشأن بالنسبة للحاشية البرلمانية .

وقد اتجه مستر هاوس بعد هذا كله للملاحظة وطأة تلك التغيرات على روايات ديكنز ، مبرزاً على وجه الخصوص الآثار التي توصل إليها من خلال المفارقة بين ديباً الخطوط الحديدية الجديدة والعالم المضطرب مثلما في عربات نقل المسافرين التي تجرها الخيول ولقد عرض هاوس أيضاً لقدراته على إعطاء صورة بانورامية لانجلترا الصناعية الجديدة ، وإبراز التناقض بين الظروف المعاشة في المناطق الصناعية المكتظة والتجمعات السكانية المتباعدة في بلاد ملك الارض ، وذلك من خلال وصف تغير أحياء المدينة كما برأه مسافر يجلس بجوار شبك في قطار . وإلى جانب تلك الخلفية الاجتماعية التي عرض لها هاوس بهيئة من التفصيل نجدته يناقش بعد هذا عدداً من الروايات التي نبيت إسهامها الجليلي ، والاكثر

وخروجاً بالمقارنة بما كان عليه الحال بالنسبة للقارئ الذي لم يتوفر له هذا الاهتمام الموجه إلى العوامل الاقتصادية والاجتماعية في عنايته باتجاهات الكاتب، وهو ما يبين لنا في المثال التالي :

إن « التوقعات العظيمة » *Great Expectations* هي تعبير نام عن قطاع من المجتمع الإنجليزي ، ويقول آخر فهي تقرير — يؤخذ على ما هو عليه — عما يمكن للنقود أن تفعله خيراً أو شراً ، وعن الكيفية التي تغير بها الظروف وتصنع الحدود بينها ، وكيف نستطيع أن تمنح الفضيلة والأخلاق العمة ، وأن نفتح مجالات جديدة للثمة والشك . وهنا نجد أن أسلوب الكتاب ينتمى ليس إلى التاريخ الخيالي للحبك ، الموضوع ، ولكنه ينتمى إلى العصر الذي كتب فيه . . . وذلك للاقتراضات التي يسأل عنها حول *Pygmy* الذي يمكن تحويله بواسطة النقود والنعيم الضئيلة التي يمكن أن تصيرها ، والذي يستطيع إذا خافه الحظ في مجال معين أن يستعير عنه بتقوية للكاسب المتاحة متمثلة في كذبة المسجوعة ومن حوله من الأصدقاء . . . وهي كلها أمور كانت ممكنة فقط في بلد آمن في اقتصادها الداخلي — ذات أسواق خارجية مضمرة — وهو ما يصعب قوله عن إنجلترا في العشرينيات أو الثلاثينيات حينما كان الحدث من المفترض وقوعه .

والقد كانت الثقافة التي اكتسبها بيب شينما بورجوازيًا غامضاً ، حيث جاءت في صورة تنحصر قليلاً لهجة الحديث وآداب المائدة والملايس ، وهي مجالات نجد فيها السيد المهذب في القرية الريفية الإنجليزية كما نجد شيله في إحدى المقاطعات المرتبطة بالمال والبصيرمان — حتى في حفل توزيع الملكة فيكتوريا — أكثر شبهاً بجمارم الفلاح أكثر مما يخلو عليه الحال بالفضة المصنوعة في . . . والقد كانت عملية انتهاز ذلك النمط من الفصحوية — الذي يتمثل في الرجل المتعلم في لندن

والمقاطعات الوطنية الانجليزية — تمثل معياراً متوقعاً من السيد المهذب والملتبان ، تكون بصورة أو أخرى شيئاً يبالغ حد الكمال ، وقد كان استمرارها السريع خلال عصر ديكنز يگون جانباً جوهرياً من التوحد الاجتماعي المتزايد بين الطبقات الوسطى والعليا ، وساعد على ذلك نمو نظام التعليم العام .

ونحن نجد أن ديكنز يخبرنا أن يجب قرأ قدرأ كبيراً — وأنه استمتع به — وامكننا لا نعلم ماذا قرأ ؟ وكيف أثر ما قرأ في عقليته ، أو ماهو نوع المنفعة التي تحققت له بما قرأ . لقد عرف بيبي قدرأ كافياً عن شكسبير وتبين تصرفاته عن أنه كان مدركاً أن تيمول مستر وبسل *Mr. Wopsle* إلى ولد نجار فر *Waldengarver* كان شيئاً سخيفاً . أما عن الجوانب المضيئة التي وجدها في المسرح الذي انتشر في أيامه المزهرة ، فإننا نترك انحكم على هذا بأنفسنا . ولم يكن للرسم والموسيقى بالثأ كيد هيب كبير في حياته ، حيث نجد أشخاصاً من أمثال بيبي وهربرت بوك *Herbert Pocket* وتردلس *Traddles* لم تكن لهم ثقافة سوى الراحة البيئية والاحتشام الخلقى ، ولقد كانوا حاسسين محبوبين اذكياء — ولكن نشاطاتهم المعادية كانت محدودة بصورة كلية بالمنته التي يعملون بها وبالجلوس بجانب المدفأة في الحياة البيئية . أما حين نجد واحداً منهم يوسع نشاطه إلى ما بعد هذا الذي نجاهه يتجه إلى الخدمة الاجتماعية ، وفي هذا أيضاً يبدو محكوماً بمهنته فالتقد كان آلان وودكورت *Alan Woodcourt* طبيباً طيباً ، كما كان مستر ميلفى *Mr. Milvey* شخصاً طيباً ، ولقد كانت نشاطات ديفيد كوبرفيلد الأخرى أن يكتب روايات مثل التوقعات العظيمة ، وديفيد كوبرفيلد ، وهكذا فإننا نصل إلى دائرة مكتملة .

وهنا نجد أن الناقد السوسيولوجى يأتى الضرب على مظاهر معينة للأعمال

الأدبية ، وذلك بتوجيه اهتمامنا إلى الطريقة التي تنعكس فيها التغيرات الاجتماعية وغيرها من العوامل الاجتماعية على تلك الأعمال الأدبية . وهو لا يعين قيمة معينة ، ولكنه يلقي ضوء البحث من زوايا جديدة — مثله في ذلك كالمشغل بالتاريخ والناقد السيكلوجي — فهو يوضح مظاهر معينة في الأعمال التي يناقشها في بؤرة الضوء، وذلك بأن يفسر لنا كيف جاءت تلك الأعمال على ما هي عليه. وهنا نجد إن النمط الذي يبرز تحت ضوء البحث ليس هو النمط الحقيقي ، أو الكامل ، للعمل ، فليس هناك مثل هذا النمط — ولكنه النمط الذي إذا وضعناه في أذهاننا حينما ننظر إلى العمل من وجهات نظر أخرى ، فإننا نستطيع أن نضيف مساهمته في زيادة إدراكنا واحتمنا بالعمل الأدبي . ولما كانت الأعمال الفنية الأدبية أشياء متعددة الجوانب ذات معاني كثيرة تنبع من كل منها ، فليس هناك من ناقد واحد — أو مدرسة نقدية معينة — يستطيع أن يستوعب مفزاها .

كيفية تحقيق الفائدة القصوى للنقد السوسيلوجي :

يمكن الافتناع بأن النقد السوسيلوجي يطبق بطريقة بالغة الفائدة في أنواع معينة من الأعمال الفنية ، بينما نجده أقل فائدة في مجال الشعر الغنائي . ولقد كانت الرواية النظرية الإنجليزية — إلى وقت قريب — وسيلة جماهيرية إلى حد كبير تعتمد في نمط معناها على الاتفاق بين الكاتب وجمهوره حول مغزى العقل الانساني والطبيعة الأخلاقية(*) ، بينما كان الشعر الغنائي يميل إلى توصيل رؤية أكثر خصوصية للحقيقة . ونجد أن روبنسون كروزو حينما وجد نفسه

(*) أنظر ، Daishet, D. , *The Novel and the Modern World*, 1939, Chapter I.

وحيداً على أرض جزيرته لم يسمع لاستخدام وحدته بوصاطة العلاقة بين الفرد والعالم ، فقد كان غرضه في عرائسه البعيدة هو - على الأقل - إعادة خلق هيكل المدنية التي تركها وراءه تماماً .

وحيث كانت الرواية الانجليزية معتمدة على المجتمع والاتفاق الجماهيري حول ما كان يستحق انتباهه كشيء ذي مغزى بين التفاصيل المتنوعة للحياة اليومية ، فإننا نجد أن تلك الأشياء التي كانت ذات مغزى تتمثل فيما أحدث تحولاً في العلاقة الاجتماعية للحب والزواج والخسام والصفاء والمكسب والخسارة للمال أو المركز الاجتماعي . وحيث نجد في استطاعتنا حقاً أن نقدر مجتمعاً ما ، إلا أننا لا نفعل هذا بأن نرى كيف لم يؤد العرف الاجتماعي في الواقع إلى تلك الأخلاقيات العملية المقبولة بوجه عام والتي يقبل هذا العرف احتضانها .

ونحن نستطيع أن نكتشف العلاقة بين ثلثمائة الشعور والعرف الاجتماعي كما نجد لها لدى جين أوستين *Jane Austen* ، أو العلاقة بين النبالة والأخلاقيات كما نجد لها عند ثاكراي *Thackeray* ، أو أثر المجتمع الصناعي على الشخصية كما هي عند ديكنز ، أو فحص إمكانيات معرفة للذات والعمل في مجال المجتمع كما نجده عند جورج إليوت *George Eliot* ، ولكننا في كل حالة نجد أن عقدة العمل الأدبي تنجح إلى التصاعد من خلال الرموز الجماهيرية . ونجسد في كل الحالات أن المجتمع قائم لكي يؤخذ في الاعتبار - ويقبل كحقيقة أساسية حول الحياة الإنسانية - وذلك حتى حين يرغب المؤلف في مهاجمته أو تغييره .

وقد كانت رواية القرن الثامن عشر والتاسع عشر لهذا تمثل جيداً موقفاً في بصورة خاصة - لنقد الموسيولوجي - وامل القاري - يسأل نفسه عما هي

الأسئلة السوسولوجية التي يمكن أن تكون إثارتهما مشمرة حول روايات ريتشاردسون *Richardson* أو جين أوستن *Jane Austen* أو ثاكراي أو ديكنز أو جورج إليوت *George Eliot* ، أما مع مثل تلك الروائية إميلي برونت *Emily Bronte* التي اشتغلت بشيء من خيال الشاعر فإننا نجد الاتجاه السوسولوجي ربما يكون أقل إثماراً .

وبالمثل فإننا نجد في رواية القرن العشرين أنه ربما كان في استطاعتنا أن نوجه أسئلة سوسولوجية مشمرة حول ويلز *Wells* وجالورد *Galsworthy* ودوز *Dos Passos* أو حتى فولكنر *Faulkner* . على الرغم من طريقته الخاصة التي يعمل بها ككاهن — ولكننا نقصد عما هو الموقف بالنسبة إلى فيرجينيا وولف *Virginia Woolf* ود. ه. لورنس *D.H. Lawrence* وهمنجواي *Hemingway* الذي نجده على الرغم من عنايته في جانب معين بالإنسان والمجتمع فهو في أفضل رواياته يذهب لأساطير بطولية تنبع بصورة جوهرية عن حساسية شعرية . إن الأصول الاجتماعية للورنس يمكن أن يتحقق لها فحص مشمر بواسطة هؤلاء الذين يتوفر لديهم الاهتمام بـ سيكولوجيته ، ولكن دلالة مثل هذا الفحص في فهم الطريقة التي يعمل بها خياله في رواياته هي بالتأكيد أمر مهكوك فيه . وبعد فقد كانت تلك اختلافات يفعل القارئ خيراً حين يأخذها في اعتباره . وذلك مهما كانت النتائج التي يصل إليها .

ونجد في الجانب الآخر أن الاتجاه السوسولوجي قد جيء به ليحمل على البشر .. ليس فقط من قبل الماركسيين الذين مرجعوا إلى تفسير الأعمال الأدبية بربطها بأصولها في استجابة الفرد للبوقف الطبقي الذي يجد نفسه فيه ، ولكننا

نجد ناقداً مثل باتسون *F.W. Bateson* فى مؤلفه بعنوان : الشعر الانجليزى — مقدمة نقدية (٥) ، ولقد ناقش باتسون فى الفصل العاشر من هذا الكتاب مرثية جراى *Gray's Elegy* التى تلقى بفض بصورة حادة مع تحليل كليل بروكس *Cleanth Brooks* للشعر فى مؤلفه بعنوان : القدر حسنة التشكيل *The Well Wrought Urn* . ويبدأ باتسون من حقيقة كون المرثية مكونة من شطرين يأتى الشطر الثانى منهما — والذى يضم الابيات المسبقة والخمسين الأخيرة — فى مستوى أدنى مما كان عليه الشطر الاول .

ويحاول باتسون فى القسم الثانى من المرثية أن يقنعنا بما إذا كانت محاولة غير ناجحة لإلغاء هويتها — بعد القسم الاول المبقرى الذى نجد فيه تضاداً ملاحظاً بين الحياة الطبيعية التى تكاد أن تكون حيوانية للقرية من ناحية وحياة العزلة ، المصطنعة التى لا جدوى منها — يمكن أن تقدم لنا جراى عام ١٧٤٢ . كهنس يعتمد على غيره ولا صديق له ، كما هى محاكاة لجراى عام ١٧٤١ قبل موت صديقه المقرب ريتشارد وست *Richard West* .

وبعد تحليل مثير للاهتمام للطريقة التى تعمل بها الصور الرمزية يخلص باتسون إلى أن : المرثية هى بالاضافة إلى كل الاشياء الأخرى التى تمثلها فى كراسة الصور ، فقد كانت بيئة على نفث واسترجاع الطبيعة الحساسة التى تنصف بالتعسر الزائد لجذورها فى المجتمع الريفى معتمدة على الاستبدادية الضيقة لصاحب « العربة » .

(*) *Bateson, F.W. : English Poetry : A Critical Introduction, 1950.*

ويقسم بانسون تاريخ الشعر الانجائزى إلى ست مدارس متتالية هي المدرسة الانجلو فرنسية ، والمدرسة التى يمثلها شوسير *Chaucer* ، ومدرسة عصر النهضة ، والمدرسة التى تمثل عصر أوغسطس قيصر ، والمدرسة الرومانسية ، والمدرسة الحديثة . كما يميز بانسون بين ستة نظم اجتماعية ترتبط بها هي : عصر إقطاع المحامين ، وعصر يومانرى *Ysomenary* الذى يقدم باليه وقراطية المحلية وعصر الاستبدادية المركزية لخدم الأمير ، وعصر أوليغارشية ملاك الاراضى وعصر البلوتوقراطية أو حكومة الطبقة الثرية من رجال الاعمال ، وعصر الدولة الإدارية ، ثم يتبع هذا بأن يبين الصلة بين مجموعات معينة من الاشعار والتنظيمات الاجتماعية التى وجدت فى العصر الذى تنتمى إليه مبدئاً كيف كانت الانجاعات والنصورات والحالة العقلية فى كل حالة من الحالات مرتبطة باستجابة الشاعر نحو العالم الاجتماعى الذى كان جزءاً منه . ولقد كانت عناوين فصول كتابه ذات خاصية تقريرية مثل : ديمقراطية يومان وقصة ميلار لهوسين ، و دابن المرابين ، ، و د اسرج طريق الخروج من مانتستر — أربع قصائد غنائية رومانسية ، وهكذا . ونجد فيما يلى مقتطفات موجزة هي وإن كانت لا تعطينا صورة صادقة تماماً لقوة حجة وإحكام سببية بانسون ولكن ربما كانت تلك الخلاصة ينتهى إليها فى مقالته حول *Waller* تساعدنا فى توضيح منهجه حيث يقول :

« إن هذا التطداد المركزى إنما يمثل التفسير النهائى لذلك النوع من الشعر الذى الفارغ الذى يكون جانباً كبيراً من الشعر فى تلك المدرسة التى تنتمى

إلى عصر أوغسطس فيصر ، حيث نجد الطبقة الحاكمة وقد افتقدت إلى الأسس الروحية أو التقليدية للسلطة من ناحية - كما افتقدت إلى الأسس العقلانية من الأخرى - وذلك فيما عدا مجال واحد يتمثل في الانجازات الزراعية للعصر .. فقد استطاعت تلك الطبقة الحاكمة فقط أن تبرز امتيازاتها في عيون الشعب بأن تتخذ الشكل الارستقراطي فتعيش في أفخم البيوت، وتأكل أطيب طعام، وتقرأ أفضل الكتب كما تناصر أحسن الشعراء . ومن ثم فقد كانت د طوقس الضياع الرابع ، كما يصورها بالاد *Pallad* مفرطة في الانساع حول من يعيها . كما كانت قصائد بنداريك *Pinadic* باللغة القتامة كنس يقرأ .

ولم يستطع أحد من شعراء عصر أوغسطس فيصر أن يعالج بصورة كلية ذلك التضاد ، ولهذا فليس هناك من شعراء ذلك العصر من يلقب بالشاعر العظيم . ولكننا نجد من ناحية أخرى أن هناك بعض المجددين الذين نجحوا في تخفيف مدى أزمة ضحالة ذلك العصر ، فقد كانت مؤلفات والرز *Walters* بعنوان : « مديح في إلهي الحاي ، ودرين *Dryden* بعنوان : « القناع الديني » ، وروشستر *Rochester* بعنوان : « أساطير الإله الإغريقي ضد الجنس البشري » ، وتصور بوب « للورد نيمون » ، في « المقالة الأخلاقية الرابعة » ، ومؤلف جواي « العبقرى بعنوان : « مقعد مالك الأرض بالقرب من هارجيت » ، تقوم بطريقة أو أخرى - وعلى مستوى ما - بمعالجة الضمير الاجتماعي للعصر .

وبجانب هذا كله نجد عملاً حديثاً آخر حاول تفسير أنطوب النصوص الأدبية بالرجوع إلى الأوضاع الاجتماعية - كما يحاول مساعدتنا على رؤية النصوص الأدبية تلك النصوص بصورة أكثر وضوحاً ، وذلك بأن يربطها

كيف تنعكس تلك الأوضاع الاجتماعية على رؤية الكاتب العمالي — وهذا العمل هو لجون دانبي John F. Danby بعنوان : « شعراء جبل المصير » ، وتبين المقطعات التالية من الفصل الافتتاحي لهذا الكتاب وجهة نظر دانبي :

« إن صورة جبل المصير — والأدب المرتبط بالتحسين إما للبيت العظيم *Great House* أو للدرج العميق *Public Theatre* — قد جعلت فعلاً المشهد الإلزابيثي اليمعقوب أقل انسجاماً عن تلك الصورة التي تخيلناها أحياناً . ونحن نتابع التصور فإننا نجد التعقيدات المتزايدة تبدو جلية ، فإن للجبل مستويات وجوانب مختلفة . ونجد أن الحركة إلى أعلا وأسفل ، والالتفات الكلي أو الجزئي حوله ، كما نجد الحركات التي تجمع بين هذين الاتجاهين هي حركات ممكنة فيه ، وبالتالي فإن هناك رؤية مختلفة متوقعة من مواضع مختلفة في هذا الجبل .

وحيث نجد أن المجتمع الإلزابيثي تتضح الفارقة بينه وبين غيره من المجتمعات إلى حد بعيد ، فإن الأدب هو بالتأكيد ما يحدث في ، الأشخاص ، وهنا نقسم عما يمكن أن يحدث فيه . هذا الحدوث متكيفاً بصورة جزئية بما وقع له ، بناء على مكانه وسلوكه فوق جبل المصير ، وأخيراً لما كان للأدب يعنون برجل مدين — في مكانه بالنسبة إلى معاصريه فوق جبل المصير والذين ينهضون له — فإننا نجد للأدب ثلاثة أبعاد مكانية كثيراً ما نجدتها في الدراسات النقدية تختزل في مدين فقط كما هو شأن الورقة التي كتب عليها .

وربما كان من الأفضل أن نحصر بعض المظاهر الفارقة بين أعمال أدبية

معينة في حدود النموذج الاجتماعي ، حيث نجد أن « الأركاديا » تعتبر من أدب « البيت العظيم » كما يعتبر سيدنى *Sidney* المترجم لعبقرية ذلك الممثل الأدبي : « البيت العظيم » ، وتنتمي مسرحيات شكسبير إلى المدينة المفتوحة أو البلاد الإليزابيثية المفتوحة ، أو المسرح التجاري المكشوف . أما *Beaumont* و *Fletcher* فهما هجين منطالع حيث يمثلان أقسام الجيل الثاني من النخبة الإليزابيثية والجيل الثاني للشعاليين مسرحياً لم يعد الآن مفتوحاً على السماء .

ولعل اعترافنا بالنموذج الاجتماعي لكتاب هم موضع اهتمامنا لا يساعدنا فقط فيما نظن على الاتجاه نحو رؤية أكثر وضوحاً للكيفية التي تقف بها الأمور فيما بينهم حول تلك الأسئلة المتعلقة بتأثير ووطء النموذج وكثيره ، ولعلنا نجد أن السؤال حول « التأثيرات » حينما يكون أكاديمياً فهو يبعد في تهنت عن النص ، أما حين ترى التأثيرات في علاقتها بالنموذج الاجتماعي — وحيث يرى المسكان الاجتماعي ليتضمن كل ما هو عقري وفكري ومزاجي وروحي — فإن هذا السؤال يأخذ مغزى جديداً ، فهو يأتي ليرتبط بالكيفية الجوهرية للعمل ذاته في كونه عملاً قد كتب بواسطة « إنسان » من مكانه اجتماعي . . . وهو يقول آخر يصبح ذو دلالة مجرد تقبل لما يكون عليه العمل تحت اعتبارات معينة وليس فقط لما ، بلع ، عنه .

وربما يقول القارئ الهسوري البعث أن فحمس دانبي *Mr. Danby* ربما يرى ما إذا يكون العمل تحت اعتبارات معينة ؛ ولكنه لا يبين مما هو موضعه كواحد من أعمال الفن الأدبي ، ولعلنا نجد القليل من الهك حول ذلك المنهج الذي ربما إذا استخدم فإنه يساعدنا لنرى لماذا كتب شعراء معينون أو

كتاب دراميون على النحو الذي فعلوا عليه ، وما هو النمط الأخلاقي الحقيقي
لعملهم ، كما أنه أيضاً يلقى الضوء على الاختلافات بين الشعراء المعاصرين ، وهو
ما يجعلنا نأخذ في الاعتبار العبارة التالية مثلاً :

وإن سيدنى يتعرض في قمة جبل المصير حيث لا يوجد سينسر في ذلك
الموضع مع أن شعر سينسر يجب أن يكسبه مكانة رفيعة ، من ثم يثبت في
مكان في بنية العالم ، فقد كان الشعر عند سيدنى هو الاخلاص الخاص للحقيقة
أما بالنسبة لسينسر فإنه خالق بإعلان جماهيري لفرصته وفي الاعتراف به كشاعر
وكدليل عن أن الشعراء كشاعر يكون مستغرقاً في عمل له أهمية قومية . ومن ثم
فإن سينسر يتمتع بجديّة في تطويع كل المهارات الشعرية ، كما أن شعره يتطلب
المناسبة الخارجية كما يتطلب وصفات النظرية والشكل والموضوع المقترح ،
ونجد في تجربته البالغة النظم الإبداعية يحمل قصة رمزية تختلط فيها الرمزية
بالأخلاقية والأخلاقية بالادلاطونية لتكون بجملاً كلياً ليكامل منجزات شعر
النمضة في مجال التعليم والفن ، .

ونجد أن مثل هذا الانجاء حين يستخدم في مناقشة مؤلف سيدنى بعنوان :
د أركاديا ، باعتباره د رومانسي البيت العظيم ، ، وفي مناقشة العلاقة بين أعمال
سيدنى والرومانسية الهكسبيرية المتأخرة ، والجوانب الأخرى في تفسير
درومونت وفلشر لا يستطيع فقط أن يفسر لنا الأسباب التي تقوم وراء مظاهر
معينة في أعمالهم نحن نعرفها فلا ، ولكنه أيضاً يوجه اهتمامنا إلى النوعيات
الادبية التي تتوفر في أعمالهم والتي لم نرها بوضوح من قبل ، ومن ثم فإن النقد
الموسميولوجية يمكن أن يساعدنا في تكرس الإدراك الأدبي كما يساعدنا على
تفسير الأصول .

ولقد كان الاتجاه النقدي اذاركسى بوجه عام أقل حساسية إلى حد بعيد ، فقد كان منكباً إما على تفسير الأدب في حدود وضعه في البناء العائلي أو بإلقاء أحكام على عمل معين أو كاتب معين بناء على ما يديه من استعداد في التحيز للسبب السياسى أو الاقتصادي الذي يميز له الناقد ، وذلك بجانب تلك الرؤى الوراثة للقيمة التي قدمها النقاد الماركسيون أو أشباه الماركسيين ونجد أن مؤلف كريستوفر كودويل Christopher Caudwell بعنوان : « الوهم والحقيقة — دراسة في مصادر الشعر » الذي صدر عام ١٩٣٩ من بين أفضل ما قدم النقد اذاركسى ، كما كان مؤلف جرانفى هيك Granville Hick بعنوان : « النقايد العظيمة » الذي صدر عام ١٩٣٣ ، ومؤلفه بعنوان : « صور الانتقال » الذي صدر عام ١٩٣٩ كانت دائماً كتب مستنيرة وذلك على الرغم من اتجاهها إلى التبسيط الزائد الخفيف والذي يتمثل في التحويل البسيط للأحكام السياسية والاقتصادية إلى المجال الأدبي . وهنا نجد أن الماركسية كنظرية في التاريخ تصبح أكثر توازناً مع التفسير الوراثة للأصول الاجتماعية للأدب أكثر من كونها أداة تقييمية في مجال النقد الأدبي .

استخدام المنهج :

ويمكننا أن نقارن قد يميل إلى النظر فيما إذا كان اتجاهه أدبي — كما عرضنا له فيما سبق — يمكن أن يطبق بصورة مجدية بالنسبة إلى أي عصر أدبي آخر . وهل يمكن مثلاً أن القول بأن مؤلف تينيسون Tennyson بعنوان : « تحليل الذكرى » يصبح عملاً مستنيراً حين نأخذ في الاعتبار مكان الشعراء فوق جبل المصين ؟ وما هي طبيعة العلاقة التي تربط بين الروايات الذي ينتمى إلى العصر الفيكتوري بجمهوره ؟ وإلى أي مدى تكون ظروف النشر ذات

دلالة في المناقشة النقدية للرواية ، كما هو الحال في مؤلف كاتلين تيلوتسون *Kathleen Tillotson* — بعنوان : الرواية في أربعينيات القرن الثامن عشر ، الذي صدر عام ١٩٥٤ ، الذي يتضمن الكثير من المادة المشيرة للاهتمام حول وضع الروايات في علاقته بجمهوره وناشر مؤلفاته ، والذي يتضمن مناقشة لبعض أعمال روائية معينة — ولعل القارئ يتساءل لمعرفة إلى أي مدى وبأية صورة تلقى المناقشة الأولى الضوء على الأخيرة ؟

الإثنوجرافيا

تعتبر الملاحظة المباشرة للسلوك المعرفي في مجتمعات معينة هي المصدر الذي تعتمد عليه الأنثروبولوجيا الثقافية في النهاية . ويعتبر القيام بصياغة هذه المادة في تقارير — كما يعتبر تقييم تلك الملاحظات — هو الغرض الذي تسمى إلى تحقيقه الإثنوجرافيا . ومع أن النجاح في تحقيق هذا الغرض يرتبط في التصميم بصدق التأريكات الأنثروبولوجية الثقافية والاجتماعية ؛ فإن الإثنوجرافيا ذاتها لم تلق سوى القليل من الاهتمام الجاد . ولكن يمكن القول — بطريقة أو أخرى — أنه مع ما أصبحت عليه العلوم الاجتماعية من اتجاه إلى مزيد من الاعتماد لمصادر مادتها — ومزيد من الاهتمام بالطريقة التي تسجل وتحتق وتحمل بها تلك المادة — فقد بدأ الاهتمام بالمنهج الإثنوجرافي والنظرية الإثنوجرافية ، كما كان هناك اهتمام أيضاً بالجوانب التي تتميز بكثير من الخصائص الفنية والخصوصية في البحث الإثنوجرافي .

وقد كان هناك تنوع واختلاف في الآراء حول كثير من التفاصيل — إلى حد يستحق أن يؤخذ في الاعتبار — في تحديد مجال الإثنوجرافيا والتعرف بها . ولكن الاستخدام المعاصر لهذا العلم لا يسمح سوى بقليل من التمييزات أو الاختلافات والتداخلات الاصطلاحية العامة ، فالباحث الإثنوجرافي هو باحث أنثروبولوجي يحاول — على الأقل في جانب من عمله التخصصي — أن يسجل ويصف مظاهر السلوك ذات الدلالة الثقافية في مجتمع معين . ومن الناحية المثالية فإن هذا الوصف الإثنوجرافي يتطلب قضاء فترة طويلة في الدراسة العميقة ، كما يتطلب الإقامة في جماعة صغيرة محددة تماماً ، ويتطلب المعرفة باللغة

التي تتكلمها تلك الجماعة والاستخدام الواسع المدى للطرق الفنية في الملاحظة ، بما تتضمنه من اتصالات ممتدة مباشرة بأعضاء الجماعة المحلية ، والمشاركة المباشرة في بعض نشاطاتها ، كما يتطلب الوصف الإثنوجرافي إعتياداً على العمل المركز مع الآتين بالاخبار — العارفين بأحوال المجتمع والذين يعتبرون مصادر شخصية للمعلومات — أكثر من الاعتماد على المادة المستمدة من الوثائق أو الاعتماد على طريقة المسح .

ولقد استخدم مصطلح الإثنوجرافيا بغير تحديد الإشارة إلى ذلك المبحث الذي يعنى بالأوصاف الثقافية . وحين أخذ هذا المصطلح د الإثنوجرافيا ، إطاراً مرجعياً أدى طبيعة إقليمية — حيث عرفنا مثلاً الإثنوجرافيا البولينيزية ، فقد أصبح يدل على الطريقة التي تفهم وتستخدم بها الإثنوجرافيا في إقليم معين ، كما يبين المعالجة الجمعية — أو المقارنة — للإثنوجرافيات التي كتبت حول الشعوب التي تعيش في ذلك الاقليم . وهذا الهيكل الأخير لاستخدام الإثنوجرافيا هو ما يرجع إليه بعض من النواتج في التعريف بالإثنولوجيا المقارنة أو ببساطة د الإثنولوجيا .

تاريخ الإثنوجرافيا :

مع أن جذور الوصف الإثنوجرافي مفقودة لقدمها ، ومع أن معظم الملاحظات والتأويلات — أو إساءة التأويلات — للمجتمعات الانسانية قد استمرت تتناقل بطريقة شفوية ، فقد أتاحت فرصة الاحتفاظ بمدونات لبعض الأوصاف المبكرة . ولقد ازداد استمرار تسجيل تلك الملاحظات في وثائق بصورة ملحوظة مع الرحلات الأوربية الاستكشاف والاستقصاء . وعلى الرغم من الاختلافات التنظيمية والنمطية فيها إلا أن تبين لنا تلك الكتابات من

تحويل من الرصد للفضول للممارسات الأجنبية الغربية أو الشاذة ، إلى المحاولات الحالية للوصول إلى الأوصاف الثقافية المأدبة .

وحين نقارن الخطوات الباجمة في هذا التحويل ، فإنه يجب على المرء أن يلاحظ تلك التغيرات التي طرأت ليس فقط على محتوى الإثنوجرافيا والغرض الذي تسمى إليه ، ولكن عليه أن يلاحظ كذلك التغيرات التي طرأت أيضاً على طريقة إعداد الباحثين الإثنوجرافيين ، والخلفية التي يستندون إليها في دراساتهم ، والظروف التي تجري فيها الدراسة الإثنوجرافية المحلية. وحيث تصعب المعالجة التفصيلية لكثير من الاختلافات الفردية والنظمية بين الأنثروبولوجيين الأمريكيين والبريطانيين والأوروبيين — فيما يتعلق بهذا التحويل — فيمكن للقارئ الرجوع مثلاً إلى مقال إيجان : « المادة الإثنوجرافية في الأنثروبولوجيا الاجتماعية في الولايات المتحدة » ، وإلى كتاب فيث بعنوان : « الإنسان والثقافة » ، وإلى مقال جلكمان وموضوعه : « المادة الإثنوجرافية في الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية » ، وإلى كتاب جريول بعنوان : « منهج الإثنوجرافيا » ، وكتاب كروير في « التأويل الإثنوجرافي » ، وبخاصة الفصل الأول فيه وعنوانه : « ماهية الإثنوجرافيا » ، كما يمكن الرجوع إلى مقال لوى حول « الإثنوجرافيا والأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية » ، ومقال ريتشاردز حول « التقدم في مناهج الدراسة المحلية في الأنثروبولوجيا الاجتماعية » .

البدايات الإثنوجرافية المبكرة :

ابتداء من القرن الخامس عشر ولعدة مئات من السنين تالفة — كانت أوصاف الممارسات الثقافية تكتب إلى حد بعيد خلال رحلات الاستكشاف

والنشاطات التبشيرية ، وإنشاء الحكومات والمراكز الاستعمارية ، ويرجع في هذا إلى كتاب هاول بعنوان : « تعليقات في الاسفار الخارجية » ، وكتاب روى حول : « الإثنوجرافيا والإثنولوجيا في القرن السادس عشر » . وعلى الرغم من بعض الاستثناءات مثل « ملاحظات بيجافينا *Pigafetta* حول نوع معين السعادين والمتضمنة يومياته في رحلة ماجلان » ، والكتابات المكسيكية الشاملة التي سجلها صاهاجن *Sahagun* في كتابه بعنوان : « تاريخ عام لشئون أسبانيا الجديدة » — على الرغم من هذا كله فإن الصورة الغالبة في التسجيلات الاكبركية والحكومية لم تكن ذات تأثير إثنوجرافي .

ومع توسع الكهوف الجغرافية في القرن التاسع عشر بدأت كتابات علماء التاريخ الطبيعي والرحالة وجامعي المتاحف تثرى وثائق البعثات التبشيرية والوثائق الرسمية . وبقول آخر فقد أصبحت الإثنوجرافيا أكثر تنظيماً — بطريقة أو أخرى — وكتبت عدة استبيانات وقوائم أسئلة وتعليقات وأدلة إقليمية . ويمكن للقارئ الرجوع في هذه النقطة إلى كتاب هاول في « تاريخ رحلة بقيادة الكابتن لويس والكاين كلارك إلى منابع نهر الميسوري » ، والكتاب الذي صدر عن الرابطة البريطانية للتقدم العلمي وموضوعه : « دليل مختصر في البحث الإثنولوجي » ، والذي يضم سلاسل من الأسئلة تختص بالجنس البشري يستخدمها للرحالة وغيرهم في دراسة مظاهر التنوع في النوع الانساني ، وكتاب نيومان وعنوانه : « مقدمة للملاحظات العلمية في الرحلات » .

وقد كانت الجمعيات الانثروبولوجية المتخصصة في أوروبا والولايات المتحدة تدعم من قبل الرحالة ورجال الحكومة وغيرهم من المهتمين ، كما تلقت في وقت متأخر تشجيعاً من المناحف . وقد فتح هذا التثبيح إلى ظهور سلاسل من

الكتب التي كرس بشكل واسع للأوساخ الثقافية، ويذكر هنا على سبيل المثال منشورات مكتب الإثنولوجيا الأمريكية *Bureau of American Ethnology* والجمعية الإثنولوجية الأمريكية *American Ethnological Society* ، كما كان هناك الكثير من المنشورات التي صدرت عن متاحف التاريخ الطبيعي . وقد كانت هناك بعض المؤلفات التي تعتبر علامات هامة مثل كتابات مورجان *Morgan* بعنوان «ثقافة شيكا» *Seneca Culture* والتي اعتمدت على دراسات عقلية مثل دراسة ريفرز *Rivers* حول النودا *Toda* التي ظهرت في عام ١٩٠٩ ، كما كان هناك القليل من الاحمال التجديدية النشطة مثل دراسة باترون *Batton* «لقانون في إيفاجوا» *Ifagao Law* - التي ظهرت في عام ١٩١٩ ، والتي تمت من خلالها البرمنة على قيمة الاتجاه نحو الاعتماد على منهج دراسة الحالة .

وفي نهاية الحرب العالمية الثانية تراكم الكثير من المادة الانثوجرافية المنجمعة من مناطق عديدة ، ولكننا نجد أنه على الرغم من أن بعض الباحثين من أمثال بواس *Boas* قد بدأ العمل بعمق مع الآلئين بالإخبار حول هيكلات لغوية وثقافية معينة ، فقد كانت أغلب كتابات تلك الفترة تصدر عن غير المهتمين أصلاً بالانثروبولوجيا . ومثال ذلك فقد كان مورجان يشتغل بالمحاماة ، وكان باترون *Batton* معلماً وطبيب أسنان . وقد اجتذبت هؤلاء الكتابات الموضوعات الانثروبولوجية لأسباب متنوعة ، وتكورات لديهم خلال الزيارات القصيرة أو الدراسات المسحية التي شاركوا فيها - أو من خلال ارتباطات حارضة - خبرة عقلية كانت كافية لكي يقوموا بكتابة تفصيلات مثيرة للاهتمام حول ملاحظاتهم المحلية . وفي الاتجاه إلى نهاية تلك الفترة قدمت المتاحف

معظم ما تلقاه البحث الحقلى من دعم مالى . ويمكن القول بوجه عام بأن البحث الإثنوجرافى كان يسيطر عليه التمرکز حول اهتمامات موضوعية معينة .. كما كانت هناك نقاط مقننة تدور حولها الملاحظات التى يتم تسجيلها وكان هناك اعتماد مكثف على المترجمين .

الإثنوجرافيا قبيل الحرب العالمية الثانية :

ابتداء من عام ١٩٢٥ أصبحت الدراسات الإثنوجرافية تكون نشاطاً تخصصياً مستقراً ، وقد كان هناك تحول واضح عن مجرد تقبل البحث الحقلى — إلى مزيد من الالتفات التخصصى النقدى فى القيام بتلك الدراسات الإثنوجرافية كما كان هناك تحول من الاهتمام المسيطر بجمع المادة وثراكمها — إلى التحليل الأكثر عمقاً لأنماط ثقافية معينة . وقد ترتب الكثير من تلك التحولات بشكل مباشر بتأثير كتابات مالىنوفسكى — وبوجه خاص كتابه عن مجتمع الأرجنوتس فى جنوب المحيط الهادى ، الذى صدر عام ١٩٢٢ ، وكتابته عن السحر فى جزر سداق المرجان ، الذى صدر عام ١٩٣٥ . وقد استندت كتاباته إلى ملاحظاته التفصيلية للطولة فى جزر التروبرياندا التى اعتمد فيها على استخدام اللغة المحلية ، والإقامة لمدة طويلة فى الجماعة التى يقوم بدراستها وتقبّل الظواهر الثقافية ذات الاتصال الوظيفى التى تكون وحدة كلية ذات محتوى يمكن تحديده ، وكان لهذا كله أثره فى قيام حركة لإعادة التفكير فى كثير من جوانب البحث الإثنوجرافى . كما أدى الاهتمام المتزايد بالمضامين الثقافية إلى الاهتمام بدور الباحث الإثنوجرافى فى موقف البحث الحقلى ، وإلى مزيد من التقدير الواعى للطريقة التى يتم بواسطتها تسجيل ائادة الحقلية .

كذلك فقد كان لمظاهر التقدم فى علم اللغات — وعلم الاجتماع وعلم النفس

— أمـره في أن يبدأ الباحثون الإثنوجغرافيون بإبداء مزيد من الاهتمام بالنظرية العامة وبالمناهج الوصفية .. بغية الاستفادة من اتساع مدى طرق البحث — مثلاً فيما يتعلق بتسجيل تاريخ الحياة ، وتطبيق الاختبارات الاستقصائية ، والاعتماد المتزايد والمكثف على التسجيل الفوتوغرافي — كما كانت البحوث الحقلية مقودة بشكل متزايد نحو الاهتمام بالمشكلات العامة للتنوع الثقافي وطبيعة العموميات الثقافية .

وقد أثمرت المحاولات التي قامت منذ عام ١٩٣٠ لتقديم المعلومات الإثنوجرافية التي تتخذ ركيزة يستند إليها في تحليل السمات واختيار الفروض أثمرت صوراً متنوعة من التقنية التي يضمها مثلاً الكتاب الذي صدر عن جامعة ييل عام ١٩٣٨ بعنوان *المخطوط العامة للواد الثقافية ، Outline of Cultural Materials* ، والتي ساعدت على تنظيم تسجيل وتصنيف للملاحظات الحقلية في فئات متمايزة ومتقابلة . وقد ساعد هذا النمو الذي تحقق في طرق البحث الإثنوجرافي على القيام بدراسات كمية ومقارنة ، كما ساعد على التوسع بطريقة ذات دلالة في الاكتشافات القائمة حول المكونات الثقافية .

وغالباً ما كانت تلك التفصيلات في وصف مكونات الثقافة تفتقر بطريقة أو أخرى إلى تحديد لضمائنها أو محترياتها ، ومن ثم فقد وجدت تلك المجموعات اهتماماً نحو الضعف الموروث في الاعتماد على المعلومات الجاهزة أو المعدة سلفاً في القيام بالدراسات الحقلية والوظيفية . وقد ساعد النقد والتجريب لكثير من مناهج البحث وطرقه على مواجهة النظمات الجديدة لتحقيق مستويات أعلى في البحث ، كما أُنشِئت خلال تلك الفترة أهمية المنهج التي تقدمها المناهج

ومساهمات الإثنوجرافيين الموهبة .. حيث كان الباحثون الإثنوجرافيون
الحقليون يدربون كمنخصصين في الأنثروبولوجيا في أنسام الدراسات العليا
بالجامعات . كما كانوا يعتمدون على الدعم الذي تقدمه الصناديق الخاصة والمنح
الحكومية .

الإثنوجرافيا بعد عام ١٩٥٠ :

بدأت الإثنوجرافيا بعد الحرب العالمية مباشرة تجتذب مزيداً من الاهتمام
النظري والمنهجي ، ويذكر هنا على وجه الخصوص الاهتمام المتجدد والمتسع
بمشكلة التصنيف التي احتلت أهمية نقدية ، كما كان هناك تركيز متزايد على
أنساق الاتصال والنماذج البنائية — مثل كتاب ليفي ستروس بعنوان :
« الأنثروبولوجيا البنائية » ، الذي صدر عام ١٩٥٨ — وذلك من خلال التوسع
في تطبيق المبادئ التي حققتها علم اللغات البنائي في الوصف الإثنوجرافي .
وهو ينعكس مثلاً في كتاب جورد نف وموضوعه : « الأنثروبولوجيا الثقافية
وعلم الأناث » ، الذي صدر عام ١٩٥٧ . كما كان هناك اهتمام بالدراسات التفصيلية
الأنساق الثقافية الفرعية — ونجده مثلاً في كتاب كونكلين بعنوان : « الزراعة
في مجتمع هاننو — تقرير حول النسق المتكامل للزراعة المتنقلة في الفلبين » —
وقد صدر هذا الكتاب عام ١٩٥٧ . صكماً نجد هناك كتاباً آخر لفريك
بعنوان : « وصف بنائي للسلوك الديني في مجتمع سابان » ، الذي صدر عام
١٩٦٤ ، كتاب بوسيليسيل عن « القانون في مجتمع كابوكا بابوان » ، الذي
صدر عام ١٩٥٨ . كذلك فقد كان هناك اهتمام بال تضاد والتباين القائم بين الجوانب
الكمية والجوانب الكيفية في الملاحظات الحقلية مثل كتاب ليتش بعنوان :
« بول إيليا — قرية في سيلان — دراسة لنظم حيازة الأرض والقراءة » ،

وقد صدر عام ١٩٥١ . كما كان هناك اهتمام مركزى بثنائية وسائل أكثر فاعلية في حصر المنعرجات الثقافية والشخصية في المواقف الحقلية الواقعية . ويمكن القول بأنه في بداية هذا الطور من أطوار نمو الإثنوجرافيا كان هناك تزايد ملحوظ في عدد الباحثين الإثنوجرافيين المتخصصين ، وفي مصـ سادر المهـم وفرص الدراسات الحقلية .

النظرية والمنهج :

لقد بذل الباحثون الإثنوجرافيون مجهودات متصلة للذهاب إلى أبعد من الخاصية الروائية المشهنة وغير النقدية لما يسمى بالتفاصيل الثقافية . وتركزت تلك الجهود حول تحديد مكونات الوصف الثقافي من أجل الوصول إلى نظرية تسمح بتقييم عمليات الوصف المتتالية ، كما تسمح بصياغة مناهج ربما كانت أكثر فاعلية في الوصول إلى قضايا عامة ، وعميمات ، معتمدة من تلك الملاحظات التي تم تسجيلها . وكما قال لما تمخضت عنه تلك المجهودات نجد ذلك الاقتراح بأن ينظر إلى الإثنوجرافيا بشكل مثالي على أنها تكون أجرومية ثقافية ، ونظرية تجريدية تمدنا بالقواعد التي تسمح لنا بتكوين وتوقع وتأويل السلوك الثقافي في أوضاع معينة . وتنطوي وجهة النظر منه على أن النظرية الإثنوجرافية معينة بأن تكون معياراً تقييمياً ينصف بالإكتفاء من حيث العمق والانصاع والإيجاز والدقة ، وقد تضمنت الاتجاهات الحديثة في سبيل القيام بتحليلات حقلية يمكن الاعتماد عليها لما تتمتع به من صدق ووضوح ما يلي :

١ — المعالجة الصورية الانساق الثقافية الفرعية التي تنظم الظواهر الثقافية ذات الدلالة ، أو التي تصنف تلك الظواهر في صيغ معقولة ، وفي حدود عدد قليل من الأبعاد المتضادة ، وبحيث تكون تلك التصنيفات أو التعريفات

التركيبية حين تتخذ صيغة المعادلة - وحين تعيد ترتيب حدودها طبقاً لقواعد محددة - خاضعة للتطبيق الواسع وبخاصة في التحليل القراني ، وتبدو تلك المعالجة واضحة في مقال لوند سيورى بعنوان : ديه سان صورى ينمط مصطلحات القرابة في مجتمع كرو وأوامها .

٢ - التحليل الثقافي للتصنيفات الشعبية، وبخاصة فيما يتعلق بالظواهر الطبيعية . ولقد ساعدت دراسة العلم الشعبي على تحقيق شيء من التقدم في تحليل التصنيفات الشعبية للحيوانات والنباتات ، وهذا فضلاً عن أنماط أخرى من تحليل التضاد والانفصال الجزئى ، وتحليل الارتباطات المتسقة فيما عرف أحياناً بعلم الاجناس .

٣ - كذلك فقد خضعت المشكلات المتعلقة بالعمليات المفاهيمية المتتابعة ، وبالتعدد القائم في محتويات الفئات المستخدمة في عمليات ترميز البيانات أيضاً للاختبار . كما حملت المبادئ التى تقود الكثير من المجهودات الحديثة آثاراً من علم اللغات والمنطق والرياضيات وعلم الاحياء - لما تنطوى عليه من ترتيب واتساق . وكانت النتائج المبكرة لتطبيق هذا كله فى الإثنوجرافيا ذات أثر فى تحقيق شيء من التقدم فى مجالات أخرى كعلم الاجتماع وعلم الآثار . وقد أصبح من المنطق عليه أنه حين تختلف وجهات النظر إلى حد بعيد حول طبيعة البيئة الصادقة - فإن النظرية والمنهج وطرق البحث يجب أن تخضع للاختبار دائماً خلال التطبيق الحقلى .

طرق البحث :

ولقد تعددت أدوات جمع المادة الحقلية وتخزينها واسترجاعها وإعادة ترتيبها والتعبير عنها واستخدامها - بينما لا يزال الباحث فى حقل الدراسة -

مع مظاهر التقدم التكنولوجي . ولقد كان التسجيل الصوتي والسينمائي والتصوير المساحي والخرائط الجوية — واستخدام الحاسبات الالكترونية في تحليل محتويات النصوص والتحليل الديموجرافي — يمثل القليل فقط من مظاهر التقدم التكنولوجي المطرد في معالجة المسألة الإثنوجرافية . وكان اختيار أكثر تلك الطرق والاختراعات الكثيرة المتنوعة ملائمة لحفظ التسجيلات الإثنوجرافية يعتبر أمراً معقداً . كما كان على الباحث الإثنوجرافي ألا يميل إلى الاعتداد على المنشور من المعلومات العامة التي تتخذ صورة الخطوط المريضة أو الاستبيانات ، وأن يتحاشى إجراء المقاربات مع الآتين بالأخبار في ظروف مصطنعة . كما كان عليه أن يتجنب الصياغات الكمية غير الناضجة والمقاييس التفريقية الواسعة . وكان من المرغوب فيه أن يتصف الباحث الإثنوجرافي بالمبادأة — أو المرونة على الأقل — فضلاً عن حب الاستطلاع والصبر والخبرة بكثير من الطرق والمعرفات والاجراءات البديلة .

وكان على الباحث الإثنوجرافي الحقلي أن يكون خلال عاوريته اليومية مع من يأتونه بأخبار المجتمع على درجة عالية من الانتباه لتطبيق الطرق اللفظية واستخدامها ، وبخاصة فقد تحققت قائمتها وأن لم يكن نجاحها دائماً بنفس الدرجة . وتشمل تلك الطرق في تسجيل واستخدام الأسئلة والتعليقات التي تهجج على الأدلاء بالمعلومات كما تساعد على انتقالها وصياغتها باللغة المحلية ، كما تتمثل في ملاحظة وتسجيل واستخدام نواحي الاستجابة للحوال ومتضمناتها — والاعتماد على الفحص من خلال الإبدال العمدي للراجع المقبولة أو المغايرة ، والرجوع إلى المواقف الافتراضية ومظاهر الاتصال أو الامتداد للرجوع ، وتحويل النماذج ونوات الاتصال والعلاقات الرمزية ، وتحليل محتوى الرسالة

والادوار عن طريق مرجع معين أو عن طريق التمثيل . وبالمثل فإنه من خلال ملاحظة المتربات غير اللفظية — يساعد التجريب المبدئى — كما تساعد المرونة — في تحديد بؤرات وأطر الرؤى أو المهادد والاحداث المترتبة والادوار الرتبية .

ولقد أمدت وسائل التصوير الذهنية والنخيلية الإثنوجرافيا بأبعاد إضافية لاستكشافها أو استقصاء المواقف الفعلية الافتراضية التى لم يكن فى الامكان اختبارها بنير تلك الطرق ، وفضلا عن هذا فإن استخدام تلك الطرق قد أتاح فرصة معالجة موضوع النماذج السلافية بطريقة تيسر عملية ملاحظتها بعد أن كانت تلك النماذج مجعولة أو تعالج بطريقة روائية .

وحينما استقر توصيف الانساق المحلية كانت هناك عمليات إجرائية أخرى . . وتمطى بعض الاخص التى تقوم عليها صياغة تلك الملاحظات فى صورة كمية بواسطة أنواع مختلفة من المقاييس القائمة بذاتها المباشرة أو غير المباشرة . وإذا كان ما توفر من طرق تكنولوجية يمكن أن يحقق مزيداً من المماردة والاتقان فى جمع المادة الإثنوجرافية ، فلعل فى الامكان توجيه مزيد من الاهتمام للتفاعل بين الباحث الإثنوجرافى والآئين بالاخبار . . وذلك ليس فقط فى حدود الروتينية الظاهرة ، ولكن بالرجوع أيضاً إلى التغيرات النقدية والاجتماعية فى البيئة الاجتماعية المحدودة .

الباحثون الإثنوجرافيون :

وحيث كان الباحثون الإثنوجرافيون يتفاعلون فى علاقات شخصية واجتماعية مع الآئين بالاخبار ، فإنهم يعدون أنفسهم — وقد افتوا إليهم الانظار بكونهم يمثلون نمطاً فريداً فى التاريخ الطبيعى الذى يكون الملاحظ فيه — جسراً من

المجال الذى يقوم بملاحظته، كما يشارك مشاركة فعلية فيه . ويعتمد مدى انحراف الباحث الحقل وأهميته فى التسجيل الإثنوجرافى على عديد من الاعتبارات الموقفية التى تتضمن شخصيات الباحث الإثنوجرافى وعنبريه . ونجد فى بعض أنماط البحث الحقل أن نجاح الباحث أو فشله الحقيقى يعتمد إلى حد بعيد على تلك الانطباعات التى يتركها فى المجتمع المحلى ، وبقدر ما يعتمد على الأحداث الثقافية التى تتوفر له فرص ملاحظتها .

وينعكس الاعتبار غير الرسمى لتلك المتغيرات بصورة مطردة فى الكتابات غير الفنية، كما ينعكس فى الخطابات الهزلية التى تدور حول الباحث بين زملائه . ويجد القارئ مزيداً من الإلمام المسبق بهذه العوامل الشخصية — والآثار المترتبة عليها — فى كتاب برمان بعنوان : « خلف أقنعة كثيرة — الإثنوجرافيا والنحك فى الانطباعات فى إحدى قرى الهملايا ، » وأيضاً كتاب كازاجران « بعنوان : « فى صحبة الإنسان — عشرون شخصية لباحثين أنثروبولوجيين » . أما حين نمنى بوجه خاص إلى حد بعيد بالعلاقات الشخصية الخيمة ، فإن أغلب الأنثروبولوجيين سوف يتفقون مع كوندميانو فى التأكيد على ضرورة أن تكون هناك إثنوجرافيا الإثنوجرافيين ، وإن كانت مساهمات تقييم مثل تلك المعلومات الجوانية لم تتقدم بعد ، فإن مزيداً من التسجيل الواعى والحساس لمثل تلك الأنواع من المعاملات التى يتم الانخراط فيها خلال البحث الإثنوجرافى — وللمجموع أطياف الانخراط الاجتماعى التى تؤثر فى تلك المعلومات — ربما يقودنا إلى ما نرغب فيه من وعى بجميع الظروف المؤثرة فى البحث الإثنوجرافى ، وما يتأدى عن ذلك من توافق مناسب مع تلك الظروف . وخلال هذا البحث المستمر ، ويجه القارئ صورة درامية لامكانيات الجمع بين

تلك الحساسية والسيطرة الفنية في التحليل الإثنوجرافى فى تلك الإضافات الحديثة لبول فريدريك ، والذى نجد عرضاً لها فى مقال تاجارى بعنوان : « تحت شجرة المانجو ، ومقال لورا بومانان وعنوانه : « شكسبير فى الغابة » .

الترجمة :

تكمّن مميزات الإثنوجرافيا إلى أبعد حد فى الترجمة حيث لا بد أخيراً من ترجمة كل تلك الملاحظات فى الرموز الوصفية للباحث الإثنوجرافى ، ومن ثم فإن هناك اتساقاً خاصاً بين النظرية اللغوية ونظرية الترجمة على الخصوص من ناحية ، والإثنوجرافيا من ناحية أخرى . وبقول آخر فبح أن الإثنوجرافيا وعلم اللغات لا يتطابقان ، فإن بينهما إلى حد ما بعض الاعتدال المشترك . وفضلاً عن هذا كله فإنه على الرغم من حقيقة كون جانب كبير من البحث الإثنوجرافى قد عنى بمظاهر السلوك غير اللفظى ، فإن ملاحظة حتى أكثر العمليات الثقافية إبهاماً غالباً ما يتم التعرف على هويتها — أو حتى التعبير عنها — فى صيغة كمية . . عن طريق الاحكام التى يعبر عنها الآتون بالاختبار للباحث الإثنوجرافى . ومن ثم فقد كان اهتمام علم اللغات — والأوروبيين أوجهاً بوجه عام — بالنظرية الرمزية شديد الإيجابية فى مناقشات مميزات الإثنوجرافيا ، ونجد أمثلة توضح هذه القضية فى كتابات كولبى حول « اتجاه إثنوجرافى فى علم تطور معانى الكلمات » ، وكوبكين بعنوان : « معالجة قاموسية للتصنيفات الشعبية للحيوان » ، ورومنى وزملائه بعنوان : « دراسات تعتمد على الاتصال الثقافى فى الإدراك » ، ولامب بعنوان : « فصل تكميل فى نظرية اللغة » ، وماينوفسكى فى كتابه عن « السحر فى جزر حدائق المرجان » . ونجد بوجه خاص أن الكثير من الاهتمام قد وجه إلى تهتت العلاقات الرمزية

وتعددية المضامين ، وما يرتبط بها من أنساق الاتصال وأهمية تحليل التضاد في
الأنساق الاصطلاحية الكاملة .

وأخيراً فإننا نجد منذ عام ١٩٥٠ أن عمليات إعادة التقييم النقدي للنظرية
واستخداماتها قد قادت إلى تقدير أعظم للمشكلات الفنية والانسانية التي تقوم
وراء البحث الإثنوجرافي ، كما أدت تلك المناقشات — التي انتهت إلى ما يصل
إلى حد الثورة العقلية — إلى تكثيف الجهود بغية اختزال ذلك التعقد الثقافي
الواضح ، وإلى بيان أن للاحتمية في توضيح تلك الروايات الجلمية الفعالة
والمتسقة .

الأنثروبولوجيا التطبيقية

تختص الدراسات التي أطاق عليها اسم العلوم التطبيقية بتطبيقات تقوم على أساس من التسليم بالمبادئ ، وأحسن الأمثلة المعروفة لهذه الدراسات هي : الهندسة التي تطبق مبادئ الفيزياء ، والطب الذي يطبق مبادئ الفسيولوجيا . حيث يتعلم طالب الهندسة أن يقوم بتطبيق تلك المبادئ لكي ينفذ أعمالا ترضى في مواجهة الضغوط التي قد تعرض لها ، وحيث يتعلم طالب الطب أن يقوم بتطبيق تلك المبادئ العلمية ليعمل على علاج أمراض تعرض للجسم البشري ، وهنا نجد أن كلا من المهندس والطبيب معنى بتحقيق ظروف موضوعية محددة ومتفق عليها ، كما تعين لكل منهما تلك الظروف الموضوعية التي يعمل على تحقيقها فالهندس يوظف لبناء سد أو قنطرة قد انتهى شخص آخر إلى قرار بالحاجة إلى إقامتها في مكان معين . وهو لا ينبغي له أن يتساءل عما إذا كانت إقامة بحيرة صناعية — أو إقامة اتصال بين ضفتي نهر — يعتبر أمراً مرغوباً فيه لقيمة مائية أو أخرى . وكذلك الطبيب يستشير مريض بحسب أن به علة معينة ، ولا يجادل هذا الطبيب — كما أنه لا ينبغي له أن يجادل في الحقيقة — فيما إذا كان من الصواب أو الخطأ أن يعالج هذا المريض ليشفى من علته ، ولكن عليه فقط أن يتبصر أفضل الطرق لتحقيق تلك الغاية .

وحيث تعنى الأنثروبولوجيا الاجتماعية بكل العلاقات الاجتماعية ، فإن المماثلة بينها وبين الهندسة سوف تؤدي بنا إلى توقع أنها يجب عليها أن تصف لنا طرق إنشاء المجتمعات المرغوب فيها بصورة أو أخرى . كما أن المماثلة بينها وبين الطب سوف تؤدي بنا إلى توقع أنها يجب عليها أن تزودنا بوصفات لعلاج الحالات الباثولوجية المرضية ، التي تعرض للمجتمع ، وإن لم يكن

هناك مثل ذلك الاتفاق في الاثروبولوجيا الاجتماعية الذي يماثل الاتفاق القائم في الهندسة والطب حول ما يجب اعتباره حالة مرغوباً فيها أو حالة باثولوجية .

تعريفات لجمال الاثروبولوجيا التطبيقية :

١ - لجأ بعض الاثروبولوجيين إلى صياغة أكثر من اثبتت بالنظر أوف الصحة في المجتمع المحلي . ولقد كان من اقترح أن مصطلحاً مثل " المجتمع الصحي " يوصف به خاص من سمات يصاغ في حدود التوازن الالامشئل بين عوامل مختلفة . ونجد في هذا السياق أن كل الكائنات البشرية المنتشرة ينظر إلى كل منها باعتبارها مرتبطة بالآخر ، كما يرتبط بمجتمع محلي منظم ، ولعل من الممكن في حدود هذا السياق أيضاً أن النظر إلى ذلك المجتمع المحلي كوحدة كلية غير متجانسة بل متغير ، بل متغير ، ولكن تلك الصياغة تنطوي على توجيه أسئلة لا وليس على تقديم إجابات لها .

٢ - ونجد أن هناك وجهات نظر مختلفة تجد كثيراً ما يدعمها تعتبر أية دراسة للتغير في النظم الاجتماعية دراسة في الاثروبولوجيا التطبيقية . وفي هذا يقول إليوت د شابل *Eliot D. Chapple* : أن الاثروبولوجيا التطبيقية تعتبر جانباً من الاثروبولوجيا يعني بوصف التغيرات التي تعرض للعلاقات البشرية . ويحول المبدأ الذي يحكمها ، كما تعني بفحص تلك العوامل التي تجد إمكانية التغير في التنظيم البشري .

٣ - ولقد تمهد مجال الاثروبولوجيا التطبيقية من خلال المناقشة العملية ليصبح في حدود ما يفيد من خلالها الناس الذين يتخذون قرارات تتعلق بالمجتمع المحلي ، حين يعرفون شيئاً عن السكان الذين يقولون مشوا ليمهم ، يقول هذا الممنى

فقد كانت هناك مطابقة بين الاشتراكيين التطبقية وبين أى نوع من البحث أو التقصى لأعراف الشعوب غير الأوروبية التى تخضع للحكم الأوروبى .

ولقد جاءت المحاولة الأولى للاشتراكيين لبريطانيين ملكي يحاولوا فيها معرفتهم إلى ممارسة لتطبيق عمل مصاحبة للحرب فى جنوب إفريقيا خلال الفترة من عام ١٨٩٩ إلى عام ١٩٠٢ . بحيث بحث المعمشد الاشتراكيين الملكى إلى سكرتارية الحكومة لشئون المستعمرات بإقتراح خطة عمل للتجسس على قوانين ونظم قبائل جنوب إفريقيا المختلفة . . . وذلك حتى يتوفر الأساس الذى تقوم عليه سياجته مستترة فى الإدارة . وقد كان هناك اعتقاد بأن ذلك سيجعل يقلل من النفك الذى نتج بشكل عام عن احتكاك النظم البدائية بمحضار المتصور أكثر تقدماً . ولقد أجاب جوزيف تشمبرلين *Mr. Joseph Chamberlain* بأن المتخصصين فى مستعمرات جنوب إفريقيا الجديدة همفرارون إلى حد بعيد . وبعيد من الأسئلة ذات الأهمية العلمية الملمحة .

الاشتراكيين فى إدارة المستعمرات :

كانت النظرة التى سادت خلال الفترة بين الحربين العالميتين ترى أن المجال المناسب للاشتراكيين ليطبقوا فيه معرفتهم يتثل فى إدارة شعوب المستعمرات . وعلى الرغم من أن حكومات المستعمرات المختلفة كانت لها وجهات نظر متباينة حول مدى السرعة التى يسير بها معدل انجاء تلك الشعوب نحو التحول إلى الصورة الغربية . - وحول درجة التحول المرغوب فيه إلى تلك الصورة . - فقد وجدت جميعها أنه من الضرورى النظر بشئ من الإعتبار إلى الأعراف التقليدية التى تقطن المراكز الاجتماعية والعلاقات الشخصية المتعاضدة فى تلك المجتمعات التى تخضع لإدارتهم .

وتجدد بعد عام ١٩٢٦ أن برنامجاً لتدريب ضباط الإدارة العاملين بالمستعمرات البريطانية في إفريقيا الوسطى قد تضمن دراسة في الاثروبولوجيا . كما خصصت نيجيريا وساحل الذهب بعض وظائف ضباط الإدارة فيها لاثروبولوجيين حكوميين . وبالمثل فقد أنشئت بعض وظائف عمالة في إقليم بابوا *Papua* الأسترالي في جنوب شرق غينيا الجديدة وفي السودان المصري الإنجليزي . كما كانت في تنجانيقا تجربة عمدية في الاثروبولوجيا التطبيقية قام فيها باحث أنثروبولوجي ببعض البحوث الموجهة للاجابة على أسئلة محددة قام بصياغتها ضابط إداري ، وقد نشرت نتائجها في كتاب يحمل عنوان الاثروبولوجيا في المعركة .

أما فيما يتعلق باهتمامات الباحثين الاثروبولوجيين الحكوميين فنجد مثلاً ماير فورتنس *Meyer Fortes* ، وقد قام بطلب من الحكومة بإعداد مسح لقانون الزواج في مجتمع التالانزي الذين يعيشون في المناطق السهلية من ساحل الذهب .

كما ادين لاراي *R. S. Rattray* الباحث الاثروبولوجي الحكومي في مستعمرة ساحل الذهب ببعض المجلدات القيمة في إثنوجرافيا الاشانتي والمناطق الشمالية فيها . وفدين ليك *C. K. Meek* الذي شغل مركز ضابط الاتصال في نيجيريا بدراسة للجنك *Jukun* والإيبو *Ibo* وبعض القبائل الأصغر في شمالي نيجيريا وقد نشر ويامز *F. E. Williams* بعض الدراسات حول شعوب البابوان *Papuan* تضمنت إحاطة بالحركة الوطنية . ولم نصف تلك الدراسات النظم الوطنية التقليدية فقط ، ولكننا لجأنا إلى تفسير تلك الاضطرابات التي اجتاحت إيماناً من جانب السلطات ، واقترحت مقاييس علاجية لها ، وبهذه

الطريقة فقد اقترنت تلك الدراسات بما نعينه بمصطلح الانثروبولوجيا التطبيقية .

ومع تلك الاستثناءات التي ألحنا إليها فيما سبق مباشرة . . فلقد كانت أعمال هؤلاء الانثروبولوجيين محصورة في وصف النظم الوطنية التقليدية ، وبوجه خاص النظم السياسية في تلك المجتمعات التي توفروا فيها على دراساتها . ولعل في الإمكان أن نطلق على تلك الأعمال دراسات في الانثروبولوجيا التطبيقية ، لأن الباحثين الذين قاموا بها قد استخدمتهم الحكومات التي كانت سياستها تتدخل في المحافظة على النظم الوطنية التقليدية إلى أبعد حد ممكن . . مثلاً فقد اعتقدت الحكومة البريطانية في نيجيريا وساحل الذهب في ذلك الوقت أن الأشخاص الذين يقبضون على السلطة بحكم مراكزهم التقليدية كانوا يمثلون أفضل الامور المحلية التي توكل إليها الحكومة تنفيذ سياستها ، ومن ثم فقد كانوا في قلق لمعرفة من هو الشخص أو من هم الأشخاص الحقيقيون الذين يحتلون مراكز السلطة الوطنية التقليدية .

وفي هذا نجد كانباً بلجيكياً في الانثروبولوجيا التطبيقية قد وصف السياسة القائمة على الاعتماد على السلطات الوطنية التقليدية بأنها تستند إلى أساس محدد ، حيث يقول ان الحكم غير المباشر يحاول أن يتجنب تفكك المجتمع الوطني التقليدي بعمله يتأثر دليتحول، بوساطة قادته ونظمه الذاتية .

ونجد في بلجيكا وهولندا ميلاً إلى تكريس وقت أطول لدراسة الإثنوجرافيا والقانون العرفي في الدورات التدريبية التي يختارها المتدربون الذين يؤهلون للخدمة في المستعمرات وهذا بالمقارنة بالوضع في بريطانيا ، وبوجه عام فقد كان هناك اهتمام بالنظم التقليدية يفوق الاهتمام بعمليات التغير المعاصرة .

وقد تأسس المعهد الدولي للغات والثقافات الإفريقية المعروف حالياً بالمعهد الإفريقي الدولي عام ١٩٢٦ لكي يعمل على ترقية البحوث الأنثروبولوجية اللغوية وقد كان مؤسسه مدفوعين بسرعة التغير الاجتماعي في إفريقيا ، وهو الموضوع الذي اعتبروا أنه سوف يكون موضع دراسة علمية يقرم بها ملاحظون مدربون .
وحيثما تلقى المعهد منحة من مؤسسة روكفلر عام ١٩٣٢ ، لتوسيع برنامج بحشه كان موضوع هذا البرنامج محدداً بالوصول إلى فهم أفضل لعوامل التماسك الاجتماعي في المجتمع الإفريقي الأصيل ، وبالمطرق التي تتأثر بها تلك العوامل بالتأثيرات الجديدة . . وبوجه خاص فيما يتعلق بالقابليات نحو الاتجاه إلى أشكال جديدة .
لتجمع السكان ، والاتجاه نحو تكوين روابط اجتماعية جديدة ، فضلاً عن صور التعاون الذي يقوم بين المجتمعات الإفريقية من ناحية والثقافة الغربية من الناحية .
الأخرى .

وقد تبين المعهدان تلك الاسئلة تحتل المرتبة الاولى في الاهمية بالنسبة للشعوب الإفريقية ذاتها - ولرجال الإدارة والتعليم والبعثات التبشيرية والمستوطنين والتجار - حيث كان ذلك الفهم الذي يترتب على الاجابة عليها يساعد مثلاً على الإدارة ليعمل من نمو المجتمع الصحي وتقديمه العضوى ، كما كان كل هؤلاء الذين تمت الإشارة إليهم سيجدون في مثل هذا المجتمع مجتمعاً يتمتع بأفضل بيئة مرغوب فيها تناسب مع أهدافهم . وبناء على ذلك فإن الأنثروبولوجيا التطبيقية في الوقت الحالي تعنى الاعتماد على المعرفة الأنثروبولوجية في خلق ظروف صحية للمجتمع . وقد حاول المعهد أن يوضح تحت طاب كل الأشخاص ذوى الاهداف العملية المعلومات التي قد تساعدهم في إيجاد العلاقات الصحيحة بين نظم المجتمع الإفريقي ، والانساق الأجنبية للحكومة والتعليم والدين ، كما تساعد على المحافظة على ما هو حيوى في تلك النظم الوطنية التقليدية ، وعلى التخلص من

الصراعات غير الضرورية بين تلك العظم الاجنبية والتقاليد والمعرف والعقائمية الإفريقية. وبقول أخرى فقد كان هناك أمل في أن ينجح ذلك المعهد في تقديم وصفات ، نحقق ما أطلق عليه مالمينوفسكى *Malinowski* بعد سنوات قليلة ، التغير الثقافي الناجم ، وكانت الموضوعات التي يعنى بها ذلك المعهد يجب أن تتضمن دراسة للمرتبات الاجتماعية على طلب العمل بالاجور القدية ، ومدى تأثير النظم السياسية ، الوطنية التقليدية ، بالخضوع إلى العيطرة الاجنبية ، والملاقة بين التعليم المدرسى والقيم التقليدية .

ويمكن القول أنه على الرغم من أن المعهد الإفريقى الدولى كجهاز متمايز لم يتبين وجهة نظره تنطوى على دفاع عن سياسيات معينة ، فإن الاتجاه العام الذى انجسته إليه منشوراته كان ينطوى على القول بأن تفهم النظم التقليدية يجب أن يمكن من دخول التغيرات الضرورية إلى تلك النظم ، دون أن يؤدى ذلك إلى تفككات غير ضرورية .

ولقد كانت إحدى التوصيات التى خلص إليها مسيح تذكارى لإفريقيا قام به اللورد هايلى *Lord Hailey* تتمثل فى القول بأنه خليق بالحكومة البريطانية أن تقدم الأموال للبحوث فى كل العلوم الطبيعية والاجتماعية ذات الاهتمام بالمشكلات الإفريقية . وبعد فترة قليلة منذ نشر هايلى لكتابه بعنوان : مسيح إفريقيا ، *African Survey* — نجد تقريراً المندوب السامى فى الهند الغربية يخلص إلى القول بأنه خليق بميزانية المملكة المتحدة أن تتيح بعض الأموال التى توظف فى تهريك النمو الاقتصادى . وتقديم الخدمات الاجتماعية — بما يتطلب إمكانات تفوق مصادر المناطق المستعمرة .

والواقع أن لوائح التنمية والرعاية الاجتماعية فى المستعمرات — ولتى ظهرت

في عام ١٩٤٠ والسنوات التالية — قد تميزت برصد أمـوال توظف للذين
الفرضين اللذين أشرنا اليهما فيما سبق مباشرة ، ولقد تكونت لجان من الخبراء
تضم العلماء الاجتماعيين لتقديم المشورة فيما يتعلق بتوزيعخصصات البحوث على
صورة منح يتوقع من طلابها أن يكونوا قادرين على أن يبرهنوا أن بحوثهم
سوف تكون ذات قيمة عملية لحكومات المناطق التي يوصون بإجراء بحوثهم
فيها . ولقد خلاص البعض بطريقة أو أخرى وبهتاج إلى أن أية إضافة إلى
المعرفة بالبناء الاجتماعي للشعوب إنما تعتبر ذات قيمة بالنسبة للحكومة التي تخضع
تلك الشعوب لسلطانها . وقد كانت هناك دراسات مسحية للمناطق الجغرافية
الرئيسية — بغرض تقييم المعرفة التي توفسرت حولها ، وتحديد المناطق التي
تحتاج المعرفة بها إلى مزيد من المعلومات السريعة والتي تدعو الحاجة اليها —
وقد شجعت تلك الدراسات المسحية على أن تركز لأبحاث في اتجاهات معينة
كان من المتوقع أن تاتي ضوءا على مشكلات الإدارة .

السوسيولوجيون الحكوميون :

كذلك فقد حدثت في تلك الفترة التي عرضنا لها فيما سبق تعيينات لبعض
الأنثروبولوجيين في حكومات كينيا وتانزانيا ، وسمى هؤلاء الرجال ببساطة
« بالسوسيولوجيين الحكوميين » . ولم تكن التسمية تتضمن أن خبراتهم أو
اهتماماتهم النظرية تختلف عن خبرات واهتمامات غيرهم من الأنثروبولوجيين
الاجتماعيين ، وإنما تسمية أهدت في الاعتبار هدم شيوع كلمة أنثروبولوجيا
التي تعنى دراسة « الشعوب البدائية » في الدوائر الأفريقية . ولقد كان من
المتوقع بالنسبة لذلك الجيل من الأنثروبولوجيين أن يكون قادراً على توجيه
اهتمامه إلى أسئلة عمدة ، كانت هناك حاجة سريعة للإجابة عليها . ولهذا فقد قام

فيليب ماير *Philip Mayer* في كينيا بدراسة مستفيضة لقانون الزواج في قبائل الجيسى *Gusii* ، وإعلاج موجز للصعوبات التي تحيط بتخفيض قيمة مهر العروس ، وعرض بالمناقشة للتعاون بين جماعة المزارعين المتجاورة — واهتم بمدى اتساقها مع التكفل بنشاطات اقتصادية جديدة . . كما عهد فيليب جاليفر *Philip Gulliver* إلى اختبار آثار الهجرة العمالية والتغيرات الاجتماعية الأخرى بين شعب نيكاسا *The Nykusa* — الذي لم يتعرض إلى حد بعيد حتى الحرب العالمية الثانية لتأثيرات الانصاف التجاري ونجد في أستراليا إبان هوجين مفوضاً في حساب الحصار الذي تقاسمها شعوب عينيا الجديدة بسبب تولى اليابانيين للوظائف ، كما تم تفويض كاميللا وودجود *Camilla and Wedgwood* في حساب حاجاتهم التعليمية .

ومن ناحية أخرى فقد كانت هناك بحوث ذات صبغة عملية أيضاً قامت بها مراكز للبحوث بتمويل أو بمساهمة من مكتب المستعمرات ، وقد وجدت تلك المراكز في شرق وغرب إفريقيا ، وإفريقيا الاستوائية وجزر الهند الغربية وملايا *Malaya* . وحيث توفر مركز شرق إفريقيا على دراسة ما يترتب على الهجرة العمالية من آثار اجتماعية — وأسباب عدم فاعلية رؤساء القرى الإفريقية للقيام بوظائف الأجهوة التي يوكل إليها تنفيذ سياسة الحكومة ، والتغيرات التي يتعرض لها وضع الزعيم الإفريقي — كما كانت هناك فيما بعد دراسات على مدى واسع ، وفي خطة خمسية لدراسة موضوع التخصر . وقد قام رودس ليفنجستون *R. Livingstone* بدراسات مركزة للتخصر في منطقة حزام الرصاص في إفريقيا الاستوائية ، كما قام معهد غرب إفريقيا بتمويل دراسة للاختلاط السكاني بين العاملين في المقاطعات الزراعية في اتحاد تنمية

الكاميرون: *Cameroons Development Corporation* والعلاقات بين المهاجرين والسكان الأصليين ، لما كان هناك ميل واضح في معهد جزر الهند الغربية *West Indian Institute* نحو دراسة بناء العائلة .

أما في الكونغو البلجيكية فقد كان هناك اهتمام مركز نحو البحوث الأنثروبولوجية التي يقوم بها البلجيكيون في الفترة بين الحرب العالمية الثانية واستقلال الكونغو ، وقد تأسس مركز لدراسة المشكلات الاجتماعية (*CEPSI*) في البرازيل في عام ١٩٤٨ ركز على دراسة المشكلات المرتبطة بالتحضر ، كما أنها معهد سولفوي *Solvay* السوسولوجي في بروكسيل قصداً خاصاً بالكونغوا وجه اهتماماً خاصاً بمشكلات تغيب القوى العاملة وعدم استقرار العمالة . كما كانت هناك دراسات للجريمة وجناح الأحداث ، وللقبائل الجديدة في المناطق الحضرية ، والمنظمات الانتخابية الجديدة التي أهتمت بالإعداد للاستقلال . كما ألحق بمعهد البحوث الاقتصادية والاجتماعية في جامعة ليوبولدفيل الذي تأسس عام ١٩٥٦ قسم الدراسات الأنثروبولوجية *Ethnosociological* . وقد قام بتجليل مفصل لسكان مدينة ليوبولدفيل من حيث توزيع مجلي المدارس الابتدائية والعمال والعاطلين في الأقسام المختلفة من المدينة ، وخصائص الزواج والحياة العائلية والدين ونشاط الخصوبة في كل فئة من تلك الفئات .

الأنثروبولوجيا التطبيقية في أمريكا :

يمكن القول بأن توظيف الأنثروبولوجين في الولايات المتحدة يعود إلى سنة ١٩٣٤ ، حيث تم بناء على طلب من جون كولير *John Collier* المفوض في مكتب الشؤون الهندية لإنشاء وحدة الأنثروبولوجيا التطبيقية . وقد كان هناك اتفاق على أن الهدف الأول للولايات المتحدة الأنثروبولوجيين المهنيين في الولايات

المتحدة يتفق إلى حد بعيد مع ذلك الهدف الذي عين من أجله قبل سنوات قليلة مسبقاً هذا التاريخ باحث أنثروبولوجي في نيجيريا ليعمل على التنظيم السياسية الهندية من وجهة نظر استغلالية كأجهزة توكل إليها شؤون الحكم المحلي . كما كان هناك بعض الأنثروبولوجيين الملاحقين كمشائدين في واحدة بالتعاون التكنولوجي التي يتعاون فيها قسم الزراعة في مكتب شؤون الهند *Bureau of Indian Affairs* في مشروعات تحسين طرق استغلال الأرض .

كذلك فقد لجأت قطاعات المشروعات الخاصة أيضاً إلى توظيف أنثروبولوجيين للعمل كمستشارين بها ، وتمثلت أول تلك الخطوات في أعمال هاورثون *Hawthorne* بشركة الكهرباء الغربية في شيكاغو خلال الفترة من ١٩٢٧ إلى ١٩٣٢ وقد صادق هؤلاء الأنثروبولوجيون على أن نمطاً من العلاقات الاجتماعية لابد أن ينمو بين جماعة من الأسر الذين يعملون حقاً بانتظام ، وأن أية مقاومة غير متوقعة للاضطرابات التي تعرض في هذا البناء يمكن أن تؤثر في أية محاولات لزيادة مستويات المهارة والرقابية بينهم ، وكانت هناك في بريطانيا بعد عام ١٩٦٠ دراسة مشابهة قام بتطويرها قسم البحوث العلمية والصناعية .

ولقد تأسست جمعية الأنثروبولوجيا التطبيقية في الولايات المتحدة عام ١٩٤١ ، وقامت بنشر دورية باسم الأنثروبولوجيا التطبيقية *Applied Anthropology* وتغير هذا الاسم عام ١٩٤٩ ليصبح التنظيم البشري *Human Organization* . ولقد وصفت الجمعية بأن موضوعها الأول هو ترقية البحث العلمي في المبادئ التي تحكم العلاقات القائمة بين الكائنات البشرية ، وتشجيع التطبيق الواسع للمعرفة بهذه المبادئ في مواجهة المشكلات العملية .

ولقد كانت اهتمامات تلك الجمعية تتمثل في ثلاث مجالات رئيسية هي : الصحة العقلية ودراسة التنظيم الصناعى والعلاقة بين التنمية الاقتصادية والتغير الثقافى وكانت هناك دورية اتخذت عنوانها من هذا الموضوع الاخير *Economic Development and Cultural Change* تأسست عام ١٩٥١ .

كذلك فقد ارتبطت وظائف عدد من الانثروبولوجيين خلال الحرب العالمية الثانية في حكومة الولايات المتحدة بإعادة توزيع الجماعات السكانية اليابانية ، كما حاول هؤلاء الانثروبولوجيين أن يفكروا ثقافة المناطق المأهولة لرحال القوات المسلحة الذين رغبوا في تعاوان مواطنى تلك المناطق كمثال أو مبعوثين .. إلخ . وفى أمريكا أيضاً كما هو الشأن فى استراليا - وعلى اختلاف مما هو عليه الحال فى بريطانيا - تضمنت الدورات التدريبية التى يختارها الضباط الذين يقومون بمشور الحكم المسكرى فى المناطق المأهولة بعض الشقيف فى الانثروبولوجيا ، كما استعملت الولايات المتحدة منذ عام ١٩٥١ سبعة من الانثروبولوجيين فى إقليم ترست *Trust Territory* فى جزر المحيط الهادى ، وقد تولى أحدهم مركز القيادة بينما توزع الستة الآخرون ليعنى كل منهم بمنطقة إدارية معينة فى هذا الإقليم . وكافى عمل هؤلاء أن يقدموا المشورة فيما يتعلق بإنجاز المشروعات الحكومية ، والطرق التى تساعد على تفهم السكان الوطنيين لتلك المشروعات - فضلا عن الأسس التى يعتمد عليها تقييم التقدم الذى تحققه تلك المشروعات التى تضمنت برامج لتحسين الصحة ، وسياسة العمالة ، التعليم ، والمقاييس التشريعية ، والاجراءات القضائية ، كما كان من المتوقع من هؤلاء الانثروبولوجيين أن يقوموا أيضاً بالبحوث المنعممة التى تستند لإيادهم دورتهم فى الدراسة .

الانثروبولوجيا التطبيقية منذ الحرب العالمية الثانية :

ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية فإن توازن القوى الجديد والذي تمخض عن اضمحلال حكومات المستعمرات كاية على وجه التقريب - قد ترتب عليه نوع من التغيير في التركيز على الانثروبولوجيا التطبيقية فيما يعرف بالبلاد التي تمر بمرحلة النمو الاقتصادي . ولقد اهتمت القوى الاستعمارية كما اهتم كثير من الانثروبولوجيين من الذين لا ينتمون إلى تلك القوى بصفة الجذسية بصفة أولية بالثبات والتغير التدريجي ، ومن ثم بالمحافظة على النظم الوطنية التقليدية في حين اهتم حلفاؤهم بالتغيير السريع ، وكان وراء هؤلاء المحمديين ، سند من القوى العالمية التي مهمما اخلفت أيديولوجياتها فهي تعطي للنقدم التكنولوجي قيمة أكبر من القيمة التي تعطي للثبات .

كذلك فقد وجد الانثروبولوجيون غير المتورطين سياسياً أنفسهم مدفوعين إلى النظر بعين الاعتبار إلى المشكلات الملحة التي خلفتها زيادة السكان في المناطق ذات الموارد الاقتصادية المحدودة والانتاجية المنخفضة. ولقد طلبت نصيحة المتخصصين الفنيين في الفروع المختلفة لمعرفة الطرق التي تعمل على رفع مستويات المعيشة ، وحينما طلبت مساهمة الانثروبولوجيين - في هذا المجال - كانت أمامهم الفرصة للتعريف بأنه كلما عملنا على تنمية القيم كلما ارتفعت القدرة على التقدم .

ولقد تم توظيف أنثروبولوجيين في عدد من مشروعات المساعدة الفنية التي تقدمها الأمم المتحدة . وتجدر الإشارة هنا إلى منظمة الصحة العالمية - حيث

يتوفر لدى هؤلاء الانثروبولوجيين الكثير مما يعطونه لمشروعات الصحة العامة والتوسع الوراعى وتنمية المجتمع .

وفي الولايات المتحدة الامريكية والمملكة المتحدة اطردت زيادة التعاون بين الانثروبولوجيين والمتخصصين في فروع الطب منذ الحرب العالمية الثانية ، وعلى سبيل المثال فقد قامت مدرسة هارفارد للصحة العالمية بدراسة الآثار الاجتماعية لخطط مقترحة لإضافة مادة الفلورين إلى المياه الجارية . أما في بريطانيا فبالإضافة إلى باحث أنثروبولوجى إلى فريق لدراسة وبائية الامراض العقلية في جنوبي مقاطعة ويلز .

أهداف الانثروبولوجيا التطبيقية :

ولقد ترتب على ذلك التنير الذى طرأ على الاتجاهات التطبيقية فى الانثروبولوجيا بعض التأثير فى تأويل الانثروبولوجيين لماهية الدور الذى يقومون به ، حيث نجد مثلاً أن هؤلاء الذين ترددوا فى أن يحملوا أنفسهم مسئولية تحديد ماهية المجتمع المثالى كانوا أقل تردداً فى تقديم اقتراح لتحديد الاتجاه الذى يحقق فرصاً أكبر لنجاح برامج الصحة العامة ، كما أن هؤلاء الذين تبشروا وجهة نظر ترى أن أية مساعدة يقدمونها للحكومات الاستعمارية إنما تنطوى بالضرورة على نوع من الخداع لتلك الشعوب الخاضعة لها — لم يجدوا تلك المحاذير فيما يتعلق بالمناطق المستقلة .

ولكن فقد كانت هناك مناقشات كثيرة حول السؤال عما إذا كان الانثروبولوجيون يجب عليهم أن يقتضوا إلى مشروعات التنمية ، أو كان عليهم ببساطة أن يقدموا النصائح ويتركوا السلطات الادارية تفعل بهم ما تريد . وفى

هذا الاتجاه الذي ينطوى على نوع من المغالاة تسفيهه اكل المحاولات التي تبذل لتطبيق المعرفة الانثروبولوجية - حيث أن الدراسات النظرية التي يقوم بها الباحثون الانثروبولوجيون لا تركز حول المشكلات الادارية، كما أن تطبيقاتها في أعمال معينة ان تكون إلا حين تأخذها جماعات من المتخصصين الآخرين في اعتبارها. أما وجهة النظر المقابلة فهي تقوم على أن الانثروبولوجيين يجب أن يقوموا بأنفسهم بصياغة التوصيات السياسية، وهذا ما يعبر عنه ميثاق الجمعية الأمريكية الانثروبولوجيا التطبيقية *American Society for Applied Anthropology* الذي ينص على أن الباحث الانثروبولوجي مدين تجاه أفراد المجتمع باحترام كرامتهم، كما ينبغي عليه أن يحافظ على سماعتهم ورفاهيتهم، وهو لا ينبغي له أن يوصى بتصرفات معينة تحقق مصالح أو تشبع اهتمامات عملائه حينما يكون تحقيق تلك المصالح والاهتمامات يؤثر على حياة أو رفاهية أو كرامة أشخاص آخرين. أو على احترام هؤلاء الأشخاص لأنفسهم دون أن يكون هذا التأثير في أدنى حد ممكن وأن تكون المحصلة النهائية لتلك التصرفات تحقق فائدة أكبر مما يحققه عدم اتخاذ أية اجراءات على الإطلاق. كما يجب على هذا الباحث الانثروبولوجي أن يوجه بالغ اهتمامه لحماية من يأتون بالأخبار *Informants* وبخاصة فيما يتعلق بتلك الجوانب السرية التي قد لا يستطيع هؤلاء المخبرون تحمل مسؤولية إفشائهم لها أمام الباحث.

ويجب على الباحث الانثروبولوجي أيضاً ألا يقدم وهو دأ معينة إلى عملائه وألا يشجع أية توقعات لا يستطيع لأسباب معقولة أن يحققها، كما يجب عليه أن يقدم لهم أفضل ما لديه من المعرفة العلمية والمهارة، وأن ينظر بين حين وآخر إلى أهدافهم المحددة في ضوء ميولهم واهتماماتهم العامة وفي ضوء ما يحققه رفاهيتهم

وأن يعمل على استقرار واضح بينه وبين كل عميل من عملائه طبقاً لمسئولياته
تجاه هذا العميل وتجاه العلم وتجاه زملائه .

وبجانب هذا كله نجد ناهل *Nadel* يلح في تأكيد أنه إذا كان الأنثروبولوجيون
لا يدعون بحقوقهم في المساهمة المباشرة في تشكيل السياسة، فإن المادة التي يقدمونها
يمكن أن تستخدم بطرق لا يحددها هو في نفسه تدبير المجتمعات التي يقوم هؤلاء
الباحثون الأنثروبولوجيون بوصفها . وتنطوي عبارة يارنت *Barnett* على
هذا الاتجاه ذاته - حيث يقول أن الأنثروبولوجيا تقوم بتدميرية شعب لا يستطيع
هو ذاته أن يقوم بعرض قضيتهم الخاصة كما يؤكد بيلز *Beals* أيضاً أن
الأنثروبولوجيا التطبيقية تعنى بتكشاف ما يريده شعب غير محدد القساعات ثم
مساعدته على تحقيق تلك الإرادة وقد كانت هناك أيضاً محاولة أخرى في نفس
هذا الاتجاه اسول تاكس *Sol Tax* ،

ولكن كل هذه التأويلات لدور الباحث الأنثروبولوجي ترفض فكرة
إمكان الاستفادة الفنية من النصائح التي ينتهي إليها ، ومن ثم فهي تنكر فيه تلك
النصائح . حقاً أن هناك شعوراً بأنه لا يمكن إنكار قيمة أى طاب للمعرفة إذا
كان الناس يهدفون إلى استخدام تلك المعرفة لتحقيق أهداف ذات قيمة في
نظريهم ، ولكن السؤال عن القيمة في الأنثروبولوجيا التطبيقية كان له مغزى
خاص بالنسبة لعشرون المستعمرات بسبب طبيعة الموقف الذي كانت تطالب فيه
نصائح الباحثين الأنثروبولوجيين ، أو تقدم فيه تلك النصائح أحياناً . ولقد
أولت حكومات المستعمرات بعشرات التمددين التي تمثلها باعتبارها تعنى بين
مجموعه من الأشياء عملية التقدم الأخلاقي . ولم يجد الأنثروبولوجيون دائماً
أن نوع التغيير الذي تنجبه تلك الحكومات إلى تحقيقه يعتبر تقدماً أخلاقياً . ومن

ناحية أخرى فقد اهتم الباحثون الأنثروبولوجيون من جانبهم بتبصير أن عمليات التغيير الاجتماعي التي تقوم بها تلك الحكومات هي لفائدة مواطنيها أكثر من كونها ضارة بهم ، وينطوي هذا الاهتمام على هدف يرتبط بدخول أحكام قيمية في كل اتجاه للمعرفة . ولم يكن هؤلاء الذين يعتقدون بأن التغييرات التي تفرض على المجتمعات التي تتمتع بالبساطة النسبية سوف تكون بالضرورة ضارة بها ، يتوقعون من الحكومات أن تضاركم وجملة نظرهم ؛ وإن كانوا مع هذا يأملون أن تستمع تلك الحكومات الى هذه الآراء . وبعد فن الواضح ان الاختلاف بين قيم هؤلاء الباحثين الأنثروبولوجيين من ناحية ، وقيم تلك الحكومات من ناحية أخرى إنما يخلق صعوبات بالغة في سبيل تقديم هؤلاء الباحثين لنوع من الصيغة التي تسير تنفيذ تلك الحكومات لسياسة معينة .

وأخيراً فلم يكن من قبيل الحادث المفاجيء أن يحدث تحول في بؤرة الأنثروبولوجيا التطبيقية ، باضمحلال الحكم الاستعماري . ولقد رأت الحكومات المستقلة أن وظائفها تتمثل في الحفاظ بالدول التي سبقتها في الاستقلال حيث لا تعنى تلك الحكومات بتقديم هبات الى مجتمعات أجنبية ، ولكنها معنية برفع مستويات المعيشة وبزشر الرفاهية في مجتمعات تنتمي هي اليها . وقد كانت تلك الحكومات المستقلة الحديثة متأكدة تماماً فـما يتعلق بنوع المجتمع الذي تريد انشائه ، ولم تكن بحاجة الى نصيحة أحد حول هذا المجتمع . وحينما كانت تلك الحكومات تتجه الى سؤال هذه النصيحة فقد كان ذلك يتعلق بمجالات فيها إجماع حول القيم المتعلقة بها ، فالكل ينفق على أن الصحة أمر حسن وأن مطلب الراحة الفيزيائية والثروة المادية من الأمور المسموح بها إن يريدان من

الناس ، ولا يزال الأنثروبولوجيون غير مطالبين بإصدار أحكام حول جدوى المشروعات التي يطلب تعاونهم فيها . كما أنهم لا يمنون بإصدار أحكام قيمية حول النظم الاخلاقيه السائدة ولا يسمون إلى توجيه نصائح حول العملية الكلية لتغيير الاجتماعى حيث يبقى دورهم محدوداً محدود مجرد التنبيه حين تكون الابنية الاجتماعيه القائمة أو الاساق القيمية المستقرة هى فى ذاتها بمثابة عوائق فى مواجهة مشروعات معينة .

دكتور محمد عبد المجيد

الجزء الثاني(*)
فروع الأنثروبولوجيا العامة

(*) للدكتور مجدى حميدة المشرف على قسم الاجتماع - جامعة المنصورة

الفصل الأول

تعريف بالانثربولوجيا

- مفهوم الانثربولوجيا ومجالها
- الجدور التاريخية للانثربولوجيا
- طبيعة الانثربولوجيا
- الخصائص المميزة للانثربولوجيا كتنخصص علمي
- استخدامات الانثربولوجيا وفائدتها
- التخصصات الفرعية للانثربولوجيا
- الانثربولوجيا الفيزيائية
- الانثربولوجيا الثقافية
- الاركسولوجي
- الاثنوجرافيا
- الاثنولوجيا
- الانثربولوجيا الاجتماعية
- اللغويات
- التخصصات الفرعية الأخرى
- مجالات التخصص الاقليمي
- علاقة الانثربولوجيا بالعلوم الاجتماعية الأخرى
- بعلم الاجتماع
- بعلم النفس
- بالتاريخ
- بعلوم اجتماعية أخرى

مفهوم الأنثروبولوجيا ومجالها :

الأنثروبولوجيا هي علم الإنسان أو علم دراسة الإنسان حسب المعنى الاشتقاقي أو الأصل اللغوي Etymology لهذا الاصطلاح الذي يتألف من الكلمتين اليونانيتين : (١)

أنثروبوس Anthropos ومعناها الإنسان .

لوعوس logos أو Iogia ومعناها علم أو دراسة أو موضوع .

وترجمة هذا الاصطلاح إلى اللغة العربية « علم الإنسان » ، ولكن اصطلاح (أنثروبولوجيا) للمعرب عن الاصطلاح الإنجليزي Anthropology والاصطلاح الفرنسي I'Anthropology أكثر استخداما في الكتابات العربية . وقد شاع مؤخرا في الكتابات العربية استخدام اصطلاح « علم الإنسان أو علم الإنسان الاجتماعي » للإشارة إلى الأنثروبولوجيا . (*)

ومنذ نشأة هذا الفرع من المعرفة العلمية ارتبط بمجال دراسته واهتمامه بالمعنى الاشتقاقي لهذا الاصطلاح الذي يشير إلى ذلك الفرع من العلم الذي يعد من أكثر النظم العلمية الأكاديمية التي تعنى بدراسة الإنسان شمولاً .

(١) Joseph M. greenberg, The Field of Anthropology, in Internaticonal Encyclopedia of The Sociol Sciences, Vol., 1 The Macmillan Co NY. 1972 p.p. 304—313

* انظر عنوان كتاب الأنثروبولوجيا الاجتماعي لايفانو رتشارد ترجمة د. احمد ابوزيد ط ٢ منشأة المعارف بالاسكندرية وتجدر الإشارة الى ان الباحثين الجغرافيين العرب قد درجوا منذ ما يزيد على نصف قرن على تسمية هذا العلم باسم (الدراسات البشرية)

ويتمثل ذلك الشمول في إهتمامه بدراسة الانسان في المناطق والبيئات المختلفة في العالم ، وفي شموله بالدراسة المجتمعات المعاصرة والتاريخية ، وفي إمتداده لمجالات متعددة مثل البناء الاجتماعى والتعبيرات الجمالية ونظم المعتقدات الدينية واللغويات . . الخ . وهو بذلك يدخل في مجال نظم علمية أخرى هى العلوم الانسانية Human Sciences أو الانسانيات مثل التاريخ والجغرافيا البشرية وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلوم الحضارات والى تعد علومها إنسانية لأنها تتناول الانسان من أحد جوانبه ، الا أن الأنثروبولوجيا هى النظام العلمى الوحيد بين العلوم الانسانية الذى يعالج الجوانب الفيزيكية والثقافية الاجتماعية للإنسان معاً . وبالرغم من هذا الشمول إلا أن الأنثروبولوجيا تظل في الحقيقة أحد النظم العلمية التى تتناول الانسان بالدراسة .

وقد أدى هذا التنوع والوفرة في الموضوعات ومجالات أهتمام عالم الأنثروبولوجى إلى انقسامه إلى عدد من العلوم الفرعية، ومن الناحية العملية فإن هذه العلوم الفرعية تتداخل مع بعض النظم العلمية الأخرى المستقلة والى سبقت هذا العلم إلى مرحلة النضج وتشاركها في موضوعات إهتمامها . ولكن هذا التداخل يعالج في اطار الموضوعات والمناهج حيث توجد ثيمات Themes أساسية تمثل بؤره من الاهتمامات المتميزة التى تميز الأنثروبولوجيا عن غيرها من النظم العلمية الأخرى .

وقد استطاع العالم الانجليزى هادون Haddon أن يتتبع تاريخ استخدام اصطلاح الأنثروبولوجيا في الثقافات القديمة للاغريق والرومان . ويشير إلى ان أرسطو Aristotle قد استخدم هذا الاصطلاح للإشارة إلى « الشخصى الذى يتحدث عن نفسه » ، وبالطبع فإن هذا المعنى يختلف عن المعنى المعاصر لهذا

الاصطلاح . كما ظهر اصطلاح الأنثروبولوجيا كعنوان لكتاب ظهر سنة ١٥٠١ م للكاتب Hundt تناول فيه خصائص جسم الانسان من الناحية التشريحية ، وظهر هذا الاصطلاح أيضا في كتاب « L'Anthropologia » للمفكر Copella سنة ١٥٢٣ م ويتناول بالدراسة الصفات الشخصية الفردية للانسان كما ظهر اصطلاح أنثروبولوجيا سنة ١٦٥٥ في كتاب غير معروف مؤلفة وعنوانه Anthropology Abstracted وموضوعه الطبيعة البشرية ، وقد انقسمت موضوعاته إلى قسمين رئيسين أحدهما خاص بعلم النفس والثاني خاص بعلم التشريح (١) .

وقد أخذ استخدام هذا الاصطلاح ينتشر بعد ذلك بصفة تدريجية الى أن أصبح له مفهوم واضح في القرن التاسع عشر (٢) .

وقد تردد اصطلاح الأنثروبولوجيا الاجتماعية أو علم الانسان الاجتماعى لتعطى هذه التسمية الدلالة عن موضوع اهتمام هذا الفرع عن المعرفة العلمية بين المهتمين بالدراسات الاجتماعية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر بين أساتذة الجامعات البريطانية حيث ظهرت الأنثروبولوجيا الاجتماعية بهاها المتعارف عليه الآن في أول الأمر ثم انتشرت منها الى باقى بلدان ومجتمعات العالم (٣) .

(١) Haddon, A. History of Anthropology, London (Rev, ed. (١)

1924, p.p. 20—25

(٢) عاطف وصفي ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية ط ٢ دار المعارف بمصر

١٩٧٥ ص ١٠

(٣) احمد ابوزيد قايلىور رقم ٩ من سلسلة نوابغ الفكر العربي ، دار

المعارف ، ١٩٥٧ ص ٧

ولقد كان العالم الأنثروبولوجى سير جيمس فريزر Sir James Frayzer وهو أول من شغل كرسى أستاذية الأنثروبولوجيا فى العالم حيث منحته جامعة ليفربول Liverpool درجة الأستاذية الشرقية سنة ١٩٠٨ (١) أول من استخدم هذا الاصطلاح الجديد فى الدراسات الاجتماعية وبخاصة فى محاضراته المشهورة التى ألقاها فى جامعة ليفربول فى ١٤/٥/١٩٠٨ حيث أشار الى أن دراسة الأنثروبولوجيا تعد بمثابة دراسة سوسيولوجية للأشكال البدائية من المجتمعات وقد حدد فريزر Frayzer فى تلك المحاضرة أهداف دراسته الأنثروبولوجيا الاجتماعية بأنها « المحاولة العلمية للكشف عن القوانين العامة التى تحكم الظواهر وتفسر ماضى مجتمعات الإنسان حتى يمكن التنبؤ بمستقبل البشرية استنادا الى تلك القوانين السوسيولوجية العامة التى تنظم تاريخ الإنسان حيث أن الطبيعة البشرية تتسم بأنها واحدة بعينها فى كل مكان وزمان » (٢).

ولقد كان من أهداف الدراسات الأنثروبولوجية المبكرة النزول الى المجتمعات لمعرفة كيف يعيش الناس ومحاولة تفسير الحياة الاجتماعية الجارية للوصول الى فهم أعمق للحياة اليومية للشعوب التى يدرسونها أكثر من فهمها عن طريق التقارير الرسمية ، كما كانت تستهدف الكشف عن أصول الشعوب وهجراتها وقد اتجه الباحثون منذ البدايات المبكرة لنشأة هذا العلم فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الى دراسة الحياة الاجتماعية لنوع معين من المجتمعات أطلق عليها

A.R. Radcliffe-Brown Method in Anthropology (١)

Chicago, 1958 p. 133

A. R. Radcliffe-Brown, Method on Sociol Anthropology (٢)

cep. cit., p. 133

وصف بدائي Primitive ثم استبدل بلفظ أمي أو جاهل على اعتبار أن اللفظ يؤدي عمل وظيفي في التعريف بتلك المجتمعات من وجهة نظر هؤلاء العلماء (١) .

وقد كانت العالمية العظمى لدراسات الباحثين الأنثروبولوجيين في ذلك النوع من المجتمعات الأمر الذي دعا الى وصف هذا العلم بأنه : علم اجتماع المجتمعات البدائية ، (٢) .

وتمتلىء الكتابات عن هذه المجتمعات بمجموعة من الأوصاف تحمل طابعاً تقويمياً وتعكس وجهة نظر الكاتب أو الثقافة التي ينتمى إليها نحو تلك المجتمعات فنجد أن تلك المجتمعات يطلق عليها اسم متوحش وبدائي وقبلي وتقليدي وغير متعلم Illiterate أو قبل مرحلة التعليم Preliterate أو قبل تاريخية Pre-History .

ويشير العلامة الانجليزي سير ايفانز بريتشارد Sir E.E.Evans-Pritchard الى تلك الشعوب أحياناً باسم الشعوب المتوحشة كما يشير الى أن الباحثين الأنثروبولوجيين يطلق البعض عليهم اسم علماء الشعوب المتبرورة (٣) وتتوافر في تلك المجتمعات سمات معينة تتيح دراسة النظم الاجتماعية

(١) سيريل بلشو : الأنثروبولوجيا علم الانسان - مقاله مترجمة بمعرفة د. فضيله عمر فتوح ، المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية ، مجلة رسالة اليونسكو - مركز مطبوعات اليونسكو العدد العاشر السنة الثالثة - يناير - مارس سنة ١٩٧٣ ص ٨١ و ٦٦

(٢) عاطف وصفي : الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، مرجع سابق ص ٥٨

(٣) علي اسلام للفار : الأنثروبولوجيا الاجتماعية دراسة المجتمعات البدائية ،

ط ١ الشركة القومية للتوزيع ١٩٦٨ ص ٣

جميعها والعلاقات المتبادلة بينها ولذلك فإن هذه المجتمعات تتميز بأنها صغيرة الحجم ذات نسيج اجتماعي متكامل ومحدود ، وتمتاز ببساطة الفهم - وفي الآلية والاقتصاد وقلة التخصص في الوظيفة الاجتماعية بالنسبة للمجتمعات المتقدمة ، وتباين وجهات نظر العلماء نحو ضرورة وجود - ود أو عدم وجود سمات أخرى لتحديد تلك الأنواع من المجتمعات من ذلك ضرورة اعتماد اقتصادها على الصيد أو الرعي أوهما معا وعدم التخصص في الزراعة أو الصناعة وكذلك عدم معرفة القراءة والكتابة وعدم وجود علم بالمعنى الصحيح .

وقد أفاض العلامة إيفانز بريتشارد في تحديد خصائص تلك الشعوب وتمييزها عن غيرها من المجتمعات الأخرى ولقد تبين من ذلك ما ورد بكتابة والافتقار بولوجيا الاجتماعية، من وصف لتلك المجتمعات ، حيث أشار إلى أنها لا تعرف الأديان السماوية المنزلة ولا اللغات المكتوبة ولا المعرفة العلمية المضبوطة، وأن أفرادها يعيشون في الغالب في حالة من العزلة التامة ولا يستخدمون إلا أبسط أنواع الآلات كما يسكنون مساكن بسيطة ساذجة للغاية ويقول أنها شعوب خام إذا صح هذا التمييز تتميز بقلة ما تستعين به في معركتها ضد الطبيعة والافئدة وليس لديهم من أسباب المدنية ما يدرك عنها أو يلطف عليها وقع المصاعب والآلام .

ويقول العلامة إيفانز بريتشارد أن البحث الدقيق قد يكشف عن وجود أبنية اجتماعية معقدة أو ثقافات خصبة تكمن وراء تلك البساطة السطحية التي تتميز حياتهم ، فهم يؤمنون بالدين وهذا الإيمان يتمثل في شكل معتقدات يقينية وشعائر ، وهم يعرفون الزوج والذي يتم عن طريق مراسم وطقوس معينة . كما يعرفون الحياة العائلية التي تتركز في البيت ، ولهم جمعا نظم قرابية تفوق في

تعقيدها واتساع نطاقها كل نظم القرابة المعروفة في المجتمع الأوروبي .
كما أن لهم مننديات وجمعيات خاصة تخدم أغراض محددة مرسومة .
وقواعد جديدة محكمة ترسي أصول اللياقة وآداب السلوك . ولهم تشريعات
تضع أسس القانون المدني والقانون الجنائي التي تطبقها محاكمهم . ولهم لغات تبلغ
كثير من الأحيان درجة عالية من التعقيد سواء من ناحية الأصوات أو القواعد
التي تشتمل على ذخيرة وفيرة من الألفاظ ولهم آداب وطنية تتألف من الشعر
الذي يعكس كثيرا من الرمزية ، وكذلك من الأخبار التاريخية والاساطير
والقصص الشعبي والحكم والأمثال . وفنون تشكيلية خاصة بهم ونظم للفلاحة
والزراعة تتطلب معرفة واسعة باختلافات القصول وأنواع التربة والحياة النباتية
والحيوانية . ولهم خبرة خاصة بصيد السمك . قصص الحيوان والملاحة في البحر
والسياحة في الأرض ، كما أن لديهم جميعها رصيدها هائلة من المعرفة بشئون
السحر والعين الشريرة والعرافة والتنجؤ (١) .

ولقد ساد مفهوم اختصاص المجال الجغرافي للأنثروبولوجيا بدراسة الشعوب
البدائية بشكل رئيسي وحتى عهد قريب حتى أن العالم الأنثروبولوجي الأمريكي
M. White يشير في كتابه « الأنثروبولوجيا » الصادر في لندن سنة ١٩٥٤ إلى أن
الأنثروبولوجيا تختص بدراسة المجتمعات الفطرية أو التي لازالت أقرب إلى الفطرة
وأن دراسة الإنسان المتطور المعقد في المجتمعات المتطورة أو المتحضرة ليست
من مهمة علم الأنثروبولوجيا بل هو مهمة علم الاجتماع .

(١) ايفانز تشارد : الأنثروبولوجيا الاجتماعية ترجمة ا. د. احمد ابوزيد
ط ٥ الهيئة المصرية العامة ١٩٧٥ ص ١٦٢

بل ان العلامة الانثروبولوجى الأمريكى A. Kroeber يشير فى سنة ١٩٥٩ الى أن الاهتمام بالمجتمعات البدائية يعد أهم ما يميز الانثروبولوجيا عن العلوم الاجتماعية الأخرى (١) .

ويشير ليفمانز بريشارد الى أن السبب فى اتجاه الانثروبولوجيا الاجتماعية لدراسة هذا النوع من المجتمعات يرجع الى أنهم كانوا كانت أخذ هذه فى الزوال بالتدريج لزيادة اتصالها بالعالم الخارجى وغزو الثقافة الأوروبية المتحضرة للثقافات الوطنية المتوطنة مما آثار الحاجة الى تسجيل ملامح حياة هذه المجتمعات وحفظها للأجيال التالية فى شكل دراسات وافية قبل أن تزول تماماً ، فضلا عن سهولة العادات الغريبة غير المألوفة فى هذه المجتمعات وسهولة رؤية المجتمع البدائى كوحدة كلية وسهولة ملاحظة تداخل النظم الإجتماعية وتفاعلها أحدها مع الآخر فى المجتمعات البدائية البسيطة عن ملاحظة ذلك فى المجتمعات المتحضرة المعقدة .

وقد استمر اهتمام الانثروبولوجيا الاجتماعية بدراسة هذا النوع من المجتمعات منذ نشأتها وحتى الآن ، غير أنه قد حدثت بعض التطورات أو التغيرات تتمثل فى امتداد الدراسات الانثروبولوجية الى نوعيات أخرى من المجتمعات حيث اتجهت اهتمامات علماء الانثروبولوجيا المحدثين الى دراسة المجتمعات الأكثر تقدما وتعقدأ فقاموا بدراسة القرى فى المجتمعات الحديثة والمراكز الحضرية والمدن وخاصة فى افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية بل أن هناك اتجاهات حديثة تهتم بدراسة المشروعات الصناعية والتنظيمات والمؤسسات والمحلات التجارية الكبرى

(١) عاطف وصنى : الانثروبولوجيا الاجتماعية مرجع سابق ص ١١

ذاتها . غير أن الطابع المميز لتلك الدراسات أن مجتمعات أو وحدات الدراسة تتميز بصفة عامة بأنها صغيرة الحجم .

أو ذات مجال صغير وهي أكثر بساطة أو على الأقل أكثر تجانساً من المجتمعات الكبيرة

وبالنسبة للمجال الزمني للدراسات الانثروبولوجية فالتاثير نجد أنها تهتم بدراسة المجتمعات المعاصرة القائمة ووسيلتها في ذلك الملاحظة المباشرة، كما أنها تهتم أيضاً بالمجتمعات القديمة الغابرة ووسيلتها في ذلك الآثار والمخلفات الى تركتها

ويمكن تحديد الموضوع الرئيسى أو مجال الاهتمام الاساسى للانثروبولوجيا الاجتماعية بدراسة السلوك الاجتماعى الذى يتمثل في نظم اجتماعية مثل نظام القرابة والعائلة ومثل النظام الاقتصادى والسياسى والدينى والعبادات والاجراءات القانونية والعادات والتقاليد أى دراسته النظم الاجتماعية ووظائفها في إطار البناء الاجتماعى لمجتمع ما وتحديد العلاقات والتاثير المتبادل بين تلك النظم .

وهناك اتجاهين مختلفين في تحديد الموضوع الرئيسى لهذه العلم ، وهذا الخلاف ليس مجرد خلاف لفظى بسيط وإنما هو - لاف جوهرى تترتب عليه فروق ونتائج اساسية (١)

ويرى الاتجاه الاول أن هذا العلم يهتم في المقام الاول بدراسة الثقافة وليس المجتمع وترجع جذور هذا الاتجاه إلى مكتابات وأفكار أبو الانثروبولوجيا البريطانية The father of British Anthropology العلامة سير ادوارد

تايلور Sir Edward Tylor

(١) احمد أبوزيد - تايلور مرجع سابق ص ٥٠

ويشايح هذا الاتجاه كثير من العلماء في الولايات المتحدة الان (١)

أما الاتجاه الثانى فيسود بين المدارس الانثربولوجية الحديثة فى بريطانيا وخاصة اتباع الاتجاه الوظيفى ويقوم على تصور أن الانثربولوجيا هى العلم الذى يدرس المجتمع والنظم الاجتماعية .

ومن الموضوعات التى تميز النظرة الانثربولوجية للمجتمعات دراسة المجتمع كنسق من الاتصالات ومتابعة فكرة البناء وتحليل الطريقة التى ينظم ويصف بها الانسان خبرته الكلية عن العالم (٢) .

الجلور التاريخية للانثربولوجيا :

يمكن القول بان ظهور الانثربولوجيا الاجتماعية كعلم منهجى متميز لا يرجع إلى أبعد من النصف الثانى من القرن التاسع عشر ولوان مشكلات وموضوعات هذا العلم كانت تدرس فى جامعات أوروبا قبل ذلك بوقت طويل فالاهتمام بالبحث فى شئون الانسان والمجتمعات الانسانية قديم قدم الانسان نفسه وسابق على ظهور الانثربولوجيا كعلم اكاديمى معترف به . وكل مجتمع من المجتمعات الانسانية كان يولى اهتماما بمعرفة كيف نشأت العادات والتقاليد لديه ومعرفة الفروق بين ثقافته الخاصة وثقافة المجتمعات المجاورة له . وعلى هذا فانهم جميعا قد اقاموا انثربولوجيا خاصة بهم بصورة ما ولكن التفسيرات التى توصلوا اليها وحتى ما استند منها جزئيا على الملاحظة الدقيقة ظل بصفة عامة فى مستوى الاساطير..

(١) احمد أبوزيد - تايلور مرجع سابق ص ٤٩

(٢) 1 — The New Encyclopedia Britannica, Anthropology

p. 987.

ونذكر أن المؤرخ الاغريقى هيرودوت الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد قد قدم وصفا لحياة الشعوب المتبربرة والحياة الاجتماعية فى مصر وقد بدأ التفكير العلمى فى الظهور فى عدد محدود من مراكز الحضارة الانسانية فى العالم ، فى عالم البحر المتوسط وفى الصين وفى المنطقة العربية بالشرق الأوسط وفى الحضارة الغربية الحديثة . ومن الملامح المميزة لكل تلك المراكز الحضارية السيطرة التى تمارسها على مناطق شاسعة والفرص التى اتاحت لها عن طريق تجنودهم وتجارهم وحجاجهم ومبشرينهم ومبعوثيهم لجمع الملاحظات عن مجموعات عريضة من الشعوب . ولقد كان جمع تلك المعلومات والملاحظات ضروريا لبداية ادراك كيف يتكيف الناس لبيئاتهم وكيف يستخدمون النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المختلفة وكيف تحول الجنس البشرى من المجتمعات البسيطة إلى المجتمعات المركبة .

ولقد وجه المؤرخون والفلاسفة عند قدماء الاغريق والصين والعرب مثل تلك التساؤلات . وإذا اخذنا أوروبا الغربية على سبيل المثال فإن كثير من التساؤلات اثارها الفلاسفة الفرنسيين من أمثال جان بودان Jean Bodin وميشيل دى مونتاني Michel De Montaigne الذى خصص جانب كبير من مقالاتها يمكن تسميته الآن بالمعلومات الأثنوجرافية فى أوائل القرن السادس عشر ومن الفلاسفة الانجليز توماس هوبز Thomas Hobbes وجون لوك John Locke فى القرن السابع عشر ومن الفلاسفة الفرنسيين مونتسكيو Montesquieu وروسو Rousseau وفولتير Voltaire فى القرن الثامن عشر حتى نصل إلى سان سيمون Saint-Simon الذى كان أول من اقترح بمراحة ضرورة إنشاء علم للمجتمع وكل هؤلاء يوصفون انهم من بين المؤسسين للانثروبولوجيا الحديثة .

ولقد بدأت البدايات المبكرة للانثروبولوجيا الحديثة تتشكل قبل منتصف القرن التاسع عشر بسبب ظهور سلسلة من المستحدثات في العالم الغربي فلقد بدأت المرحلة الأخيرة والعظيمة من عهد الكشوف الجغرافية ومعرفة المجتمعات التي ظلت خارج دائرة معرفة العالم الغربي والحضارة التكنولوجية له في نهاية القرن الثامن عشر ، وفي نفس الوقت فإن الثورات الثقافية والسياسية قد يسرت اخضاع مبادئ دينية معينة للتساؤلات .

وبذلك فتحت الطريق لمناقشة موضوعات ومسائل كانت في السابق ممنوعة . ولذلك سرعان ما شاهد القرن التاسع عشر احياء الاهتمام بدراسة أصل الانسان ووحدة أرتعداد الاجناس البشرية وثبات أو تبادلية الأنواع الحيوانية . وهكذا فإن علم الانثروبولوجيا قد نما وتطور باعتباره نتاج للدراسات المعاصرة لتصنيف الاجناس البشرية والملاحم المميزة لتشريح الانسان وتاريخ المستوطنات البشرية وتصنيف اللغات ومقارنة القواعد اللغوية والمقارنة بين المجتمعات البدائية والقديمة والتطور التاريخي للاقتصاد والصناعة عند الانسان .

واخيراً في سنة ١٨٤٠ وضع مبدأ هام لدراسة الحقائق الانسانية وهو مبدأ التطور ، وقد كان ذلك قبل أن ينشر سير تشارلز داروين Sir Charles Darwin كتابه المشهور عن أصل الأنواع سنة ١٨٥٩ وهذا المبدأ الذي آثار محاولات قوية يعتبر نقطة البدء للانثروبولوجيا (١)

وأن كان ايفانز ريتشارد يرى أنه لا يمكن تحديد نقطة معينة بالذات بدأت عندها الانثروبولوجيا الاجتماعية .

(١) دائرة المعارف البريطانية

وهو يعتبر أن القرن الثامن عشر يمثل فترة النشوء الأولى لهذا العلم وأن الانثروبولوجيا وليده عصر التنوير وأنها ظلت تحمل كثيراً من الملامح المميزة لذلك الأصل خلال كل تاريخها حتى اليوم (١) .

ومع نهاية القرن التاسع عشر فإن النظرة التطورية evolutionary قد حددت مهمة العلم الجديد وكان يعتقد أن المهمة الرئيسية للانثروبولوجية هي تصنيف مختلف المجتمعات والثقافات وتحديد المراحل والحالات التي مرت بها كل الجماعات الانسانية .

ويمكن أن نلمس الفرق الهائل بين الانثروبولوجيا الاجتماعية كما هي عليه الآن وبين ما كانت عليه في أواخر القرن التاسع عشر من مقارنة الدراسات العديدة التي يخرجها العلماء المحدثون : فلقد كانت معظم الدراسات الانثروبولوجية المبكرة تسيطر عليها النزعة النظرية وتهتم بوجه خاص بالبحث عن اصول النظم مثل اصول الدين والنظام الطوطمي وما إلى ذلك . أما الآن فإن الغالبية العظمى من الدراسات تتجه اتجاه حقل تجريبي تمتزج فيه الملاحظة بالتحليل (٢)

طبيعة الانثروبولوجيا :

من القضايا الهامة التي تثير الجدل والمناقشات بين علماء الانثروبولوجيا منذ النشأ الأولى لهذا العلم في القرن الماضي وحتى الآن القضية القديمة المتجددة عن طبيعة هذا الفرع من فروع المعرفة وهل هي علم كالعلوم الطبيعية ام انها أحد العلوم الانسانية ويرتبط بهذه القضية اعتبارات أخرى عديدة مثل تحديد الهدف

(١) ايفانز برتشارد الانثروبولوجيا الاجتماعية - مرجع سابق ص ٥٠٤

(٢) احمد أبوزيد : تايلور ، مرجع سابق ص ١٠

من اجراء الدراسات الانثربولوجية وتأثير ذلك فى توجيه تلك الدراسات وتكوين المدارس الفكرية الانثربولوجية المختلفة وكذلك علاقة هذا العلم بالمعارف العلمية الاخرى والمناهج التى يتبعها فى الدراسة والمفاهيم المستخدمة كاداه تحليليه واطار تصورى لهذا العلم .

ويمكن ان نميز بين اتجاهين رئيسين فى هذا المجال ، الاتجاه الاول يعتبر الانثربولوجيا علما كالعلوم الطبيعية ولذلك فانه يجب ان يتبع فى دراسته المناهج الاستقرائية مثل باقى العلوم الطبيعية ويستتبع ذلك أن يتحدد الهدف من الدراسات الانثربولوجية اسوه بهدف العلوم الطبيعية وهو التوصل الى اكتشاف القوانين الكلية وتعليل الوقائع الجزئية بردها الى قواعد عامة (١)

ويشيع هذا الاتجاه بصفة خاصة فى بريطانيا . ومن زعماء هذا الاتجاه العلامة رادكليف براون Radcliff-Brown الذى كان يعتبر الانثربولوجيا الاجتماعية موضوعا علميا أو فرع من العلم الطبيعى ، والعلم الطبيعى عنده هو البحث المنهجى فى بناء الكون كما تظهره لنا الحواس ، ويتفرع العلم الى عدد من العلوم الهامة المنفصلة التى يعالج كل منها نوع معين من الابنية بقصد اكتشاف الخصائص المميزة لكل الابنية المندرجة تحت هذا النوع ، وكان يرى ان هناك مكانا لنوع آخر من العلم الطبيعى سوف توجه الى اكتشاف الخصائص العامة للابنية الاجتماعية التى تتألف من الكائنات الانسانية وكان تصوره لتكون الابنية الاجتماعية من الكائنات الانسانية يعد امتدادا لتصوير العلامة سبنسر Spencer للمجتمع على أنه جزء من النظام الطبيعى للكون ويدخل فى تركيبه ولذلك يشبه

(١) احمد أبوزيد - تايلور : مرجع سابق ص ١٨٨

المتجمع بالكائن العضوى اى يشبهه بالجسم الحى فى كل نواحيه وخصائمه ومقوماته ووظائفه وانه يتطور كما تتطور الكائنات العضوية أو الكائنات الحية الاخرى (١)

وكان راد كليف براون يرى انه يجب اتباع الطريقة العلمية فى دراسة الابنية الاجتماعية اى الطريقة الاستقرائية التى تعتمد على الملاحظة والمقارنة والتصنيف والتعميم والتى تستخدم فى العلوم الاخرى كعلم الحيوان مثلا بقصد الوصول الى قوانين عامة كلية .

اما الاتجاه الثانى ويشيع فى الولايات المتحدة الامريكية . فيرى اصحابه ان الانثروبولوجيا اقرب فى طبيعتها الى الدراسات الانسانية Humanities ويتبع انصار هذا الاتجاه فى دراساتهم الطريقة التاريخية التى تقوم على تحليل احدى الوقائع او الظواهر الجزئية المعينة بواقعه او ظاهرة جزئية معينة اخرى وترتب الوقائع كلها فى تسلسل تاريخى او محاولة تعيين وتحديد اصولها الاولى .

ومن اتباع هذا الاتجاه علماء الانثولوجيا بحيث يمكن اعتبار اتباع احد هذين الاتجاهين مدخلا للتمييز بين علماء الانثروبولوجيا وعلماء الانثولوجيا .

ويناصر العلامة ايفانز بريتشارد هذا الاتجاه الثانى صراحة حيث اشار فى محاضرة ماريت التذكارية Marett Memorial Lecture الى ان الانثروبولوجيا اقرب فى طبيعتها الى التاريخ مثلا والعلوم الانسانية على العموم وانه بالتالى يجب استخدام المنادج والطرق التى يستخدمها علماء التاريخ فى

(١) ايفانز بريتشارد، الانثروبولوجيا الاجتماعية مرجع سابق ص ١٧

دراساتهم اى ان الانثروبولوجيا الاجتماعية فن وليست علم وان مهمة
الانثروبولوجى الاجتماعى هى دراسة النسق الاجتماعى الذى هو نسق اخلاقى
وليس نسق طبيعى (١)

ويشير ا.د. احمد ابوزيد الى ان نوع التعليم او التدريب الذى تلقاه العلامة
ايفانز برتشارد قد يكون هو المسئول عن اتباعه لهذا الاتجاه اذا انه كان قد
درس التاريخ فى اول الامر فى جامعة اكسفورد وحصل فيه على درجة
الجامعة الاولى قبل ان يذهب الى لندن ليتخصص فى الانثروبولوجيا
الاجتماعية .

ويمكن تصنيف علماء الانثروبولوجيا من حيث اتباعهم لاحد هذين
الاتجاهين فى دراساتهم وابحاثهم ، وان كان بعض العلماء يستعين بالمنهاج
المستخدمة فى كلا هذين الاتجاهين ومن ذلك العلامة تايلور E.B. Tylor

(١) ايفانز برتشارد : الانثروبولوجيا الاجتماعية مرجع سابق ص ٦

الخصائص المميزة للأنثروبولوجيا كتخصص علمي أكاديمي :

إذا ما تكلمنا عن السمات والخصائص المميزة للأنثروبولوجيا كتخصص علمي أكاديمي فإننا نحاول معرفة ما الذي يميز الأنثروبولوجيا كفرع من فروع المعرفة عن الفروع الأخرى للمعرفة العلمية ، وبعبارة أخرى نحاول الإجابة على التساؤل عن الشيء المميز للأنثروبولوجيا الذي يجعلنا نطلق عليها اسم علم الإنسان رغم وجود الكثير من العلوم والنظم العلمية التي تختص بجانب أو أكثر من الإنسان وأعماله .

ويتوقف هذا إلى حد كبير على الاتجاه الذي نتبعه في النظر إلى علم الأنثروبولوجيا وهل هو علم إنساني أم أنه علم طبيعي وبالتالي فإنه ينظر إلى الإنسان كجزء من الطبيعة ومن الكون بكل ظواهره وعلى ذلك تجرى دراسة الإنسان طبقاً لمبادئ ومناهج العلم الطبيعي . ومن هذا المنظور نجد أن هناك أحد فروع الأنثروبولوجيا يختص بالبناء الفيزيقي وبالعمليات الفسيولوجية للجنس البشري وبالأصل التطوري له . ويعرف هذا الفرع باسم الأنثروبولوجيا الفيزيائية وأحياناً يطلق عليها اسم البيولوجيا البشرية (١) ولكن الأنثروبولوجيا تتضمن قدراً أكبر بكثير من مجرد دراسة الطبيعة الفيزيائية للإنسان أو التاريخ الطبيعي له . إنها تهتم بأنماط السلوك المختلفة للإنسان وبمنتجاته الثقافية بحيث يمكن القول إنها تهتم بالجوانب الفيزيائية والجوانب الثقافية والاجتماعية للإنسان أيضاً . أي أن الأنثروبولوجيا هي علم الإنسان والثقافة أي أنها إلى جانب كونها علم طبيعي فهي علم اجتماعي وسلوكي بصفه رئيسية أيضاً وبالإضافة إلى

(١) E. A. Hoebel. E. L. Frost Cultural and social anthropology McGraw - Hill Co M.Y 1976, p. 5

ذلك فإنها تهتم بالفنون وتوجه بجهود الباحثين الأنثروبولوجيين لمعرفة الطرق الكلية للحياة لنوعيات مختلفة من الشعوب فهي علم إنساني أيضا .

ويدرس الأنثروبولوجيون الكائنات البشرية حيثما يجدونها سواء في ثلوج القارة الجنوبية القطبية أو في فياني الصحراء أو في البراري والاحراش والغابات أو في المناطق المعتدلة وهم يبحثون عن خلفاتهم وأثارهم في مواقع وحفريات ما قبل التاريخ ويقومون بدراسات عقلية في قرى الشعوب البدائية وفي المراكز الحضرية في الحضارات الحديثة . فالأنثروبولوجيا تختص بكل من الإنسان الحضري والشعوب القائمة الآن . وكما يقول Clyde Kluckhohn أن الأنثروبولوجيا تمسك بمرآة كبيرة للإنسان وتدعه ينظر إلى نفسه في تنوعه اللانهائي . (١) وعلى مدى سنوات عديدة فإن الاهتمامات الفكرية للأنثروبولوجيين الأوروبيين كان اكتشاف المجتمعات والعادات الغريبة بالنسبة للمعايير والمستويات الغربية وكان الأنثروبولوجيون مشغولين بجمع بيانات على مستوى العالم عن المنتجات الاجتماعية والثقافية للإنسان لكي يستكملوا صورة الكائن الإنساني التي يمكن أن تنعكس في المرآة . وقد تم إنجاز قدر كبير من ذلك العمل الآن ولم يتبقى إلا قدر قليل جداً من المجتمعات التي لم يتم الكشف عنها وتسجيل أنماط حياتها وبالرغم من ذلك فما زال هناك الكثير من التساؤلات والمشكلات التي تنتظر الحل .

كما أن حدود وأبعاد الأنثروبولوجيا قد أخذت تنتقل من التقارير المسحية والبيانات الاثنوجرافية إلى التحليل المتعمق لما هو كامن وراء الصورة وإلى التساؤلات الخاصة بالتطور الإنساني ودوافعه وإلى البناء الاجتماعي والوظيفة .

وأصبحت الأوصاف الخاصة بتنوع أنماط الحياة التي لوحظت في المجتمعات المختلفة تستخدم كمادة أساسية في تقديم الحقائق لتفسير السلوك الاجتماعي للإنسان الذي يمثل موضوع الاهتمام الرئيسى للأنثروبولوجيا الآن .

وسوف نعرض فيما يلي مجموعة السمات الانسانية الرئيسية التي تتميز هذا الفرع من فروع المعرفة العلمية منذ نشأته وحتى الآن .

أولا : الدراسة العقلية في مقابل التجارب العملية :

ما يميز الأنثروبولوجيا عن غيرها من فروع العلم الاجتماعي منذ نشأة هذا العلم وحتى الآن هو اعتمادها على الدراسة العقلية للحصول على بياناتها واختيار فروضها .

ولقد كان الاتجاه العام في الدراسات الأنثروبولوجية في القرن الماضي ينحو نحو الدراسة النظرية الوصفية البحتة، وكانت معظم هذه الدراسات يقوم بها علماء لم يتح لهم القيام هم أنفسهم بملاحظة الوقائع التي يقيمون عليها تأملاتهم ونظرياتهم، وكانوا يعتمدون على كتابات الرحالة والمبشرين والحكام الإداريين في المستعمرات لتزويدهم بالمعلومات والحقائق المطلوبة ، ومن أمثال هؤلاء العلماء سيرجيمس فريزر .

ثم ساد الشعور بأن هذا العلم الناشئ لن يتقدم الا اذا قام العلماء بأنفسهم بالدراسات العقلية واعتمدوا على أنفسهم في جمع الحقائق والوقائع اللازمة وقد أسفر هذا الشعور المتزايد عن ارسال بعثة جامعة أكبردج لدراسة جزر مضائق توريس Torres Straits الواقعة بين غينيا الجديدة وشمال استراليا والتي قضت هناك عاما واحدا فقط ١٨٩٨/١٨٩٩ وتعتبر أول بعثة علمية للقيام بدراسة عقلية صحيحة . ولم يكن بين أعضاء هذه البعثة أحد علماء الأنثروبولوجيا

المتخصصين فقد كان هادون A. C. Haddon رئيس البعثة من علماء الحيوان وكانت البعثة تضم ريفرز W. H. Rivers وهو طبيب وعالم نفسى وسليمان C. G. Seligman وكان متخصصا فى الباثولوجيا والأمراض المتوطنة وماكدوجال W. McDougall ومي-زر G. S. Myers وسيدنى راى S. Ray ويلكنز A. Wilkins .

ويعتبر ايفانز برتشارد هذه البعثة نقطة تحول فى تاريخ الأنثروبولوجيا الإجتماعية فى بريطانيا. وان الخبرة الحقلية أصبحت تعتبر جزءا رئيسياً من تمرين طلاب هذا العلم وبرزت أهمية التفرغ والتخصص الكاملين (١).

وقد أقام العلماء الأنثروبولوجيون بعد ذلك بارساء قواعد الدراسة الحقلية الصحيحة المركزة ، ومن أبرز هؤلاء العلماء العلامة راد كليف براون الذى قام بدراسة فى جزر الاندمان Andaman Islands لمدة عامين ما بين ١٩٠٦/١٩٠٨ والعلامة مالىنوسكى الذى امضى أربعة أعوام كاملة ما بين ١٩١٤/١٩١٨ فى دراسة سكان جزر التروبرياند فى ميلانيزيا Trobriand Islanders

وأصبحت الدراسة الحقلية هى المصدر الرئيسى للحصول على البيانات والحقائق اللازمة للبحث الأنثروبولوجى . فى مقابل اعتماد الباحثين فى بعض التخصصات العلمية اخرى على التجارب العملية للتعرف على الحقائق فحين يواجه العلماء وعلى سبيل المثال علماء الكيمياء مشكلة ما فإنهم يقومون بإجراء تجارب مصممة لذلك لاختبار مدى صدق الفروض الخاصة بهم . ومنهج الفحص والاختبار المعملى يقوم على التحكم فى مقدار وفى فعل عوامل معينة معروفة لكي نحدد كيف تؤثر فى بعضها

(١) على اسلام الفار : الأنثروبولوجيا الاجتماعية مرجع سابق ص ٧

البعض أو في عامل أو عنصر مجهول ، وهذه الاداة الأساسية للعلوم الفيزيائية ليست متاحة في العلوم الاجتماعية ولذا فإنها ينبغي أن تقصر نفسها إلى حد بعيد على ملاحظة المواقف القائمة أكثر من الاعتماد على تصميم التجارب الملائمة متطلباتهم .

ولقد اقام الانثربولوجيون بديلا ملائما بدرجة كبيرة يقوم على الجمع بين الدراسة الحقلية والمنهج المقارن وعندما يواجهون مشكلة تتطلب الحل فإن الانثربولوجيين المحدثين يبحثون عن مجتمع أو سلسلة من المجتمعات التي تتضمن مسبقا مجموعة العوامل الضرورية اختيار النظرية أو الفرض موضوع البحث ، أو قد يبحثون عن البيانات في التقارير الحقلية السابقة وجودها في المكتبات الانثربولوجية أو يخططون للقيام بعثة علمية لدراسة قبيلة أو مجتمع مناسب .

وتعتبر الدراسة المشمورة التي قامت بها عالمة الانثربولوجية الأمريكية مارجريت ميد Margart mead عن المراهقة في جزيرة ساموا Samoa من الأمثلة الكلاسيكية لهذا الإجراء ، ولقد كان ما يعتبره الراشدون حالة عاطفية من الهياج وميل إلى العصيان عند الصغار دون العشرين من اختصاص التربويين وعلماء النفس لفترة طويلة . وفي العشرينات وفي الولايات المتحدة الأمريكية كانت ثورة وضغوط المراهقة تقبل بصفة عامة باعتبارها مظاهر طبيعية لعملية النمو ، واسكن الباحثة الانثربولوجية ميد M.Mead كانت تشك في ذلك وفي النظرة التي كانت تعتمد على أعمال العالم السيكولوجي G. Stanley Hall وكان لدى ميد فروض بديلة تقوم على ان الاضطرابات العاطفية التي يعاني منها المراهقون في مجتمعات أمريكا وأوروبا الغربية هي رد فعل سيكولوجي لضغوط نوعية قائمة في الثقافات الأمريكية والأوروبية ؛ ولأنه إذا كان يمكن أن يوجد مجتمع

لا توجد فيه تلك الضغوط الحاكمة ولا تكون فيه متغيرات مستقرة يمكن أن تنتج القلق العاطفي فإن ذلك المجتمع سوف لا تبدو فيه اضطرابات المراهقة وأن التحول من الطفولة إلى حياة المراهقة سيتم بسهولة ومثل هذا الإستنتاج سوف يشير إلى المحددات الثقافية لسلوك المراهقة . ونظراً لأنها كانت على دراية بالكتابات الاثنوجرافية عن بولينيزيا Polynesia والبحار الجنوبية ، فقد اعتقدت ميد أن التنظيم الثقافي والإجتماعي في Samoa من المحتمل أنه سوف يقدم الظروف الاساسية الواقعة تحت الضغط ، ولذلك فقد اختارت ساموا لتكون معمل اختبارها الاول .

وقد أظهرت ملاحظتهم الحقلية كما وردت في كتابهم — Coming of age in samoa سنة ١٩٢٨ . صدق توقعاتهم وتنبؤاتها وعدم صدق نظرية J. S. Nall (١) .

ثانيا : النظرة التكاملية الكلية الشاملة :

واعتبارات هذه النظرة التي ينظر بها العالم الاثنربولوجي الى المجتمع ويحاول تحقيقها في دراسة تقوم على أن أى ثقافة تؤلف نسق متكامل ، وأن مهمة العالم الاثنربولوجي تنحصر في دراسة النظم الإجتماعية المختلفة على إنها أجزاء من هذا النسق ، ولذلك فإن من مميزات الاثنربولوجيا النظرة الشمولية أو الكلية الشاملة Holistic method أو استخدام المنهج الكلى التكاملى . ويمكن أن يرجع السبب فى هذه النظرة واهتمام الاثنربولوجيون الرواد وإيمانهم لدراسة المجتمعات شبه البدائية لأنها تتميز بأنها ذات مدى صغير بسيط وانها أكثر تجانساً من المجتمعات الحديثة كما أنها تتغير ببطء ولذلك يسهل على الباحث

الانثروبولوجى رؤيتها ككل وأن يلم بكل جوانب الثقافة فى المجتمع مستخدما فى ذلك المنهج التكاملى الكلى .

ورؤية المجتمع البدائى كوحدة كلية يسهل ملاحظة تداخل النظم الاجتماعية وتفاعلها أحدها مع الآخر فى المجتمعات البدائية البسيطة عن ملاحظة ذلك فى المجتمعات المعقدة .

وعن النظرة الكلية وتكامل الدراسة يقول هوبل Hoebel أن الانثروبولوجيا قد حددت لنفسها قبل كل شىء هدفا رئيسيا هو دراسة الجنس البشرى ككل ، فالعلوم السياسية تدرس الحكومات ونظم الحكم عند الجماعات الإنسانية ، وعلم الاقتصاد يدرس إنتاج الإنسان وتوزيع السلع المنتجة وعلم فسيولوجيا أو وظائف الأعصاب Neuro Physiology تدرس نظامه العصبى ، وعلم الهندسة يدرس مساحته ومبانيه وعلم الموسيقى Musicology يدرس موسيقاه وعلم الاجتماع يدرس مجتمعه ، ولكن لا يوجد علم من تلك العلوم أو العلوم المتخصصة الأخرى مثل الجغرافيا أو التاريخ تقوم بالبحث بطريقة منهجية فى كل مظاهر الكائن الانسانى وأنشطته بطريقة موحدة . والكائن البشرى كائن مرتبط بالثقافة كما أنه خالق للثقافة ، وككائنات متطورة فإن اشباه الانسان Hominids قد وصلت إلى مستوى من تطور النظام العصبى مكنتهم من اختراع كثير من الطرق الجديدة للسلوك لم تكن موجودة من قبل فى الدليل الوراثى له ، ولقد بدأ هذا يظهر منذ خمسة ملايين سنة أو أكثر (١) ومنذ ذلك الوقت فإن السلوك الإنسانى كله قد أصبح بيولوجيا وثقافيا فى وقت واحد . والغرض الأساسى المترتب على هذه الحقيقة قد صاغه بطريقة جيدة العالم المتخصص فى علم

الوراثة geneticist ذو التوجيه الأنثروبولوجي Theodosius Dobzhansky في قوله أن التطور الانساني يمكن فهمه فقط كنتاج للتفاعل بين هذين التطورين ، وهنا تكمن الوحدة الاجتماعية والبيولوجية للجنس البشرى ومن القضايا الأساسية للأنثروبولوجيا أنه لا يوجد جسم يمكن فهمه بالكامل وبدقه بمعزل عن الكل ، وقياساً على ذلك فإن الكل لا يمكن ادراكه بدقه بدون المعرفة المتخصصة الدقيقة للأجزاء . وفهم أى بجانب من السلوك الجنسى للانسان مثلاً فإنه ينبغي أن نبحث ذلك فى إطار خصائص التركيب الوراثى والفسىولوجى له ونسق القيم والابنية الاقتصادية والقراية والدينية والمياسية لكل مجتمع انسانى . وتقتبس الأنثروبولوجيا وتضيف إلى أى حقل من حقول المعرفة العلمية وينبغي أن تكون مهارات الباحث الأنثروبولوجى متنوعة بدرجة كبيرة ولكن وحدة العلم تقوم على التركيز على الطابع الكلى للانسان والثقافة .

ويشير مندلبوم O. J. Mandelbaum إلى أن النظرة السكلية تقوم على افتراض أن الباحث حراً فى دراسة نوع السلوك الانسانى الملائم للمشكلة أو الموضوع الذى يبحثه وعلى سبيل المثال فإن الباحث الأنثروبولوجى الذى يقوم بدراسة النمو الاقتصادى فى مجتمع افريقى معين قد يجد أن عليه أن يدرس دورة المراسم وكذلك العلاقات الاسرية إذا كان عليه ان يتعمق فى دراسة عمليات التغير الاقتصادى فى ذلك المجتمع ، كما أنه ينبغي عليه أن يأخذ فى الاعتبار متابعة تطور ونمو الثقافات القديمة وكذلك أنماط التجمعات السكانية وطرق التجارة وأساليب المعيشة وكذلك أشياء متعددة مثل أنماط الاوانى الخزفية . . الخ .

وقد يصعب على باحث انثروبولوجى واحد أن يتناول كل جوانب الثقافة فى

التجمع حتى ولو كان التجمع بسيطا وصغيرا ، ولكن من خلال الجهود المشتركة للأنثروبولوجيين فإنه يتم الكشف عن كثير من الجوانب الثقافية فى التجمع موضوع البحث .

ثالثا : استخدام المنهج المقارنة :

السمة الثالثة المميزة للأنثروبولوجيا هو ذلك الالتزام القديم العميق الجذور والذي ما زال قائما حتى الآن بالمنهج المقارن (١) ويرفض الباحثون الأنثروبولوجيون قبول أى تعميم عن الطبيعة الإنسانية يكون مستندا إلى خبراتهم مع مجتمعاتهم الخاصة وحدها أو حتى مع مجتمعين أو ثلاثة فقط وخاصة إذا كانت تلك المجتمعات تنتمى إلى نفس المنطقة الثقافية ذات التقاليد الواحدة والتي قد شبهوا فى ظلها . وإذا كان على الباحث أن يتحدث عن الجنس البشرى وعن الطبيعة الإنسانية فإنه يحتاج للمعرفة الفعلية بالمدى السكلى للبيولوجيا البشرية ولسلوك الجنس البشرى والاشكال الاجتماعية الانسانية . ولاكتساب تلك المعرفة فإن الأنثروبولوجيين الفيزيقيين يدرسون ويقارنون اوسع مدى ممكن من الشعوب الانسانية القديمة والحديثة ليحددوا ما هو عام وما هو خاص وفريد من السمات

(١) ويبرز الطابع المقارن فى الدراسات الأنثروبولوجية المبكرة جدا ومن ذلك ما كتبه المبشر الفرنسى الجزويتى Joseph Francois Lafitau عن المقارنة بين ثقافات هنود Jroquois و Huron وبين ثقافات الاغريق والرومان وتقوم على الدراسة الحقلية التى قام بها Lafitau حين كان مبشرا فى نيويورك القرن من ١٧١٢-١٧١٧ وعنوانها معاداة الامريكان المتوحشين ومقارنتها بمعادات الازمان الغايره ، Moeurs des Sauvages Ameriquains Comparées aux mœurs des premiers Temps.

البيولوجية للجنس البشرى ، كما يدرس الانثربولوجيون أوسع مدى ممكن من المجتمعات الانسانية سواء بدائية أو متحضرة فى كل أنحاء العالم ليحددوا ما هو عام وشائع وما هو خاص وفريد من السمات الاجتماعية والثقافية للسلوك الانسانى ويحاولوا إيجاد الارتباط بين المظاهر الفيزيكية والثقافية المتنوعة .

وتبرز أهمية استخدام البحث الثقافى المقارن فى واحد من العلوم السلوكية الأخرى فيما أعلنه مؤخرا أحد علماء النفس البارزين وهو D. T. Campbell فى مقال له حيث يقول ولقد قامت الشواهد الانثربولوجية ويمكن أن تستمر فى ذلك بإداء خدمة ذات قيمة كبرى تتمثل فى كونها بمثابة بوثقة يمكن أن تضع فيها للاختبار الدقيق جـمـد المـنـظـريـات السيكولوجية الأولية ، وتتيح للمرء أن يحذف منها وأن يختار من بين البدائل طرق حين لا يمكن أن يتاح لنا فى إطار ثقافتنا الخاصة لإجراء فحوص معملية ودراسات ارتباطية .

ويدخل المنظور المقارن فى كل مستوى من مستويات التحليل الانثربولوجى ويضرب دافيد مندلبوم مثالا لتوضيح مستويات النظرة المقارنة مستمد من الهند فيقول أنه حين يدرس الباحث الانثربولوجى التنظيم الاجتماعى فى إحدى القرى بالهند فإنه يكشف عن طريقة تنظيم أهل القرية لأنفسهم ثم يجرى مقارنة بين الجماعات المختلفة فى القرية ليتعرف على أوجه التشابه والتمايز بينها ، ولما كان القرويون يرتبون أنفسهم فى تدرج هرمى متسلسل من الجماعات الطبقية فإن من مهام الباحث الانثربولوجى الذى —ومـ باجـراء المقارنة أن يلاحظ انماط السلوك المتشابهة والتمايز فى كل مستوى من المستويات الطبقية وأن تتوافر لديه القدرة على إدراك الجوانب المتشابهة وكذلك الجوانب المتميزة ومن ثم فإن الباحث الانثربولوجى يمكنه أن يقارن تنظيم القرية ككل بنظيره فى القرى

الأخرى فى نفس المقاطعة ، وسوف يتمكن بإجراء مثل تلك المقارنة مرة ثانية من تحديد أوجه التشابه والتمايز بين الانماط المختلفة للقرى ، وهكذا يتسنى أيضا تفسير بعض أنماط السلوك القديم للقرويين وكذلك التنبؤ باستجاباتهم المحتملة تجاه بعض المواقف فى المستقبل ، فضلا عن ذلك فإن المقارنة بين تنظيم القرى فى عدة مناطق مختلفة فى الهند قد يؤدى إلى صياغة بعض الملامح العامة المشتركة فى الثقافة الهندية ككل . وهذا بدوره قد يسمح بالمقارنة الثقافية للترتيب الطبقي فى قرى الهند التى بها أنماط من التدرج الطبقي الاجتماعى مع مناطق أخرى ماثلة فى اليابان أو الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال وعلى المدى الواسع لتحليل تلك المقارنات فإن قضية التدرج الطبقي قد تناقش كسمة عامة للثقافة والمجتمع الإنسانى .

رابعا : استخدام مفهوم الثقافة كمفهوم أساسى :

يشير هوبل إلى أن من السمات الأساسية المميزة للأنثروبولوجيا هو تطويرها وتنميتها لمفهوم الثقافة وأهمية هذا المفهوم فى الفكر الأنثروبولوجى . « والثقافة هى النسق المتكامل من انماط السلوك المتعلمة التى تميز أعضاء مجتمع ما والتى تنتج عن الميراث البيولوجى ، والثقافة لم تتحدد من قبل وراثيا فهى ليست غريزية وإنما هى نتيجة اختراع اجتماعى ينتقل ويستمر من خلال عمليات الاتصال والتعلم فقط ، وتلك هى المكونات الأساسية لمفهوم الثقافة كما يستخدم هذا الاصطلاح حاليا معظم الأنثروبولوجيين . ويوجد بالطبع صياغات لفظية أخرى عديده ، ومع ذلك فإن Kroeber & Kluckhohn بعد مراجعة وتقديم ما يقرب من خمسمائة صياغة واستخدام لهذا المفهوم قدموا التعريف التالى : —

« تتكون الثقافة من انماط ظاهرة ومستترة من السلوك المكتسب والذى

ينتقل عن طريق الرموز ويشكل الانجازات المميزة للجماعات الانسانية والمتضمنه والمحددة في المنتجات الانسانية . ولب الثقافة يتكون من الافكار التقليدية (لاى المشتقة والمختارة تاريخيا) والقيم المرتبطة بها بصفة خاصة ويمكن اعتبار انساق الثقافة نتاج للفعل من جهة وعامل مثير لحدوث الفعل من جهة أخرى .

ولكل مجتمع على حدة ثقافته المتميزة ويستتبع ذلك أن يكون السلوك المميز لأعضاء مجتمع ما في بعض جوانبه . مختلفا بطريقة ذات مغزى عن السلوك المميز لأعضاء كل المجتمعات الأخرى . وقد أظهرت الدراسات الانثربولوجية أن السلوك المتميز للجماعات الانسانية المختلفة هو بصورة حاسمة نتاج الخبرة الثقافية أكثر منه نتاجا للوراثة التكوينية .

ويتميز عمل الانثربولوجيين باستخدام طريقة خاصة لتنمية وتطوير مفاهيمهم وبناء نظرياتهم . فهم يبدؤون في التعميم والتنظير من واقع الشواهد الامبريقية، وإلى بناء وتطوير مفاهيمهم مما يلاحظونه . ولا يبدأ الباحث الانثربولوجي عمله مثل الباحثين في العلوم الاجتماعية الأخرى أى بنموذج معين أو بمجموعة من الفروض المجردة ويوجه عمله الحقل لاختبار ذلك النموذج أو تلك الفروض بل هو يميل للاتجاه لصياغة مفاهيمية بالاتجاه من أسفل إلى أعلى أكثر من ميله للقيام باتخاذ صيغ مجردة يتجه من أعلى إلى أسفل .

استخدامات الانثربولوجيا وفائدتها :

يتميز الانسان عن سائر الكائنات الحية برغبته الملحة في معرفة نفسه ، فدراسة الانسان لذاته واشباع رغبته في معرفة نفسه قد يكون في حد ذاته هدفا لاى فرع من فروع المعرفة المنهجية العلمية . ووصول الانسان إلى مزيد من الفهم لنفسه وبذاته سوف يترتب عليه زيادة قدرته على توجيه مستقبله بمزيد من

الذكاء فيما يختص بـ — أ — يسعى لتحقيقه ووسائل تحقيق ذلك وسوف يتيح له ذلك مزيد من الفهم لمشكلاته وكيفية معالجتها بفاعلية .

والانثروبولوجيا من التخصصات العلمية التي تساعد في القاء الضوء على كثير من الحقائق وعلى طبيعة المسائل الاجتماعية العامة لاشباع فضول الإنسان لمعرفة أسباب كثير من الموضوعات والتساؤلات الملحة التي ترد على ذهن الإنسان وتجدر الاشارة الى أن الانثروبولوجيا لم تتوصل بعد إلا إلى القليل من الاجابات الحاسمة او النهائية لكثير من الموضوعات التي تعالجها ، ومن أمثله تلك الموضوعات التساؤل عن أسباب ذلك التنوع الكبير في السلوك الانساني وتفسيره والتساؤل عما إذا كان هناك عموميات أو جوانب عامة عند كل البشر في بعض جوانب معينة من سلوكهم . وهـ — ل وجود النظام الأسرى ضرورى وهل هناك ما هو أفضل منه . يعنى هل توجد طرق أفضل لانجذاب وتربية الاطفال أكثر مما تقدمه الاسرة النووية الحديثة ، وهـ — ل توجد طرق أفضل لاستخدام المصادر الطبيعية وموارد البيئة مما نشاهده الآن ونحن قرب نهاية القرن العشرين . وهل هناك مؤشرات عامة في النظم الاجتماعية والقيم الانسانية للضبط الاجتماعى تجعل فكرة إقامة قانون عالى ممكنه ؟ أم أن هناك بعض الغرائز العدوانية الأساسية والعوامل الأخرى المغروسة في الطبيعة البشرية تجعل أن تحقيق مثل هذا الهدف مستحيل ؟ وهل العنف شيء حتمى لا يمكن تفاديه وهل الحروب بالتالى ضرورة حتمية لا يمكن تجنبها ؟ .

وإذا كان الانسان بدأ في ارتياد آفاق وعوالم جديدة في القضاء فهل هناك نظم وقيم معينة منحدرة من الماضى البعيد منذ العصر الجليدى مثلاً وعبر الخمس ملايين سنة للحياة وقيام التجربة الانسانية على ظهر الارض ينبغى على الانسان

أن يحملها معه إلى تلك العوالم الجديدة وإذا صح ذلك فما هي تلك القيم والنظم ومن التساؤلات التي تطرح في الآونة الأخيرة ما إذا كان من الحكمة ادخال أساليب زراعية أكثر تقدماً وتربيات وإجراءات صحية وأساليب تكنولوجية أكثر تقدماً ونظم للتعليم العالي وتنظيم الزواج والأسرة والانجاب في المجتمعات والمناطق التي عاشت دهوراً طويلة بدون ذلك أم أن تلك المجتمعات تتمتع بالتكامل والاستقرار بدون ذلك .

وهل من المتوقع أن يحفل المستقبل بتغيرات راديكالية في تكوين الإنسان وقدراته العقلية ، أم أن الإنسان قد وصل إلى مرحلة الكمال من الزاوية البيولوجية أي أنه قد وصل إلى قمة تطوره إذا كنا نعالج الموضوع من منظور تطوري وأخيراً ما هو الإنسان؟ وهل هو ذلك القرد العارى The Naked ape كما أطلق عليه أحد علماء الحيوان Dr. morris وما الذي يجعله مختلفاً عن باقى عالم الحيوان ، هل هو استخدام الأدوات أم تطور اللغة أو العقيدة الدينية أو الفضول الذاتى والرغبة في المعرفة . ولقد توصل الأنثروبولوجيون الآن إلى معرفة محددة تماماً لما كان عليه الإنسان الأول وإلى معرفة قدر من عمليات الفكر عندهم وأنتاجهم وعقيدتهم .

ولا يمكن القول بأن الأنثروبولوجيا وحدها هي التخصص العلمى الوحيد الذى يعالج مثل تلك التساؤلات إذ أنها تقدم اجابات محددة لكل تلك الاسئلة إلا انه يمكن القول أن كثير من تلك التساؤلات يدخل في صميم الاهتمامات الأساسية للأنثروبولوجيا ، بل وزيادة على ذلك فإن التخصصات العلمية الأخرى التي تعالج بعض تلك التساؤلات لا يمكنها أن تصل إلى حلول أو اجابات مرضية لها بدون قدر من الفهم والأدراك لما توصلت اليه الأنثروبولوجيا .

ولم تعد اصطلاحات مثل الثقافة البدائية والنسبية الثقافية والمنهج المقارن والصدمة الثقافية يقتصر استخدامها على الأنثروبولوجيا فقط بل أصبح للمفاهيم والمناهج الأنثروبولوجية تأثير ملحوظ على التخصصات العلمية الأخرى . من علوم اجتماعية وطبيعية .

ويعتبر النمو السريع للأنثروبولوجيا كعلم أكاديمي وتشعبها إلى مجموعة من العلوم الفرعية مؤشراً ملموساً لمدى نجاح الأنثروبولوجيا في الإسهام في نمو البحث عن المعرفة المتعمقة بالطبيعة البشرية والسلوك الإنساني، ويشير العلامة Hoebel & Frost إلى أنه قبل الحرب العالمية الثانية كان هناك عدد محدود من الجامعات والكليات الجامعية في الولايات المتحدة الأمريكية بها أقسام عليية للأنثروبولوجيا وكان هناك عدد محدود من المعاهد العلمية الأخرى يقتصر على تقديم برنامج دراسي أو اثنين في الأنثروبولوجيا ، أما في سنة ١٩٧٥ فقد كان هناك ما يريد عن ٢٥٠ قسم متخصص للأنثروبولوجيا بمنح الدارسين فيه درجات علمية متخصصة في الأنثروبولوجيا تدرس بدرجة متزايدة في المدارس الثانوية والعليا بل في المدارس العادية وبرامج تعليم الكبار .

وتشير بعض الكتابات إلى أن الدراسات الأنثروبولوجية المبكرة كانت تستهدف أساساً تقديم العون والإرشاد للحكومات الاستعمارية في رسم سياستها إزاء مستعمراتها وينوه د. أحمد أبوزيد أن ذلك لا يعني أبداً أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية كعلم كان من أهدافها الرئيسية في يوم من الأيام تسهيل حكم تلك الشعوب المستعمرة أو إيجاد حلول لمشكلاتها ويشير إلى أن الجانب التطبيقي للأنثروبولوجيا الاجتماعية واستخدام نتائج أبحاثها في أغراض عملية يأتي في الواقع في المقام الثاني بينما تأتي المعرفة بأحوال الإنسان والمجتمع البشري في حد ذاتها

بغض النظر عن مدى فائدة تلك المعرفة في الحياة العملية في المقام الأول . ويقول العلامة ايفانو برتشارد (ليس هناك معرفة اشرف ولاسمى من معرفة الانسان بالانسان من حيث هو كائن اجتماعي) .

ولقد كان من أهداف الدراسات الانثروبولوجية منذ بدايتها محاولة التعميم Generalization عن انماط السلوك الانساني التي تشاهد في كل ابعادها للوصول الى وصف كلي للظواهر الاجتماعية أو الثقافية وصياغة أو تشكيل وجهة نظر نوعية خاصة بالنسبة للعلوم الأخرى .

وللمعرفة العلمية التي تتوصل اليها الدراسات الانثروبولوجية أهمية نظرية قصوى بالنسبة لعلم الاجتماع العام كما أن لها قدرا من الأهمية والفائدة بالنسبة لعلوم أخرى كالإقتصاد والدين وعلم اللغة وعلم السياسة . فقد اسهمت تلك الدراسات الانثروبولوجية في توعية الباحثين الى استخدام النظرة الكلية وتكوين صورة عن مدى تساند العناصر والمسكونات في المجتمع وتأثيرها في التفاعل الاجتماعي .

ويمكن النظر الى الفائدة التي تتحقق من الدراسات الانثروبولوجية من منظور تطور مجالات الدراسة في هذا الفرع من فروع المعرفة العلمية ، فعند بداية نشأة هذا العلم وحين كان يختص بدراسة اشكال الحياة الاجتماعية في المجتمعات البدائية ، فإن تلك الدراسات كانت تزود المشتغلين بالدراسات الاجتماعية بالمعرفة بانماط من السلوك وأشكال من التنظيم الاجتماعي الموجودة في مجتمعات قائمة ، الأمر الذي يوجههم الى الحذر في إصدار الاحكام العامة أو التعميم الواسع النطاق واقامة مبادئ أو قواعد تشمل الجنس البشري كله ، كلما شاهدوا مظهراً من مظاهر السلوك الشائق فيردوه الى العوامل الفطرية ، لأن السلوك قد يكون

مرتبطا بظروف الثقافة التي يعيش فيها الأفراد ، وعلى سبيل المثال فان العلامة مكدوجل Mcdoagall قد تأثر باشتراكه في البعثة التي نظمتها هادون ١٨٩٨ وأشترك فيها مع العلامة ريفرز ، وقد اتاح له ذلك التنبيه الى ضرورة أخذ المجتمعات البدائية في الاعتبار اذا كان على الباحث أن يصل الى قوانين عامة للتفاعل الاجتماعي . وفي الربع الأول من القرن الحالي دار جدل بين العلامة الانثروولوجي مالاينووفسكى وبين العالم النفسى فرويد واتباعه حول مدى عمومية مفهوم عقده أوديب وارتباط ذلك بالمجتمع الامومى على ضوء الدراسات التي اجراها ومالاينووفسكى في جزر التروبرياندا .

وبصفة أساسية فان هدف الانثربولوجيا الكشف عن طبيعة الانسان ككائن مرتبط بالثقافة ومندمج فيها يعيش في مجتمعات منظمة كل واحد منها يختلف عن الآخر بالرغم من تشابهها في كثير من الجوانب وتخيرنا الانثربولوجيا بالحدود العلوية للمدى العريض للخبرات الانسانية حتى الآن . بماهية مؤشرات الجنس البشرى أو الانسانية وبعبارة أخرى الاشياء المشتركة بين جميع أفراد الجنس البشرى .

ومع ظهور المجتمعات النامية حديثة الاستقلال بعد تفكك الامبراطوريات القديمة في أعقاب الحرب العالمية الثانية فان الخبراء من تخصصات عديدة مختلفة مثل القانون والسياسة والاقتصاد أصبحوا يهتمون بدرجة متزايدة بثقافات شعوب العالم الثالث .

وبرامج المعونه الفنية (التكنولوجيا) للنمو الاقتصادي والمشروعات الزراعية والبعثات التعليمية وحتى الانشطة التبشيرية يمكنها أن تحقق نجاحاً اذا ما استعانت في أعمالها بالمعرفة الأساسية لثقافات الشعوب والمجتمعات التي تتعامل

معها . بل ان المخططين وكبار الاداريين ورجال الاعمال سواء من ابناء تلك المجتمعات النامية الحديثة الاستقلال أو من الذين يستقدمونهم من بلدان أخرى أكثر تقدماً وخبره للعمل كمستشارين أو منظمين ورجال أعمال فانهم أصبحوا يعتمدون بدرجة متزايدة على الدراسات الانثروبولوجية التي تبرز دورها في تقديم الارشادات لهؤلاء الذين يعملون على ادخال تغيرات مقصودة وتحسينات في اجزاء كثيرة من العالم . ويمكن القول بان الانثروبولوجيا قد أصبحت مقبولة الآن على مدى واسع على أنها فرع من المعرفة العلمية لا يمكن الاستغناء عنه في اعداد المتخصصين والمهنيين في مجالات مختلفة ومن ذلك مجال الصحة العامة وقد اعرفت منظمة الصحة العالمية بهيئة الامم المتحدة مؤخره بانها علم يتصل بالعلاج بصفة أساسية .

وفي موضوعات هامة مثل تغير أساليب انتاج الطعام وعادات الاكل والممارسات الصحية والحجم الامثل للأسرة وطول العمر وتقليل المعاناة والآلام الجسدية والتمتع بصحة جيدة فان الانثروبولوجيا اسهمت مساهمات أساسية حيث ساعدت دراساتها في تبصير الباحثين بمدى قابلية السلوك البشرى للتشكيل باستقرار الثقافات المتعددة والمختلفة .

وتتجلى أهمية الدراسات الانثروبولوجية في مجال التربية والتنشئة الاجتماعية من منظور ان جوانب الثقافة في مجتمع ما لا يمكن أن تستمر عبر الاجيال الابنقلها من الآباء الى الابناء أى من جيل الى الجيل التالى له . وما يرتبط بذلك من قضية نقل التراث الثقافى كله بجميع العناصر المكونة له كما هي أو انتقاء بعض العناصر التي يتم تعديلها ، والقواعد المنظمة والمحددة لعملية انتقاء تلك العناصر التي يتم تغييرها .

وللدراسات الانثربولوجية أهمية قصوى في ظروف الحرب وفي تشكيل نتائجها ، ولقد كان للدراسات التي أجرتها العالمة الانثربولوجية روث بنديكت Ruth Benedict عن الشخصية والثقافة اليابانية خلال زمن الحرب العالمية الثانية أثر كبير في الوصول الى نتائج مفيدة في نجاح سياسة الولايات المتحدة الامريكية في علاقتها مع اليابان عند نهاية الحرب العالمية الثانية .

التخصصات الفرعية للانثربولوجيا :

منذ البداية ينبغي أن نذكر أن الدراسات الانثربولوجية تستهدف بالدرجة الاولى دراسة الانسان ككل من منظور عام وبهذا فهي تتميز عن التخصصات العلمية الاخرى التي تتناول الانسان من منظورات متخصصة فرعية . دون أن ترقى الى المعالجة الكلية الشاملة للانسان . فعلى سبيل المثال اذا كانت الدراسات السياسية توجه اهتمامها لدراسة نظم الحكم والحكومات باعتبارها أحد مجالات النشاط الانساني والدراسات الاقتصادية تتابع نشاط الانسان في مجال تدبير معاشه وإنتاج وتوزيع وتبادل السلع والخدمات . ولا يوجد واحد من تلك التخصصات العلمية يأخذ على عاتقه بصورة منهجية دراسة جميع مظاهر الحياة الانسانية بأسلوب موحد فالانثربولوجيا أكثر النظم العلمية اكاديمية التي تتناول الجنس البشري بالدراسة شمولاً سواء في الامتداد الجغرافي أو التعاقب التاريخي .

ولقد أصبحت الانثربولوجيا بدرجة متزايدة تخصصاً علمياً مركباً وفوره وتعدد مجالات اهتمامها قد أدى الى انقسامها الى عدد من العلوم أو الميادين الفرعية ومن الناحية الواقعية فانها تشترك في موضوعات دراستها مع ميادين أخرى مستقلة للدراسة . ومع ذلك فإن هناك موضوعات أساسية معينة تمثل بؤرة اهتمام الانثربولوجيا وتميزها عن غيرها من العلوم الاخرى . وحين تتداخل

موضوعاتها مع موضوع دراسة تخصصات علم أخرى فإنها تعالج موضوعاتها وتعامل مع البيانات النوعية الخاصة بها بطريقة مختلفة الى حد ما وفي اطار المشكلات المثارة في الاطار العام للنظرية الانثروبولوجية .

غير أن هناك مجموعة من الموضوعات النوعية المترابطة التي يمكن أن نتناولها من منظور تاريخي على أنها تمثل بؤرة اهتمام الدراسات الانثروبولوجية ويتمثل ذلك في وصف وتفسير أوجه الشبه والاختلاف بين الجماعات العرقية الانسانية ولما كانت الجماعات العرقية تختلف في السمات الفيزيكية والاجتماعية والثقافية المميزة فإن الانثروبولوجيا بفروعها المختلفة تهتم بذلك (١) .

ولسكى يمكن الوصول الى مستوى مناسب من الدقة في المعرفة العلمية فانه ينبغي أن يتخصص الباحث الانثروبولوجي بالضرورة في واحد أو اثنين فقط من الحالات الفرعية للانثروبولوجيا ، ولقد أصبح من النادر وجود الباحث الانثروبولوجي العام وفي مقابل ذلك أصبح هناك الباحثون الانثروبولوجيون المتخصصون الذين يتعاونون في عدة مجالات ، مع ملاحظة أن الميادين أو الحالات ليست منعزلة عن بعضها البعض تماما .

وقد انقسم مجال الدراسة العريض لانثروبولوجيا القرن التاسع عشر الى أقسام فرعية والى سلسلة من العلوم المتخصصة التي تستخدم مناهجها وأدواتها الخاصة والتي أطلق عليها مسميات مختلفة وتختلف آراء الباحثين في تحديد التخصصات الفرعية أو أقسام الانثروبولوجيا، ولكن معظم العلماء المعاصرين

1) Joseph M. Greenberg : The Field of Anthropology, in The International Encyclopedia of the Social Sciences, The McGraw-Hill Co. N.Y. 1972. p. 305

يتفقون على أن الانثروبولوجيا حين تدرس الانسان فانها تتناوله من زاويتين تعتبران في نفس الوقت المجالين الاساسين لهذا الفرع من فروع المعرفة العلمية .

(أ) الزاوية الاولى أو المجال الاول من حيث كون الانسان جزءاً من الطبيعة أو الظواهر الطبيعية التي تسود الكون وهذه الناحية هي موضوع الانثروبولوجيا الفيزيائية أو الطبيعية Physical Anthropology وتختص بدراسة الملامح البيولوجية المميزة للانسان .

(ب) والزاوية الثانية تتناول الانسان من حيث كونه كائناً حياً ذا ادراك وثقافة ، وهذه الناحية هي موضوع الانثروبولوجيا الاجتماعية Social Anthropology أو الانثروبولوجيا الثقافية Cultural Anthropology وتختص بدراسة الملامح الثقافية المميزة للانسان .

وينبغي أن نشير الى التقاليد العلمية القومية والاصطلاحات التي تطلق على العلم وتقسيماته الفرعية . والفروق في تلك الاصطلاحات بين كل من امريكا الشمالية والقارة الاوروبية وعلى سبيل المثال يستخدم اصطلاح الانثروبولوجيا الاجتماعية في بريطانيا أما كبديل أو مرادف لاصطلاح الانثروبولوجيا الثقافية أو الاثنولوجيا .

كما يوجد حالياً اتجاه في فرنسا على سبيل المثال لاستخدام تلك المصطلحات الثلاثة لوصف مستويات البحث التي تكون نفسها بالتدريج في استخدامات الولايات المتحدة الامريكية مثل اصطلاح اثنوجرافي . أما في أوروبا الشرقية والوسطى فإن اصطلاح اثنوجرافي يستخدم غالباً بالمعنى الضيق للاثنولوجيا .

(1) The New Encyclopaedia Britannica, op. cit., p. 970.

ويشير العلامة راد كليف براون A. R. Radcliffe-Brown إلى وجود اختلافات منهجية بين المدرسة الأمريكية والمدرسة الانجليزية في تحديد مفهوم ومكانه الانثروبولوجيا الاجتماعية .

ففى جامعة شيكاغو تتكون دراسات الانثروبولوجيا الثقافية من :

١ — علم آثار ما قبل التاريخ

٢ — اللغويات

٣ — الانثروبولوجيا

٤ — الانثروبولوجيا الاجتماعية

ويضيف بعض الكتاب إلى تلك الكونات النظرية الثقافية على اعتبار انهم - ١ - تتداخل في الكونات السابقة . وقد استقل علم الآثار (الاركيولوجى) وكذلك علم اللغويات الذى انقسم بدوره إلى علم اللغويات الوصفى Descriptive linguistic وعلم أصول اللغويات Glottochronology وعلى ذلك يصبح الكونان الحاليان للانثروبولوجيا الثقافية هما الاثنولوجيا والانثروبولوجيا الاجتماعية من وجهة نظر المدرسة الأمريكية .

وإذا كان هناك تباين في وجهات النظر بين المدرسة الأمريكية والمدرسة الانجليزية حول وضع ومكان كل من الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية والعلاقة بينهما فإن هناك خلافا كبيرا حول رسم الحدود الفاصلة بين الانثروبولوجيا من جهة ومن ميادين أخرى للدراسة أو فروع للانثروبولوجيا حسب رؤية بعض المدارس . ويتبقى تعريف تلك الميادين ومجالات دراسات وعلاقتها بالدرجات الانثروبولوجية على الوجه التالى .

أولاً : الانثروبولوجيا الفيزيائية Physical Anthropology

الكائن البشرى قبل كل شىء كائن بيولوجى ثم بعد ذلك حيوان اجتماعى ،
ودراسة طبيعة الكائن البشرى عن طريق الانثروبولوجيا الفيزيائية تعتبر أساسية
لفهم طبيعة الكائنات البشرية والانثروبولوجيا الفيزيائية هى الدراسات التى تتناول
الانسان بوصفه كائناً حياً للطبيعة الانسانية واثـر هذه العوامل الحيوية فى مختلف
مظاهر سلوكه الفردى والجمعى وتتناول كذلك دراسة اعضاء جسم الانسان
وتطورها وتطور وظائفها واثـر هذا التطور فى اعمال الانسان وفى النشاط
الاجتماعى

ويقول نيقولا تسيا شيف أن الانثروبولوجيا الفيزيائية تهتم بتغاير البناء
الجسدى للكائنات الانسانية وتصف اختلافاتها وتغايراتها وتقسيم جماعات اسميه
احصائية من البشر الذين تبرز عندهم سمات وراثية متشابهة أو سمات خارجية
واضحة .

ويقول العلامة هوبل Hoebel أن الانثروبولوجيا الفيزيائية تستهدف
تنمية كيان دقيق من المعرفة المتعلقة بالميزات البيولوجية للجماعات الانسانية
سواء فى ذلك المعاصرون والغابرون .

ومن أهم فروع هذا العلم علم الانثروبومتري Anthropometry أو
السوماتولوجى Somatology وهو الذى يختص بدراسة مقاييس الاجسام

(١) نيقولا تسيا شيف : نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها ؛ ترجمة محمد
الجوهري وآخرون مراجعة عاطف غيث ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف يصـر
١٩٧٥ ص ٢٩٠ .

(2) Moebel & Frost : op. cit., pp. 7,8.

والخصائص الفيزيكية والطبيعة للسلاسل والعائلات البشرية على أساس اللون وطول القامة وشكل الرأس أو الجمجمة والدليل الانفي أو النسبة المشوية لعرض الانف بالنسبة إلى طوله وبرز الفك الاسفل وسعة الجمجمة ووزن الخ... الخ ..

وما يميز الانثروبولوجيا الفيزيكية ويجعل ميدان دراستها جزءاً متصلاً بميدان دراسة الانثروبولوجيا العامة هو اهتمامها بالتنوع البشرى والتكيف وبظاهرة الثقافة بالذات .

ويلعب موضوع التنوع البشرى دوراً بالغ الأهمية في فهم عملية التكيف الإنسانى ويمثل موضوعاً أساسياً في كل من الانثروبولوجيا الفيزيكية والانثروبولوجيا الثقافية على السواء .

ولقد تعرضت المجالات أو الموضوعات التى تهتم الانثروبولوجيا الفيزيكية بدراساتها بقدر كبير من التغير والتمحيض خلال السنوات الأخيرة أكثر من أى فرع من فروع الانثروبولوجيا . ففى السابق كانت تهتم بدراسة الهياكل العظيمة ،... ونركز اهتمامها على تاريخ السمات الفيزيكية للإنسان ودراسة العمليات التى من خلالها تطور الإنسان من أسلافه غير البشرين ، وعمليات التغير المستمرة التى ما زالت تعمل على تغيير شكله الفيزيقي بالتدريج ، وكيف أصبح الإنسان تدريجياً مختلفاً عن سائر الحيوانات وكيف اكتسب السمات الفيزيكية التى تميزه اليوم ، وكيف يتباين الناس فيما بينهم ومحاولة الوقوف على العوامل المسؤولة عن التنوع غير المحدود فى الأشكال البشرية مع اجراء مقارنات وثيقة مع بعض الأشكال الأولى للإنسان وبعضها من ناحية وبينها وبين الإنسان الحديث من ناحية أخرى ، وعن طريق هذه المقارنات يمكن تعقب سمه بنائيه معينه أو مجموعة باكملها من السمات منذ أقدم الجماعات البشرية التى ظهرت فيها حتى الجماعات

المعاصرة ، أى أنها تركز على البناء الفيزيقي للإنسان والتغيرات التى يتعرض لها ومدى تأثير ذلك بالتفاعلات التى تحدث بين الجماعات البشرية ، فالشعوب التى تعيش منعزلة عن بعضها البعض نسبياً تتميز بالبطء الشديد فى تطور شكلها الفيزيقي فى حين ان الجماعات التى تتصل مع شعوب متعددة متباينة فيزيقياً يمكن أن تطرأ عليها تغيرات جذرية فى البناء الفيزيقي فى خلال فترة زمنية قصيرة نسبياً .

أما عن الحالات الحديثة للانثروبولوجيا الفيزيكية فيمكن القول بأنه قد تطورت انثروبولوجيا فيزيكية جديدة منذ الحرب العالمية الثانية ويميزها الرئيسى هو انتقال التركيز من قياس وتصنيف الانماط البشرية الى التركيز بدراسة كبرى على تأثير الجينات على ثبات أو تغير الجماعات الانسانية ، والدراسات التجريبية والمحفلية المرتبطة بالدراسات الايكولوجية التى تتناول العلاقات بين بعض العوامل مثل المؤثرات المناخية والارتفاع وتوزيع الموارد وتوزيع السكان وكثافتهم وتأثير العوامل التنكيفية والانتخابية التى تتدخل فى تشكيل الوراثة العام للسكان.. وتتداخل هذه العوامل بدورها تداخلا معقدا مع الظواهر الثقافية والاجتماعية . فالإنسان لا يعيشون فى فراغ وإنما هم فى تفاعل مستمر مع البيئة التى يعيشون فيها ولذلك فإن أى دراسة للإنسان لا يمكن أن تستكمل مقوماتها اذا هى اغفلت العلاقة بين الإنسان والبيئة فى كل مكان وزمان وكيف أثرت البيئة وما زالت تؤثر فى البناء الفيزيقي للإنسان ويرتبط بهذا الموضوع موضوع التكيف مع الحياة فى الارتفاعات العالية ، وتمس بعض نواحي مشكلته انعدام الوزن فى الفضاء الخارجى ، وتتضمن بعض جوانب الدراسة فى ميدان الانثروبولوجيا الطبية التى تتناول دور العوامل البيئية والوراثة فى التأثير فى المرض وعلاجه .

ولقد أصبح الانثروبولوجيون الفيزيقيون منذ سنة ١٩٦٠ مرتبطين بدرجة متزايدة بجعل دراسات سلوك الأوليات وبصفة خاصة البابون Baboons والشمبانزى Chimpanzees والغوريلا Gorillas في محاولة وكتساب معرفة عن السلوك الاجتماعى لاشباه الانسان Protohuman كجانب من التطور .

ومن موضوعات الاهتمام المتصلة بهذا الميدان موضوع انماط النمو عند الصغار وآثار التغذية والعلاقة بين شكل الجسم وشكل الاداء الوظيفى البيولوجى والثقافى على السواء . وكذلك دراسة العمليات العقلية التى عن طريقها تحدث التغيرات البيولوجية فى الانسان (*) وفى البداية كانت الدراسة تتضمن نمو الانسان من الحمل إلى البلوغ وتأثير الظروف البيئية المختلفة على هذا النمو أما الاتجاه الحديث فى هذه الدراسة فيقوم على دراسة الوراثة البشرية

أى ميكانيزمات الوراثة وأساليب تعديل الصفات الوراثية واساليب تكيف الكائنات البشرية بيولوجيا مع الظروف الجديدة سواء على مستوى الفرد الواحد أو على مستوى النوع بأكمله .

وتنقسم البحوث العديدة المتنوعة فى الانثروبولوجيا الفيزيقية إلى ميدانين

(*) وقد ظهر مؤخرا نظرية جديدة لعالم بريطانى «روبرت شيلوديك» نشرها فى كتابه «علم جديد للحياة» وتقوم على القول بأن الكائنات الحية بما فيها الانسان تواصل التطور حتى الآن على المستوى العصبى أساسا وليس على المستوى الفسيولوجى وأن تطور الجهاز العصبى هو أساس التطور الفسيولوجى . وأن الجهاز العصبى فى مراكزه العليا أى المخ وفى بقية شبكة الاعصاب يتطور بسبب التعليم الذى يؤثر فى خلايا حاملات الخصائص الوراثية تأثيرا مباشرا ودائما (الاهرام ٨٣/٧/٢٢)

رئيسين هما :

(أ) دراسة الانسان كنتاج لعملية التطور .

(ب) دراسة وتحليل الجماعات البشرية .

ورغم أن المناهج المستخدمة في هذين الميدانين تتباين اشد التباين في أغلب الاحوال إلا أن النتائج ترتبط ببعضها البعض أوثق الارتباط وكثيرا ما تسهم المعلومات المحصلة من أحد فرعى الدراسة في إلغاء الضوء المشكلات القائمة في الفرع الآخر .

وكلا الاتجاهين يركز على موضوع مشترك هو التنوع البشرى وهذا الموضوع بدوره ذو أهمية جوهرية لفهم عملية التكيف الانسانى التى تمثل موضوعا أساسيا فى كل من الانثربولوجيا الفيزيائية والثقافية على السواء .

ويحظى موضوع التطور الانسانى باهتمام خاص فى الانثربولوجيا الفيزيائية ويشير هذا الموضوع تساؤلين عما حدث ؟ وكيف حدث ؟ وتتم الاجابة على التساؤل الاول بدرجة كبيرة من خلال نتائج الدراسات المقارنة للحفريات بما فى ذلك القروود والكائنات البشرية والدراسات المعروفة باسم Paleontology أى دراسة الكائنات الحية القديمة .

أما الاجابة على التساؤل الثانى فسنجد بدرجة كبيرة من دراسة التركيب الوراثى البشرى أو الوراثة الانسانية ودراسات التكيف البيولوجى للبيئة وكلاهما يدخل فى نطاق الانثربولوجيا الفيزيائية .

وقد يجد الباحث المختص فى الانثربولوجيا الفيزيائية نفسه مطالبا بالاجابة على بعض التساؤلات مثل الاجابة على الفائدة التطبيقية لهذا الفرع من فروع

المعرفة العملية ومن جهة أخرى فإن تلك التساؤلات تساعد على تحديد الموضوعات التي يتناولها هذا العلم بالدراسة ، وتدور تلك التساؤلات حول :

- ١ - النتائج المترتبة على تزاوج جماعات مختلفة عن بعضها البعض .
- ٢ - مدى صحة الاعتقاد بأن هناك بعض أنواع أو جماعات انسانية أو فى الناحية القطرية عن جماعات أو أنواع أخرى .
- ٣ - العلاقة بين المخطط الفيزيقي للانسان وبين مزاجه أو ذكائه أو اتجاهاته الخاصة أو سلوكه بوجه عام .
- ٤ - مدى تأثير العوامل البيئية والوراثة الفيزيكية على التعرض لأمراض معينة على العلاج ويرتبط ذلك فرع الانثربولوجيا الطبية .
- ٥ - إمكانيات الجسم البشري فى التكيف مع الحياة فى الارتفاعات العالية ويرتبط ذلك بالجوانب الحديثة المتعلقة بدراسة مشكلات انه - دام الوزن فى الفضاء الخارجى .

وتتناول الانثربولوجيا الفيزيكية بالدراسة موضوعات يتوافر على دراستها متخصصون فى فروع أخرى من المعرفة العلمية مثل الحفريات البشرية والتشريح والوراثة وبالتالي فإن التقدم الذى يحدث فى تلك التخصصات العلمية الأخرى ينعكس أثره على تقوم الدراسات الانثربولوجية الفيزيكية .

ولقد تعرضت أساليب البحث المستخدمة فى هذا النوع من فروع الانثربولوجيا بقدر كبير من التغير خلال السنوات الأخيرة ولقد كان الاعتماد فى الماضى على الملاحظات المورفولوجية والقياسية الموحدة عن الهياكل العظيمة وكذلك عن الشعوب المعاصرة وأقارب الأقربين من العالم الحيوانى . بالإضافة

إلى الاستعانة بمجموعه كبيرة من المقاييس التي يتم معالجتها ببعض التحليلات الإحصائية .

ولقد كانت دراسة اطوال قامات الافراد واحجام الجمجمة والابعاد الجسمية المختلفة تقوم على قياس وتضيف الشعوب طبقا لمعايير واضحة واستنادا الى المتوسطات التي كانت توضح مدى التنوع القومى ثم اجراء الدراسات المقارنة كما كانت المعلومات الاضافية اللازمة مقصورة على الدراسات التشريحية والفسولوجية المقارنة وعلى معرفة محددة بعلم الحفريات البشرية وعلى تصور مبسط لنظرية مندل في الوراثة . وقد طور الباحثون الانثربولوجون الفيزيقيون في هذا الشأن ادوات واساليب خاصة لاجراء القياس الدقيق للعديد من المعدلات عن حجم تكوين الجسم وانماط الاسنان وشكل الشعر ولونه ولون الجلد وضغط الدم وفصائل الدم ومجموعه العمليات الاساسية بالتغيرات الكيميائية في الخلايا الجسم وما إلى ذلك .

وقد استتبع التغير في مجالات الدراسة في هذا النوع من المعرفة تغير وتطور في مناهج الدراسة فالتجته إلى الاعتماد الكبير على البيولوجيا الجزئية وعلى بعض الاساليب الحديثة مثل الهجرة الكهربائية للدقائق المتعلقة Electro Proresis دراسة هيولوجوبين الدم بالاضافة إلى المعالجة الرياضية المعقدة لعلم الوراثة .

مع الاهتمام الشديد بالمناهج المقارنة في مجال دراسة تطور السلوك عند الرئيسيات (السعادين والقرود العليا) وهى المجموعة التي ينتمى اليها الانسان من الناحية البيولوجية وذلك لمحاولة القاء الضوء على اصول الحياه الاجتماعية عند الانسان والبيدايات الاولى لنشأة الثقافة التي تعتبر ابرز السمات المميزة للانسان

وان كانت الدراسات الحديثة قد أشارت إلى وجود نوع من السلوك الثقافي الشديد البساط عند الرئيسيات وعند بعض الحيوانات الأخرى .

ثانيا : الانثربولوجيا الثقافية :

يعرف ذلك الفرع من الانثربولوجيا الذى يماذج السمات المميزة للسلوك المتعلم للجماعات الانسانية فى الماضى والحاضر والمستقبل باسم الانثربولوجيا الثقافية وهى تنقسم بدورها إلى تقسيمات فرعية كثيرة أبرزها الاركيولوجى والاثنوجرافيا والاثنولوجيا والانثربولوجيا الاجتماعية واللاهويات وسوف نقدم عرضاً موجزاً للتعريف فرع من تلك الفروع فيما يلى :

الاركيولوجى : Archaeology

الاشتقاق اللفظى لاصطلاح اركيولوجى مستمد من كله Archaios بمعنى قديم و logia يعنى دراسة أى الدراسة التى تختص بـ —ألا فراغ فى السجل الانسانى طريق نزع القشرة الأرضية عن البقايا المدفونة للثقافات القديمة والهياكل العظمية للكائنات البشرية وما يرتبط بها من نبات وحيوانات ومظاهر الحياة المختلفة وهى تمدنا بكل ما نعرف عن الشعوب القبلية تاريخيه ، واهمية اركيولوجى ما قبل التاريخ للباحث الانثربولوجى تتمثل فى حقيقة ان معظم البيانات المعروفة عن النمو التطورى للانسانية والثقافة مستمد من أعمال الاركيولوجين عن فترة ما قبل التاريخ .

وقد اسهمت الدراسات الاركيولوجية فى تكوين اللبنا الاولى للانثربولوجيا وما زالت تلك الدراسات لازمة وضرورية فى تغطية ماضى الجماعات منذ كان من المهام الاولى للانثربولوجيا الكشف عن ماضى الجماعات موضوع الملاحظة .

وفى كثير من الأحوال حين يكون الموضوع متعلق بتفسير استخدام الأدوات أو مظاهر دينيه أولية مينة فان عام ما قبل التاريخ والانثروبولوجيا يكون لهما فائدة .

وقد بدأت الحضارة بعد استئناس النباتات والحيوانات وقيام المدن منذ حوالي تسعة الاف سنة تقريباً أما التاريخ فقد بدأ باختراع الكتابة بعد ابتداء فجر الحضارة . والحضارة التى تعنى ثقافة المدن هى نوع أو درجة من تعقد الحضارة فالثقافات المتحضرة أكثر تعقداً من الثقافات البدائية ولكنها ليست بالضرورة احسن أو انها اخلاقية أكثر. وتعنى الانثروبولوجيا باصطلاح بدائى تلك الشعوب والثقافات أو التجمعات التى لم تتوصل إلى الكتابة ولذلك يطلق عليها احياناً اسم أمية Preliterate أو غير متعلمه وكل الحضارات التى وجدت قبل اختراع الكتابة كانت غير متعلمه قبل التاريخ وانتشار التعليم وبهاجه من نمط حفرى للحياه تواضع ثابتاً وراسخاً ولكنه بالرغم من ذلك بطى . ومنذ خمسمائة سنة فقط فإن الغالبية من الثقافات الانسانية كانت بدون كتابة وعلى ذلك فإنها حتى لحظة اكتشافها بواسطة الرحالة والمكتشفين من الحضارات الشرقية والغربية قد ظلوا غير متعلمين ومتتاريخين .

ويعرف الاركيولوجيون الكلاسيكيون الذين يركزون على الكشف عن الآثار وإعادة بناء الحضارات الكلاسيكية مثل سومر Sumer ومصر Egypt واليونان Greece والهند India والصين China باسم علماء الكلاسيكيات Classicists أكثر منهم علماء فى الانثروبولوجيا ، ويرجع هذا الاصطلاح إلى حقيقة أن الدراسات الكلاسيكية كانت من الدراسات الاساسية فى الجامعات الأوروبية قبل ظهور علم الانثروبولوجيا بزمان طويل وكانت اهتماماتها معروفة وكانت

الاركيولوجيا الكلاسيكية بقا ح الحضارات المتعلمه وتعمل على مـالـ السجل التاريخى المبكر ، وهى أقل ارتباطاً بما قبل التاريخ من الاركيولوجى الانثروبولوجية . وعلى ذلك فإن الاهداف والوظائف لكل الاركيولوجى الكلاسيكية وما قبل التاريخ متماثلة وتمثل فى تقديم شواهد قويه وصلبة وملوسة عن الانسانية وما فيها .

وبالرغم من أن الاركيولوجين الحاليين لديهم اساليبهم الفنية لشق الأرض والتعمق فى ما يحويه باطنها الا أن مهمتهم الكبرى هى اعطاء معنى لما اكتشفوه وهم فى ذلك لا يختلفون عن الانثروبولوجيين الآخرين الذين يختصون بالتاريخ الثقافى وبالعمليات التطورية ومهمتهم : ربط الحقائق بالمبادئ العامة التى تفسر بكفاءه ما كان يجرى فى الازمان السابقة . ودارس ما قبل التاريخ يجب أن يفهم الثقافات والعمليات الثقافية لـكى يعطى معنى وحياة فى عظام الموقى والاحجار الصامته المنحدرة من الماضى البعيد.

وليس على الباحث الاركيولوجى الحديث فى مراحل ما قبل التاريخ أن يكون متمكناً فى الانثروبولوجيا العامة فقط ولكنه يجب ان يكون متمكناً بالمثل فى الجيولوجيا ودراسة الانسان القديم Palaeontology بالاضافة الى امتلاك المهارات اللازمة لاستخدام الاساليب الفنية الاركيولوجية . فالاركيولوجى نخصص دقيق لمقابلة تحديات العلم الحديث ولكن الاركيولوجى قبل كل شىء انثروبولوجيا . وهما هو جدير بالذكر أن الجامعات الامريكية تعطى تدريباً فى الاركيولوجى ولكن لا توجد واحدة منها تعطى درجات علمية فى هذا التخصص العلمى .

الاثنوجرافيا Ethnography

ويتكون هذا الاصطلاح من مقطعين ، الاول Ethnos بمعنى جنس أو شعب والثاني Grapho أو Graphein بمعنى يكتب أو يرسم ، فيكون المعنى اللفظي لهذا الاصطلاح عند ترجمته الى اللغة العربية (وصف الشعوب) ولكن اللفظ العربي ، اثنوجرافيا ، اكثر استخداما ، ويستخدم هذا الاصطلاح للإشارة الى الدراسة الوصفية للمجتمعات الانسانية وبصفة خاصة المجتمعات البدائية والمتخلفة .

ويعنى هذا العلم بجمع المعلومات وشرحها بطريقة وصفية اكثر من اهتمامه بتحليلها واستخلاص بعض الفروض والنظريات منها وقد استطاع هذا العلم أن يزود علم الاثنوبولوجيا بأبحاث نظرية .

والدراسات الاثنوجرافية المبكرة كانت مشتقة بالكامل من تقارير المكتشفين ورجال البعثات التبشيرية والتجار والجنود ، والرحالة العرب منذ عهد بعيد اسمايات ملموسة في هذا الفرع من المعرفة وفي الكشف عن معالم المجتمعات المختلفة ومن أشهرهم الرحالة ابن بطوطة والمسعودي والقوسى والادريسي والبيروني(*)

(*) ابن بطوطة قام بثلاث رحلات من ١٣٢٥-١٣٥٢م وقد شملت معظم بلدان العالم المعروفة في ذلك الوقت ودونها في كتابه تحفة الأنظار في عجائب الاسفار والمسعودي ٩٥٦م وله كتاب اسمه مروج الذهب ومعادن الجوهر والفرس ٩٨٥م وله كتاب اسمه حسن التقاسيم والادريسي ١١٥٣م وله كتاب نزهة الشقاق في اختراق الآفاق والبيروني وكتابه من اوائل الكتب الاثنوبولوجية العربية ويعطى صورة واضحة ومتكاملة عن الهند ونظمها الاجتماعية والعادات والتقاليد مع الفهم العميق لسلوك افراد المجتمع والقيم السائدة فيه .

وقد توسع الرحالة الاوروبيون في ذلك فيما بعد في العصور الوسطى وخاصة بعد الكشف عن العالم الجديد والحروب الصليبية وما قام به المحاربون والحجاج والمبشرون والتجار من رحلات وقد ظهرت كتابات عديدة عن تلك الاسفار والرحلات نذكر منهم الرحالة ماركو بولو Marco Polo ١٢٥٤-١٣٢٣ الذي سافر الى الصين واشتغل بالتجارة معها وقدم وصفاً لعادات تلك البلاد، ويلاحظ ان تلك الكتابات كانت تتسم بقدر كبير من السطحية وان كان البعض منها متسم بالدقة والامانة ، ومن أفضل الدراسات التي ظهرت في النصف الاول من القرن التاسع عشر كتاب كودرينجتون Codrington الميلانيزيون The Melaneesians سنة ١٨٩١ ، وكتاب ادوار لين Edwardw Lane المصريون الحديثون The Modern Egyptian ، وقد اعتمد علماء الانثروبولوجيا في القرن التاسع عشر على كتابات المبشرين والرحالة والتجار وحكام المستعمرات لتزويدهم بالمعلومات اللازمة والتي اقاموا عليها نظرياتهم ، ولقد قامت الجمعية البريطانية لتقديم العلوم

The Broitish Association for the Advancement [of Science ينشر كتاب سنة ١٨٧٤ تحت عنوان Notes and Oueries On Anthropology وكان الغرض منه مساعدة الرحالة والمبشرين على القيام بملاحظة المجتمعات البدائية بطريقة سليمة ، وجمع المعلومات التي تلزم للدراسات الانثروبولوجية التي يقوم بها العلماء في بريطانيا .

ولم يدخل الباحثون الذين تم اعدادهم من أمثال العالم الانثروبولوجي الامريكي Franz Boas ميدان دراسة المجتمعات الانسانية مباشرة إلا قرب نهاية القرن التاسع عشر فقط .

أما الآن فان أغلب العمل الانثوجرافي يقوم به انثروبولوجيون مدربون

بدقة على الأساليب الفنية للملاحظة بالمشاركة للوصول الى الملاحظة المتعمقة في الموضوع واجراء المقابلات واقامة علاقات ودية مع الناس الذين يبحثونهم والوصول الى تقارير دقيقة . ولا يتم اجازة الباحثين كاثربولوجين دون أن يحققوا تقدما ويكتسبوا خبرة ، العمل الاثنوجرافي الحقلي .

ولجميع الدراسات الاثنوجرافية اطار نظري متضمن في تنظيمها ولكن تلك الدراسات لاتعالج بصراحة المشكلات النظرية وهي تقوم أساسا على التقارير الوصفية ولا تهتم الا قليلا بالمقارنات والفروض النظرية . وتقوم الاثنوجرافيا احجار البناء للباحث الاثربولوجي .

ويرى العلامة كلكهون C. Kluckhohn ان الاثنوجرافيا هي الدراسة الوصفية للمجموعات الحضارية باستعمال الأساليب العلمية في جمع المعلومات عن المجتمعات والحضارات القائمة وتسجيلها وهذا النوع من الدراسات لا ينطوي على استنتاجات نظرية أو استنباط قواعد وتعميمات - بل هي تسبق التعميمات وتكون المادة الاولية لها .

والباحث الاثنوجرافي ماهو الا باحث اثربولوجي يحاول أن يسجل ويصف مظاهر السلوك ذات الدلالة الثقافية في مجتمع معين ، ويتطلب الاثنوجرافي قضاء فترة طويلة في الدراسة التعمقية كلما يتطلب الإقامة في جماعة صغيرة محده تماما ويتطلب المعرفة باللغة التي تتكلمها تلك الجماعة مع الاستخدام الواسع للطرق الفنية في الملاحظة بما تتضمنه من اتصالات تمتد مباشرة باعضاء الجماعة المحلية والمشاركة المباشرة في بعض نشاطاتها والاعتماد على العمل المركز مع الاخباريين العارفين بأحوال المجتمع والذين يعتبرون مصادر شخصية للمعلومات اكثر من

نشأتها والخصائص المميزة لها ونموها وتطورها وانقسامها والعوامل المؤدية لهذا الانقسام ، وتتضمن هذه الدراسة اقامة الفروض وبناء النظريات الخاصة بتصنيف الشعوب على اساس الخصائص السلافية والثقافية كما يعالج أيضا موضوع رد الانسانية الى جنس واحد أو اجناس متعددة وبالمثل موضوع وجود جنس أو سلاله متفوقه على باقي الاجناس واثار الفروق العنصرية على التنظيم الاجتماعى والاقتصادى والسياسى.

وعملية تصنيف السلالات البشرية هامة جدا سواء فى الاثنولوجيا او فى مباحث الانثروبولوجيا الاجتماعية وذلك لعقد مقارنات بين المجتمعات الغابره والوقوف على أوجه التباين والتشابه بينها ومحاولة اعادة تركيب تاريخ بعض الشعوب التى لا تتوفر فيها الوثائق والمستندات التاريخية والآثار التى يمكن تحليلها .

واذا كانت الاثنولوجيا تختص بتاريخ وماضى الشعوب البدائية وثقافتها فان الانثوجرافيا تختص بتحليل حاضر الثقافات الحالية والمعاصره ، أى أنها العلم الذى يصف ويسجل معطيات الثقافات البدائية الحالية دون الرجوع الى ماضيها وتببع تاريخها ، أى انه اذا كانت الاثنولوجيا دراسة رأسية فى الزمان فان الانثوجرافيا دراسة أفقية فى المكان .

ويشير بعض الكتاب الى أن معظم العلماء قد اتفقوا على اطلاق اصطلاح اثنوجرافيا على الدراسة التى تقتصر على وصف حضارة مجتمع ما ، واطلاق اصطلاح اثنولوجيا على الدراسات التى تجمع بين الوصف والمقارنة .

وأن هدف الباحث الاثنولوجى من المقارنة بين الثقافات الوصول الى قوانين عامة للعادات الانسانية ولظاهرة التغير الحضارى وآثار الاتصال بين

الحضارات المختلفة كما يهدف الى تصنيف الحضارات الى مجموعات أو أشكال على أساس مقاييس معينة .

ويشير Hoebel & Frost الى أن الانثولوجيا تختلف عن الانثوجرافية في أن الانثولوجيا علم الشعوب وثقافتها وتواريخ حياتها كجماعات أى أنها العلم الذى يبحث فى العلاقات المتبادلة بين الشعوب وبشائنها وبين بنى الانسان ككائنات وثقافتهم وبين الثقافات المختلفة وبين الجوانب المختلفة للثقافات (١)

ويميز J. Beattie بين الانثولوجيا والانثروبولوجيا فيشير الى تطور هذين العليين ويقول أن الانثولوجيا كانت فى السابق تستخدم كاصطلاح عام يشير فى الغالب الى كل الدراسات الانثروبولوجية . بما فى ذلك الانثروبولوجيا الفيزيائية ودراسات ما قبل التاريخ ، وما زال هذا الاصطلاح يستخدم فى بعض الاحيان فى أمريكا وأوروبا طبقا لهذا المفهوم القديم. ولكن علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية فى بريطانيا وجدوا أن من المفيد تحديد هذا الاصطلاح ليقصر على دراسة الشعوب الأمية (غير المتعلمة) Pre-Literate وثقافتهم ويسعى لتفسير حاضرم فى اطار ماضيهم البعيد . وبهذا المعنى فان الانثولوجيا تصبح هى العلم الذى يعالج تصنيف الشعوب فى اطار مميزاتهم السالية والثقافية ويحاول تفسير ذلك بالاشارة الى تاريخهم أو ما قبل التاريخ .

ولسكى نوضح ذلك فإن البحث فى أصل نوع معين من القوارب Canoe يعتبر دراسة انثولوجية ، بينما البحث عن الاستخدام المعاصر لها وعن مزاها الرمزي والعملى عند الشعوب التى تستخدمها يدخل فى مجال الانثروبولوجيا الاجتماعية .

(1) Hoebel & Frost : op. cit., p. 11

وتعتبر الاثنولوجيا فى الحقيقة الوريث المباشر لاثربولوجيا العهد الفيكتورى Victorian فى بريطانيا وهى مثلها - نوع من التاريخ وأن كان يختلف عن التاريخ فى أن الباحث الاثنولوجى ينقصه فى العادة السجلات المكتوبة التى يقيم عليها نظرياته ، كما ان الاثنولوجيين يهتمون فى الغالب بعناصر منفصلة من الثقافة سواء فى الاشياء المادية التى يصفها أو يستخدمها الناس (الثقافة المادية) أو بموضوعات معينة مثل الاساطير والفلكلور ، وهم أقل اهتماما بالنظم الاجتماعية والقيم ولعل ذلك يرجع الى أنه يصعب فى العادة تتبع تاريخهم .

وقد يكون الاثربولوجيون الاجتماعيون فى بعض الاحيان اثنولوجيون ايضا حين تكون المعلومات الخاصة باصول عناصر الثقافة التى يهتمون بها متاحة وحين تلقى تلك المعلومات الضوء على المغزى أو الاستخدام المعاصر لها .

ولكن بصفة عامة فان الاثربولوجيا الاجتماعية والاثنولوجيا يعتبران علمان متمايزان الآن ، ومع التطور الذى حدث فى نصف القرن الماضى أو ما يقرب من ذلك فى الاثربولوجيا الاجتماعية كعلم متميز فان كل من موضوع ونوع الاسئلة التى يعالجها كل من العلمين يختلف بدرجة كبيرة ويحدث الخلط فقط حين نعتبرهما شيئاً واحداً .

وقد اهتمت المجتمعات الاوروبية بمباحث الاثنولوجيا أما بسبب طبيعة تكوين تلك المجتمعات مثل الولايات المتحدة الامريكية وأما بسبب سياستها الاستعمارية مثل بريطانيا .

فالولايات المتحدة الامريكية تتكون من سلالات عنصرية كثيرة وفدت اليها من كل قارات العالم وانصهرت تلك العناصر البشرية معا ولذلك يشبه

المجتمع الأمريكي لكل الدراسات والتجارب المتصلة بالاثنولوجيا ، وقد أنشأت الولايات المتحدة الأمريكية « الفريق الاثنولوجى الأمريكى » الذى يضم نخبة من علماء الرعيل فى الاثنولوجيا والانثروبولوجيا والاجتماع لتعميق وتاصيل الدراسة فى هذا الميدان .

والمسألة الرئيسية فى الاثنولوجيا الأمريكية هى دراسة كيف وصل الهنود الحمر امريكا وكيف تطوروا من حيث العنصر واللغة والثقافة بعد دخول العناصر الأوروبية وقيام الاتصال والاحتكاك الثقافى بين مختلف العناصر الهندية والأوروبية فى القارة الأمريكية .

أما فى إنجلترا فقد أولت الدراسات الاثنولوجية اهتماما خاصا وأنشأت لها عدة أقسام فى جامعاتها وأفادت منها فى سياستها التطبيقية والعلمية .

أما فى فرنسا فقد أنشأت معهدا للدراسات الاثنولوجية ملحق بجامعة باريس (Institute D. Ethnologie De L'Universite De Paris.) وكان من أبرز مديريه العلامة الفرنسى ليفى برونل Levy Bruhl

ويختلف مفهوم اصطلاح « الاثنولوجيا » بدرجة كبيرة فى بعض المجتمعات الأوروبية التى نشأ وانتشر استخدامه فيها ويرجع هذا الاختلاف الى تداخل موضوعه مع موضوعات تخصصات علمية أخرى تأخذ مسميات أخرى .

فاصطلاح الاثنولوجيا يستخدمه علماء الانثروبولوجيا الأمريكان ليرادف اصطلاح الانثروبولوجيا الاجتماعية فى بريطانيا ويرى رالف بدنجتون Ralph Piddington أن اصطلاح الانثروبولوجيا الاجتماعية المستخدم فى بريطانيا أكثر دقة من اصطلاح الاثنولوجيا الأمريكى ، وهذا الاصطلاح يعنى فى الولايات المتحدة العلم الذى يهتم بالتحليل التاريخى لانتشار الثقافة وذلك

بقصد إعادة التركيب التاريخي بتشديد أو بناء ماضى الثقافة .

وتنقسم الانثولوجيا إلى عدد من الأقسام الفرعية حسب التخصص ، وعلى ذلك فهناك متخصصين ودراسات متخصصة فى القرابة والحياة الأسرية البدائية والأنشطة الاقتصادية والقانون والحكومة والعقيدة والثقافة المادية والتكنولوجيا واللغة وفنون الرسم والنحت والموسيقى والرقص والفلكلور والأساطير وفى الغالب فى أى جانب رئيسى من مظاهر الثقافة الانسانية قد يفكر فيه الانسان

وحيث ان كل ثقافة ماهى الامتصل متغير خلال الزمن فان الانثولوجيا تختص بدرجة كبيرة بالخلفية التاريخية للثقافات ويطلق على هذا الجانب من الانثولوجيا احيانا اسم التاريخ الثقافى Cultural History أما حين يكون الاهتمام موجها الى المبادئ العامة لتطور الثقافى فانه يطلق عليها اسم Cultural Evolutionism .

ويعتمد الباحث الانثولوجى فى دراسة على علوم أخرى كعلوم اللغويات والانثروبولوجيا الاجتماعية ويستطيع عن طريق دراسة أعلام التشريح والانثروبولوجيا الفيزيائية ان يتعرف على الشكل المعقد للجمجمة ان كانت لحيوان ام لانسان لذكر ام لاثنى .

ويمكن اعتبار علم آثار ما قبل التاريخ Poehistoric Archaeology نوعاً هاماً من الدراسات الانثولوجية يتعلق بدراسة Palaeo Ethnology منصب على دراسة الشعوب التى ظهرت فى الماضى ثم انقرضت تلك الشعوب التى عاشت فيما قبل التاريخ ويمكن دراستها عن طريق مخلفاتها Survivals وبقاياها Remains من عظام وأدوات فى الكهوف .

ومكتشفات علمى الانثروبولوجيا الفيزيائية ودراسات ما قبل التاريخ التى قد

لائتناسب الاثربولوجيا الاجتماعية قد تصبح بالغة الاهمية للباحثين الاثنولوجيين الذين يهتمون باعادة بناء الماضي أكثر من اهتمامهم بتفسير الحاضر .

الاثربولوجيا الاجتماعية Social Anthropology

استخدم اصطلاح الاثربولوجيا الاجتماعية في بريطانيا في أول الامر في أواخر القرن التاسع عشر ليشير الى العلم الذي يهدف الى تطبيق الطريقة الاستقرائية المستخدمة في العلوم الطبيعية على دراسة المجتمع الانساني ونظمه الاجتماعية ولتمييز موضوع هذا العلم بالتالى عن الاثنولوجيا التى تهدف الى دراسة تاريخ الشعوب البدائية وثقافتها .

ويشير هوبل الى ان الباحثين الاثنولوجيين الذين يركزون على العلاقات الاجتماعية مثل نظم الاسرة والقرابة وجماعات العمد والمنظمات السياسية وانشطة الاقتصاد والقانون وباختصار كل ما يتضمن اصطلاح البناء الاجتماعى يفضلون ان يطلق عليهم اسم الاثربولوجيين الاجتماعيين .

أما الاثربولوجيون الانجليز الذين قبلوا وجهة نظر العلامة رادكلف براون A.R. Radcliff-Brown وينكرون فائدة الدراسات التاريخية في الاثربولوجيا ويرغبون فى فصل الاثربولوجيا الثقافية عن التاريخ فقد اقاموا تقسيم فرعى مستقل للاثربولوجيا الثقافية تحت مسمى الاثربولوجيا الاجتماعية التى يطلق عليها احيانا اسم علم الاجتماع المقارن ، ومن وجهة نظر هؤلاء الباحثين فان دراسات الاثربولوجيا الاجتماعية ليست دراسات تاريخية بينما الدراسات الاثنولوجية دراسات تاريخية .

اللغويات Linguistics

اللغويات هي علم اللغة ، وينظر كثير من اللغويين الى علمهم على أنه علم كامل مستقل يعتمد على نفسه ومن جهة أخرى فإنه يمكن النظر الى اللغات على انها تمثل جانب من جوانب الثقافة تتفاعل بدرجة وثيقة مع كل المظاهر والجوانب الأخرى للثقافة وعلى ذلك فإننا نصل الى ادراك وفهم أفضل للغة في السياق الثقافي . وبالتالي بين العلوم الاجتماعية . والدراسة العلمية للغات تعمق من الاقتناع بانها فرع من الانثروبولوجيا الثقافية .

ولقد كانت الدراسات التقليدية للغات القديمة مثل اللاتينية والسانسكريتيتين واللغات الهندية والأوروبية الحديثة جزء من أنشطة الجامعة لعدة قرون في مجالات خارج الانثروبولوجيا .

وما أن بدأ الانثروبولوجيون في اقامة دراساتهم على الدراسة الحقلية الموضوعية حتى وجدوا أنفسهم مضطرين الى أن يتعلموا كثير من اللغات البدائية دون وجود أى كتب فى القواعد اللغوية لارشادهم . وقد ظهر نظام عالمى عام لكتابة الصوتيات بحيث يمكن الاحتفاظ بتسجيلات عما يقوله الاخباريون من الاهالى بلغتهم الخاصة عن الاشياء التى لا يوجد عنها نظام للكتابة . وقد أدى هذا الى التحقق من أن بعض الثقافات تنظم الكلام بالاتفاق مع قواعد لغوية مختلفة تماما عن تلك التى تحكم اللغات المألوفة القديمة الأوروبية والهندية .

وبعض الانثروبولوجيين الذين اعجبوا باكتشافهم الجديد بدؤوا فى تركيز جهودهم على تسجيل وتحليل اللغات البدائية والقواعد اللغوية .

والعلاقة بين اللغويات والانثروبولوجيا عديدة وعلى المستوى العلمى فإن من المهام الأولى للباحث الانثروبولوجى ان يقوم بدراسات لغوية لمعرفة لغة الاهالى

في المجتمعات التي يدرسها وجمع الصيغ والاشكال المختلفة للتعبيرات اللفظية الشفوية بما في ذلك الاساطير والحرافات والفلكلور والقصص والآداب الشعبية والامثال الشعبية وما الى ذلك ويرتبط بذلك دراسة المجتمع كنسق من الاتصالات وقد حققت دراسة اللغويات كنوع متخصص من الانثربولوجيا تطوراً بطريقة احدثت ثورة في كل دراسات اللغة .

التخصصات الفرعية الاخرى للانثربولوجيا الثقافية :

يمكن اعتبار كل مجال رئيسي من مجالات النشاط الانساني بمثابة مجال فرعي خاص من الدراسات الانثربولوجية فتكثيف الكائنات البشرية لبيئتهم الكلية يدخل في اختصاص الايكولوجيا السلافية Ethroecology ، فالثقافة المادية هي مجال التخصص في التكنولوجيا البدائية والفن البدائي والموسيقى السلافية Ethnomusicology والرقص والسلام. ومنذ عهد العلامة تايلور ١٨٣٢-١٩١٧ فان الدين البدائي كان من الموضوعات التي تتركز حولها اهتمامات الباحثين الانثربولوجيين . بينما ركز المتخصصون في التنظيم الاجتماعي على موضوعات الاسره والقرابة . والانثربولوجيا السياسية أو دراسة النظم السياسية البدائية والاستعمارية قد أصبحت من مجالات التخصص وكذلك الانثربولوجيا القانونية والاقتصاديات البدائية ويعالج علماء الفلكلور التقاليد الشفوية ، والانثربولوجيون الرمزيون يحاولون الوصول الى الفن الاجتماعي والوظائف الثقافية التي يعبر عنها بطريق غير مباشر في الاساطير والشعائر والفنون .

كما يوجد أيضا الانثربولوجيا الطبية التي تحاول ان تفسر نظم الممارسة الطبية بالنسبة لرجال الطب الغربيين وتوجد فئة قليلة من Ethnobotanist الذين تخصصوا في مواد الحضررات والأعشاب البدائية وبالرغم من أن بعض

الباحثين الانثروبولوجيين قد درسوا الجماعات العرقية في المواقع الحضرية منذ أوائل القرن الحالى فان الظروف التى مرت بها المدن فى الولايات المتحدة الأمريكية فى سنة ١٩٦٧ قد أنتجت سلالة جديدة من المتخصصين يطلق عليهم اسم الانثروبولوجيين الحضريين الذين يجاهدوا للتوصل الى السمات الفريدة للانثروبولوجيا لدراسة الثقافات الفرعية فى المدن المعاصرة . وبالإضافة الى ذلك يوجد الانثروبولوجيون التطبيقيون الذين يعملون كمستشارين للحكومات والصناعات وهيئات العلاقات الانسانية فى محاولة للاستفادة من الانثروبولوجيا الآن .

مجال التخصص الاقليمي :

يميل كل الانثروبولوجيين الى التخصص فى مناطق جغرافية محددة . ويمكن على سبيل المثال للباحث أن يكون باحث انثروبولوجى ثقافى أو اركيولوجى لأمريكا الشمالية أو أمريكا الجنوبية أو فى قارة أفريقيا أو جزر المحيط الباسفيكى أو آسيا الشرقية أو الجنوبية أو منطقة البحر المتوسط أو المنطقة العربية حسب مقتضيات الحال . ومن المفروض ان الانثروبولوجيين لديهم م رقة بكل الشعوب فى كل انحاء العالم ولكن المتخصصين فى مناطق اقليمية معينة يركزون دراساتهم المحلية على منطقة واحدة أو منطقتين يختارونها ويستتبع ذلك أن يلمون بكل التراث الانثروبولوجى المنشور عن تلك المنطقة وبدرجة عالية من التعمق .

علاقة الانثروبولوجيا بالعلوم الاجتماعية الأخرى :

تحتفظ الانثروبولوجيا بملاقات مع عدد كبير من العلوم الأخرى وهناك روابط ومبادلات مشمرة مع نظم علمية متمايزة تماما عن الانثروبولوجيا بالإضافة الى مجموعة العلوم التى تتناول الانسان بالوصف ومحاولة تفهيمه على

أسس بيولوجية أو ثقافية نظراً للطبيعة الشمولية لهذا الفرع من المعرفة بحيث تتناول كافة جوانب ونشاط الإنسان في الماضي والحاضر والمستقبل ويقول العلامة أدموند ليش Edmund Leach (١) بأن الانثروبولوجيا كعلم دراسة الإنسان تمثل صيغة عامة من البحث لا تكفى جميع الكتب في العالم لتغطيته ولكن إذا كانت الانثروبولوجيا تميل إلى شمول المعرفة وتوجد لها فإن هذا لا يعنى أن الانثروبولوجيا تتبع النظم العلمية الأخرى .

وقد جرت عادة بعض الجامعات وبصفة خاصة الجامعات الأمريكية على اعتبار الانثروبولوجيا علماً اجتماعياً رغم أن من الواضح أن الانثروبولوجيا أكثر من ذلك بدرجة كبيرة . ومع ذلك فإن تحديد هويتها بين العلوم الاجتماعية يقوم على أن معظم العمل الانثروبولوجي يتمركز حول الثقافة ومن خلال الثقافة على المنظمات الاجتماعية ، وهذا يدعونا إلى التساؤل عن علاقة الانثروبولوجيا بالعلوم الشقيقة لها أو التساؤل عن الروابط التي تربط الانثروبولوجيا بعلوم مثل التاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس مثلاً ، وسوف نعالج الإجابة على هذا التساؤل بصورة تفصيلية فيما يلي :

الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع :

تناول علاقة علم الاجتماع بعلم الانثروبولوجيا العلاقة بين الشقيقين التوأمين بالنسبة لعلاقتها بالعلوم الاجتماعية الأخرى . ولذلك تجدهما متلازمين في نفس الأقسام العلمية في أغلب الجامعات وبصفة خاصة في الجامعات الأمريكية وبأى تشابهها من اهتمامها بالسلوك الاجتماعى والتنظيم الاجتماعى .

(1) Edmund Leach : Social Anthropology, Oxford Univ Press, 1982, p. 13

وفي تلك الحالات فإن المداخل النظرية الأساسية تكوى مشتركة إلى حد كبير ، وفي الحقيقة فإنه في كثير من الواقع لا يمكن التمييز بينهما . ولكن الاهتمامات النوعية للسيسولوجين والانثروبولوجين وطرفهم في القيام بعملهم قد تكون مختلفة بدرجة كبيرة .

ويميل الباحثون في نوعية الروابط بين هذين الفرعين من فروع المعرفة العلمية إلى معالجة هذا الموضوع من منظورين ويشتمل المنظور الأول في التفرقة بينهما طبقا لمجالات أو موضوع دراسة كل منهما باعتبار أن موضوع الانثروبولوجيا الاجتماعية هو دراسة وتحليل البناء الاجتماعي للمجتمعات الإنسانية وموضوع علم الاجتماع هو دراسة المجتمع والسلوك الاجتماعي غير أن هذين الموضوعين متداخلان لأن العنصر الأساسي للبناء الاجتماعي هو السلوك الاجتماعي الذي تصل إليه عن طريق ملاحظة العلاقات الاجتماعية الواقعية .

ولكن ينبغي العودة إلى نشأة هذين العلمين للتعرف على جذور التمايز وتطوره . فنجد بداية ظهور الانثروبولوجيا الاجتماعية كان مجاهدا يقتصر على دراسة المجتمعات البدائية والتقليدية بينما اتجه علم الاجتماع منذ نشأته إلى دراسة المجتمعات الحديثة بهدف التعرف على القوانين التي تنظم الحياة الاجتماعية والاستفادة من ذلك في رسم سياسة لإصلاح المجتمع والتغلب على المشكلات الاجتماعية التي تؤدي إلى عدم الاستقرار الاجتماعي .

غير أن هذا التمايز الذي كان مفترضا في البداية سرعان ما تغير وبدأت مجالات لقاء وتداخل كبير مبين . العلمية فلقد بدأت الانثروبولوجيا تندخل بصورة متزايدة في المجالات الحضرية والصناعية التي كانت تقليديا من مجالات علم الاجتماع . كما أن علماء الانثروبولوجيا كثيرا ما استفادوا من دراسات علم الاجتماع في تحديد أطوارهم

النظري عند دراسات المجتمعات البدائية. ويقول د. أحمد أبو زيد أن ما يعرف الآن باسم الأنثروبولوجيا الاجتماعية . والتي يسميها البعض علم الاجتماع المقارن هي في الحقيقة امتداد لعلم الاجتماع الفرنسي . وإن من الصعب فهم المشكلات النظرية التي تظهر في كتابات الأنثروبولوجية الحديثة بدون الرجوع إلى مدرسة اميل دوركايم وإلى بعض علماء الاجتماع الصوري في ألمانيا وبصفة خاصة زيمل ويقول إن دوركايم نفسه يمكن أن نسلكه بسهولة ضمن زمرة علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية بالمعنى الذي نفهمه الآن من هذا العلم وهذا يعني أن المشكلات التي تعالجها الأنثروبولوجيا الاجتماعية هي نفس المشكلات التي يعالجها علم الاجتماع الفرنسي وعلم الاجتماع الصوري وإن كانت المعالجة تختلف ففي حين اتجه علماء الاجتماع منذ بداية هذا العلم وبخاصة في فرنسا وألمانيا إلى مناقشة الظواهر الاجتماعية بطريقة نظرية تصطبغ بصفة فلسفية كثيرا ما كانت تبعدها عن واقع الحياة الاجتماعية نفسها إلا في الأحوال القليلة التي كانوا يستشهدون فيها ببعض أحداث الحياة لتأييد نظرياتهم وتأملاتهم . فإن الدراسات الأنثروبولوجية كانت تفصل مواجهة الوقائع البيئية المحسوسة بل إن الدراسات الحقلية كانت شرطا جوهريا للدراسات الأنثروبولوجية.

ويركز المنظور الثاني للتمييز بين الدراسات السيسولوجية والدراسات الأنثروبولوجية على طرق البحث والمناهج المستخدمة في كل منها . فما لاشك فيه أن جميع العلوم الاجتماعية المعاصرة تشترك وتتفق في تطبيق المنهج العلمي ولكن مع وجود هذا الاتفاق حول المفهوم العام للمنهج العلمي فإننا نجد تمايزا بين المفاهيم الفرعية . فإذا كان علماء الاجتماع يميلون إلى التحليلات النظرية والفلسفية فإن جيل الرواد من علماء الأنثروبولوجيا الذين أعقبوا الجيل الذي كان يعتمد على كتابات

وتقارير الرحالة والبشرى عن الشعوب البدائية . اتجهوا إلى دراسة القبائل والمجتمعات البدائية دراسة عقلية بالاعتماد المحل الأول على الملاحظة المباشرة بالمشاركة فى المجتمعات الصغيرة مع المعاشة المكثفة يوما بعد يوم وفى مواجهة شخصية فى الممارسات الثقافية وتأكيدهم على الناس فى الثقافة ، أما علماء الاجتماع فيعملون فى العادة مع عينات أكثر من البشر وفى جوانب أكثر تحديدا من المجتمع ولذلك فإن تأكيدهم الكبير يوجه إلى البيانات والإجراءات الإحصائية والاعتماد على تقارير التعدادات وصحائف الاستبيان بصفة أساسية .

وفضلا عن ذلك فإن علم الاجتماع الأمريكى يكرس قدراً كبيراً من الاهتمام لموضوعات الانحرافات الاجتماعية والخدمات الاجتماعية مثل انحراف الأحداث والجريمة والفقر والمرضى العقلى والأسر المفككة والطلاق بهدف الوصول إلى حلول لهذه المشكلات بينما تعتمد النظرة الأنثروبولوجية لدراسة المجتمع على النظرة التكاملية الكلية الشاملة للمجتمع واعتبار أى ثقافة من الثقافات بمثابة نسق متكامل وإن على الباحث الأنثروبولوجى أن يسعى لتحقيق هذه النظرة فى دراسة بحيث يدرس النظم الاجتماعية المختلفة على انهاء أجزاء من هذا النسق .

وما زالت هذه النظرة التى تسعى لإظهار الناحية التكاملية فى المجتمع تمثل الخاصية الأساسية المشتركة بين كل الدراسات الأنثروبولوجية الحالية أيا كان المجتمع الذى تدرسه وذلك بهدف فهم المجتمع الإنسانى فى عمومه .

ويرى بعض الكتاب (١) أن هناك فوارق أساسية بين الأنثروبولوجية وعلم

(١) أحمد أبو زيد : الطريقة الأنثروبولوجية فى دراسة المجتمع ، المجلد العاشر من مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، ١٩٥٦ ص ٨٥ - ٩٩ .

الاجتماع كما يفهم في انجلترا وأمريكا وأنه يمكن تلخيص هذه الفوارق فيما يلي : —

١ — يهتم علم الاجتماع بدراسة مشكلات قائمة بذاتها مثل مشكلة الطلاق أو البطالة أما الأنثروبولوجيا فتهتم في المقام الأول بالبناء الإجتماعى كله كوحدة متماسكة .

٢ — تعتمد الدراسة الاجتماعية في الأغلب على الوثائق والتقارير والإحصائيات بعكس الدراسة الأنثروبولوجية التى تفضل الاعتماد على ملاحظة الباحث مباشرة وتنفر من الإحصائيات .

٣ — النزعة العلمية والإلتجاء نحو الإصلاح تبدو واضحة في الدراسة الإجتماعية بعكس الدراسات الأنثروبولوجية . التى تتوخى التحليل العلمى النظرى .

وبالرغم من ذلك فإن هناك اعتمادا متبادلا إلى حد كبير بين هذين العلمين ، فعلماء الأنثروبولوجيا يزودون علم الاجتماع بالوقائع والمعلومات التى يستخدمها هؤلاء فى صياغة نظرياتهم التى يخبرها الأنثروبولوجيون . بدورهم حين يقومون بدراساتهم الحقلية .

الأنثروبولوجيا وعلم النفس :

يختص كل من الأنثروبولوجيا وعلم النفس بدراسة السلوك الإنسانى ولذلك فإن هناك قدرا كبيرا مشتركا بينهما بينما تهتم الأنثروبولوجية بالدرجة الأولى بتنظيم الجماعة الإنسانية لسلوك أعضائها وبالتنميط الثقافى للسلوك فإن علم النفس يختص بدراسة أكبر سلوك الكائنات كأفراد وكيفية استجابتها لمثيرات نوعية وعلماء النفس موجهين أكثر لاستخدام التجارب العملية والاختيارات والمقاييس وللتعبير الإحصائى عن مكتشفاتهم لإظهار مدى التقدم فى الدقة العلمية فى ميدانهم

وتميل المواقف السلوكية التي يدرسها السيكولوجيون التجريبيون لأن تكون مبسطة بمعنى أنها تجارب مضبوطة صممت لاستبعاد أى متغيرات دخيلة . وتقوم الأنثربولوجيا بربط المكتشفات البسيطة والمتنوعة لعلم النفس لمواقف الحياة المعقدة الحقيقية التي يواجهونها في المجتمعات القائمة .

ويهتم الأنثربولوجيون بدراسة أشباه الإنسان في الغالب لشروع خاص بينما يتجه علماء النفس التجريبي إلى التخلي عن الكائن الإنساني وما يلابسه من تعقيدات إلى داسات أكثر سهولة على الفرد والفران والحمام .

وبينما يتجه السيكولوجيون الاجتماعيون المعاصرون بدرجة كبيرة نحو التجارب العملية فإن السيكولوجين الاكلينكيين والمحللين النفسيين يلتزمون بحكم طبيعة مهمتهم إلى معالجة أشخاص كاملين في سياق موقعهم الاجتماعي العلمى والبحث المتعمق للتحليل النفسى عن المليات النفسية المستقرة قد ولد عدد من المفهومات التي أثبتت فائدتها العظمى للأنثربولوجين فى تفسير النظم الثقافية وعلاقاتها بالنماط الشخصية الفيلية .

وميدان الثقافة والشخصية من أكثر الحالات فاعلية وانتاجية فى الأنثربولوجيا من الثلاثينات إلى الستينات ولنظرية التعلم كما تطورت فى علم النفس أهمية عظمى فى الأنثربولوجية ، فالثقافة يتم اكتسابها فقط من خلال التعلم ، وعلم النفس يسبر غور العمليات التي تتعلم بها كافة الحيوانات وكيف تتعلم أن تتعلم ، الأنثربولوجيا بدورها تعلمنا ما الذي يتعلم فى مختلف المجتمعات وكيف يتم تعليمه ، وما هى المكافآت والعقوبات التي يقدمها كل مجتمع للتعلم الصحيح والاختناق فى

التعلم ، والثقافة كما يراها Niller & Dollare (١) هي حالة من تصميم الحيوة البشرية عن نمط المكافأة المرتبطة بها وتحديد ماهية الاستجابات التي تكافأ عنها وبهذا المعنى فإنها هي وصفه للتعلم . ونظراً لأن الثقافات تتباين بدرجة كبيرة فإن شروط التعلم البشري والسلوك البشري تتمايز بدرجة كبيرة . وتقدم الأنثروبولوجيا لعلم النفس قاعدة حقيقية عريضة لاختيار نظرياته وفروضه ، وقد أشار إلى هذا العالم السيكولوجي Donald Compbell في قوله (من الواضح أن الباحث السيكولوجي العملي ما زال يفترض أن زميله الذي ما زال طالباً يتزود بقاعدة ملائمة من علم النفس العام للإنسان ، وبالنسبة لعلم النفس الاجتماعي فإن هذه الاتجاهات قد تم كبحها أساسياً بدرجة كبيرة من خلال مقابلتها بالتراث الأنثروبولوجي .

وقد قدمت الأنثروبولوجيا لعلم النفس أسساً جديدة لتنعكس عليها مفاهيم الشخصية وتكوين الشخصية واتاحت لعلم النفس أن يطور نسق أو نظام من علم النفس المرضى والدراسات النفسية الثقافية المقارنة. أو ما يسمى Ethnopsychiatry أو علم النفسى السلالى .

ومن جهة أخرى فإن العلوم السيكولوجية وبصفة خاصة التحليل النفسى قد قدمت للأنثروبولوجيا فروضا جديدة لتفسير مفهوم الثقافة (٢) .

الأنثروبولوجيا والتاريخ :

الأنثروبولوجيا تدرس الإنسان في كل أنحاء العالم أى في كل مكان ولا يتقيد هذا

1) E. Adomson Hoebel Anthropology; The study of man, 3rd ed., McGraw Hill Book Co. N.y, 1966. p. 15.

(2 The New Eneyclopeadia Britannica, op. cit., p. 987

العلم بتغيرات الزمان أو بحواجز المكان ولكنه يتقيد ويلتزم ببحث موضوع واحد لا يخرج عنه وهو الإنسان .

وقد حظى موضوع العلاقة بين الأنثروبولوجيا باعتبارها من العلوم الحديثة وبين علم التاريخ وهو من العلوم العريقة التي وصلت إلى مرحلة النضج باهتمام عدد كبير من علماء الأنثروبولوجيا منذ نشأة هذا العلم وحتى الآن . وعلاقة الأنثروبولوجيا بالتاريخ حيوية لأن الأنثروبولوجيا كانت ولفترة طويلة تقوم على وجهة نظر تطورية وقد جاهدت الأنثروبولوجيا لإعادة بناء التاريخ الثقافي للمجتمعات التي بسبب نقص المستندات أو الوثائق المدونة أو عدم وجودها لا يمكن تحديد تسجيل تاريخي لها .

وفي بداية القرن الحالى أعلن الأنثروبولوجى البريطانى ماريت R.R. Marrett

$\frac{1866}{1943}$ إن الأنثروبولوجيا إما أن تكون تاريخاً أو لا تكون شيئاً ، وهو لم يكن

يقصد أنها تاريخ بالمعنى الرسمى وإنما كان يؤكد على أن الزمن يعتبر بعد أساسيا فى كل التجارب الإنسانية فنهر الحياة تيار متدفق . ويعتقد معظم الأنثروبولوجين فى هذه الحقيقة ولكنهم يختلفون حول مقدار أو قيم فائدة الأنثروبولوجيا فى التاريخ والبحث التاريخي . وبالطبع فإن الاركيولوجين يقرون بقيمة الكون التاريخي، ومن جهة أخرى فإن هناك كثيراً الأنثروبولوجين الاجتماعيين الذين يرون الاكتفاء بالتركيز فى بحوثهم على فهم المجتمعات التي تعيش حالياً أى الأنثروبولوجيا المعاصرة الآن واليوم وذلك من منطلق أن البيانات التاريخية وما قبل التاريخ لا يمكن أبدا الحصول عليه بدرجة من الثقة أو بتفصيلات كافية لتقريب مطالب العلم بكفاءة .

والنظرة المتوازنة للعلاقة بين الانثروبولوجيا والتاريخ سوف تتوصل إلى أن المقارنة بين المجتمعات التي تجري عليها الملاحظة المباشرة سوف تضع دراسة الجنس البشري على قاعدة علمية أمتن في إطار تغيرات ونتائج مؤنوق بها ويجدر بنا أن نتفق على أن من المهم من المنظور العلمي أن ندرس عمليات نمو وتغير الثقافات باعتبار أن الثقافة والمجتمع ليست أشياء موقوتة . بل أنها قد انحدرت من الماضي وسوف يستمران في المستقبل . وإن ما عليه المجتمع والثقافة الآن إنما هو نتاج لما كان عليه من قبل بعد أن جدد عليه ظروف ومؤثرات ، وإن ما سوف يكون عليه في المستقبل إنما هو نتاج لما هو عليه الآن بعد أن يدخل عليه ظروف ومؤثرات . وعلى ذلك فإنه لا يمكن فهم الحاضر والمستقبل فهما صحيحا كاملا بدون معرفة الماضي يعوزه سليم .

وبالطبع فإن هناك الكثير من الدراسات التاريخية ومن المؤرخين ولكن المؤرخين يصبحون علماء اجتماعيين حين يقومون باشتقاق قوانين عامة للتغير الاجتماعي أو يفسرون أحداث معينة نوعية عن طريق ملاحظة جوانب الاضطراب والتكرار المنتظم والتي تلاحظ عبر الزمن . أو قد يصبحوا فلاسفة تاريخ إذا ما جاهدوا لشرح أو تفسير ما قد حدث في أزمنة معينة من التاريخ أما إذا كان اهتمامهم مقصوراً على متابعة أو معرفة حقيقة معينة . فإنهم يكونون ببساطة مؤرخين وليسوا علماء اجتماعيين أو فلاسفة . ويكون تأكيدهم في هذه الحالة على تفرد الموقف أو كما يقولون إن التاريخ لا يعيد نفسه على الإطلاق وأن ذكر ما يحدث في الزمان والمكان بطريقة دقيقة ومحددة هو الذي يمثل ثورة الاهتمام لديهم كمؤرخين .

ويحدد العلامة الأنثروبولوجي البريطاني نادل S. f. Nadel موقف الأنثروبولوجيا

الاجتماعية من التاريخ في عبارة مفصلة بقوله : عن علاقة الانثروبولوجيا بالتاريخ فاقى أعتقد أن العالم الانثروبولوجي الاجتماعي ليس مؤرخاً ولكن من هو ذلك العالم الانثروبولوجي الذي لا يعد مؤرخاً ؟ ان جميع المؤرخين يدرسون الوقائع والاتصال في الماضي ولكن الانثروبولوجيين يدرسون ويصفون المجتمع القبلي كما هو موجود هنا والآن وعلى ذلك يقع الاختلاف في التطور الذي يعالج من خلال الباحثون بياناتهم ، فالمؤرخون يعالجون الأحداث من منظور الماضي، بينما يعالج الانثروبولوجيون الحقائق من منظور الحاضر مع التأكيد على الصلات الثابتة هنا والآن .

وعلى ذلك فان موقف الباحث الانثروبولوجي يختلف اختلافاً كبيراً عن موقف الباحث التاريخي عند دراستهما لظاهرة من الظواهر ، فبينما يوجه الباحث الانثروبولوجي اهتمامه إلى الأحداث والأفعال الجارية أو المعاصرة خلال زمن معين بالذات أى أنه يعد بمثابة مؤرخ للحاضر فان الباحث التاريخي يركز اهتمامه على الأحداث السابقة والظواهر الماضية ولا يدخل في اعتباره الحاضر .

وتختلف أساليب الانثروبولوجيون في تنظيم معارفهم عن أساليب المؤرخين ومناهجهم في البحث تختلف أيضاً بدرجة أساسية . فبالنسبة للمؤرخ فانه المكتبة هي الميدان أو حقل العمل ووحدة العمل لديهم هي المستند أو الوثيقة ويسرهم أن يتوصلوا إلى اكتشاف حافظة من الرسائل أو التقارير المفقودة منذ أمد طويل أما بالنسبة للانثروبولوجي فان ميدان العمل هو جماعة قبيلة منعزلة أو سكان أحد الأحياء أو المراكز الحضرية . أو موقع اركيولوجي للبحث ووحدة العمل عندهم هو الفرد أو الجماعة ويسرهم أن يتوصلوا لاكتشاف نمط جديد من العلاقات الاجتماعية أو مجموعة من المنتجات اليدوية أو عظام إنسان حضري .

علاقة الانثروبولوجيا بعلوم اجتماعية أخرى مثل القانون وعلم السياسة والاقتصاد والصحة العامة :

ينبغي أن يكون من الواضح حاليا أن الانثروبولوجيا في كثير من جوانبها تشارك بفعالية في المركب الدينامي للعلوم الاجتماعية ، وتوجد علاقات متبادلة ومثمرة مع علوم أخرى متمايزة تماما عن الانثروبولوجيا . فالقانون مثلا هو أحد جوانب ثقافة أى مجتمع وهو هام بدرجة متزايدة لأنه يعمل على تشكيل الثقافات حيث يعمل على تشجيع أنواع معينة من السلوك وعلى عدم مساندة أنواع أخرى . وتهتم الانثروبولوجيا بدراسة العلاقات الاجتماعية أى أنماط السلوك الاجتماعى .

ويقول العلامة بوهنان Bohannen أن دراسة القانون هو أحد التخصصات الفرعية للانثروبولوجيا . التى درست على أفضل درجة وأنه ، إذا كانت الكتابات فيه قليلة إلا أنها ذات مستوى عال .

كما أن الانثروبولوجيا قد عملت على دعم مفهومات الحكومة والدولة ومناقشتها مع ظاهرة السلطة وعلاقات البيئة والقيادة وهى موضوعات أساسية فى علم السياسة .

وبعد الحرب العالمية الثانية وظهور عدد من البلدان التى حصلت على استقلالها وتعمل على تنمية فنها ، والتى كانت من قبل من المستعمرات ، فى آسيا وأفريقيا فلقد اتجهت الدراسات العلمية للاقتصاد والسياسة للاهتمام فى الولايات المتحدة الأمريكية بتملك الثقافات فى الاجزاء النائية من العالم كما أن حكومات تلك البلدان ذاتها قد بدأت تولى الجوانب الاقتصادية أقصى أهمية بالإضافة إلى الجوانب السياسية . كما أن التوسع فى برامج الصحة كان فى مختلف مناطق العالم له تأثير مائل فى خلق تعاون وثيق بين الانثروبولوجيا وممارسة النشاط الطبى .

وذلك روابط وثيقة بين الانثروبولوجيا الثقافية والجغرافيا البشرية فكلاهما يعطى أهمية كبرى للإنسان سواء لدى استخدامه للمكان أو عمله في تحويل البيئة الطبيعية . ولذا فإنه مما له مغزى أن الانثروبولوجيين الأوائل كانوا في الأصل من الجغرافيين (٠) .

(٠) من أوائل كتب الانثروبولوجيا التي ظهرت في مصر كتاب (الانثروبولوجيا) للدكتور إبراهيم زرقانه وهو من علماء الجغرافيا .

الجزء الثالث *

— الملاحظات الدورية

— التغيير الاجتماعي

— الدين والمجتمع

* ترجمة الدكتور حيدر ابراهيم أستاذ مساعد بقسم الاجتماع كلية الآداب
جامعة الامارات العربية المتحدة

العلاقات العرقية

من المواضيع الهامة بالنسبة لكل الشعوب المفكرة هو طبيعة العلاقات بين السكان المنحدرين من «أجناس» Races مختلفة — أى يتميزون أو يفترض أنهم يتميزون — بخصائص فيزيقية مختلفة . فهم يتسائلون : هل حقيقة ان هذه الفوارق الفيزيقيه لها مدلالات فارقيه فيما يتعلق بالخصائص الفكرية والاخلاقية؟ وما هو السبب الخفى الذى يجعل هناك صموبه فى أن تعيش هذه الاجناس فى ود مع بعضها البعض . لو كان على الاثروبولوجيين الاجتماعيين أن يبحثوا هذا الموضوع فهذا يرجع إلى سبب بسيط هو أن غالبية الشعوب التى عملوا بينها ذات سكان سود أو سمر البشرة . وتثار مثل هذه الاسئلة من قبل الذين يتوقون إلى علاقات أكثر وداً وتقارباً بين الشعوب المختلفة الالوان بصورة أحسن مما هو موجود الآن فى غالبية الاقطار . يهتم مثل هؤلاء فى بريطانيا بالمعاملة السيئة وغير المتساوية التى يجد مهاجرو أفكار الكومونويلث أنفسهم مواجهين بها ، والعنف الذى يتدلع أحياناً بينهم وبين جيرانهم . ويهتمون فى الولايات المتحدة بالسياسات التى تهدف لتكامل السكان الزوج والبيض والمقاومة التى تواجهها هذه السياسات .

هناك بعض أسئلة عملية لا تطرح من أجل المعرفة البحتة . وهذا لن يكون سبباً فى ألا يجيب عليها الاثروبولوجيون ولكن فى الحقيقة فإن مدى نوعيية الاسئلة الواسع يجعلها تنتمى إلى علوم مختلفة وهناك عدد قليل منها يتطلب معرفته الخاصة . هل صحيح أن الإنسانية مقسمة إلى أجناس ؟ هل حقيقة أن بعض هذه

الاجناس متفوق بطبيعته ؟ هل حقيقة أنه يوجد شعور طبيعي بالنفور بين الشعوب مختلفة الاجناس ؟ ان لم يكن كذلك فلماذا يصادفنا كثيراً مثل هذا الشعور ؟

تنتمى فكرة العلاقة بين الوراثة الطبيعية والخصائص العقلية أو الاخلاقية تماماً إلى ميدان الانثروبولوجيا الطبيعية . ولكن عندما نتوجه مباشرة إلى أوضاع الصراع العرقى الذى يبرز المشاكل الحالية فليس هناك ما هو غريب عن المواجهة التى تحدث بين شعوب مختلفة الخصائص الفيزيائية . فهى كلها مواقف « تبرز » تقسيم الجماعة إلى نحن والآخر وردود فعل الآخر فى المقابل . بعض مشاكل الصراع العرقى هى تحدث بمجرى المهاجر إلى بيئة جديدة ، وبعضها يتعلق بالحراك الاجتماعى فى مجتمعات مترتبة ومقسمة اجتماعياً . وفى هذه الحالة تندرج ضمن مجال السوسولوجى الاوسع ، أما السؤال حول لماذا يعبر عن الخصومات الاجتماعية فى شكل كراهية جماعة تتميز بخصائص فيزيائية معينة . فهو مهمة عالم النفس الاجتماعى .

علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية غير مطالبين الآن - كما أوضحنا فى بداية الكتاب - بالتمكن من الانثروبولوجيا الفيزيائية ، ولكن هناك عدد منهم قد يهتم بذلك الجانب منها المرتبط بالجدل حول الخصائص العرقية . وهذا الفصل سيعطى لمحة مختصرة عن الموضوع ولكن لن يحاول متابعة الجوانب الاجتماعية فى المواقف التى تشتمل على علاقات عرقية .

الفكرة الشائعة حول العرق أو الجنس رغم أنها مهمة ولكن كحقيقة اجتماعية فهى ذات صلة ضعيفة بالمعرفة القائمة على البحث . والنقطة التى ستوجب أن يتوقف عندها المدارس هى أن التصنيف الشائع يقوم تماماً على خصائص تظهر عند ما

يكون الانسان مرتديا ملابسه أى مظاهر مثل لون الجلد وشكل الوجه والرأس . فلماذا اعتبرت هذه المظاهر فقط هى الأكثر أهمية من بين خصائص أخرى كثيرة تشير اهتمام علماء الاحياء . وما الشاهد فى أنه حين يكون لاجناس صفات عقلية وأخلاقية مختلفة فإن عمليات العقل والفكر ترتبط بطريقة ما بلون الجلد مثلا ؟ وهل هذا مقبول حتى حين توضح كيف تعمل الصلة — ذلك لا يساهم فى أى معلومة جديدة . للحقيقة فإن الانثروبولوجيين الفيزيقيين حين بحثوا وقاسوا سمات الشعوب المختلفة اهتموا بمعلومات لا يمكن الوصول اليها بواسطة الملاحظة العابرة مثل توزيع مواد معينة فى الدم ، ومعدل التنفس أو ضغط الدم .

علينا أن نلاحظ أنه حين توصل الانثروبولوجيون الفيزيقيون إلى مقاييسهم لم يكن الهدف تصنيف الشعوب إلى مجموعات متباينة تماما . فالاقوام قصار كما نعلم جميعا ، وقد سمع أغلبنا برعاة جبال رونزورى Ruwensori طوال القامة (ارستقراطية ، التسوسى ، Tusi الذين طردتهم ثورة فلاحية قبل سنوات) . النمط الشائع يرينا أحد الاقوام بالمقارنة مع التسوسى طوال القامة ، وتظهر المقاييس أن متوسط طول الاقوام أقل كثيراً من التسوسى ومع ذلك يمكن أن نجد قزما طويلا أطول من تسوسى قصير . بمعنى آخر فالمتوسط لآى صفة أو خصيصة يختلف بين الشعوب ولكن الحدى يتداخل — كما أوضح المثال السابق .

لأن الانثروبولوجيين الاجتماعيين مهتمون بدراسة السلوك يبقى الموضوع المهم لنا هو الوضوح حول الصلة — ان وجدت — بين الخصائص الفيزيكية والعقلية . فى التصنيفات الشائعة ينسب عادة لشعوب أخرى عربية عن الشعب المصنف — كل أنواع العيوب الأخلاقية (كما يفعلون ذلك أيضا لشعوب لها

أنفسه وثقافة مختلفة حتى وإن لم يعتبروهم منتسبين إلى أجناس مختلفة (لا يظهر الفحص الدقيق هذه الصلة المتبادلة . بعض الدراسات عن الجريمة بين مجموعات المهاجرين في أمريكا فشلت في إيجاد فوارق هامة بينهم أو بينهم وبين الأمريكيين الموجودين منذ تاريخ أقدم ، كما أنه ثبت أن الجريمة تتناقص بين المهاجرين خلال الأجيال كلها تمت تنشئتهم حسب معايير المجتمع الأمريكي أظهرت دراسة حول شيكاغو أن المدينة يمكن أن تقسم إلى مناطق حسب بعدها من المركز وتقل الجريمة كلما بعدنا عن هذا المركز . بقيت هذه الحقيقة ثابتة لسنوات طويلة بينما سكان هذه المناطق يتغيرون باستمرار . والواقع أن المهاجرين الجدد هم الذين يشغلون وظائف دنيا وعليهم أن يعيشوا في أحياء فقيرة تعتبر بؤراً للجريمة . تحسن وضع أبنائهم وخرجوا تدريجياً من هذه الدائرة . ولكن لو كانت الجريمة في دهمهم ، لتحركت نسبة الجريمة معهم (١) .

ذكرنا سابقاً أنه غير دقيق أن نتحدث عن قرابة الدم ، كما لو أن الوراثة السيسولوجية للفرد يمكن أن يحملها الدم . فالوراثة تأتي من جينات - الوالدين - الحيوان المنوي للأب والبويضة للأم . وهنا تتحدد الخصائص الوراثية كلها فهو لا يستطيع أن يكتسب نوع عيون لم تمنحه له الجينات المناسبة مثلاً . ولكن المرء لا يستطيع أن يناقش فقط حسب الجينات والإنسان الذي نراه ، لأن الجينات تعدل بعضها كما أن البيئة تبدأ في التأثير على نمو الفرد حتى وهو في الرحم ، فور ولادته تبدأ التأثيرات الثقافية في العمل عليه .

ليس من الممكن تحديد شبه الطفل المتوقع بأنى من الوالدين ، وذلك للأسباب السابقة بالإضافة إلى أن الطفل يرث نصف الجينات من كل واحد منهما وهي مسألة

(١) O. Klineberg, Race Differences, 1935, pp. 235-6

تخضع للصدفة — أى الصفات تأخذ من كل واحد . من العبث تصور وجود تشكيلة جينات لانجاب انسان له مواصفات معينة . لأن التكوين الوراثى لكل من إنسان هو فريد ومتميز ، وهذه حجة ضد نسب صفات معينة أو تفسيرها — حسب الاصول العرقية .

يتفق علماء الجينات حول عدم وجود جينات للصفات الأخلاقية وما يظهره الفرد هو نتيجة لقيم المجتمع الذى يتربى فيه ومدى نجاح المجتمع فى غرسها أى التأثيرات الاجتماعية التى يمر بها الإنسان خلال حياته . لكن الذكاء — هو نتيجة وظيفة المخ والجهاز العصبى — موروث واتفق على وجود صلة متبادلة بين ذكاء الوالدين . ما هو غريزى فى الذكاء (كحالة خام فى معنى الكلمة) — هو احتمال أن يكون سريع التعلم فى مهارة تثير اهتمام الطفل أكثر (هى مسألة صدفة) وليس أن يكون رياضيا أو أدبيا أو موهيقيا فى توجهه حسب المهارة . وحين نضع فى الاعتبار شعوب كبيرة يعتقد أنها أجناس نجد داخلها مجال اختلاف واسع للذكاء مثل اختلاف الاحجام ، لذلك ليس هناك فائدة من ترتيب هذه الشعوب حسب ذكائها . بالإضافة لذلك فإنه بينما لا توجد صعوبة فى قياس القاعة لانجد اختباراً لقياس الذكاء ليس منحازاً ومتأثراً بالثقافة التى صمم ضمنها وقد تعطى اختبارات الذكاء مؤشرات بأن الطفل قد يكون صالحاً فى نظام تعليمى معين ولكننا لا تبين كثيراً أن طفلاً من البيرو الصين يمكن أن يتكيف بصورة أحسن فى بيئة عربية أم لا .

الشعوب ذات الزواج الداخلى الصارم قد يقال عنها أنها — حاجبة دواعى الجينات ، به عدد من الجينات المحدودة التى يكسب أفرادها خصائصهم الفيزيائية منها — ولنعط مثالا مبسطا — هو أنه يستحيل على فرد منهم أن يكون ذا عيون

زرقاء . لكن في واقع الأمر مثل هذا النظام للزواج الداخلي الصارم لا يوجد إلا بين شعوب منعزلة فيزيقيا ، ولم يوجد كثيراً منهم خلال التاريخ . ومنذ رحلات الاكتشافات الكبرى صار من المستحيل - في السنوات الأربعمئة الأخيرة - أن نجد عدم تداخل واندماج للجينات بحيث نجزم بوجود شعب له خصائص وراثية مثالية صافية - ما عدا احتمال بعض سكان الجزر الصغيرة . لا يمكن اعتبار الزواج الداخلي الصارم دليلاً على النقاء العرقى ، لأنه حتى الجماعات التي تحرم الزواج من بين الجماعات الأخرى التي تعتبرها مختلفة لاستطيع السيطرة على العلاقات الجنسية المحرمة . وكل الذي يمكن فعله هو عدم الاعتراف بالمواليد الذين جاءوا نتيجة تلك العلاقات ولا تعتبرهم أعضاء في الجماعة .

من الواضح أن هذا الموضوع ليس ميداناً تمكن الأثروبولوجيون فيسه من تطوير نظرية شاملة لها صلة بمجالات أخرى في دراساتهم . ويمكن مواصلة القراءة في اتجاهات عديدة مختلفة ولكن ليس موضوعاً يمكن معالجته منفصلاً في سياق علم بعينه .

قراءات مقترحة

O. Klineberg, Race Differences (5)

يناقش توزيع الخصائص الفيزيائية بين الشعوب التي تعتبر أجناساً ، والصلة المتبادلة أو انعدامها بين هذه الخصائص وبين الذكاء وبين الخصال الأخلاقية

هناك مقالة قصيرة قيمة :

P. E. Vernon 'Race and Intelligence' in P. Mason (ed)
Race and Darwin, 1960

وينطلى كتاب : J. S. Huxley and A. C. Haddon we Europeans (1935)

زاوية مقارنة حيث يناقش المدلول الاجتماعى للوراثة البيولوجية وتوصل إلى استحالة تحديد الجنس النوردي

كتب D. G. Mac Rae, 'Race and Sociology'

فى كتابه (1961) Ideology and Society وناقش نظرية مبكرة عن الأجناس كانت من محاولات اليونسكو الرائدة نشر المعلومات حول المعركة الحالية فيما يخص الأهمية الاجتماعية للخصائص البيولوجية . وقد نجم هذا النشاط نتيجة فظائع هتلر بالاضافة للاصرار المتزايد للشعوب السوداء على المساواة فى المعاملة . وأصدرت عدداً من الكتيبات ذات القيمة المتفاوتة . أكثرها فائدة

G. M. Morant, The Significance of Racial Differences.

L. C. Dunn, Race and Biology (1952)

وهى تقارير مختصرة لحقائق حول الموضوع كما يراها الأنثروبولوجيون الفيزيقيون .

توجد كتب فى إنجلترا عن المهاجرين من جزر الهند الغربية وباكستان . ومن أحسن الكتب حول علاقات البيض والسود فى الولايات المتحدة كتاب :

G. Myrdal, An American Dilemma (1944) J. Dollard, Caste and Class in Southern town (1937) O. C. Cox, 'Caste, class and Race (1948)

التغير الاجتماعى

يقع موضوع التغير الاجتماعى ضمن فئسة تختلف عن الموضوعات التى نوقشت حتى الآن . اهتم الكتاب فى غالبية الاحيان بوصف أنواع المؤسسات والنظم التى يتوقع وجودها فى المجتمعات البسيطة تقنياً ، وقد توصلوا إلى افتراض أن هذه النظم ظلت دون تحول لفترة طويلة كما لاحظنا ووصفها الانثروبولوجيون من قبل . هذا افتراض معقول طالما يرى هؤلاء الناس الذين يعيشون فى مجتمعات صغيرة نظمهم الخاصة ، كما كانت دوماً ، حسب صنع جدهم الاسطورى الاول . بالتأكيد ليست النظم كما كانت دوماً ، نفسها لان النظم الإنسانية جاءت إلى الوجود تدريجياً ولكن الافتراض يسمح بالقول أنها تغيرت ببطء شديد لفترات طويلة من الزمن . عندما يرجع أنثروبولوجيون القرن العشرين إلى كتابات وسجلات المكتشفين من القرن التاسع عشر أو القرون السابقة - قد تكون هذه السجلات دقيقة لدرجة تجعلها مفيدة - فهم يرجعون إلى نظم لاتزال موجودة أو مازالوا يذكرونها . ويمكن القول باختصار أن سبب ذلك كونها تغيرت قليلاً لأن المجتمعات البسيطة تقنياً مازالت صغيرة الحجم .

يعتقد علماء الإنسان فى القرن التاسع عشر - كما ذكر سابقاً - أن هذه المجتمعات قد تعرضت لتغيرات درامية فى الماضى والتاريخ غير المكتوب ، وكردة فعل تجاه الميل نحو تفسير النظم القائمة على أنها بقايا دون معنى لاحوال سابقة لا نملك دليلاً على وجودها - لهذا يصير مالىنوفسكى أن ينظر للثقافة على

أنها قضية أو هم مستمر ، going concern ، لكل الاستعمالات فيه معنى هنا والآن . هذه الوصفة مشفرة عمليا ، لذلك عندما وجد علماء الإنسان الفرصة حاولوا غرسها في الناس الذين يذهبون للمجتمعات الصغيرة بقصد تطوير الاشكال المختلفة للتخزين الاجتماعي (١) .

تطورت نظرية مالمينوفسكى الوظيفية من مصطلح مجازى استعمله مبنسر ودرر كايم مقارنا مكان النظم في حياة المجتمع بالاعضاء في حياة الجسم . وقد بدأت من منطلق ان كل الدارسين للمجتمع سيقبلون بأنه لوجود أى انتظام اجتماعى لابد من نظم معينة تنظم وتضبط العلاقات الإنسانية ورغم أنها تأخذ أشكالا مختلفة ولكنها تحقق نفس الوظائف في كل مكان . أكد كذلك التداخل الترابطى اللصيق بين النظم المختلفة وعبء ذلك على السياسات الاستعمارية التي تهدف إلى استئصال الممارسات و غير الحضارية . يجب التنوية بان مالمينوفسكى حين كتب عن التغير الاجتماعى ، كان يفكر دائما في التغيرات التي أحدثتها الضغوط الخارجى للحكم الاستعمارى ، حقيقة لم يكن مهتماً بالتخمينات غير المسنودة عن الماضى ، ولكن في نفس الوقت لم يهتم أيضا بما يمكن أن نخبرنا به الواقعة التاريخية . وحدد بصورة صحيحة ان التغير المقصود الذى أدخل على جانب ماقد يكون له تأثير أو صدى على جوانب أخرى لم يكن يتوقعها مخططو السياسة رغم أن — حسب مالمينوفسكى — وجود دراسة كافية للمجتمع المعنى يفترض فيها أن تعلمهم ماذا يجب أن يتوقعوا . المثال النموذجى للتأثيرات أو الارتدادات غير المتوقعة هو منع حملات الحرب في غينيا الجديدة ، هذا قلل من أهمية بناء

(١) راجع الفصل التالى عن الانثروبولوجيا التطبيقية .

القوارب البحرية وبالتالي لم تعد هناك ضرورة لإنتاج طعام لتزويد العاملين في بناء هذه القوارب والنتيجة توقف الناس عن انتاج طعام فائض .

مازلنا نحث العاملين في الرعاية الاجتماعية وتنمية المجتمع أن يضعوا في الاعتبار المصالح الثابتة التي يمكن أن تفسر بها مشاريعهم ، والتعديلات - خارج الجانب الفنى للشروعات نفسها - التي يتوجب تبينها واختيارها . عند ما نفعل هذا نكون قد استعملنا مبدأ مالاينوفسكى في تساند النظم بطريقة متبادلة التأثير ، رغم أننا لن نذهب بعيدا مثلما يميل اليه - لدرجة القول بأن أى محاولة لتحسين أحوال المجتمعات الصغيرة فهي عرضة لاحداث الضرر أكثر من الفائدة . هذا الاتجاه هو نتيجة اشترازه الخاص من آلة الحضارة أكثر منه تداعى أو تسلسل منطقي لنظريته عن المجتمع .

حقيقة - كما يقول مالاينوفسكى أحيانا - انه ليس فقط للعادات أهمية وتأثير على الذين يمارسونها ولكن وظيفتها لا (غنى عنها) في المجتمع الذى وجدت فيه ويتوصل فى الواقع إلى أن كل تغير اجتماعى هو نحو الاسوأ ، ويبدو أنه تبعاً لذلك - رغم ان مالاينوفسكى لم يفصح عن ذلك بالتحديد - يستحيل على نظام ان يتغير حسب افعال افراده الذى ينتسب لنسقهم الاجتماعى (أى النظام جزء من النسق الاجتماعى الذى يوجد فيه هؤلاء الافراد) .

ربما هذا هو السبب الذى جعل عدد من الكتاب يفترضون ان الوظيفة لا تفسر التغير ، ولو كان هذا صحيحاً - للمبالغة فى نظرية مالاينوفسكى - فهي ليست كذلك بالنسبة للوظيفية الرصينة ولا هى حتى من آرائه فى المراحل المبكرة . يمكن القول ان بعض التجهيز أو ادخال نظم ضرورى لأى مجتمع وفى نفس الوقت يمكن ملاحظة ان بعض النظم لها مساوىء فى مواقف معينة . يفكر المرء أحيانا

بأنه من المهم أن يفهم لماذا يثنى الناس عاداتهم الخاصة، وفي نفس الوقت يلاحظ بأنهم قد يكونون أحسن قدرة في تحقيق أهدافهم التي يرغبون فيها لو عدلوا أو حتى تركوا بعض هذه العادات . قد يقر المرء مع دور كايم وراد كليف براون بأن المجتمع يحافظ على النظام الاجتماعي من خلال ردود الفعل المتناوثة من اكثرية المجتمع تجاه الافعال التي تخرج عن القوانين والقواعد ، وفي نفس الوقت عندما يتكرر هذا الخروج وتعدي القوانين ويصبح عاما ، تصبح ردود الفعل المتناوثة ضعيفة . على دارسي المجتمع أن يتعرفوا على العناصر المحافظة التي يركز عليها النظام الاجتماعي ولكن هذا لا يعني ان يكونوا دوما مع الجانب المحافظ (وعلى كل حال عليهم ان يقرروا بان الثورات اقل حدوثا مما يتوقع البعض) .

من مظاهر قوة علماء الانسان في القرن العشرين هو أن تعميماتهم تستند على الملاحظة المباشرة لعمليات التفاعل الاجتماعي بين الناس المدروسين ، قد يحاولون ان يوسعوا هذه التعميمات لميادين خارج الملاحظة المباشرة ولكنها معروفة فقط في المحفوظات التاريخية (الارشيف) . طالما كانت طبيعة التغير الذي يدرسونها هي التي تحدث الآن وفي المجتمعات التي ظلت صغيرة حتى ادخال التكنولوجيا والآلات من الخارج ، وفي حالات كثيرة فرضت عليهم من قبل الحكم الاستعماري الملاحظ ان عدداً كبيراً من نظريات التغير الاجتماعي قام على تجربة المجتمعات الغربية وركزت أيضاً على حقبة الثورة الصناعية . في كلا الحالتين في حالة المجتمعات التي اخترعت فيها التقنيات في تلك الفترة ، وفي المجتمعات التي ادخلت هذه التقنيات جاهزة فان التغيرات التي حدثت كانت سريعة جداً بصورة لم نخبرها المجتمعات في القرون السابقة .

هذا وقد درست العملية لفترة طويلة من خلال مدخلين مختلفين من قبيل

الاجتماعيين في المجتمع الغربي وعلماء الانسان في المناطق الاستوائية (١) . هذا نتيجة لما يمكن ان نسميه صدفة تاريخية ، ليس المهم ان التقنيات الجديدة ادخلت على الاستوائيين من الخارج ، لان هذا حدث للسكان الريفيين في المجتمعات الغربية وعملوا في الصناعات الحضرية ، لكن في حالة الاستوائيين فقد جاءت من غرباء ينتمون إلى ثقافة مختلفة أساساً عنهم . هذا يوحي بأن النتيجة يمكن ان تدرس بفائدة اكبر ضمن مفاهيم التسدرة أو عدم القدرة على اقتباس عناصر ثقافية من الثقافة الجديدة ، بنفس الطريقة التي درس بها بواس Boas واتباعه في أمريكا بعض المجتمعات وذلك باتباع عناصر ثقافية أو سمات ثقافية من قبيلة هندية إلى أخرى وكيف انتشرت بين القبائل الهندية ، وحتى حوالى عام ١٩٤٠ كانت عملية التطور ، وتغير المجتمعات الصغيرة المحدودة تسمى الاحتكاك أو الاتصال الثقافي Culture Contact وطرحت النظريات حول مجالات الثقافة التي تعتبر أكثر أو أقل مقاومة للتغير ونوع العلاقات بين الثقافتين التي يمكن ان تقود للتشاقف acculturation . ومن الجدير بالذكر ان الوحدات التي رجعت إليها الدراسات هي مجموعات لطرق السلوك وليس الناس أنفسهم . هل هناك معنى ان نتحدث عن علاقات مثل تلك الوحدات أم مقاومتهم لأي شيء ؟

بينما ابقى مالمينوفسكى على فكرة الثقافات في حالة الاحتكاك والاتصال ، رفض في نفس الوقت المدخل السابق لعدة أسباب . منها انه من غير الممكن فهم ما يحدث بتصور عناصر من ثقافة أخرى وكأنها مصنفة في حزم منفصلة

(١) لان معنى سكان خط الاستواء بل تشمل السكان بين خط الاستواء

والمدايرين (م)

من القش (١) . فقد اصر دائما على أن الوحدات المدروسة هي نظم وليست مجرد اشياء أو أعراف ، ويقول بأن النظم تتفاعل مع بعضها الآخر وتنتج شيئا مختلفا تماما وليس من الممكن ان يجرأ إلى عناصر أو سمات تأخيه من جانب دون الآخر . وقد توصل علماء الانسان البريطانيون إلى انه من المفيد تتبع تطور النظم بدلا عن تتبع انتشار السمات والعناصر الثقافية ولكنهم وجدوا نظرية التأثير المتبادل والمشارك بين النظم أقل جدوى . واقارأ لحقيقة تاريخية فقد يمكن التفوق التقني الهائل للثقافات الصناعية من فرض إرادتها على المجتمعات الصغيرة بينما لم يجرأ تعديلا واضحا على ثقافتهم . يضاف إلى ذلك أنه حتى في الأماكن التي حدث فيها تأثير متبادل فلم تكن هناك مواجهة حقيقية بين اشخاص يمثلون ثقافات مختلفة . اقام مالتينوفسكى نظريته على دراسة اقطار افريقية بها سكان مستوطنون اوروبيون من الدول المستعمرة ، ولكنها ليست سوى فقط التي تعرضت لتغيرات نتجت عن الثورة الصناعية .

اعطى فورثش دفعة من المحقولة للنقاش بقوله أن الشعوب والناس وليس العادات هم الذين يتفاعلون مع الاحتكاك والاتصال . وهذه الجملة تبدو انها تلخص الحركة بإبعادها عن التركيز السابق على التغيرات في العادات باعتبارها وحدات منفصلة ومستقلة إلى الاهتمام بالتغيرات في العلاقات الاجتماعية .

رغم انه لا يعنى كثيرا القول بأن الوظيفة لا تفسر التغير ، ولكن حقيقة ان التركيز الذي تتبعناه النظرية قائم على فرضيات خاطئة لا توصل إلى نتائج غير معنوية ومشوشة . اهتم البحث الذي راعته مؤسسة روكفلر والمعهد الافريقي

(١) التعبير استعمله فورثش تلميذ مالتينوفسكى .

العالمى - حسب أسسه المرجعية - ، بالافريقى المتغير ، ولكن نتائجه ذكرت الكثير عن الافريقيين الذين فقدوا توجههم ومسارهم فى عالم يتغير بسرعة اكثر من التركيز على أولئك الذين يتوقفون إلى مواقع فى شكل جديد من المجتمع .

أسباب ذلك واضحة وعموما يمكن فهمها وتقديرها فقد لاحظ علماء الانسان انه فى بعض النظم - بالذات الزواج - تحول الناس عن بعض القواعد القديمة والراسخة دون ان تحمل عملها مقاييس أو معايير أخرى مقبولة . لاحظوا ان المناطق الريفية جردت من شبانها القادرين على العمل ويعيش أغلبهم فى المدن كعمال اجراء فى أحوال لا يقبلونها هم أنفسهم ، وكذلك ذوو المعايير الاوربية الغربية فى الرفاهية الاجتماعية لا يقبلون هذه الظروف لهم . هذا موقف يستحيل وصفه ضمن إطار خال من القيمة أى اصدار الاحكام الاخلاقية أو المتحازة . ويتمائل العلماء أنفسهم مع عدم رضاء أصدقائهم الافارقة بمحاولتهم الشعور بنفس شعورهم فيضطرون للتأسف على ذلك الوضع . ولكن يفترض أن تكون دراساتهم مرشداً للعمل وهذا ما حدث بمؤسسة روكفلر أن تدعم المعهد الافريقى العالمى .

كان الفعل الذى أوضحت به الدراسات لكثير منهم هو معارضة استمرار تصنيع افريقيا والذى يرون انه لن يفيد منه أحد سوى الرأسماليين الاوربيين ، كذلك عارضوا محاولات استبدال النظم الافريقية - خاصة فى مجال القرابة والزواج - بأخرى تعتبر متفوقة أخلاقياً . يظن بعض الكتاب الساخطين ان نشاطات الاوربيين فى افريقيا لم تسبب غير الضرر فقط ، وان هذا الضرر يمكن أن يخفف لو قللوا كثيراً من هذه النشاطات . لم يستعمل أحدهم الحجج العاطفية عن الإبقاء على

تعددية الثقافات » ، أما الاتهام بأن علماء الانسان يريدون « الاحتفاظ بمؤلاء الناس في حديقة حيون - بشرية » فهو افتراء سخيف .

كان المثال لعلماء الانسان في ذلك الوقت ، ربما المثال والرغبة عندنا كلنا - هو المجتمع المتسق المتناغم الذى لا يخضع لتوتر الصراعات التى لها يمكن حلها . وبالتأكيد فقد قادتهم النظرية الوظيفية حقيقة إلى الافتراض بان انجاز هذا المثال يمكن . بدأ السؤال حينئذ - هل صراع المصالح ضمن المجتمعات الافريقية وبين الافارقة والاوربيين يحل بصورة أحسن بواسطة الاسراع أو الابطاء فى ادخال افريقيا فى النظام الاقتصادى العالمى . هذا وقد فضل مالىنوفسكى - قبل ذهابه إلى افريقيا - سياسة عدم التدخل ، ثم غير رأيه بعد مشاهدة مراكز المناجم فى جنوب افريقيا وروديسيا . ورغم انه كان يكتب ضمن سياق التشاؤم ، فهو يرى تفضيل العطاء الانتقائى Selective giuing من قبل الاوربيين المسيطرين لانه على الأقل مؤثر مثل الأخذ أو الاقتباس الانتقائى لعناصر من الثقافة من قبل الافارقة . رأى ان على الافارقة والاوربيين الاعتراف بهوية مصالحهم المشتركة تاريخياً . ولكن هذه المصلحة المشتركة طويلة المدى ليست أكثر من المحافظة وصيانة النظام ، فهى مثل المصلحة المشتركة فى مضاعفة الدخل القومى والتى تقدم احيانا كبرهان وسبب ضد تعطيل الانتاج بسبب الاضرابات .

اهتم فودفرى ومونيكا ويلسكون - عملوا فى روديسيا الشمالية وقدموا عملاً عن التغير الاجتماعى (١) بالصراع والوسائل الكفيلة بحله . استعملوا الكلمة فى

(١) كتاب تحليل التغير الاجتماعى عام ١٩٤٥ بعد وفاة ويلسون عام ١٩٤٤ وأعيدت طباعته عام ١٩٦٨ فى جامعة كمبردج تحت : التحليل للتغير الاجتماعى على ضوء ملاحظات فى وسط افريقيا (م)

عدد من المعاني والمفاهيم ، في بعض الأحيان تعنى صراعاً مكشوفاً ومباشراً للمصالح ، يطالب الافارقة باجور عالية اكثر مما يرغب الاوربيون في منحة ، أو رغبتهم في الدخول إلى نوع من الوظائف يحتكرها الاوربيون . وتعنى احيانا امتعاض الافارقة من منع الاوربيين لنشاطات يعتبرونها مسموح بها مثل صنع البيرة أو اتيامهم لبعضهم الآخر بالسحر . وقد تعنى احيانا المنافسة حول المصادر النادرة وبالذات نقل ملكية الأرض للافارقة .

زعم ويلسون - متبعين خطى رادكليف براون - ان القوى الاجتماعية تتجه نحو التوازن ، وهي كلية تعنى اكثر قليلا من كلية رادكليف براون المفضلة - الابتهاج والاعتباط euphoria - حالة يكون فيها أغلب الناس راضين ومقتنعين علينا ان نلاحظ انهم استشهدوا بهذه النظرية لشرح عملية التغير الاجتماعى التى لاحظوا أنها تجرى فى كل العالم . يرون انه عندما تبدأ العملية فى الحركة فان العملية تستمر حتى تصل إلى توازن جديد وهذا يعنى دخول شعوب المناطق الاستوائية خلالها إلى المجتمع الصناعى .

كان كتابهم الصغيرة يحاول طموحات كبيرة وندين لهما بتوضيحهم للنظرية القائلة بأن التغير هو مسألة مدى امتداد نطاق العلاقات الاجتماعية نفسه مرتبط بمسألة تقنيات التواصل والاتصال . قدموا مشروعا لتحليل جميع المجتمعات ، ومقارنة لخصائص نموذجية للمجتمعات الصغيرة والكبيرة . ولكن لانهم اهتموا أساساً بالمشكلات التى خلقت للمجتمعات الصغيرة بسبب الاندماج الجزئى فى المجتمعات الكبرى لذلك لم يبحثوا اكثر لمتابعة عملية امتداد النطاق .

وجهة النظر التى طورها ردفيلد تقول بأن التوسع المتقدم فى العلاقات الاجتماعية كان سمة لتاريخ العالم ، يمكن قبوله عند عدد كبير من علماء الانسان والاجتماعين

يتوجب أن نفهم عدم وجود خطأ في نظرية مبنية على مراحل التطور التي تقوم على حقائق معروفة . كما وضعها راد كليف براون حين ناقش إعادة تشكيلات القرن التاسع عشر لمجتمعات ما قبل التاريخ بقصد الدراسة والوصول إلى نظريات ، الاعتراض لم يكن بسبب أنها تاريخية ولكن لأنها ظنية وحسنية . على كل حال علينا اعتبارها مزية أن الفكتوريين لم يفكروا في التغير الاجتماعي كشكله ما تحتاج للتوضيح .

عندما يقدم ديفيد محاضراته التي طبعت عام ١٩٥٣ تحت عنوان د العالم البدائي وتحولاته ، قال د أن التاريخ يفهم هنا كحكاية سيرة واحدة ، هي سيرة الجنس البشري ، كان اهتمام عمله الأساسي حول الأفكار الأخلاقية ولكنه قدم فكرته الأساسية باعتبار العلاقات الاجتماعية المتزايدة النطاق . وحدة النطاق الصغير هي المجتمع الشعبي Folk Society كما يسميها البعض جماعة علاقة الوجه لوجه أو المواجهة وهي صغيرة لدرجة أن كل واحد يعرف الآخرين . يضمن بعض علماء الإنسان بين المجتمعات الشعبية تلك التي لا تستعمل النقود ، رغم أن كثيراً منها كبيرة في النطاق وأكثر من جماعة مواجهة ، ويسميا آخرون المجتمعات القبلية . وعند ما ظهرت المدن - حسب ديفيد فهي عملية حتمية لاهتمامه بتوسع العلاقات في المجتمع الشعبي - تصبح تلك المجتمعات د مجتمعات فلاحية ، تتضمن أناساً فريدين يجعل أعمالهم فيسار المدينة ممكناً (أى نوع الأعمال التي يمارسونها ذات صلة بالمدينة) فسكان الحضر يعيشون على فائض الطعام الذي ينتجه الفلاحون ، ومجتمع الفلاحين مرتبط بالمدينة لأنه يجد سوقاً هناك لمخضوعه للسلطة السياسية الموجودة هناك ، ولكنه يحتفظ بنظام علاقاته الاجتماعية ومعايره الأخلاقية ، تأتي بعد ذلك المرحلة التي تؤثر فيها القوى المنبثقة من المدينة مباشرة

على المجتمع الفلاحي ، تجذبهم اليها كمال اجراء ونعلم أعضائه (المجتمع الفلاحي) القراءة والمهارات الميكانيكية ، وتسبب القوانين التي تغير العلاقات الاجتماعية على أية حال هذه العملية هي التي في أوروبا لم تكتمل بصورة نهائية وهذه العملية يركز عليها علماء الانسان حين يلاحظون المجتمعات الشعبية والفلاحية المعاصرة .

من الطرق التي ينظر اليها للتغير الاجتماعي السؤال عن : ما الذي يسبب التغير ؟ هذه هي نظرية للتغير الاجتماعي ، وتشير إلى أننا نسأل عن : لماذا يجب أن يحدث التغير ؟ طريقة أخرى وهي متابعة تاريخ التغير الاجتماعي بتحديد عاصية عامة للاتجاهات أو النزعات في اجزاء مختلفة في العالم . يرى الاجتماعيون بشباكهم في دائرة أوسع مما يفعل أغلب علماء الانسان ، فقد حاولوا الإجابة على السؤالين ولكنهم لم يبدؤوا الحكاية من مراحل بعيدة بصورة كافية لتشمل المجتمعات الشعبية . مفهوم ماكس فيبر عن تاريخ التغير الاجتماعي كعملية لازدياد العقلانية ورفض الأفكار السحرية مع زيادة فهمنا للعالم ، فهي واحدة من النظريات التي وجدها عدد من علماء الانسان كاشفه .

رغم أنه تسرع في القول بعدم وجود تغير اجتماعي إلا كاستجابة للمخترعات التقنية ، فهو تكرر لقول الاحكام عن التغيرات التي تعنى توسعاً في نطاق العلاقات الاجتماعية . فالاختراعات التقنية هي التي تجعل اتساع النطاق ممكناً - لو استعملت لصالح ، ومهما كانت التغيرات التي حدثت في الماضي وقد تحدثت في الحاضر ، فان مفهوم اتساع النطاق أكثر فائدة في التحليل وجذب اهتمام علماء الانسان .

رغم أن كثيراً من المؤرخين غير مهتمين بتجليل العلاقات الاجتماعية ولكنهم

يرون فيما لا يدعى مجالا للشك — منذ ألفي سنة خلت — أن الازمنة تتغير ، ،
عند ما يتعرف مؤرخ الانثروبولوجيا الاجتماعية لأول مرة فهو قد يتسائل : لماذا
كل هذا الجدل والنقاش ؟ واحدة من بين الاجابات التي قد يتلقاها هي أنه في فترة
ما من تاريخ الانثروبولوجيا افترض أن أعضاء المجتمعات الصغيرة يسيطر عليهم
تماما ثقل العادة بحيث لا يستطيعون الفكك من معايير السلوك التي تم تنشئتهم عليها
هناك اجابة أخرى مرتبطة بهذه وهي أن عمل كثير من السيكولوجيين الاجتماعيين
اهتم بتكييف سلوك هذه الشعوب بواسطة التنشئة ، والذين يعملون على ضوء مثل
هذه الخطوط يحتاجون لنظريات خاصة لمتابعة الابتكار والتجديد .

يقترح كبديل النظريات مثل هذا النوع الانطلاق في القول بأن قوى التغيير
موجودة في كل مجتمعات . كان يمكن أن يكون هذا القول مسلما به ان لم تأخذ
نظريات الخضوع للعادة مثل هذا المدى والانتشار والقوة ، حتى أمثلة دوركايم
ورادكليف براون عن رد فعل المجتمع تجاه الخروج عن قوانينه وقواعده — كان
يمكن أن تؤثر على جو الفكرة — رغم أنهم على الاقل اعترفوا بان الشعوب أو
الجماعات تخرج عن القواعد والقوانين التي تعلموها .

الواقع انه لا يوجد مجتمع يحدد ويصف مقدما ما يجب فعله في كل المواقف .
هذه دائما منطقة نجد فيها مجالا لحرية الاختيار . في نقاش الاقتصاد اهتمامنا
بالاختيار في تخصيص وتقسيم الموارد . وهناك مجالات أخرى للاختيار بجانب
التي درج على اعتبارها تنسب للاقتصادى . هناك مجال الاختيار في العلاقات
الاجتماعية الشخصية غير تلك التي فرضها الوضع الموروث . يقرر الناس مع من
يتحالفون أو يتحدون زواجيا — ربما يضعون في الاعتبار فوائد حليف قوى ،
وقد يوزنون الصهر الذى يقبل نسبة أقل من المهر لانه يسكن بالقرب ويمكن أن

يراقبك مقابل فوائد آخر يطلب كل المهر ولكنه بعيد لا يطالبك باستمرار أن
أن تقوم بأعمال اضافية كثيرة . يختار أصحاب الماشية من التركانا أولئك الذين
يمكن الارتباط بهم من خلال الرعى المشترك . ويختار سكان جزر البحر الجنوبي
رفقاء الكولا . يقرر الشبان أما العيش مع عصبته — كما يجب — أو مع أقرباء
آخرين يفترض انهم مساندون لهم قد يفضل البعض ترك كل مجموعتهم القرابية
ويقدمون خدماتهم لزعيم . قد تدخل العلاقات المعترف بها المرء في التزامات
متناقضة لا بد من عدم تنفيذ احداها عند ما تضغط رابطة صداقة وقريب من أجل
متطلبات في نفس الوقت من مصادر محدودة . هناك من يختارون تخطي القوانين
وتحمل النتائج ، كما يوجد أيضا من يعتبرون أن القبول والرضى المكتسب من
الخضوع والتماثل له قيمة عليا . ان الاختيارات التي يقوم بها الذين يرفعون قيم
أخرى (جديدة وغير سائدة) أعلى من الخضوع والتماثل ، وذلك يقود الى
التغير الاجتماعي .

تظهر اختيارات جديدة عند ما تقدم فرصاً جديدة ، وفي المجتمعات الصغيرة
اليوم جاءت فرص جديدة من الخارج بدخولها في النظام الاقتصادي العالمي . ومن
الممكن تتبع التغييرات الحاصلة في كل ميادين العلاقات الاجتماعية — التي سبق
مناقشتها . لكن قبل أن نفعل ذلك لا بد من ذكر ان الهجوم الاول لاثروبولوجي
يستعمل مادته الانثوغرافية يبدأ على نظرية ان المجتمعات البدائية ذات طبيعة
استاتيكية . هذه دراسة ليتش للكاشنيين في المرتفعات البورمية . بينما يرى
الكاشنيين ذات ثقافة متشابهة ، فانه يمكن تنظيمها حسب أسس سياسية مختلفة —
بعضهم محكوم ذاتيا ويخضع لرئيسه الخاص . البعض يدفع جزية لرؤساء ويعتبر
زعماءهم تابعين . مثل هذا الزعيم هو رئيس قريته . في بعض الاحيان يرفض

الزعماء التابعين الادعاءات المفترضة عليهم ، حتى عند ما يقبلون فهم يقولون بانهم لم يكونوا أبداً تابعين . في بعض الأحيان ينجح أحد الرؤساء في فرض الجزية واستلامها . كما أنه في كثير من المجتمعات ، تسند هذه الادعاءات باساطير وقصص يفترض أنها تعطيها سنداً تاريخياً ، ولكن الاساطير البديلة تدعم الادعاءات المتنافسة . كما أول ليتش السجلات التي احتفظ بها الاداريون البريطانيون ، فالتاريخ الحقيقي للكاشيين سائل باستمرار لأن الرؤساء يقيمون سلطتهم أولاً ثم يجدون أنهم لا يستطيعون الاحتفاظ بها . لكن يجب أن نلاحظ أنه حتمى هنا يوجد أثر خارجي . امراء شان المجاورون يدعون ضريبة من الكاشيين ، معطين مثالا للكاشيين الطموحين لتقليده .

في نقاش المجتمعات غير المستعيلة وغير النقدية في اقتصادها — لاحظنا كيف أنه عندما تنشأ السلطة السياسية المركزية يظهر مبدأ تنظيمي يكمل ويحل تدريجياً — يحل محل نظام القرابة . تستمر القرابة في كونها أساس ادعاء الملكية ، ولكن الناس يتجهون الآن إلى سلطة خارج مجموعة القرابة للدفاع عن ادعاءاتهم وينظرون إلى نفع القيادات السياسية والأقارب أيضاً من أجل بناء ثروتهم . وعند ما يدخلون في مجال التجارة الكبيرة ، فهم يبدأون في الاعتماد اقتصادياً على علاقات خارج مجموعة القرابة . إذا كانوا مزارعين فقد يستمرون في الاحتفاظ بابنائهم معهم كفريق عمل ، ولكن العلاقة الجديدة الهامة ستكون مع مشتري المحصول . وإذا دخلوا (المييدان) التجاري كعاملين فسيكونون علاقاتهم مع الخدم وفي نفس الوقت يصبحون جزءاً من مجموعة اجتماعية جديدة ، ومخدمو ذلك العمل المعين بتقسيماته الفرعية إلى عمال على درجات مختلفة وامكانية امتداده إلى رقابة . هنا ليس للقرابة أي تأثير وأهمية على الاطلاق لأن العمل المأجور

يفصل العامل ماديا أو فيزيقيا عن عائلته لو كان عليه أن يذهب إلى المدينة التي تبعد عن منزله . تبرز مؤسسات ونظم جديدة لتقوم بنشاطات كانت مقصورة على الأسرة الممتدة . تقوم المدرسة بالتعليم والتزويد بمهارة فنية جديدة لا يستغنى عنها في المجتمع الجديد — الكتابة ، والآل بعد أن أصبح التعليم حقيقة مفروغا منها — صار السؤال هل يكون التعليم فنيا ام عاما . وتحمل المستشفى مسئولية المريض التي كان يقوم بها رئيس العائلة في بحشة عن العراف أو الساحر .

هكذا أصبح الشعب مستقلا عن روابط القرابة وأكثر استعداد التخلي عنها حين نصير مرهقه . لاحظ الانثروبولوجيون كثيراً كيف ان المجتمعات غير النقدية ترغب في أن تكون لها سيطرة كاملة على نصيب الفرد في ميراث عصبه النسب وهذا يتعارض مع الهدف المثالي في أن تحقق العصبه وحدتها خلال الأجيال . والمحافظ القوي للبحث عن الاستقلالية هو عدم المساواة في الثروة . هذا وقد تطورت اللامساواة حتى بين شعوب تملك مواشى وتعيش في مستوى مادي منخفض ، فقد تجد ماشية تنخص ما مرعى أحسن ، أو قد تكون قادرة على مقاومة وباء يفتك بماشية آخر ، أو قد ينهب أحدهم ، وآخر قد تكون له اخوات أكثر من اخوان ذكور وبالتالي يبنى ثروته من المهر الذي يدفع له . والمحظوظون ليسوا على استعداد للاعتراف بالتزام يوجب عليهم تقسيم الثروة خارج دائرة محدودة .

هذه هي الأسباب التي توجب على الأسرة النووية أن تلغى الأسرة الممتدة كجموعة قرابة أساسية . في كثير من الأحوال اختفت العصبه كتنظيم ، وطالما على الناس أن يختاروا السكنى جوار قريب فهو قد يكون أى قريب . لانه لم يعد هناك ميراث حسب العصبه القرابية لذلك تفقد عضوية العصبه أهميتها يلزم

اختفاء العصبية فقدان الاهتمام بشكليات الزواج المهمة في تأسيس الائتلاء لعضوية العصبية . وقد فسر هذا على أنه رفض للكوابيح الجنسية ومسؤولية العائلة عامة . هذا يفتح المجال للافتراض بان الشريكين الذين لم يمارا بطقوس الزواج المتبعة بهم بالضرورة متورطون في انتهاكات عرضية أو مؤقتة — وهذه ليست بحال من الاحوال الحقيقية . النغوني Ngoni في زامبيا مثلاً لهم مصطلح لما يسمى الزواج ضعيف الرابطة ، وهو رابطة تكونت بدون الشكليات الرسمية ويعتقدون أنها ان تدوم طويلاً . ولكن لو دامت — وهذا ما يحدث كثيراً — يتوقف الناس عن تسميتها رابطة ضعيفة ويسمونها فقط زواجاً .

وفي جزر الهند الغربية هناك نسبة عالية من الاطفال غير الشرعيين بمعنى أن الوالدين لم يتزوجا عند ميلادهم . ولكن دراسة عن غانا البريطانية أظهرت أن أغلب الاطفال ينشئون في أسر بمعنى أن الامهات خلال الفترة التي يرعون فيها أطفالهن يكن معتمدات على رجل في الاعاشة (ليس دائماً هو الأب) .

هذا يقود إلى أهمية الابوة الشرعية التي تقام بواسطة الزواج . والاجابة التي ظهرت في الدراسات الأخيرة هي أن الرابطة القانونية ليست مهمة كضمان للمساندة أو الاعالة الاقتصادية للام وأطفالها ؛ من جانب آخر تطلب قوانين بعض الدول الأب أن يعول أطفـاله حتى وان لم يكن متزوجاً شرعياً من الام ؛ كما أنه في بعض المجتمعات يمكن أن يعيش القرينان غير المتزوجين في منزل عائلي . والسؤال الحاسم هو وضعية الابناء تعتمد على علاقتهم الشرعية بوالدهم . هذا هو الوضع في المجتمعات التي يقوم البناء الاجتماعي على التسلسل الابوي ، وهذا هو الحال في المجتمعات المعقدة التراتب حيث يترتب الطفل في طبقة والده وهو — أي الطفل — لو ارتفع مستقبلاً إلى فئة أعلى فهو يضم أطفاله له . في الكاريبي وفي

بعض مدن جنوب أفريقيا لا يوجد نظام عصبية قرايية وبالنسبة لطبقة العمال غير المهرة هناك أمل ضئيل للحراك الاجتماعى . لذلك أصبح الجوانب الشرعية فى الزواج ذات قيمة ضئيلة .

صار للعمل المأجور والانتاج التجارى للحصول النقدى نفس الآثار على التزامات العصبية القرايية . فقد خلق الاثنان — من خلال ظهور مصادر دخل خارجية — وضعاً من اللامساواة بين شعوب كانت تقليدياً تشارك فى ميراث أبوى جماعى . فى الهند يقتضى مبدأ نظام الأسرة المشتركة ان يعمل الابناء فى أرض الأب ويصب المنتج معاً حيث يديره الأب حسب المنفعة المشتركة للجماعة . لا يستمر مثل هذا النظام دون تناقض واحتكاكات فى كل الأوقات . فقد يتهم الآباء بالمحاباة وتفضيل البعض ، والا بناءً بتجنب القيام بنصيب عادل فى العمل ، وجزء من أهل البيت قد يعتقدون انهم أحق بمعاملة خاصة لا يتقبلها الآخرون . عند ما يبدأ بعض الأفراد فى كسب دخولهم من العمل المأجور — وهذا يتكرر فى القرى الهندية أكثر من الافريقية — يصبحون غير راغبين فى المساهمة بدخولهم فى المال المشترك أو المملكية المشتركة مريؤ كدون استقلاليتهم بالمطالبة بالتقسيم العاجل للملك المشترك .

قاد ادخال المحصول النقدى أيضاً إلى تأكيد الأفراد السيطرة المستقلة لتصميمهم فى موارد العصبية القرايية . أهم النتائج هنا هو التغيير فى الاتجاهات نحو ملكية العصبية الجماعية للأرض . صار للأرض قيمة نقدية لأنها مصدر لمحصول نقدى ، والناس الذين توصلوا لتلك الفائدة التى يكسيونها بالإيجار أو البيع لم يعدوا قادرين على احتمال الالتزامات التقليدية مثل استشارة رفقاءهم المشتركين فى الملكية فى حالة رغبتهم فى التخلص من الأرض أو التصرف فيها . بدأ البعض التعامل مع

الأرض بهذه الطريقة بينما ما زال الآخرون يتمسكون بالتقليد القائل بضرورة بقاء الأرض في يد العصابة القبلية .

حين تم تهجير Commercialized النشاطات الاقتصادية فقد كون الناس علاقات مباشرة خارج المجتمع الصغير المحدود - علاقات البائع والمشتري حدثت التغييرات الهامة حين أصبحت الموارد الموجودة في المجتمعات الصغيرة سلعا مطلوبة في عالم أوسع . ويمكن عرضها وتقديمها بواسطة القرويين المستقلين - كما هو الحال بالنسبة للكاكاو في غانا والأرز في الملايو - أو يمكن تنظيم الانتاج في المزارع الكبيرة التي تجذب قوة العمل من مناطق بعيدة . ولو تطلب انتاج الموارد تطورا - مثل المعادن الخام - فلا بد من تنظيم العمل على صعيد أوسع لأسباب فنية .

جذب العمل المأجور في المزارع والمناجم الناس إلى تجمعات جديدة فصلتهم عن أقرب الأقربين وأعادت تجميعهم ثانية قد يكون بالاختيار الحر بينهم أو بفعل سلطة أعلى . يحدد مديروا المناجم ويستخدمو البلديات للناس أين يجب عليهم السكنى ومع من يكونون زمرات وجماعات العمل . ويبقى الناس أيضا جماعات جديدة خاصة بهم ، ويكنون في العمل نقابات وبالنسبة لنشاطات الفراغ قد نجد تنظيمات لاناس يسكنون في شارع واحد أولهم خلفية مشتركة غير مكان المنشأ الاول (مثل طلاب المدرسة الثانوية الواحدة) . أظهرت الدراسات التي أجريت في حزام النحاس الأفريقي (روديسيا) كيف يربط الناس أنفسهم معاً حسب أهداف تتمشى مع مصالحهم الجديدة ، والآخرين حسب ولاءاتهم القديمة . فالاحتجاجات ضد سياسات الخدمين أو سلطات المدينة تقوم بها تنظيمات تمثل أصحاب المصلحة في ذلك ، ولكن في مثل هذه التجمعات قد يوجد تنافس بين

أجناس من خلفيات إثنية مختلفة، وقد يعتبر اختيار الممثلين كشكل من التنافس القبلى من بين أرجح الأساليب فى أوقات الفراغ مشاهدة بمجموعات رقص تغنى أغنيات لتمجيد قبيلتهم والاستهزاء بالآخرين .

انتهى مصطلح تفكيك والنساء القبلية detribalization من خلال معالجة التجمعات السكانية الحضرية - فى النقاشات عن افريقيا . وهو يرجع إلى نقل ساكن الحضر من بيئته الأولى ، على افتراض أن النقلة تخلصه من كل ضوابط السلوك التى نمت ضمنها . يميز هذا الافتراض المراقبين الساذجين والذين لا يخلون من التحيز . هذا وقد اعترض بعضهم على أى تأثير قد يقود الافريقين إلى رفض سيطرة الاوربيين والتعليم من بين هذه التأثيرات . وبعضهم مثالون من النوع الذى يمجّد الفضائل البسيطة لحياة اريف ويدين فساد المدينة . ولكنهم لو عوا وجود مشكلات رفاهية اجتماعية واخلاقية بالنسبة للمهاجرين الجدد للمدن فى كل انحاء العالم ، لما بحثوا لتفسير لذلك فى الغاء القبلية .

على كل حال لا يزال السؤال هل يستطيع المصطلح وصف عملية خلافا لاصدار احكام قيمية على وضع ما . قد يرجع المصطلح إلى التخلي عن قوانين القرية السلوكية وعاداتها دون أن يعنى التخلي عن كل قوانين وقواعد القرية ، وبديهي أن بعض ممارسات القرية لابد من التخلي عنها فى حالة الانتقال والعكس فى المدينة ولكن هل يعنى هذا أن الممارسات والقوانين قد رفضت إلى الأبد ؟ هل هذه عملية تشافف acculturation ، تحل خصائص ثقافية جديدة كبديلة لعناصر تقليدية .

رفض فلوكرمان Gluckman هذا التفسير كما رفض صورة مالىنوفسكى بظهور نظم ومؤسسات هجينة ، قائلا بان سارك الشحوب هى استجابة للوقوف الذى تجد

نفسها فيه . فلو تعلم العامل المهاجر — وهذا ما يجب — أن يتبع طرق سلوك المدينة فهذه مسألة اختيار السلوك الذى يتطلبه الموقف؛ وفي مسقط رأسه بالقرية سوف يكون اختياره مختلفا ولكن بدون شك لن يكون اختياره بالضبط كما هو وكأته لم يغادر القرية مطلقا .

وقد لوحظ أن الناس يحاولون عن قصد الاحتفاظ بمقاييس القرية على قدر الإمكان عندما يكونون في المدينة . وهذا يجر إلى الارتباط حصراً مع الآخرين ذوى الخلفية القروية المشتركة ، وهذا ربما يكون ممكناً فقط للذين يترددون على القرية . وفي هذه الأحوال فإن العقوبات المضادة للخارجين عن معايير القرية تكون في ذروتها . وهذا الوضع حادث بين xhosa فى جنوب أفريقيا بمدينة ايست لندن والتي يأتيها معظم العمال من المناطق الفلاحية الداخلية القريبة منها .

يعتبر امتداد العلاقات السياسية واتساعها واحداً من أهم مظاهر التغيرات الاجتماعية فى هذا القرن . خضعت الوحدات السياسية الصغيرة لحكم القوى الاستعمارية وتطلبت السيطرة على مساحات واسعة بهدف ضمان التطور الاقتصادى ولم يرجعها انتهاء الاستعمار إلى حكم ذاتى مستقل كوحدات ، على العكس اتحدت فى دول مستقلة لها حكومات موحدة وتنظيم خدمة مدنية وإدارة أنشأتها الدول الاستعمارية السابقة ولها دساتير نجد أسسها فى الأمم القديمة . وجدت الدول نفسها حينئذ تقـوم على بناء سياسى يتكون من مناصب ووظائف لا بد من ملئها ، ومجموعة من القواعد تحدد طريقة ملئها وحدود السلطة التى تمنح للوظيفة . انسحبت الدول الاستعمارية وكان رفع أعلام الاستقلال هو صفارة بدء لعبة جديدة . تلعب اللعبة بصورة مختلفة فى بعض النواحي عما افترض أن يكون النموذج

النموذج وبالذات تحول سريعاً عن النمط الذى ظننه العزب ديمقراطية برلمانية مثالية .

حاول بعض الانثروبولوجيين تفسير ذلك بالرجوع إلى القيم التقايدية التى تحملها تلك الشعوب . فقد لاحظوا ان المجتمعات الصغيرة لها نظم سياسية لا تعطى فرصة للتنافس حول القيادة . لاحظ كتاب انجليز ان اللغات المتحدثة فى مستعمراتهم السابقة لا تحتوى على مصطلح « معارضة » سوى كلمة « عدو » . بالتاكيد تختلف النظم السياسية للدول حديثة الاستقلال عن أى أمثلة يمكن أن يظهرها تاريخها الماضى . لكن من الخطأ أنهم يبحثون عن طريقهم فى اللعبة بالنظر إلى ماضيهم بحثاً عن النماذج ، رغم أنهم أحياناً يـ... ولون أنهم يفعلون ذلك .

التفسير المقترح فى هذا الصدد يركز على العلاقات الجديدة التى يجد الساسة الجدد أنفسهم ضمنها . وهى علاقات لم تتطور فواعدها بعد ، فالقواعد الاجتماعية هى مسألة توقعات مرتبطة بالأدوار ، وفى النظم السياسية الجديدة نجد ان الناص عامة لم يقرروا بعد ماذا يتوقعون ، مع ذلك من المشكوك فيه أن يتوقع كثير من الناس أن يتصرف الوزراء ورجال الخدمة المدنية مثل الزعماء التقليديين وتوايعهم ؛ أو هل يرى أعضاء المجلس الوطنى فى تنزانيا أنفسهم حقيقة يعيدون انتاج لجمع كبار القرية تحت شجرة كما قارنها نيريزى .

بالأخرى فهم جعلوا لانفسهم أهدافاً توحى بانهم يتبنون — عن قصد — طرفاً جديده لتسيير عمل الجماعة ، وهم يعون — مثل الملاحظين من الخارج — ان العلاقة بين الحاكم والمحكوم الآن تختلف عن الأيام الماضية ، عند ما يشجبون القبلية فهم يعنون باختصار علاقات الولاء لأفراد ذرية سلف يستمرون

قدسية سلطتهم من العقيدة الدينية - وهذا حسب رأيهم يفرق الشعوب التي يقودونها والسلطة التي يمارسونها تجد شرعيتها في الادعاء الشعبي بان الانتخابات نجاء لكي ترمز . بالتأكيد تحفظ السلطة بوسائل يعتبرها الغرب غير ديمقراطية ، ولكن هذه الوسائل ليس لها جذور في واقع التقاليد القبلية . وفي حالات كثيرة تعلبوا أو نقلوها ببساطة عن الأنظمة الاستعمارية . وهي تبرر بالحاجة إلى التحرك سريعاً بعيداً عن الماضي التقليدي .

يمكن للمرء أن يرى الأسباب السلبية التي تجيب عن لماذا أثبتت الديمقراطية صعوبتها في أن تطبق كما تمنى المثاليون الغربيون ذلك ؟

قد يجيب البعض قائلًا بعدم وجود تقاليد تستوجب الحل السلمي للصراعات حول السلطة — ببساطة لأن المتنافسين حول السلطة ينتمون لوحدة لا تقاليد لها في التعاون سلبياً ، ولكن لا يمكن التوقف هنا . فقد يسأل الإنسان من أين أتت هذه التقاليد للمجتمعات التي نمتها الآن أكثر الاجابات اقناعاً جاءت من المؤرخين والمنظرين السياسيين والاجتماعيين أكثر من الاثروبولوجيين . يجب البحث بالاجابة عن السؤال ما هو الذي تمتلكه المجتمعات الكبيرة وليس من خصائص المجتمعات الصغيرة ، وعدم البدء من المجتمعات الصغيرة بالقول أن ما ضيها يحدد مستقبلها مطلقاً : فالسؤال عما يدعو الحكومات لقبول قيود على سلطتها لا نجد اجابته — ببساطة — في المجتمعات الصغيرة وحدها ، حتى عندما نفعل ذلك فعندما نفحص نظمها السياسية الخاصة نبحث عن هذه القيود المتضمنة فيها . يمكن أن نفترض أنه لا يوجد شخص يمتلك سلطة ويتنحى أو يتمتع طواعيه عن ممارستها . بعد ذلك نساأل كيف نشأت التوقعات التي تجعل من الممكن لمواطنين حكومة ما أن يطلبوا . حقوق الإنسان والحريات الأساسية ،

وما هو الضغط الاجتماعى الذى يعمل من أجل مساندة تلك التوقعات .

هناك اجابات توضيحية ذكرها الاجتماعى الأمريكى شيلز (١) تقول بأنه فى الدول الحديثة الاستقلال نجد أن الصفوة الحاكمة تتكون من اناس اختاروا أن يرفضوا القيم التقليدية ويبحثون عن وعى مقصود عن طريقة تحديث مجتمعاتهم ولكن غالبية السكان لم تدخل فى العلاقات التى تميز المجتمعات الصناعية ، وهذا أكثر صدقا على الهند مقارنة مع الدول الافريقية الحديثة . هذه الأغلبية قد تحتفظ بتوقعات تقليدية لدور الحاكم ، بينما الحكم الجدد غير مكترئين بتلبية تلك التوقعات . والناس ذوو الصلة والمعرفة بالديمقراطية فى هذه الدول هم أما فى الحكومة أو فى المنفى أى ان الراغبين فى النقد المعارض هم أقلية عاجزة عن أن تفرض سماع صوتها .

يرى كثير منا ان نطالب الحكم القيام بالدور الذى يحد من حريتهم فى العمل عندما يكون هذا الدور ليس محدداً بوضوح فى أذهان كافة الناس ، ونوع النقا الذى يحدده لا توجد إلا قلة ضئيلة فى الدول الحديثة قادرة على القيام به . لا توضع السلطة فى حدودها بواسطة تعريف الأدوات الشرعية والقانونية ، واكن عندما يكون الشعب مستعداً على الاحتجاج فى حالة تخلى هذه الحدود ، فى المجتمعات الصغيرة القديمة كان للتقاليد وسائل عديدة (عدا الثورة أو التمرد) وقامت هذه الآلية على الاستفادة من العلاقات بين الحاكم والمحكوم وهذا غير موجود فى المجتمعات الجديدة

(١) فى (Comparative Studies in Society & History Vol (pp. ١٢٤-١٢٥)

(4-379, 92-265)

تحت عنوان Political Development in the New States

تحتاج الديمقراطية ذات الطابع الحديث إلى مصادر من النقد النشط والعارف بمجموعات المصالح المنظمة ، صحافة لديها معلومات جيدة ، جامعات حيث يعتبر البحث عن المعرفة موضوعاً يتسائل في الآراء المسلم بها . والحكومة التي تبنى ذلك بجعل النقاش الحر منتشراً بصورة تتمكنها من وقف الهجوم عليها بسبب أى نقطة سببت الاشياء ، وإن لم يحدث فإن مصادر النقد غير المريح ستسكت الواحد تلو الآخر .

هذه المناقشة ترجعنا إلى القول بأن ليس كل أفراد المجتمع على استعداد واحد للاستفادة من الفرص الجديدة ، خاصة حين يقود ذلك إلى الفكك من نمط الحياة الذى تعود عليه الناس كما هو حادث الآن فى أغلب الدول النامية . البعض حجبت عنه الفرصة لأن دور العضو فى القطاع الحديث لا يمكن القيام به إلا بتحصيل قدر من التعليم الرسمى . وقد يتضايق هؤلاء بسبب الخلخلة الناجمة عن التغيير الدائر حولهم ويشعرون أن الطرق القديمة أحسن . ولكن على الانثروبولوجيين ألا يعتقدوا أن اهتمامهم الرئيسى يجب أن يكون التعاطف مع عدم الرضا ، بل محاولة تتبع عملية التغير باهتمام متساو يقسدر طموحات وآمال أولئك الذين يرحبون بالتغيير .

الدين والمجتمع

تعتبر المجادلات حول ما يمكن أن يسمى سحراً وما يسمى ديناً تمهيداً لمناقشة مكانه الدين في الحياة الاجتماعية . فيما عدا التلييح بطريقة عامة في نظرية دوركايم لم تذكر الصلة بين الدين والأخلاق إلا نادراً . ولم يذكر شيئاً عن مسألة مناسبات الطقوس الدينية ، وقليل جداً عن الطريقة التي يمد بها الدين التابعين له برؤية متماسكة للعالم .

تعتبر المناسبات التي يظن أنها تتطلب طقساً من أجناس البحث عن الاتصال بقوى فوق الطبيعة (أو فوق بشرية أو غير امبيريقية أو كائنات روحية أو باختصار الالهة) متشابهة تقريباً في كل المجتمعات .

قدم ايفانز برتشارد مناقشته حول معنى القرابين عند النوير بتقسيمه مناسبات التضحية والقرابين إلى نوعين تأكيدي أو إثباتي وتفكيرى وهـ — ذا يصلح للطقس عامة ولا يهم ان كان يتضمن التضحية في شكل قتل حيوان . يتضمن جزء كبير من الطقس — كما لاحظ هورتون — العطاء الرمزي لشيء ما . لا بد من التفريق بين مصطلحي طقس المستعمل كاسم ويشير إلى مجموعة من الأفعال تضم عدداً من الناس ومصطلح السلوك الطقسي الذي يصف أفعال فردية لها طبيعة طقسية ومن بين ذلك يضمن لابس الخاتم لتظهير أنك متزوج ويضمن ألعاب الأثروبولوجيين مراعاة التجنبات الطوطمية .

(١) أو تحطيم شيء كما هو التعريف الأوسع للتضحية الذي أعطاه هوبرت ومادس في كتابها Sacrifice, its Nature and Tunction, toavs. M. D. Halls, 1964.

يقول إيفانز برتشارد أن بعض الطقوس يهتم بتغييرات المكانة الاجتماعية وتفاعل الجماعات الاجتماعية وهو — إذا ما اهتم به دور كايم . اهتم البعض الآخر أكثر بالرفاهية الأخلاقية والجسمانية للفرد وهذه أشياء كانت في أذهان الذين رفضوا تفسير دور كايم للدين واعتبروه ناقصا .

مناسبات الطقوس من النوع الأول التي سماها إيفانز برتشارد تأكيدية أو إثباتية متشابهة بشكل ملحوظ في كل العالم . رغم أن عددا كبيرا من الناس في المجتمعات العربية ممن تتسكهم بالدين شكليا ، لا يهتمون القيام بالطقس في ثلاث مناسبات كلها تختص بتغير المكانة : الميلاد عندما يجرى شخص جديد للمجتمع ، الزواج والموت حين يغادر المجتمع . مثل هؤلاء الناس يمكن أن نعترض عدم اهتمامهم بالآثار الروحية لهذه الطقوس ومع ذلك فهذه الحقيقة تعكس شعورا عاما أن هذه الحوادث يجب أن تقدر بطريقة ما .

طقوس الانتقال Rites de Passage

كان فان جنيب Van Gennep أول كاتب يهتم بالأهمية الاجتماعية للطقس التأكيدية وساهم بإدخال مصطلح طقوس الانتقال في لغة الأنثروبولوجية الاجتماعية . هناك صعوبة معينة في اختيار ترجمة مناسبة لهذا المصطلح لأنه في النطق قد تختلط كلمة Rite طقس بكلمة Rights حقوق وقد توحي بشيء شرعى legol هناك عبارة أحسن عند بيتي طقوس الانتقال (١) ولكن الكثيرين من الناس يقولون طقوس أزمات الحياة وبالتالي يحصرون أنفسهم في مجال أضيق .

(1) Beattie, Other Cultures, 1964, p 211 .

يؤكد فان جنب انه في المجتمعات البسيطة كل تغيير يعتبر انتقالا من حالة إلى أخرى وتقام له الطقوس — فالتغييرات في أطوار القمح — أو في الفصول كذلك تغييرات المراكز الاجتماعية للأفراد ، وحركة الجماعة إلى قرية جديدة ، دخول زوجين في منزل جديد أو حتى دخول ومغادرة أى منزل . وذكر كمثل عادة العرب قبل الاسلام وهى أن كل شخص دخل أو غادر المنزل يلبس تمثال آلة المنزل عندما يمر بالباب . ووجد الانثروبولوجيون الاجتماعيون اليوم نظرياته مثيرة للاهتمام وتعتمد على تقديس التغييرات في المركز الاجتماعي . يذكر فان جنب أن الإنسان لا يكون عضواً في مجتمعه بمجرد ميلاده فقط ويجب أن يقبل رسمياً فيه وهذا يتم من خلال اعطاء اسم للطفل في مجمع عام أو عرضه على أقرباء والديه . كما يحدد اكمال النضج بطقس وكذلك الزواج والموت . ومن بين نتائج طقوس مستودع الجثث هو تأسيس مكانه المتوفى كأحد الاسلاف . كل هذه التغييرات — كما يقول فان جنب — يمكن تفسيرها بالقدوم والخروج وليس انتقال فقط ولكن انتقالات خلال .

يزلج الشخص الذى سيتغير مركزه في الاتصال اليومي أولاً بطقس الانفصال والذى يضعه في عالم المقدس . ب. المفهوم الدور كما يرمى للكلمة . ومن الأمثلة الفرائ الطقوس من قرية أفريقية لعصابة أولاد أو بنات إلى مكان خارج القرية حيث يقضون فترة تكريسهم ، أو وضع عروسية في عشة حيث تمضى فترة العزل — أما قبل ذهابها إلى زوجها أو في منزل زوجها قبل أن تزاول واجباتها المنزلية كزوجة يعقب هذا فترة إنتقالية حيث يترك الإنسان الذى يمر بالطقس مركزاً ما خلفه وحيث لم يدخل بعد في المركز الجديد . الطقوس في هذه المرحلة يسميه فان جنب هامشياً ويستعمل أيضاً الكلمة الفرنسية Iliminaire

والتي استنبط مجازها — المنزل وكلمة liminaire تعنى عتبة (مدخل) المنزل ويتخيل فان جنب فعلا شخصا على عتبة المنزل ليس في الخارج أو الداخل بعد . ثم يحىء طقس التجمع aggragation والذي يؤكد فيه المركز الجديد رسميا أو يخلق المركز طالما المركز هو مسألة اعتراف اجتماعي وليس فعلا أو حالة تخص فرداً واحداً وتسمى المراحل الثلاث في الانجليزية : طقوس الانفصال ، الانعزال والتكامل . يركز فان جنب على القول بأن تقديس تغير المركز ليس هو الهدف الوحيد للطقوس التي تحيط به . فهي دائماً تتضمن عناصر موجهة لنجاح الشخص في مركزه الجديد مثلاً تهتم طقوس الزواج بالخصوبة وطقوس الميلاد بسلامة وصحة المولود وحظه المتقدم خلال الحياة .

رمزية طقوس الانتقال هي غالباً تجديد الميلاد ، في بعض طقوس التكريس يقال ان الأولاد قد ابتلعهم مخلوق غريب وسيلدهم من جديد من بطنه . قد تعتقد امهاتهم فعلاً انهم حقيقة ماتوا وولدوا من جديد ، خاصة وانهم في هذه التكريسات التي تشمل خضوعهم لفترة طويلة المشقة الجسدية ويموت بعضهم حقيقة نتيجة لذلك . كثيراً ما يمرون خلال باب — كما تعود رؤساء وزعماء نياكيوسا Nyakyusa أن يفعلوا عند ما يباشرون وظيفتهم في احتفال يسمى فعلاً الخروج ، لأن هذا يعتبر أهم جانب فيه ، أو كما تعود أطفال الكيكيو kikuyu في التكريس أن يمروا تحت قوس مصنوع من جذوع أشجار الموز .

بالإضافة لطقوس الانتقال التي يحتفل فيها بدخول الأفراد إلى مركز جديد تقام أيضاً الطقوس التأكيدية باسم الجماعة كلها . وهذه عادة سنوية . وكان في إمكان فان جنب أن يصنفها ضمن طقوس الانتقال بتأكيد على توقيتها بالمرور من عام إلى آخر . هناك بالتأكيد بعض الطقوس السنوية من هذا النوع مثال ذلك في

جنوب غانا عند ما يقذف بشرور الماضي طقسيا في البحر وتبدأ السنة الجديدة بسجل نظيف . ورغم أن كثيراً من الناس يحسبون السنة الجديدة من وقت حصد المحصولات ولكن ليست هذه الدلالة الأساسية لمثل هذه الطقوس . ويهتمون أكثر بالعمل المرضي المستمر للنظام الطبيعي والاجتماعي . وهذه هي الطقوس التي رأى دوركايم انها تحتوى على جوهر الدين .

برز السؤال عن سبب احاطة التغيرات في المركز الاجتماعي بالطقسية . وناقش قلوكان وفورتس (١) ، وفي نظرية فلوكان شيء مشترك مع شرحه لعمليات القانون الافريقى . ويذكر مرة أخرى أن العلاقات في المجتمعات الصغيرة متعددة العناصر حيث أدوار الأب ، الرئيس ، الكاهن وغيرها يقوم بها نفس الناس . ولذلك فإن الفشل في أى دور قد يؤثر على علاقات أخرى أكثر من المتضمنة منطقياً في ذلك الدور المحدد وهذه الفكرة أشد خطورة في النتائج بما هو الحال في مجتمع تكون الأدوار فيه منفصلة حيث أن الأب الفاشل جداً يمكن أن يكون محاضراً جامعياً ناجحاً مثلاً . فالطقس — كما يجب أن نتفق عليه — يتعلق بالأمور التي يأخذها الناس بجسدية ، ففي المجتمعات الصغيرة يعطى الناس أهمية قصوى للقيام الصحيح بالأدوار . يضيف قولكان ان الطقس يفصل دوراً عن تدخل الأدوار الأخرى ، ويرجع للأنثولوجى Tsonga أخذاً مثال طقس التحضير للصيد عند تسونقا Tsonga ويفسره بسبب فصل الصيد عن وسطه العادى ونشاطاته كزراع .

يذكرنا فورتس أن الدور ليس شيئاً يكونه الممثل كما أن الممثل على خشبة

(1) M. Gluckman ed., Essays on the Ritual of Social Relations 1962

المسرح لا يتحول إلى أمير قروسطى الذى اغتيل والده كلما دخل فى تمثيل دور هاملت يوزع أو يعطى المجتمع الأدوار ويوجه الممثلين فيها - كل الوقت بواسطة المنع المنتشر بالتعليق العام وبطريقة مركزة خلال طقوس تغيير المركز . لكن هذه الطقوس ليست هى فقط عمليات تدريب فى ، هدف - العلى وأثرها أيضا - حسب فورس - هو تأكيد الجانب الاخلاقى للدور ، الالتزامات تجاه الزملاء والى يقوم بها لتسلبه الدور ، حتى ولو كان الدور الذى يقوم به مكتسبا فليس له خيار . بالرجوع خاصة إلى طقوس تنصيب الملوك والرؤساء وهذا جزء من فكرة تخص كل طقوس الانتقال حيث يقول هدفهم هو - ان روابط المنصب التى تربط من تسلم المنصب بالذين تسلبه من أجلهم يمكن أن تكون بالتأكيد مزورة .

كما أن الطقوس السنوية بالاضافة إلى الاهتمام بالحصاد وتكرار حدوث مواسم حصاد جيدة فى المستقبل فهي تتضمن تذكيرا لأصحاب المناصب السياسية بالالتزامات التى تتطلبها ، ربما أحسن الأمثلة هو الاحتفال بالسنة الجديدة عن السوازى Swasi - محاكاة الثورة على الملك وانتصاره عليها ، ويذكر فورس الاحتفالات العظيمة عند تاليسى Tallensi وهى سلسلة من الطقوس التى تمتد خلال فصل الجفاف - من الحصاد حتى البذر القادم ، وتستعد اثنائها - كجزء من طقس معقد - الاصول الاسطورية للمناصب المتممة للرئيس وكاهن الارض وبذلك تؤكد الدورة الاحتفالية سنويا وظيفة كل منصب وبالتالي تعيد فرض الواجبات والمهمات على القسام بالمنصب ، (١) كما انها تذكر أيضا كل واحد

بعدم انفصال بين وجود منسبة وبين الاداء المطلوب لمسؤولياته تجاه الجماعة باعطاء كل واحد دوره فى الدراما الطقسية يستطيع أن يقوم به .

يمضى فوراس بتعميماته إلى ما بعد ميدان القيام العلنى بالطقس إلى التابو أو تحريم الطقس وهنا يعطى ملاحظة تعتمد على نقاش التجنبات الطموطمية ، وفى كل حين للبره مناسبة يتذكر فيها أن طعاما معيناً محرم عليه بسبب عضويته لعشيرة ، أو — التابو غير العادى عند التاليسى — لأنه الابن البكر ، يذكر دائماً بواجباته كعضو فى عشيرة أو كابن بكر لوالده .

الطقس والبناء الاجتماعى :

يوضح نقاش فوراس كيف تقدم فهم العلاقة بين الدين والمجتمع فى الاتجاه الذى افتتحه دوركايم إلى حد الاعتراف بأن الدين يفعل أكثر — وربما أيضاً أقل — من خلق إدراك عام ، فى حالات العاطفة الشديدة ، لاعتماد كل فرد أنه يحيا فى مجتمع منظم . ترىنا الملاحظة اللصيقة للطقوس التاكيدية فى المجتمعات الصغيرة والبسيطة التكوين كيف أنهم يؤكدون على الاعتماد المتبادل لأقسام عديدة فى مجتمع ما بتقسيم المهام الطقسية فيما بينهم . وهذا يمكن ملاحظته فى المجتمعات التى تشتمل على بدئات مستقلة وتلك التى تعترف برئيس أعلى . واحتفالات التاليسى هى نموذج كلاسيكى لهذا النوع . ينقسم شعب التاليسى إلى : تاليس حقيقى الذين يدعون الحدارهم من الساكنين الأوائل لأرض تيل Talelanel والنامو Namoo انحدروا من مهاجرين لاحقين . ورؤساء بدئات النامو هم الحكام والاكثر أهمية فى السياق الطقسي هو امتلاكهم سحر صنع المطر والذى يدعون أنهم أحضروه معهم من وطنهم فى الشمال . يشتمل الاحتفال العظيم على طقوس يقوم بها بالتناوب النامويون والتاليسيون وكل مصاحب بالرقص ياخذ فيه المحتفون

دوراً بينما يقوم الجزء الآخر بالفرجة فقط . وفي أجزاء معينة في الطقوس هناك مواجهة رسمية بين الحاكم الرئيسى وكاهن الأرض الرئيس ويلقى كل منهما الدعوات على كل الجماعة التى يمنحه منصبه الطقوسى حق اعطائها تلك الدعوات . ويصف فوربس و تعزل الطقوس بوضوح كل مجموعة عن الأخرى وفي نفس الوقت توحيدهم فى المسؤولية المشتركة لرفاهية البلد (١) .

عند ما تعقد هذه الاحتفالات لا يسمح بالمشاجرة . هذا لا يشير بأى صورة إلى أن النية الحسنة - أو الإدراك العاطفى الدوركايمى للاعتماد الاجتماعى المتبادل - التى تولدها الاحتفالات تظهر قلوب الناس من الغضب والكراهية . وما تعنيه هو أن النزاعات لا يمكن مواضعها بطريقة مكشوفة وتلك التى أصبحت عامة ويجب انتهاءها قبل مواصلة الاحتفالات . تهتم النزاعات من هذا النوع بأحداث المنافسة ويتم تسويتها بتسليم طرف ما أو بشكل من الحبل الوسط . وقرب بداية الاحتفالات التى يعتقد أن قيام الأفراد بها - يعتبر ضروريا لرفاهيتهم أو حتى لبقائهم - يجعل تسوية النزاعات أمراً عاجلاً ، وهذه أفعال - تقوى التساند - بطريقة عملية والذى ترمز له طقوسهم .

يظهر طقس التيكوبيا Tikopia المعتقد ، المعروف بعنل الآلهة - كيف يفرض الذين التزامات التعاضد من أجل الرفاهية العامة على أقسام المجتمع وهم مستقلة فى سلوكها فى شئون الحياة اليومية . كان كل واحد فى نؤساء التيكوبيا

(1) . *Ritual Festivals and Social Cohesion in the Hinterland of the Gold Coast*, American Anthropologist, 1936, p. 602

— قبل تحولهم إلى المسيحية — يعتبر مسئولاً طقسياً عن واحد من المواد الغذائية الأساسية .

توضح طقوس الاعتلاء والتنصيب تقسيم المسؤوليات الطقسية بين الأقسام المعترف بها في المجتمع المحلي تنقسم منطقة الشلك في أعالي النيل إلى إحدى عشرة قسماً على رأس كل واحد رئيس البدنه المسيطر هناك . يعترف الشلك بملك الهى (رث) والذي يصبح في مراحل طقس التنصيب تجسيدا لمنشئ الأمة - نصف الاله أو البطل نيكانق Nyikang ويعتقد أن مملكته تحتوى على نصفين وعاصمته في الوسط وأكثر العناصر درامية في طقس التنصيب هي المعركة غير الحقيقية بينهم والتي تحارب على ضفاف مجرى المياه وهذا ما يفترض أنه نقطة الوسط في المملكة وفي هذه المعركة يهزم جيش الملك ولكن فقط بواسطة جيش يحمل تمثال نيكانق الذي يهزمه قبل أن يدخل فيه . وكل واحدة من مناطق سكنهم الممتدة التي تنقسم اليها منطقة الشلك وكل عشيرة رئيسية مسئولة عن اعطاء شيء محدد يستعمل في الطقس . وتلعب البدنه أدوار طقسية معينة وكذلك فروعها التي فقدت الحق في منح القبيلة الملك وحرمة الخاص الموروث .

عند الالور Alur في غرب يوغندا ، يمشى رؤساء العشائر الخمس الكبيره في طقس الاعتلاء إلى جانب رئيس جديد ولكل مهمة طقسية غريبة . يحمل رجال إحدى العشائر الرئيس الجديد على اكتافهم ليزور قبور اسلافه وعشيرة أخرى تشعل النار التي انطفأت عند موت الرئيس السابق وهكذا . يشتمل اعتلاء ملك قاندا Ganda على أخذ روح - يعتقد أنها تقوى الملك الجديد ومن خلاله تقوى شعبه أيضاً ، وعلى بعض العشائر مسؤولية تزويد بالضحايا . هذه الواجبات هي موضوع فخر لأنها تؤكد مكانة هذه العشائر المرتبطة بالملكية .

أما الطقس التأكيدى السنوى عن السوازي المرعو انكوالا Incwala أو احتفال الثمار الأولى فهو واحد من أكثر ما نعرف تعقيداً وقاموا به فى السنوات الأخيرة فقط . يحتوى على عرض أفعال انتصار الملك على أعدائه ويرمز فيه بوضوح للبناء السياسى للامة حسب الأجزاء المعطاة للأفراد من مكانات مختلفة . وفى قمة الطقس يجرى تقسيم : للرعايا المخلصين للملك ، العاصيون (Aquates) الذين يمكن أن يكونوا منافسيهما ، الأجانب الذين لا يدينون بالولاء له ، وتؤمر هاتان الفئتان الأخيرتان بالابتعاد قبل ظهور الملك منتصراً ومحاطاً بجيشه .

الطقوس التكفيرية :

يقول إيفانز برتشارد عن الفئة الثانية الطقوس التكفيرية (١) : يقومون بها فى مواقف الخطر الذى كثيراً ما يعتقد حدوثه بسبب خطأ ما وفيها نجد فكرة الاسترضاء والتكفير ظاهرة جداً (٢) ولأنها تهتم بالرفاهية الأخلاقية والجسدية للفرد لذلك نجد فيها الصلة بين الدين والأخلاق .

أكد أنه فى بعض الديانات البدائية ، لا توجد مثل هذه الصلة . هذا الغرض قد يعنى أن الإلهية ليست خيرة ، كما قال يوربيدس عن آلهة اليونان - أنهم لا يعطون نموذجاً للناس المطيعين يجمع تمسكهم بالاحكام الخلقية مقبولا لديهم .

(١) أدخل دوز كايم هذا المصطلح إلى أدبيات علم الاجتماع والأنثروبولوجيا .

(2) The Meaning of Sacrifice among the Nlier* Journā of the Royol Anthro Pological Institute, 1954, p. 21.

حقيقة هناك آلهة صفتها الاساسية القوة أو البص الذي أثار الاعجاب لتغلبهم، على خصوصهم . ولكن في المجتمعات التي ينظر للآلهة من هذه الزاوية ليس من المفترض أن يحاول الناس ارضاء آلهتهم بتقليدها . يمكن الاعتقاد بفصل الدين عن الاخلاق حين يكون التأكيد على ارضاء الآلهة يتم بأداء الطقس الصحيح أكثر من أن يكون بواسطة السلوك الصحيح .

لكن من النادر حقا أن نجد مجتمعا بسيطا لا يعتقد أن مصائر الناس تعتمد بطريقة ما على سلوكهم الاخلاقي — فالاحداث التي لا يمكن السيطرة عليها كبشر لا يفترض انها موجهة من قبل كائنات مشخصة تشاركهم في أفكار إنسانية عن العدالة . عندما يكون هناك اعتراف بالسببية غير الشخصية (الموضوعية) فلا بد للناس أن يعتقدوا أن هذه الكائنات تقف أساساً إلى جانبهم، وإلا أصبحت الحياة مستحيلة .

الكائنات التي يتضرعون إليها في حالات العجز لا بد أن تساعدنا — ان لم يكن هناك سبب يجعلهم لا يستحقون المساعدة ورغم أن الاسباب توجد أحيانا في نقص أداء الطقس ، فانها توجد على الأقل كثيراً في الفشل في احترام الالتزامات الاجتماعية . بطريقة أخرى يفكر في الكون على أساس أنه نظام أخلاقي لا يعاقب الناس ضمنه ان لم يكونوا يستحقون ذلك .

لذلك يجب اعتبار الطقس التفكيرى في سياق التفسيرات الممكنة التي تقدم حينما يعاني الفرد من مصيبة بالذات المصيبة التي تتعرض لها كل فرد في وقت ما، كالمرض مثلا ، فالناس الذين يتعرضون للمرض في المجتمعات البسيطة التي لا يوجد بها طب على قد يذهبون للأطباء الذين لهم معرفة في المعالجة بالأعشاب ولكن في الحالات الكثيرة التي لا يكون فيها استجابة لذلك ، فهم يتحولون من

معالجة أبدانهم إلى معالجة، ويجدانهم . يتسائلون هل أساءوا إلى أحد، ولمن يقدمون تعريضا .

وسائط روحية وعرافون :

من أجل الإجابة لابد أن يذهبوا لشخص ما يستطيع الوصول إلى المعلومات اللازمة، لنقل إنسانا يمكنه الاتصال بكائنات خارج مستوى القدرات العادية وهؤلاء الأشخاص هم دائما متخصصون تعلموا مهنتهم . هناك نوعان رئيسيان يمكن تسميتهما : وسيط روحي، وقارئ غيب أو عراف لأن هاتين المصطلحين أكثر استعمالا يرمي الوسيط الروحي إلى التكلم - في حالة غيبوبة أو انفصال بصوت كائن غيبي - بشرى يعرف اجابات لاسئلة الناس . أما قارئ الغيب (العراف) بينما هو في حالته الطبيعية - يستعمل الأشياء التي يفترض أنها تعطينا إجابة دون تدخله .

يسمى الممارسون للنوعين في أفريقيا عادة أطباء سحر Witch-doctors . واستعملت الكلمة في عمل كلاسيكي حول هذا الموضوع لإيفانز برتشارد (1) لأنها احتوت على كلمة سحر - وهي شائعة بين الناس وتدل على شيء مشوم وارتبط استعمالها بالاعتقاد في أن المتخصصين الذين يذهب إليهم الأفريقيون هم سحرة وموضوعات للزعم ، و طيب - السحر المقزع ، تعبير نجدة في كثير من الكتابات . ومن هنا فمن الأحسن تجنب الكلمة لمن يرغب في تجنب سوء الفهم . ودور الوسيط الروحي والعراف ضروري في مثل هذه المجتمعات التي يعمل فيها مثل هؤلاء ويعتبرون مفيدون إجتماعيا .

(1) 'Witchcraft among the 'Azande (1934) .

حسب معنى الكلمة المستعمل عند العلماء الكلاسيكيين أى الوحي (هاتف الغيب) فمن نطق ، ولذلك فلا بد أن تكون روح الوسيط هى التى تعطى هواتف الوحي . ولكن أغلب الانثروبولوجيين استعملوا كلمة هاتف لتوصف الأشياء المستعملة فى الكشف عن الغيب . وهناك أعداد لا تحصى منها - من أبسطها عند اللوفبارا Lugbara عصا الاحتكاك - وهى مثل أشياء ، أفعله بنفسك ، go-it yourself يمكن لأى شخص إستعمالها أى دون وسيط - فبينما يسمح شخص ما حرمة عشب بفندول ذرة تذكر أسماء بعض الناس أحياء أو أموات يحتمل أن يكونوا سبب المرض ، وعندئذ يثبت أو يلتصق العشب بالذرة يعتقد أن الاسم الصحيح قد ذكر نطق به . هذه واحدة من طرق عدة يستعملها اللوفبارا للكشف ، فأول شكلوا فى الإجابة التى أعطيت أو لم يرضوا بها ، فهم يبحثون عن التأكيد بمحاولة طريقة أخرى . ويستعمل النيدمبو Ndembo فى زامبيا طرقا أكثر تعقيداً - تعتبر نموذجاً للكشف فى مناطق عديدة - وهى وضع عدد من الأشياء فى سلة وترمى فى الفضاء . ويقرأ العراف الإجابة حسب الطريقة التى تسقط بها .

الكشف والوساطة لا يمكن دائماً التفريق بينهما بوضوح ، فكاشفو أو عرافو نيدمبو مثلاً رغم أنهم يعملون بطرح الأسئلة على الأشياء الموجودة فى السلة وليس بدخولهم فى غيبوبة ، فإنه يعتقد أن مدرتهم قد أعطيت لهم بواسطة روح بنفس طريقة وسطاء الروح .

الحقيقة المثيرة للاهتمام هى أن نشاطات العرافين ووسطاء الروح يقوم بها غالباً أناس محرومون من التطور فى المجال الدينى . فى بعض المجتمعات هى من نسائية ، وبين اللوفبارا - حيث يجب أن يحتل منصب الرئيس ابن الزوجة

الأولى الكبيرة السابقة - فابن زوجة صغرى لأمل له فى تحقيق ذلك لأنه لا يمكن أن يخلف أخيه غير الشقيق كما أنه قريب جدا له لينفصل ويرأس مجموعه نسبه الخاص . مثل هؤلاء قد يبحثون عن السمعة أو المكانة فى العمل كصناعى ومستخدمى رقى وتماويذ ، وينجمون لو اكتسبت رقيهم سمعة بأنها تعطى أجوبة ترضى طالبي النصيحة .

أما الوسطاء فيجب أن يكون لهم نوعا خاصا من الشخصية . يجب أن يكونوا مستعدين للدخول فى حالة انفصام ويتكلمون كما لو أن صوتا قد دخلهم من الخارج وغالبا ما يجدون نداء منبتهم بعد فترة من الاضطراب يمكن أن يسميها الاطباء النفسيون مرضا عقليا . تأخذ هذه الحالة المضطربة عادة كعلامة بأن روحا ما تريد أن تضم الشخص إلى خـدمتها . ولكن مما له دلالة - هو أننا لم نسمع عن شخص يحتل مواقع سلطه قد ملكته روح بهذه الطريقة ، ربما يمر بعضهم أحيانا بتجربة اضطراب مماثل ولكن من غير المستحسن أن تفسر بطريقة تمنحهم دوراً لا يتفق تماما عما هو موجود .

لا يدعى العرافون - مث - ل قارىء الحظ العجريين - انهم يعرفون كل شىء عن عملائهم بطريقة سحرية باطنية ولذلك لا يجدى أن تسمى إلى . عراف باظهاره أنه لا يستطيع أن يفعل هذا . بالطبع الشخصى الفطن يكون قادراً على أن يحوز اعجاب الغرباء . وأن يخرج باستنتاجات ذكية من مظهرهم وسلوكهم . ولكن هذه مسألة أسلوب مهني أكثر منه تشخيص والناس الذين يستشيرون يعطونه عادة مجالا ضيقا للممكنات والبدائل يختار منها اداته . رغم أن تيرنر⁽¹⁾

(1) V.W. Turner, Ndembu Divination, Rhedes Livingstone Papers no 31, 1691, P. 14

يقول عن التئيمبو ان بعض العرافين تعرضت حياتهم للخطر لاعطائهم اجابات غير محببة ، فان هذا يبدو خروجاً عن القاعدة (استثناء) فأى إجابة قد تكون غير محببة لشخص ما ، ولكن من الممكن دائماً محاولة عراف آخر أو طريقة أخرى انذلم تعجبك الاول . والاجابة غير المقبولة اطلاقاً غير معروفة .

سبب هذا واضح لانه عندما يمرض الإنسان ولايستطيع الشفاء فهو يبحث في رجائنه وقد يجد عدداً من الافعال التي يمكن أن تكون قد أساءت إلى الازواج بطرق مختلفة أو قد لا يجد شيئاً، في هذه الحالة يبحث عن عدو يريد به شراً . ولكن النظام الفكري الذي يربط الذين بالاخلاق قد يبدو لا معنى له في حالة البحث عن تفسير للمرض في وضع لا يكون الضحية وجيرانه غير مدركين له .

أساس نظام الافكار هذا هو القناعة بأن المعاناة جزاء مستحق لان الكائنات التي يعتمد الإنسان على حمايتها لا تحجبها إلا سبب معقول . والسبب المعقول أو الجيد يعنى عموماً — ما يمكن أن يعنيه في حالة السلطة البشرية أى كسر القوانين التي من مسؤولية المرء أن يحافظ عليها . هذه واحدة من الطرق التي يعتقد ان الدين هو امتداد للعلاقات الاجتماعية خارج العالم الإنساني .

ويعتقد كثير من المجتمعات الافريقية ان ارواح الاسلاف تهتم بسلوك الخلف الاحياء ، وتزور — في شكل المرض — الذين لا يراعون التزامات القرابة ، ويعتقد احياناً ان الاسلاف في صلة القرابات المختلفة (حسب وجهة نظر الفرد) يكونون مهتمين بمجالات مختلفة للتصرف والسلوك . يعتقد ايضا ان الموتى يفضون لنسيان الاحياء لهم والذين يتجاهلون تقديم القرابين للموتى . يظن ان اسلاف الزواجا يقولون الجوع تغلب علينا ، ايناثنا لا يعطونا شيئاً لنأكله . عندما يتعرف ، على السلف الذي اسمى إليه — يعطى قرباناً له وهذا هو

الطقس التكفيرى والذي يحدث السلام لىكي تعود العافية إلى من يعانى . الوقبارا
فى هذا المجال استثناء فهم لا يقدمون القرابين حتى يروا الشفاء . فهم يعرضون
Show فقط حيواناً للأرواح ، ويشرعون بتضحيتها أو ذبحها فى الوقت المناسب .
هذه معاملة للألهة مثل أناس يصعب الوصول إليهم .

ولكن ماذا يحدث حين لا يمكن التعرف على أسىء إليها أو — وهذا كثير
الاحتمال — عندما رفض الضحية أو اقرباؤه الأقربون مرضه كعقوبة مستحقة؟
يدرك الناس عامة أنه ليس كل المعاناة مستحقة . نتيجة لذلك يجب أن تكون
بعض الحالات بسبب تأثيرات شريرة وليس لأخرى خيرة — من كائنات ليس
هدفها تأديب المصاب ليتعلم درساً ولكن ببساطة تبحث عن تسييب الأذى له .
وتفهم هذه الكائنات كبشر ، وهم الذين يتجسدون فى أساطير كثير من الشعوب
كسحرة . ولهذا السبب يجب اعتبار السحر كعنصر من العقيدة الدينية وليس
شيئاً منفصلاً عنها .

السحر :

كتب إيفانز برتشارد الدراسة الأولى المفصلة عن السحر بين عامى ٣٦٠ —
١٩٣٠ عن الزاندى فى حـود السودان والكونغو . فقد وجد عقيدة — ثبت
منذئذ أنها منتشرة جداً فى إفريقيا ، وهى فكرة أن السحر مادة موجودة فعلاً فى
أجسام بعض الناس والى تعمل حتى دون إرادتهم . ولو كان هذا هو كل الأمر ،
لأمكن القول أن السحر محايد ، وهو ببساطة طريقة لصدفة بجسدة . ولكن
الزاندى يعتقدون أنه ما أن توجد هذه القوة فى شخص ما — كما هو الحال عندما
يجدها العراف كسبب لمرض شخصى ما فسرعان ما يبدأ فى إستعمالها قاصداً لإيذاء
الناس الذين لا يحبهم .

الناس الذين يتخيلون السحر — بهذه الطريقة يفرقون بين السحر والسحر الأسود ، والآخر هو استعمال مواد حسية لإيذاء الآخرين . والرجال أو النساء الذين يدعو معرفة مثل تلك المواد يمكن إستخدامهم عموما لاستعمالها من أجل الآخرين . عندما نقوم بهذا التفريق يفترض عادة إمكانية تبرير السحر الأسود — مثلا — لكي يعاقب لص غير معروف ولعدم معرفتنا به لا نستطيع احضاره للعدالة . ويعتقد في جزر التروبرايد أن الرؤساء تتركز مكائهم لحسد كبير على قواهم السحرية المفترضة في السيطرة على المناخ ، وهم يستعملون أصحاب السحر لمعاقبة الاعداء وهذا لا يعتبر خطئيه .

حاول الاثروبولوجيون في كتاباتهم متابعة التفريق بين السحر والسحر الاسود كما هو عند الزاندى ، فالسحرة يعتمدون على قوى فطرية طبيعية فيهم بينما السحر الاسود يستعملون « الادوية » — كما تسمى مادتهم في الادبيات الاثنوغرافية ، ولكن هناك مجتمعات لا يمكن تطبيق ذلك عليها بسهولة . لا تقوم بعض الشعوب بتمييز واضح ، ويرون أن هناك أنواعا متعددة من الناس يستعملون « الادوية » ولكن يمكن التفريق بينهم كسحرة وأصحاب سحر أسود .

السبب الاساسى للاعتقاد في السحر هو أكثر أهمية من الصفات الخيالية التى ينسبها اليهم اناس معينون رغم أهمية هذا . انها الضرورة لشرح وتعليل المصائب غير المستحقة عندما لا يعترفون بأن المصائب يمكن أن تأتى عن طريق الصدفة . أكد إيفانز برتشارد في تحليله لعقيدة الزاندى على حقيقة الطريقة المنطقية المحكمة في تفسير الاحداث ، بالطبع يعرف الزاندى ان الشجر لو وقعت عليه ستقتله ولكنه يتسائل أيضا لماذا وقعت على ١٩ ،

الإجابة يجب أن تكون « انها غلطتك » أو « أنها ليست غلطتك » ، فانا أن تكون المصيبة قد جاءت على الضحية بسبب سده علويين للنظام الاخلاقي أو بسبب قوة ما هدامة للنظام الاخلاقي - مبدأ الشر . ولذلك لابد أن يكون دائما في مكان ما في الكون - قوة كاملة للشر - كائن مجسد لا يمكن اطلاقا تبرير أفعاله . وفي غالبية المجتمعات الافريقية هو الساحر - يحدد كما يحدد الزاندي السحرة . ولكن في بعض المجتمعات هو شخص يستعمل الادوية وهذا ما يسميه الزاندي وعدد كبير من الانثروبولوجيين صاحب السحر الاسود .

اهتمت دراسات إيفانز برتشارد عن السحر بين الزاندي بأنه غالبا ما يكون نسقا للعقائد وأظهر أنه حسب مفهومات السحر الخاصة - فهو عقلاني محكم يعطى تفسيرات سببية لاحداث كان يمكن في غير ذلك أن تكون غير مفسرة بالاضافة . إلى أن التفسيرات هي ملاذ عمل يظل بدونه الانسان عاجزا في مواقف الازمات . وأظهر كيف أن بعض مجالات نسق العقيدة يمكن الاستعانة بها لتفسير أي موقف وقد ناقش أيضا مسألة أمانة العرافين وتصديق زبائنهم لهم . من خصائص ثقافات الزاندي وبعض الافريقيين الآخرين - ان الاخصائيين الدين يستشارون في حالة المرض يرمون إلى ازالة اشياء في جسم المريض وضعها الساحر ويفترض انها السبب المادى للمتاعب . من الواضح أنهم لا يستطيعون فعل ذلك انه لم يحضروا الاشياء معهم - وهذا يكفي عند الاوربيين لدمغهم كدجالين يستغلون ان الناس مصدقون فيهم . وهنا نقطة يجدر تسجيلها هي أن وظيفتهم اعطاء تفسير للمرض أهم كثيرا من الفعل العلاجي والاكثر أهمية هو الخطر بأن الناس لابد لهم من اللجوء إلى ملاذ من نوع ما في المصاعب التي لا يعرفون لها حلا عمليا . كما أبرز إيفانز برتشارد أنهم قد يكونون شكاكين

في أصالة بعض الممارسين ولكن كل واحد يؤمن بوجود آخرين أصيلين في مكان ما ، وفي وقت الشدة لا يكون لديهم أى أمل بغير هذا الإيمان .

في المجتمعات التي يؤمن فيها الناس بالسحر هناك مجموعة كبيرة من الأفكار حول أشكالهم وكيف يتصرفون جوهر العقيدة هو عدم وجود طريقة تجريدية عملية لكشف نشاطات الساحر . رغم ذلك هناك أفكار عديدة من أعمالهم الشاذة الخفية . المهم في هذه الأفكار هو الرمزية التي يعبر من خلالها . وهذه دائماً هي الرمزية الاجتماعية . فالليل — عندما يراد فعل شر خفي — هو وقت السحر المناسب والمخلوقات الليلية مرتبطة بالسحر مثل المخلوقات السامة مثل الثعابين . وهم مرتبطون بالتشويه . والمناطق المتوحشة مثل الإدغال وخارج القرى التي حضرها الانسان . ويصورون في أفعال تمثيلية تستفز الادب مثل الرقص عارياً والتبرز فوق الارض المنبسطة أمام المنازل . هناك فكرة عامة عن نوع البشر يعتقد أنهم ساحر شخص عابس ، غير اجتماعي ، متدمر ، يأكل لوجده ولكنه يشكو من عدم تقديم الطعام له بواسطة الآخرين .

تتلور في هذه المعتقدات صورة لمجتمع فيه كل ما يكرهه المجتمع ، وما يعززه المجتمع يؤكد بما هو معاكس لما يصور . أفكار شخصية الساحر النموذجية تكون جزءاً في نظام الضبط الاجتماعي في نفس الوقت تزود بصورة ذهنية مضادة . وهي نموذج لما يعتقد أن من يستحق تقدير زملائه لا يجب أن يكونه . في بعض الأحيان . كما هو عند بايكيوسا Nyakyusa يعلم الاطفال الا يقوموا بأفعال يمكن أن تثير الاستياء لكيلا تغضبوا ساحراً . لانه من خصائص عقائد السحر انها يمكن أن تستعمل لتبرير أي شك في السحر ، قد يمارس السحرة قواهم — كما فعل اياغو Iago في اموره المادية — بواسطة احقاد غير مسببة — ولو أثرت احدهم فقد تزيد مخاطرة ان تجعل نفسك ضحية لا يشغل المؤمنون بالسحر انفسهم بوجوب ان تكون افكارهم حول الموضوع منطقية تماماً على الأقل في الوقت الذي يطبقون فيه افكارهم على حالات ملبوسة .

الحالة المألوفة النموذجية هي المرض ، هناك نوايب تنسب للسحر ولكن أغلب المحاولات لتحديد ساحر هي في حالة مرض شخص ما ومن المهم أن الصورة الذهنية العامة للساحر لا تستحضر للمساعدة في الكشف — لا يسأل أحد أن كان شخصاً غامضاً مصحوباً بكوابر كان يترصد حول م يكن الضحية . لو كان هناك أناس لهم سمعة كسحرة لا تعرض أسمائهم . بل يسأل الناس عن له شكوى ضد الشخص المريض .

اتهامات السحر هي طرق لمتابعة المشاجرات رغم أنه قد يكون من المبالغة القول بأنها تستعمل عن قصد بهذه الطريقة . وقد أعطى عدد من الأنثروبولوجيين في الفترة الأخيرة اهتماماً خاصاً للاتجاه الذي تأخذه الاتهامات ، ووجدوا أنه في كل مجتمع هناك سياق له خاصية لمثل هذه الاتهامات . هذا يحدث كنموذج بين الأشخاص — الذين نتيجة لقواعد المجتمع — يجب أن يكونوا على صداقة ولكنهم في اختلافات . وتتطور مواقف التوتر باتهامات السحر وفي بعض الأحيان يؤخذ هذا الاتهام كمبرر لانهاء العلاقة عند ما لا توجد أى طريقة أخرى

ويزودنا اللوقبارا بمثال مثير للاهتمام — حيث يعتقد هذا الشعب كما يعتقد آخرون ان غضب البشر على أخطاء الآخرين يلهم اشباح الاسلاف لكي تعاقب المخطئين ويعتقدون أيضا أن حسد البشر على نجاح الآخرين يمكن أن يجلب الأذى للبحسود، وهذا هو مفهومهم للسحر وهم يستعملون نفس الكلمة oie للشعوذين . في واجب أكبر البدنه أن يسبب تدخل الاشباح ضد أفراد البدنه الذين يتخطون أحكام البدنه المتحابية واحترام كبار السن ، ولو مرض أحد الصغار يدعى انه فعل ذلك ولكن ما أن يكبر المسنون أكثر حتى تقل سلطتهم حتما ويجدون أنفسهم باستمرار مجبرين على أن يستنجدوا بالاشباح وحين يجرى الوقت الذي يريد فيه فرح أحد البدنات

أن يؤكد استقلاله وذاتيته والطريقة لعمل ذلك هي الادعاء أن الكبير لا سلطة له عليها ، ولو سبب مرضا وهو لا يملك السلطة لفعل ذلك فهو يمارس السحر . وهكذا فإن نفس الفعل هو سحر أو عدم سحر حسب اتجاه الذين ينظرون اليه ، أولئك الذين يبحثون عن تأسيس مكانتهم ككبار مستقلين فهم الذين يوجهون تهمة السحر . وعند ما تشيع هذه الأفكار يصبح من المستحيل التفكير في السحر كطبقة منفصلة من الناس وعند اللوقبارا الساحر الاسود وليس الساحر هو نمط الشر .

يطرح بين الشعوب الأموية المنحدر في زامبيا ومالاوى — انقسام مجموعة الانحدار عامة باتهام الشعوذة ضد الرئيس ولايفرق ياو yao في مالاوى والنيديمي في زامبيا بدقة بين السحر والسحر الاسود. وهذا من الصعب فعله حين يكون الشخص المتهم حتى تلك الفترة هو قائد وراعى القرية. وهذه الشعوب ليست لديها الايدولوجية المعقدة مثل اللوقبارا . يلاحظ المرء مثاهم ببساطة أنه عند ما يفكر جزء من مجتمع القرية في الانشقاق ، فالمرض بين أفراد هذا الجزء عرضه إلى أن ينسب إلى سحر الزعيم أو الرئيس . وقد لاحظ الاثنروبولوجيون أنه في الاحوال البيئية لدول وسط افريقيا يصعب لجماعة أن تجد طعامها لو زادت عن حجم معين ، حتى يأتي وقت في دورة زمنية معينة تكون القرية فيسه عرضه للانقسام . لكن القناعة قوية إن مجموعة الانحدار لابد أن تكون معا حتى لا يتحرك قسم بعيدا لانه يريد ذلك الايمان فقط أنهم ضحايا خطأ لا يغتفر وهو ما يبرر التقسيم . على كل حال لا يوحى ذلك بان اتهامات السحر تدرك بوعى لمقابلة المناسبة .

اتهامات السحر ضد أشخاص محددين باسمائهم ليست منتشرة في كل المجتمعات

مطلقا . فى بعض المجتمعات هى أدراة لازمة لمحاكم الرئيس ، وفى أخرى ينسب الناس مصائبهم إلى سحرة مجهولين ويترددون فى إثارة عدااء شخص حقيقى بسبب اتبامه . لابد من أن يفرق المرء بين الاتهامات الرسمية التى تفعل بقصد وعلى أساس الكشف وذكر الاسم خلال سخونة مشاجرة ما . ولكن هذا النوع الأخير من الاتهام - ربما لا يعنى بجديّة - قد يكون له سياقه المتميز . وقد لاحظ لينهاردت بين الدينكا أن الناس الذين يتهمون بعضهم الآخر بهذه الطريقة هم فى الواقع فى علاقة تنافسية مع شخص ثالث - مثل الزوجات الضرائر تجاه زوجهم المشترك ، العلاقة التى لم يحدد فيها قاعدة تبين امتياز أحد الأطراف ، وبالتأكيد بالنسبة للحق فى مسألة النزاع والذي فيه امتيازات يجب أن توزع .

وطالما فهم السحر كتجسيم للشّر فليس من المدهش أن تكون هناك محاولات لىكى تتخلص المجتمعات من السحرة نهائيا . وتأخذ هذه المحاولات أحيانا شكل مؤسسة أو نظام . مثال ذلك نوبة Nupe فى شمال نيجريا لديهم رابطة عبادة وظيفتها الوحيدة هى اكتشاف وفضح السحرة . يزور راقصو العبادة المقنعون مدينة أو قرية ويجمعون النساء - لاعتقادهم أن كل السحرة فى النساء - فى ميدان الرقص . ويستمر الرقص طوال اليوم وبين كل فترة وأخرى يتوقف الراقصون وينقضون على النساء ، والى اتهم بهذه الطريقة عليها دفع غرامة ومن لا يستطيع تعمد . وبالتأكيد هناك إمكانية الابتزاز فى حكمهم . ولكن حين ناقش النسوبة ذلك الموضوع مع نادل بعد سنوات لم يعتبروا أن اختفاء النظام مكسبا صرفا وشعروا بعدم الراحة لأنهم لا يملكون حماية ضد السحرة (١) .

ويظهر الأفراد الذين يقدمون مثل هذه الحماية من وقت لآخر خلال فترة الحكم

(1) S. F. Nadel, Nupe Religion, 1954, pp 1947

الاستعمارى. ويشير بعض الكتاب إلى أن ظهورهم هو - أعراض لزيادة القلق الناجم عن كل المشاكل التى خلقتها محاولات تحديث أفريقيا للناس البسطاء ، ويقال ان تكاثروا عبادات معرفة السحر. هى استجابة للقلق المحدث الذى نهأ حين منعت المطاىء الاستعمارية المحاكم من محاكمة المتهمين فى تهم السحر . ولا يستطيع أن تتيقن من عدم ظهور مثل هذه الحركات قبل الاستعمار رغم أنها لم يكن من الممكن انتشارها فى مناطق واسعة بالطريقة التى جعلت ذلك ممكنا بالمواصلات الحديثة ..

ليس هناك انكار للدعاء بان بعض الناس لهم طرقهم فى كشف السحر - واحتمال التحطيم أو المعالجة - ويقابلون بنجاح كبير . هناك شئ مشترك بينهم وبين المجددين المسيحيين، رسالتهم للشجرة ان يتوبوا لكي ينجوا فى نتائج مهلكة بسبب خبثهم وليس لهذا مقابل فى الاديان المعروفة حيث يصلح المرء خطأ حدث لا إنسان أو كيان مقدس يعمل معين آخر ككفارة . اكتشاف السحر هو جزء من حركة دينية أخرى هى الالفية millenary و chiliastic حسب تفضيل القارىء للكلمة اللاتينية أو الاغريقية لكلمة ألف thousand .

عبادات الالفية :

تشمل هذه الكلمة الطوائف المسيحية فى أفريقيا اليوم ، والعبادات التى ظهرت فى أماكن عديدة فى جنوب الباسيفيك خلال هذا القرن وبعض القديم منها بين هنود أمريكا الشمالية - بتاريخ طويل يرجع إلى العصور الوسطى . هذا تاريخ المسيحيين لوصول السماء إلى الأرض ، انهم فى بعض الاحيان يمتدحون أنفسهم أن يجيئة بات وشيك الحدوث وينجوا من ذلك فقط الذين يعلمون هذه الحقيقة ومهايون

للحديث : ونحن اقتربت سنة ١٠٠٠ يعتقد الكثيرون انها الميعاد ويعتقد أيضا أن
ملكه الله على الأرض ستستمر لآلاف عام ولذلك جاءت تسمية هذه المعتقدات
بالآلفية وهي كما يقول الحريصون على استعمال الكلمات — ليس استعمالا دقيقا
بجداً للكلمة .

جوهر هذه المعتقدات وجود نخالة كمال للعالم الحالية من العيوب وتخلو من كل
الشروء التي هي جزء من نصيب وقدر الانسان — وستحدث نتيجة معجزة .
يعتمد المحدث نفسه على أداء الطقوس المناسب وعندما تجيء الحالة يستمتع الذين
قاموا بالأداء بالعالم الكامل ، بينما سيدمر الذين رفضوا القيام بذلك وأخروا
خدوشها . يزيد احتمال وجود مثل هذه المعتقدات بين أنصار الأديان التي تنظر
إلى نخالة من الكمال في المستقبل — كما يفعل اليهودية والمسيحية والاسلام بطرق
مختلفة (١) . يرى الناس في كثير من المجتمعات الصغيرة العميد الذهبي كحالة وان
الانسان اصنعه بإفقاله ولن يسترجع أبداً . ولكن بقي حلم الآلفية عند بعض هذه
الشعوب ، يعتقد هنود Tüpe Güarani في البرازيل في وجود أرض بلا شر
الآن، وتشرح الكثيرون منهم في هجرات بحثاً عنها . وعند شعب جويزة Biak في
الشاطئ الشمالي الغربي في غينيا الجديدة — اعطورة — يبدو انها محلية تعد
برجعة بطل عايش في الماضي السحيق . ومع هذه الرجعة يفتق المرض والموت والكبر
والحاجة إلى العمل للشاق .

يتضمن العصر الذهبي دائماً — كما يعتقد — عودة الحياة إلى الذين ماتوا .

(١) تظهر عند بعض الطوائف المسلمين في فكرة المنهية وظهور المهدي الذي
سيملا الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً . كذلك ظهور المجددين عقب فترات
معينة (م) .

وإذا اعتبر الناس أن اضطهاد الذين أقوى منهم هو أحد الشرور ، فإن عالمهم المثالي سينخلو من المضطهدين . وتحيا الاسطورة عندما يظهر نبي برهالة عن قرب الوقت .

عندما نتعامل مع شعب لا يمتلك تراثا مكتوباً ، ان نستطيع أن نحدد الظروف التي حدث بهم أن يفترضوا أن الوعد يسكاد أن يتحقق . الحالات التي جاءت إلى الانثروبولوجيين كلها من المناطق الخاضعة للاستعمار ويبدو فيها تحطيم المضطهدين مهما في الحلم . وقد دار نقاش حول ان حركات الالفية في العصور الوسطى نشأت بين المحرومين وبالذات الذين لم تكن لديهم وسائل دينوية لتأكيد تطلعاتهم والسعي وراء مصالحهم . هذا رأى نورمان كوهين (ليس انثروبولوجيا) ، وكتب أن كثيراً من هذه الحركات تجذب اتباعها من العمال المهاجرين إلى المدن الجديدة التي كانت تنمو في القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر في شمال فرنسا والارياف المنخفضة وعلى طول الراين (١) . وقد ذكر أن بعض حركات الالفية نشأت بين اناس ليسوا فقراء ولا مضطهدين وهذا يبين وجود أكثر من سبب للناس لكي يشعروا بعدم الصبر على الحالة القائمة وهم عاجزون عن تغييرها بالمسبل الدينيوية . وتبقى حقيقة أن الإحساس بالظلم هو غالباً ما يكون عنصراً في هذه الحركات .

من أشهرها رقصة الاشباح عند هنود أمريكا الشمالية الغربية — سميت بهذا الاسم لأنها تنظر إلى عودة الموتى ولأن الوسائل لاحتضارهم يعتقد أنها الرقص في أيام النهاية بطريقة يصفها النبي . وتعتبر الالفية هنا كرجوع لحالة خلعت قبل مجيء الرجل الأبيض — أيام مثالية وكاملة حيث كان العبيد دائماً ناجحاً ، حيث لا مشاجرة ولا سحر . يدعى الانثروبولوجيون الامريكيون ان حركة النظرة إلى الخفاف هذه

(1) N. cohen : The Pursuit of the Millennium, 1957

« محلية أو وطنية » ، ولفترة استعملت الكلمة عامة كمصطلح لوصف كل الحركات الدينية التي يعطى فيها السكان المحليون معلومات رمزية عن نوع العالم الذي يودون رؤيته . ولكن رقصة الشبح تبدو فريدة في اضمفاء صفة الكمال على الماضي . وتهدف أغلب حركات الالفية المعاصرة إلى تحقيق قدر أحسن من المستقبل - لنقل نتيجة تقنيه الاله . ويسمى أغلبهم أيضا إلى تبني تعاليم وطقوس المسيحية من أجل تحقيق طموحاتهم . ولذلك يسمون أحيانا التوفيقيين .

من أشكال الحركة التي أخذت اهتماماً بين الانثروبولوجيين هي عبادة الشحنة Cargo cult التي ظهرت في صور كثيرة في جنوب الباسفيك . مضمون عبادة الشحنة . هو الاعتقاد أنه عند الالفية يجيء الاسلاف ويحضرون معهم كميات كبيرة من البضائع المستوردة التي عند الاوربيين امكانية غير محدودة للوصول إليها ، بينما ليست في متناول الدخول النقدية للوطنيين . يحاول قادة حركة الشحنة ان يقيموا سلطتهم السياسية الخاصة في بعض الاحيان ، أو يقنعون بالاعتقاد أنه عند مجيء اليوم يحدث أمر آخر وينقلب العالم رأساً على عقب ويصبح الاسود متفوقا على الابيض .

ولم تحظ الحركات الافريقية من هذا النوع بدراسات كثيرة من الانثروبولوجيين البريطانيين رغم وجود مادة كثيرة عما يسمى حركة « النبي » ، في منطقة الكونغو . في هذه الحركات - كما هو في ثورة Chitembwe بنياسلاند - كان التعبير عن الامان السياسي أكثر وضوحاً . وصفها عالم الاجتماع الفرنسي جورج بالاندير بأنها ردود فعل شاملة ضد الوضع الاستعماري وما يمكن تسميته بالانجليزية حركة احتجاج ويعتقد بالاندير أن الاحتجاج السياسي يأخذ هذا الشكل في الوقت الذي لا تكون فيه هناك فرصة للثورة الناجحة - مقولة تقسربه من مقارلات العصور

الوسطى التي ذكرت قبل قليل، وقد لاحظ كوهين — على كل حال — ان حركات الالفية في القرون الوسطى تظهر غالبا حين تكون ثورة دنيوية. في طريقها للحدوث . حقيقة ان الحركات التي درست أثناء فترة الاستعمار تبين أن قادتها يهدفون إلى وضع نفقتهم في الله وحده ويرفضون استعمال القوة ضد زملائهم . لم يصدقهم الذين في السلطة ولذا اعتقدوا دائما أن من في السلطة شرير . ولذلك كثيرا ما قاوموا الأوامر — مثلا اجراءات الصحة العامة — وهذا يجعل من الضروري للسلطات أن تتخذ اجراءات عنيفة وهذا يقود في بعض الأحيان إلى مواجهة مباشرة مع العنف .

بينما كتبت هذه الكلمات أوردت الصحافة يوميا تقارير من زامبيا عن عدد الذين قتلوا بواسطة طائفة Lumpa التابعة للنبية اليس لينشينا Alice Lenshina ويبدو أنهم غير راغبين في انتظار الالهة التي سوف تحطم غير المؤمنين (كتب أنه غير المؤمنين بادروا بالهجوم عليهم) .

لو قلنا مع بيتي أن جوهر الدين هو للبيان الزماني للوغائب المشعور بها بشدة، فيمكن أن نرى كيف تصل هذه الوغائب أقصى درجة العنفوان ، أكثر مما يمكن أن تكفله النظم الدينية المؤسسة (أو الأروثودوكسية) ، تدعم النظم الأورثودوكسية التقليدية — كما يقول دوركايم — النظام الاجتماعي بتبريره — ان لم يكن بعمل طقوس له . سيأتي زمن تكون فيه الطوائف المهرطقة أو الخارجة أديانا تقليدية (أورثودوكس) ، ولكن حين يحدث ذلك ، فهي تتخلى عن مثالياتها الالفية .

الاسطورة :

ذكرت أساطير الأديان الالهية السعيدة سابقاً وهذه مقدمة لمناقشة الاسطورة كعنصر هام في الدين .

في الاستعمال العادى تستعمل كلمة اسطورة في أى كلام أو تصريح يفترض المتحدث أنه غير حقيقى . والبيانات التى يسميها الاثنروبولوجيون اسطورة هي حقيقة غير واقعية . فهي تصف أحداثاً يعرف الشخص المتدرب عليها أنها لا يمكن أن تحدث، وعند رواية الاساطير أيضاً هي أحداث لا يتوقع أن تحدث مرة أخرى فهي تنتمى إلى زمن المعجزات البعيد ، حيث كانت الأشياء مختلفة .

ولكن ماهو مهم في الاسطورة — كما يعبر مالينوفسكى — ليس هو ببساطة كونها قصة وقائع اعجازية . ومن هذا المنطلق من الخطأ اعتبار الاسطورة تاريخاً مشوهاً أو علماً مشوها . جوهر الاسطورة — كما يقر — هو كالميثاق . الاسطورة هي قصة الصنع أو العمل الأول لفعل ما ولا زالت تتردد في النطق ؛ أو هي صلاحية ادعاء ما في العلاقات الاجتماعية . فهي تضع أسس فعالية سابقة لماض عظيم لأفعال متكررة في الحاضر (١) . مثلاً قصص مجيء السلف الأول من سلالة ملكية حاملاً معه فنون الحضارة ، معجزات السلف الأول ، سلطة طقسية . وأول من يستعمل نوعاً من السحر . هي أساطير لأنها تعطى صلاحية لادعاءات الخلف . في ممارسة سلطة سياسية أو روحية ، أو ليكون للجماعة احتكار في استعمال السحر ، والاسطورة رمز تبطة بالطقس حين يجسد الطقوس الوقائع المذكورة في الاسطورة . بكل القصص التى تتحدث أن شيئاً ما صار توتماً لجموعة سلائية . هي موافق للسلوك والطقوس ملزمة تجاه موضوع الطوطم .

(1) B. Malinowski : Sex, Culture and Myth, 1963, p. 251

يتضح في هذه النظرية اذن أن الاسطورة لها صلة بصورة ما بالكوّنات فهي ليست محاولة لتفسير الكون أو كيف ظهرت الأشياء — انها تفسر كيف أن ما يفعل اليوم هو الفعل الصحيح . وطور ليتش هذا الاتجاه أكثر حين قال أنه من العبث أن تطرح أسئلة عن المعلومات التي في الاسطورة كما أنها تكون جزئاً من جسم النظرية (١) يمكن توسيع تفسيره أكثر . يقول أن الاسطورة هي ببساطة الجانب الشفهي للطقس ، فلو قاله لك أحد الكاشتين Kachin أن الطقس الذي تلاحظه هي قربان لكائن يدعى nats عليك أن تقبل هذا لأنه كل الذي يمكن أن يقال . ويمكنك أن تستنتج من الطقس نفسه أن بعض الـ nats أكثر أهمية من بعض ولكنه من العبث أن تطرح أسئلة حول منظر وطريقة حياة الـ nats لأن الكاشيتين نفسه لا يمكن أن تجيب على مثل هذه الأسئلة .

يفرق مالىنوفسكى بين : اسطورة ، قصة قديمة ، حكاية خرافية . يقول ان القصة القديمة Legend تحكى ويعتقد أنها تاريخ قديم رغم أن هدف الراوى هو عادة أن يدعم ادعاءات الجماعة ما ينتمى اليها، ولكنها لا تتحوى على أى عنصر للمعجزة ولا تعتبر مقدسة . الحكايات الخرافية مليئة باحداث معجزات ولكن لا صلة لها بالطقس فهي تسلية محضة ولا يفترض أى شخص انها حقيقة . الاسطورة هي تحديد للحقيقة أعلى وأكثر أهمية ، حقيقة أولى بواقع بدائى ومازالت تعتبر نمط وأساس الحياة البدائية (٢) .

لاحظ فيرث أن القصص التي تحكى في المجتمعات الصغيرة لا يمكن تقسيمها دائماً على هذا الشكل السابق . فعند التيكوييا ليس من السهل أن تفرق بين القصص

(1) Political Systems of Highland Barma, 1954, p. 14.

(2) Sex, Culture and Myth, p. 305

المقدسة (الاساطير) والديوية . في القصة المقدسة : « تعتبر الكلمات وشخصيات القصة أو فعل القص نفسه لديها شيء من القوة أو الارادة أو صفة ذات معنى فى حد ذاتها » (١) بعض القصص واضح انها مقدسة لانها تختص بارواح قوية ، ومن الخطر أن تحكى فى غير الطريقة المناسبة . ولكن نفس الأرواح تظهر فى قصص التسلية كما سماها مالينوفسكى فى الحكايا الخرافية .

ومثل النقاشات حول التفريق بين الدين والسحر ، هناك صعوبة ما فى معرفة أى نوع من القصص له أكثر خصائص الاسطورة المقدسة ، والصلة الوثيقة بالطقس هى خصائص الاسطورة والتي يمكن فى أى قصة أن تربط بخصائص الحكاية القديمة أو القصة الخرافية حسب تعريف مالينوفسكى .

بعض القصص التى يسميها أغلبنا أساطير ليس لها صلة بالطقس والبعض حتى صلته بالبناء الاجتماعى ضئيلة . كمثال للأساطير التى ليس لها صلة بالطقس يمكن أن يلجأ المرء إلى أساطير الشك الغنية : بعضها يروى كيف ولد شبيه الاله — نياكاتق — وكيف جاء إلى أرض الشك وهذا له ارتباط وثيق بالادعاءات السياسية والطقسية لمالك الشك والذي يعتقد أن الروح تناسخ فيه ؛ وبالطقس الذى يؤدى عند تنصيب الملك الجديد . ولكن القصص الأخرى — والتى يسميها مالينوفسكى قصصا تاريخية ، فهى تحكى كيف وصل الشاك وجيرانهم إلى هذه البلاد التى يسكنونها الآن والمغامرات التى واجهتهم فى الطريق . قامت محاولات لإعادة بناء تاريخ هجرة شعوب أعالي وادى النيل — من هذه المصادر ولكن هذه الحكايات رغم أنها ليست مرتبطة أو مجسدة فى طقس ، فهى تعطى ميثاقا للامر الواقع . وتعطينا — كما تفعل اسطورة التكوين — تأكيدا بأن

(1) R.W. Firth : History and Tradition of Tikopia, 1961, p. 8

عالم التجربة منظم إلهياً ، فهي تدعم نظرية للعالم — عند كثير من الشعوب التي لا يسجل تراثها التغييرات الدرامية ، فقد كانت دائماً ويجب أن تبقى كما يعرفونها .

يرفض مالمينوفسكى فكرة أن الأساطير هي نوع من الوصف الأخلاقي الرمزي لعالم الطبيعة — الشمس ، القمر ، النجوم وحركة الفصول . ولا يفترض أحد الآن أن تشخيص الأسطورة يجسد هذه الكيانات والعمائم ولكن ليست كل الأساطير هي مشتاق لأفعال معينة . هي تجيب فعلاً على أسئلة . ويقال أن العلم يجيب على أسئلة وكيف ، بينما يجيب الدين على أسئلة ولماذا ، وأكثر الشعوب لديها أساطير تجيب على أسئلة ولماذا ، البشرية العامة — لماذا يجب أن نموت ؟ لماذا يصعد للأرض دون شر ؟ هذه الأساطير تحكي كيف جاء المسويت للعالم ، وكيف انفصلت الأرض عن السماء ، لأن شخصاً ما عصي الأمر الإلهي ، وهو ظلياً أمر محايد أخلاقياً وظلياً ما يتكون المعصيان ليس تعدياً ولكن مجرد تكسيل وعدم اهتمام .

منذ مالمينوفسكى حدث اتفاق حول كون الأساطير هي أكثر من محاولات لارضاء حب الاستطلاع الموضوعي لعالم التجربة . يرى بعض الأنثروبولوجيين الآن أنها تحتوي فعلاً عن هذا الجانب وأنه تجاهل من الذين يؤكدون فقط العلاقة بين الأسطورة والفعل الاجتماعي . يقال أن الناس يريدون حقيقة أن يكون العالم منطقياً — فهم يبحثون عن مبادئ موحدة من نوع ما ضمن تنوع التجربة ، وليس فقط العلماء ذوي الأفكار المعقدة هم الذين يحاولون فرض هذا النوع من النظام على العالم .

قارن هورتون (١) بين الأفكار الدينية في المجتمعات الأفريقية وبين النماذج النظرية للعلماء الغربيين — عند صنع نموذج كهذا يستعمل العالم حقيقة للتجربة المشتركة نظيراً تشبيهاً للعملية التي يحاول أن يشرحها . يقرر هورتون أن النموذج لا بد أن يكون نظاماً أو نسقاً — مجموعة ظواهر في علاقة منظمة ، طالما يفترض وجود نظام في الظواهر التي يستعملها من أجل الشرح . يجد العلماء الغربيون نماذجهم بين الأشياء بينما يجدها السكوتيون الأفريقيون بين الناس . يلاحظ هورتون أنه في المجتمعات التي تغيرت قليلاً خلال فترات طويلة من الزمن لا يظنون أنهم يتغيرون أبداً ، والعلاقات بين الناس تأخذ بسهولة كنموذج أو نسق أو نظام مرتب . كما يعرض تفسيراً آخرأ لصعوبة المناقشة مع الكاشتين حول خصائص وصفات ال nats ، ويقول انه عند ما يستعمل الناس فكرة الكائنات المجدد كنموذج لتوضيح القوى غير المسيطر عليها في الطبيعة يحتاجون فقط أن ينسبوا له صفات انسان لانها ضرورية للمناظر التشبيهية — دوافع انسانية وقوة مثل الرجل واعظم . يعلق ليتش ولهذا لا يهتم الكاشتين بأين يسكن nats وقد يهتم الكثيرون حول ان كان لهم سيقان .

وهذا المدخل للتفكير الكوني الذي يسميه فريزر وتايلور فيه الكثير المشترك مع مدخل الطوطمية عند ليفي ستراوس وفي السياقين تطور الانثروبولوجي من تفسير الافكار الدينية كتأملات مضللة بحثه إلى تفسيره كانعكاسات للحقيقة الاجتماعية ، وبالإضافة لصلتها

(1) *Ritual Man in Africa*, Africa, 1954, pp. 85—103

بالنظام الاجتماعى نوقشت أيضاً كشكل أصيل لتأمل طبيعة الكون .
ويجب أن نتذكر دائماً الفرق الجوهرى بين التفكير الدينى والعلمى -
فالنموذج الدينى مقدس وغير قابل للتساؤل بينما يختبر العالم
ملاءمة نموذجية مع الحقائق التى لاحظها ويغيرها لو ثبت أنها لا تلائم
الحقائق .

الجزء الرابع(*)

الثقافات الفرعية

مدخل الى التصورات والمفاهيم النظرية

- تعريف الثقافة .
- مفهوم الثقافات الفرعية .
- الثقافات الفرعية والجماعات العرقية .
- الثقافات الفرعية والجماعات المجتمعية الفرعية .
- الثقافات الفرعية والمجتمع الفرعى .
- خاتمة .

(*) للدكتور محمد عباس ابراهيم مدرس الانثروبولوجيا الحضرية
بقسم الانثروبولوجيا - كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

الثقافات الفرعية

مدخل إلى التصورات والمفاهيم النظرية

تعريف الثقافة :

يعتبر مصطلح أو مفهوم الثقافة Culture من أكثر المصطلحات شيوعاً واستخداماً، وأنه لم يحظ مفهوم من مفاهيم الأنثروبولوجيا العامة بقدر ما حظى به مفهوم الثقافة من ثراء في تعريفاته منذ أوائل القرن التاسع عشر وحتى الآن. ويرجع الفضل في ذلك إلى أن الثقافة هي موضوع الأنثروبولوجيا الثقافية، التي تعتبر من أوسع التخصصات والكتابات المنتشرة لاسيما في محيط الأنثروبولوجيا الأمريكية. وقد أدى هذا الاهتمام المتزايد إلى ظهور بعض المصطلحات أو المفاهيم الرئيسية التي تتصل بمعالجة موضوع الثقافة والمجتمعات المحلية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر الاتصال الثقافي، والتغير الثقافي، والاكتساب الثقافي والتخلف الثقافي، وأنماط الثقافة، والثقافات الفرعية Sub-Cultures وغيرها.

وإلى جانب ذلك ظهرت بعض الاتجاهات الأساسية في معالجة الثقافة، والتي يرى من خلالها أصحاب كل اتجاه بأنهم يتميزون عن أصحاب الاتجاهات الأخرى فيما يتعلق بفهم الثقافة وتفسيرها. ومن هذه الاتجاهات، اتجاه الأيكولوجيا الثقافية، والاتجاه التطوري والانتشاري، والاتجاه الوظيفي، إلى جانب الاتجاه السيكولوجي المتصل بوجه خاص بدراسة الثقافة والشخصية، أو بمعنى آخر دراسة الشخصية في الثقافة، ودراسة الثقافة في الشخصية، إلى غير ذلك من الاتجاهات والنزعات المذهبية والمنهجية.

وفي إطار الجهود التي بذلت لتعريف الثقافة ، نجد في عام ١٨٧١ قد نشر العالم البريطاني ادوارد بيرنت تايلور ، E.B. Tylor كتابه المكون من جزئين عن « الثقافة البدائية Primitive Culture » وهو يعتبر بحق أول محاولة هامة أسهمت في مجال الأنثروبولوجيا الثقافية . وقد حدد تايلور مفهوم الثقافة بقوله : « ان الثقافة أو الحضارة هي ذلك الكل المركب الذي يشتمل المعرفة ، والمعتقدات ، والفنون ، والقانون ، والأخلاق ، والعادات ، والعرف ، وكافة القدرات والأشياء الأخرى التي تؤذي من جانب الإنسان باعتباره عضواً في المجتمع ، (١) ولهذا كانت اشارات تايلور لا تعني تحديد مفهوم أو اصطلاح الثقافة في حد ذاتها بقدر ما كانت محاولاته تهدف إلى وضع تاريخ للثقافة أو الحضارة بصفة عامة .

ومن جهة أخرى فقد وجدت دراسات الثقافة في مجال الأنثروبولوجيا اهتماماً كبيراً من جانب اثنين من علماء الأنثروبولوجيا في أمريكا وهما ألفريد كروبير Kroeber ، وكلايد كلاكهون Kluckhohn ، اللذان قدما العديد من الدراسات والأعمال في مجال الأنثروبولوجيا ، وعلم الاجتماع ، وعلم النفس الاجتماعي والاكلينيكي . ونظراً لكل من كروبير وكلاكهون إلى الثقافة على أنها تمثل الأساس الجوهرى الذي يمكن أن تقوم عليه الأنثروبولوجيا في عمومها ، كما أشارا إلى أن الاهتمام بمفهوم الثقافة يمكن أن يساعد على تشييد نظرية علمية متكاملة لدراسة الإنسان والمجتمع .

(1) Tylor, E.B.; Primitive Culture; Fifth Edition, London, 1913, P.3.

كما قدمت أودرى ريتشاردز Audrey Richards تحليلًا لمفهوم الثقافة من خلال مقالها المعروف . و مفهوم الثقافة في أعمال مالينوفسكي The Concept of Culture in Malinowski's Works ، وانها نجحت من خلال عرضها بأن مالينوفسكي قدم فكرة طيبة لمفهوم الثقافة ومعناها ، وذلك عند تعريفه للثقافة في ١٩٣١ ، والذي ذكر فيه ، ان الثقافة انما تشمل المهارات الموروثة ، والأشياء ، والأساليب أو العمليات الفنية ، والأفكار ، والعادات ، والقيم (١) . وبهذا التعريف يكون مالينوفسكي في رأيها قد أدخل مفهوم الثقافة إلى مجال الدراسات الاجتماعية ، وذلك عندما أشار إلى كلفة ، والعادات ، ضمن تعريفه للمضمون الثقافي ، لأنها تخرج بالتعريف من حيز الوسط البيولوجي إلى مجال الدراسات الانسانية .

وعلى نفس الاتجاه مالينوفسكي يرى هو بل Hooton أن السلوك المكتسب بصفة عامة ، يعتبر بامامه وضروريا في تعريف الثقافة ، وعلينا عند تحليل الثقافة أن نحذف كل ما هو بيولوجي أو موروث من مفهوم الثقافة . لان الثقافة هي مجموع التجديدات الاجتماعية ، والتي يمكن اعتبارها في النهاية بمثابة الارث الاجتماعي الذي ينتقل عبر الاجيال المتلاحقة عن طريق التنشئة والاكتساب الثقافي المستمر (٢) .

(1) Cowell, F.Richard; Culture in private and public Life; Thames and Hudson, London, 1959, pp. 238-240.

(2) Hooton, E.A.; The Nature of Culture ; in; Shapiro, H.L., (ed.); Man, Culture and Society, New York, 1960, p. 198 .

كما يعرف ماكيفر ويبيع الثقافة بأنها تستخدم للإشارة إلى كل ما صنعه أى شعب من الشعوب — أو أوجده لنفسه — من مصنوعات يدوية ومحرمات ونظم اجتماعية سائدة . وأدوات ومعاول ، وأسلوب للتقليد . وباختصار كل ما صنعه الإنسان أينما وجد ، اذن ففهوم الثقافة ، يعنى بمجمل التراث الاجتماعى للشمريه . ويربان من ناحية أخرى أن علماء الانثروبولوجيا أدركوا ادراكا تاما خلال دراساتهم للشعوب البدائية وثقافتها — علاقة الفرد الوثيقة بالثقافة نفسها . كما أيقنوا أن أى فهم واف لشخصية الفرد أو للمركب الاجتماعى أو الثقافى الذى هو جزء منه إنما يتطلب تحليلا دقيقا للعلاقة المتبادلة بين الجزء والكل ، وتوقف كل منهما على الآخر (١) .

أما عن الاعمال التى قام بها كل من الفريد كروبير وكلاكهون فقد تضمنت على العديد من الآراء حول معنى الثقافة وجوهرها . وكانت أغلب تلك التعريفات تميز فى فكر المجالات والمحاور النظرية للثقافة ، أو على الأقل حول نظرية الثقافة والتغير التاريخى ، دون اللجوء بصفة أساسية نحو التطبيق فى مجال الدراسات الحقلية . وعلى هذا نجد أن كتابات كروبير وكلاكهون توخر بالعديد من الآراء والمناقشات التى تسارها باحثون سابقون فى هذا المجال . إلا أنهم خرجا ببعض الاقتراحات فيما يتعلق بمضمون وجوهر الثقافة ، وهى :

الاقتراح الاول : وهو أن التكيف الثقافى إنما يضيف معنى وقيمة للحياة ؛ ويمكن التعبير عن ذلك بأن الثقافة هى المعرفة المكتسبة للتصرفات ، والافعال .

(١) ماكيفر ، ر . م . ، تشارلز بيدج ، المجتمع ، ترجمة : على أحمد عيسى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ١١٥ — ١١١ .

والأنشطة ، والاتجاهات والمشاعر ، والمعتقدات ، وتهذيب النفس ، والاهداف ، وكافة الموجهات المرتبطة بالتكيف مع وظائف الثقافة .

الاقتراح الثاني : وهو كيف يمكن لهذه المعاني والقيم الثقافية أن تضاف إلى الحياة : وذلك من خلال عمليات الادراك والتقدير ، للقيم المتناقلة فيما بين الافراد ، والتي من خلالها تنشأ مظاهر التكيف والانتقال الثقافي التقليدي من جيل إلى آخر .

ومن خلال تلك الاقتراحات السابقة فقد عبر كل من كروبير وكلاكهون بفكرة عامة حول الثقافة ، وهي أن الثقافة إنما تتضمن : كافة الميراث البيولوجي ، وحاملوا أو ناقلوا الثقافة ، والأنماط العامة أو المشتركة ، والاستمرارية أو الثبات ، وخلق النماذج المستحدثة ، والانتشار ، والعلاقات البنائية والدينامية ، والجماعة المرجعية ، والعادات ، وكافة متضمنات الثقافة من اللغة ، والمعرفة ، وكل المشاركين في عمليات الاكتساب ، والمعاني الرمزية الثقافية المتناقلة . وفي ضوء الانطلاق من هذه الفكرة العامة التي تبناها الباحثان ، ومن خلال المسوح الدراسية التي قاما بها حول معنى الثقافة والتي جمعها من صفحات ما يقرب من ستمائة مجلد متنوع في الدراسات الانسانية بمكتبة جامعة هارفارد الامريكية ، فقد توصلنا إلى أن مضمون الثقافة يمكن أن يشمل ويشير إلى : كافة القدرات ، والوسائل ، والمهارات ، والسلوك ، والعادات ، والمعرفة ، والفن ، واللغة ، والعلم ، والفكر المتناقل ، والفلسفة والافكار ، والعمليات الادراكية ، وآداب السلوك ، والأخلاق ، والذوق الاجتماعي ، والديانات ، والقواعد ، والعرف التقليدي ، والأنظمة ، والقانون ، ومستوى الفهم التقليدي ، ومنتجات النشاط الانساني . والكتب ، والمباني ، وسلح الاستهلاك ، والوسائل ، والمخترعات ،

والنقوش ، والادوات ، والمأوى ، والاولى ، والاسلحة ، والارث الاجتماعى ،
والنظم الاجتماعية ، والقيم ، والمثاليات ، والمحتويات ، وطرق التفكير فى الحياة ،
وفى العمل ، وفى الشعور أو الاحاسيس ، وكافة الانساق المرتبطة بالتفكير
والمعرفة ، (٥) . وبهذا يؤكد كل من كروبر وكلاكهون على أهمية تلك المسوح
لان لها فعاليتها فى تحديد معنى الثقافة ، ويستند رأيهما فى ذلك على أن الثقافة
هى محصلة أو نتاج ، كما أن لها مضمونا تاريخيا ، وتشتمل فى نفس الوقت على
الافكار والقيم والماذج . إلى جانب أنها تتميز بصفة الاختيار والانتقاء ، كما
أنها تتميز بصفة الاكتساب ، وترتكز بصورة أساسية على الرموز Symbols
والتجريد Abstraction للسلوك الانسانى . وبهذا يشكل مفهوم الثقافة
فى حد ذاته أحد الافكار الرئيسية التى ساعدت البشرية على تحقيق الكثير من
جوانب التقدم والتطور والرقى الاجتماعى ، ويرجع ذلك بصفة خاصة إلى
ما ينطوى عليه مفهوم الثقافة من عناصر داخلية تتسم بالشمول والعمومية ،
حيث تسيّر تلك الشمولية إلى أن كل بنى البشر لديهم ثقافتهم الخاصة والمميزة ،
ونحن لانعرف مجتمعا إنسانيا يخلو من الثقافة بغض النظر عن مستواها أو درجة
تقدمها أو تخلفها .

وعلى الرغم أنه من الصواب تماما أن نقول أن لكل مجتمع بشرى ثقافته
الخاصة المتميزة ، والتى تختلف فى مجموعها عن ثقافة أى مجتمع آخر ، إلا أنه

(1) Kroeber, A.L. & Kluckhohn, C.; Culture, A Critical Review of Concept and Definitions , In; Cole, W.E., & Cox, R.L., eds; Social Foundations of Education, American Book Company, New York, 1968, pp. 69-74.

من الصواب أيضا أن الأنثروبولوجيين كثيراً ما يستخدمون مصطلح ثقافة بالذميمة
لجماعات قد تكون أكبر أو أصغر من مجتمع معين . فنجد - على سبيل المثال -
أنه كانت تعيش في سهول أمريكا الشمالية قبل استيطان الأوربيين لها ، لا يقل عن
واحد أو ثلاثين مجتمعا هنديا أمريكيا . وكان لكل من هذه المجتمعات اسم القبلى
الحاضر ، وثقافته الخاصة ، ولغته الخاصة التى تختلف فى مضمونها عن ثقافات
والغات المجتمعات الأخرى كافة . ورغم ذلك فقد كانت تلك الثقافات الإحدى
والثلاثين تتميز بعدد كبير من الخصائص المشتركة ، فجميع القبائل كانت تططاد
الابقار لأكلها . وكانت تعيش فى مساكن مصنوعة من الأعمدة الخشبية المعطاة
بجلود الحيوانات ، وكانت جميعها تستخدم السكاب فى نقل الأمتعة ، وفى جر
نوع معين من الزحافات البرية المصنوعة من قوائم خشبية ، كما كانت كلها
تصنع الملابس من جلود البقر أو الإبل ، وكانت تتفوق جميعا فى تصنيع الجلود ،
وتنتشر بينها جميعا طريقة الزخرفة بالأشكال الهندسية . وكان الرجال يرتبون
فى سلم التدرج الاجتماعى تبعا لمهاراتهم فى فنون الحرب والقتال ، وهكذا يطلق
الأنثروبولوجيون على هذه الأساليب فى السلوك ، وعلى طائفة أخرى غيرها إسم
عاما هو : ثقافة السهول ، تميزا لها عن الأنماط الثقافية الأخرى الشائعة عند
بعض قبائل الهنود الحمر الأخرى (١) .

وفى استخدامنا لمصطلحات ثقافة السهول أو ثقافة الساحل الشمالى المحيط
بالبادى أو ثقافة مناطق الغابات الشرقية ، تدل كلمة ثقافة على أساليب السلوك

(١) رالف ل . بيلز ، وهارى هوريجرن ، مقدمة فى الأنثروبولوجيا العامة ،
ترجمة : محمد الجوهري ، والسيد الحسنى ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ،
القاهرة ١٩٧٦ ، ص ١٤١ - ١٤٢ .

الشائعة بين عدد من المجتمعات وليس في مجتمع واحد فقط . ويرجح أن تكون قد قامت بين المجتمعات التي تشترك في بعض جوانب الثقافة على هذا النحو درجة ما من الاتصال بعضها ببعض ، على الرغم من أن هذا الاتصال قد لا يكون بنفس الشدة التي يتم بها بين أفراد مجتمع واحد ، ويؤدي تعدد الاتصالات بين المجتمعات إلى إنتشار بعض جوانب الثقافة فيها وراء حدود المجتمع الواحد بحيث تصبح مشتركة بين عدة مجتمعات ، والشائع أن ترتبط هذه اشقاقات الإقليمية بمناطق بيئية معينة بحيث يمكن أن تحدث بعض جوانب التكيف البيئية المتماثلة .

وإذا كانت الثقافة في كل المجتمعات على هذا القدر من الاهتمام ، فيقول رالف بيلز Beals أستاذ الاثروبولوجيا بجامعة كاليفورنيا - لوس انجيلوس أيضا في مقال نشر له مؤخرا بعنوان «خبرة خمسين عاما في مجال الاثروبولوجيا» انه عندما التحق بالجامعة لأول مرة في يناير من عام ١٩٢٢ لم يكن يسمع عن علم يدعى الاثروبولوجيا ، وأن هدفه الاول كان يكمن في رغبته لان يصبح كاتباً روائيا أو فيلسوفا . وأثناء تلقيه المحاضرات ، جذب إهتمامه ثلاثة من المحاضرين هم روبرت لوى ، والفريد كروبير ، وادوار جيفورد E.Gifford حيث كانوا يتناولون في محاضراتهم عمليات التكيف الثقافي في المجتمع البشرى . ويقول بيلز لقد شدت انبهاى كلمة الثقافة Culture في مضمونها وديناميتها بشكل لم أكن أتوقعه . وسرعان ما وجدت نفسى باحثا حقيقيا اثروبولوجيا في منطقة مكسيكو Mexico ، أسعى إلى الكشف عن جوهر ومضمون الثقافة . ولكن اليوم وبعد مضي أكثر من خمسين عاما يرى البعض من الباحثين في مجالات العلوم المختلفة ان كلمة «الثقافة» ما هى الا «قبعة قديمة Old Hat» ، يحاول

أن يرتديها بعض الاثروبولوجيين الشبان . ويأتى هذا القول من جانب الذين يسعون إلى التخصص في مجالات العلوم البيولوجية والفيزياء النووية ، ولكن أستطيع أن أقول لهم ببساطة أن الثقافة التى يسخرون منها ما هى الا القوة النووية والدافع الحقيقى وراء تخصصاتهم المتلاحقة ، لان هذه هى سمة المجتمع المتطور، وان هذه هى الثقافة بعينها ولهذا فأتنى أرى أن هناك مسؤوليات جسيمة أمام الجهود الاثروبولوجية المخصصة التى تسمى إلى الكشف عن جوهر ومضمون الثقافة ، وخصوصا ما يرتبط بالسلوك الانسانى فى مجتمع تسود فيه الـمـدنية الثقافية ، والتخصصات الانتاجية المترامية لعناصر الثقافة المادية والمعنوية (١) .

والثقافة إذن طبقا للتعريفات السابقة ، انما نسير فى معناها العام إلى أساليب الحياة التى تنتشر فى كافة المجتمعات الإنسانية خلال فترة زمنية محددة ، مع الاخذ فى الاعتبار الانخراط بين الثقافة كمفهوم وتجريدى للسلوك ، وبين الأنشطة والافعال الفردية المادية ، والتى جاءت فى صورتها المصنعة نتيجة لانماط معينة من السلوك الانسانى . فالانسان يحقق توافقا جمعياً من خلال الثقافة مع البيئة المحيطة والظروف التاريخية ، الامر الذى يجعلنا نفهم الثقافة على أنها استجابات توافقية لمثل هذه الظروف ، والتى يعمل الانسان من خلالها على تطوير الثقافة ، حتى لا تحد أو تعوق من حركته وعمارساته السلوكية .

(1) Ralph L. Beals; Fifty Years in Anthropology, in; Annual Review of Anthropology, Vol. 11, University of California, 1982, pp. 1-23.

وبالرغم من تلك النظرة المنهجية التكاملية التي ينظر الباحثون عادة من خلالها إلى كافة أساليب الحياة البشرية بأنما تشكل أنماطا ثقافية عامة ، إلا أن هناك بعض الانماط الثقافية الخاصة ، التي تسير وفقا لضوابط وقواعد محددة بحدود الزمان والمكان ، وارتبطت بجهود الإنسان ومشاعره ، وقدرته على الابداع والتكيف ، وسعيه المستمر من أجل البقاء والنمير ، والمحافظة على الخصوصية الثقافية كإسهام فريد يستحق الاحترام والتقدير . وهي تلك التجارب الانسانية ، التي تشكل عنصرا متميزا يسهم في تدعيم عناصر النسق الثقافي الكلي وتسانده ، ولا تحمل ضمن أهدافها أية نوازع هامة أو مدمرة للعناصر الثقافية الأخرى ، وهي تلك التجارب الانسانية التي عرفت باسم الثقافات .

مفهوم الثقافات الفرعية :

يغطي مفهوم الثقافات الفرعية Sub-Cultures الآن باهتمام متزايد من جانب الباحثين في الأنثروبولوجيا الثقافية والعلوم الاجتماعية الأخرى ، حيث لا تقل الأهمية النظرية والتطبيقية التي يجدها من هؤلاء الباحثين عن الاهتمام ببعض المصطلحات الاسامية الأخرى مثل دراسة وتحليل مفاهيم الدور ، والطبقة والكاريزما ، والنسق ، والنظام ... الخ . ولهذا فإن مفهوم الثقافة الفرعية يجب أن يعالج من الناحية النظرية في ضوء ثلاث قضايا هامة ترتبط بهذا المفهوم ، حيث تشير القضية الأولى إلى ضرورة توضيح فكرتي الثقافة والبناء كمنظورين أساسيين يعتمدان على فهم سير العلاقات الاجتماعية . أما القضية الثانية فهي ضرورة توضيح الحدود أو الفواصل Boundaries الخاصة بأية ثقافة فرعية . وتتركز القضية الثالثة والأخيرة حول ضرورة إدراك المكونات والاستمرار

أو الدوام والتغير في مستوى الثقافة الفرعية (١).

وعلى هذا الأساس فإذا كان ألفريد كروبير وتالكوت بارسونز قد أكدا في عام ١٩٥٨ على ضرورة توضيح التمايزات أو الفروق بين الثقافة والبناء الاجتماعي للجماعة ، فإن مايكل كلارك Michael Clarke وفي عام ١٩٧٤ يؤكد أيضا على أهمية التمييز بين ، الثقافة الفرعية ، و البناء الفرعي ، ، وذلك في ضوء المعاني الاجتماعية المتمايزة التي ترتبط بكل منها . حيث أن الثقافة الفرعية ترتبط بنسق الأفكار Ideas أو المعاني ، بينما يرتبط البناء الاجتماعي الفرعي بالاحداث الاجتماعية أو السلوك Behaviour . وقد ظهر اتجاه آخر يجمع بين لاتجاهين السابقين على أيدي هوارد بيسكر الذي يشير الى ضرورة الربط بين نسق الأفكار الذي يتضمن (القيم والمعايير) . وبين الممارسات التي تشمل سلوك الأشخاص والجماعات داخل الحدث الاجتماعي . وذلك من خلال مناقشته لفكرة الثقافة في ضوء التفاعلية الرمزية كاتجاه للتحليل والتفسير .

وقد ظهر مفهوم الثقافات الفرعية لأول مرة في مجال العلوم الاجتماعية خلال البحث الذي أجراه فردريك تراشر Frederic Trasher حول عصابات مدينة شيكاغو الأمريكية في عام ١٩٢٧ . حيث يرى تراشر أن هذه الجماعات الجانبية لها ثقاقتها وقيمها من خلال تأثير البيئة التي نشأ فيها أفراد أو أعضاء تلك العصابات والتي جعلتهم أفرادا منعزلين بل ومنفصلين عن الوسط الاجتماعي السوي (٢).

1 — Michael Clarke; "On The Concept of Sub-Culture", In; British Journal of Sociology, 1974, Vol. 25, pp. 428-441.

2 — Frederic Trasher; The Gang Chicago; University of Chicago Press, Second Edition, 1963, pp. 14-16.

ثم اتجه علماء الاجتماع بعد ذلك نحو دراسة وتطوير فكرة الثقافة الفرعية، حيث ظهرت في عام ١٩٣٩ لدى كل من سزرياند وهولينجشيد Sutherland & Hollingshead ، وذلك من خلال مناقشاتهما لفكرة أنساق السلوك Behavior Systems التي اهتم بتوضيحها سزرياند . وفكرة الأنماط العامة للسلوك بين الجماعات الاجتماعية الخاصة ، والتي اهتم بتحليلها هولنجشيد (١) .

وعلى الرغم من الاستخدام المبكر لاصطلاح الثقافة الفرعية في النظرية الاجتماعية ، وخصوصا في الاهتمامات والدراسات التي ارتبطت بفهم الجناح والانحراف ، إلا أن مفهوم الثقافة الفرعية ظل مبهما وغير واضح . ولقد حاول بعض العلماء والباحثين الاجتماعيين أمثال ارنولدجرين Arnold W. Green وميلتون جوردون Milton M. Gordon في عام ١٩٤٧ أن يضعوا معادلة متساوية فيما يتعلق بمفهوم الثقافة الفرعية واصطلاح المجتمع الفرعي ، وهما ينظران الى معالجة الظواهر الثقافية على أنها تمثل عنصرا انقساميا مع سكان المجتمع الكلي (٢) . بينما نجد عالمين آخرين هما والتر ميلر Walter B. Miller والبرت كوهين Albert K. Cohen في عام ١٩٥٨ ، ومن خلال تحديدهما لاصطلاح الثقافة الفرعية أكدا على أهمية موجهات القيم الأساسية لأعضاء

1 — August B. Hollingshead; "Behavior Systems as a Field for Research", in; American Sociological Review, No. 4, December, 1939, pp. 816—822.

2 — Milton M. Gordon; "The Concept of the Sub-Culture and its Application", In; Social Forces, Vol. 26, October, 1947, pp. 40—46.

المجتمع الفرعى فيما يتعلق بالمعايير وأنماط السلوك . وهو الاتجاه التفاعلى الذى تبلور بعد ذلك على أيدى علماء التفاعلية الرمزية ، وهم كل من هوارد بيكر Howard S. Becker ، وبلانش جير Blanche Geer ، وماكولم سبيكتور Malcolm Spector ، وذلك فى عام ١٩٧٣ ، وهو الاتجاه الذى يرى ضرورة الإشارة الى الثقافة الفرعية ومعالجتها من خلال مستويات الفهم الخاصة بأنماط سلوك الجماعات ، وخصوصا ما يرتبط منها بالوظائف الكامنة أو المستترة لسلوك أفراد الجماعة الفرعية (١) .

وعموما ، يقصد بالثقافة الفرعية أن هناك جماعة من الناس يشتركون فى أنماط متميزة من القيم والمعتقدات ، وتتميز طريقة حياتهم عن الثقافة الكلية التى تسود المجتمع الأكبر فى بعض الأنماط السلوكية الخاصة بهم . واستخدام مفهوم الثقافة الفرعية لم يكن بالأمر المستحدث فى البحوث الانثروبولوجية والاجتماعية ، حيث استخدم فى أغلب الدراسات التى أجريت على جماعات المراهقين تحت مفهوم الثقافة الفرعية للمراهقين ، كجماعة متميزة لها طريقة حياتها وأنماط سلوكها واستجاباتها التى تختص بها دون غيرها من الجماعات الأخرى . كما أن هناك دراسات أجريت حول الثقافة الفرعية للضواحي الحضرية ، والثقافة الفرعية للجماعات الفقيرة وغيرها .

ولهذا فإن الثقافة الفرعية هى نمط من المعيشة يختلف عن الثقافة الكلية ،

I — Malcolm Spector; „Secrecy. in Job Seeking Among Government Attorneys : Two Contingencies in the Theory of Sub-Cultures“, In; Urban Life and Culture, Vol. 2, 1973. pp. 211—229.

أو بمعنى آخر مدى نمط من السلوك تتميز به الجماعات الخاصة التي تعيش داخل المجتمع الأكبر، وقد يختلف سلوك أفراد تلك الجماعات عن سلوك أفراد المجتمع الكلي ، ولكن في نفس الوقت تتضمن ثقافتهم الفرعية على عناصر تشترك فيها مع الثقافة الكلية ، كما تحتفظ لنفسها بعناصر أخرى تميزها عن غيرها من الثقافات (١) . ولكن تبين عند استخدام مفهوم الثقافة الفرعية أن هناك كثيرا من المشكلات النظرية والمنهجية حول تفسير الأنماط السلوكية التي تختلف عن السلوك العام داخل النسق الاجتماعي . فنجد أن ميلتون يانجر Milton Yanger يميز بين استخدامين لمفهوم الثقافة الفرعية ، فيشير الاستخدام الأول إلى الأنماط المعيارية للجماعات التي تختلف عن المجتمع الأكبر، وأن هذا الاستخدام هو الشائع لمفهوم الثقافة الفرعية ، بينما يشير الاستخدام الثاني إلى وجود فكرة الصراع بين الجماعة والمجتمع الأكبر ، وذلك في إطار مفهوم الثقافة المضادة Countra-Culture . ويرى يانجر أن الثقافة الفرعية في الاستخدام الأول تنصف بالشمول ، لأنها تقوم على أساس علاقات الجماعة مع النسق الثقافي الاجتماعي الرئيسي ، بينما الثقافة المضادة يكون فيها الصراع هو العنصر الرئيسي فقط (٢)

وعلى هذا الأساس يستخدم مصطلح الثقافة الفرعية - طبقا لوجهة النظر هذه - ليشير إلى جماعات داخل المجتمع الأكبر ، ذات أنماط سلوكية خاصة ومعترف بها . هذه الجماعات وإن كانت تشارك في الثقافة الكلية والعامة للمجتمع،

1 — Abner Cohen; (ed.); Urban Ethnicity; Tavistock Publications, London, 1974, pp. 14—16.

2 — Milton Yanger; „Countra-Culture and Sub-Culture“, In; American Sociological Review, Vol. 25, October, 1960, pp 618-627

الأنها تنفرد بسمات ثقافية خاصة بالدرجة التي تميزها عن باقي أعضاء المجتمع الكلي .

وقد حدد هاجور يدينج Hugo F. Reading اصطلاح الثقافة الفرعية كما ورد في قاموس العلوم الاجتماعية، من خلال المعاني الآتية :

— ان الثقافة الفرعية هي الثقافة الخاصة بالطبقة أو الجماعة الاجتماعية والتي تتميز بأنها ذات ثقافة مستقلة ومتغايرة عن الثقافة الكلية ولكنها لا تتعارض معها.
— ان الثقافة الفرعية هي الثقافة التي تتميز الجماعة بصفة التكامل والكلية اذا نظرنا اليها من داخل الجماعة نفسها .

— ان الثقافة الفرعية هي الخصائص الثقافية أو السلوكية الشائعة في مجتمع معين .

— ان الثقافة الفرعية هي الثقافة التي يتميز بها نمط معين من المجتمعات الفرعية .

— ان الثقافة الفرعية هي تلك السمات الثقافية التي تتميز بها الجماعة الأصلية ، ويطلق عليها الجماعة الثقافية (١) .

أما في قاموس الأنثروبولوجيا ، فقد ورد اصطلاح الثقافة الفرعية ليشير الى أن الثقافة الفرعية هي مجموعة من الخصائص الثقافية والأنماط السلوكية التي تتميز بها جماعة معينة أو مجتمع فرعي معين ، ولكنها لا تتعارض في أداؤها

I — Hugo F. Reading; A Dictionary of The Social Sciences; Routledge & Kegan paul, London, 1977, pp. 204—205.

وتحقيق أهدافها مع الثقافة الكلية للمجتمع الأكبر ، وإنما تضيف على أعضائها سمات ثقافية وخصائص محددة لا يتميز بها سوى الاعضاء في تلك الثقافة الفرعية (١).

الثقافات الفرعية والجماعات العرقية :

ومن منطلق ارتباط الثقافة الفرعية ببعض الجماعات الخاصة ، يرى فردريك بارث Fredrick Barth أستاذ الاثنروبولوجيا بجامعة أوصلو ، أنه يمكن تحديد اصطلاح الثقافات الفرعية من خلال الجماعة العرقية ، حيث تعتبر الجماعة العرقية ودراستها - في رأيه - مجالاً هاماً للبحث يشغل بال الكثيرين من الباحثين والعلماء الاثنروبولوجيين . ويرى بارث أن الجماعة العرقية هي جماعة من السكان يمكن تحديدها في ضوء الخصائص الآتية :

(٢) تتحدد الجماعة العرقية بأنها ذات وضع سلالى خاص يميزها عن غيرها من الجماعات الأخرى .

(٢) تتحدد الجماعة العرقية من خلال اشتراكها في محتوى ومضمون النماذج الثقافية التى تحدد وحدة الجماعة من خلال نظرتها الإدراكية لهذا المحتوى الثقافى المتميز .

(٣) ان يكون لتلك الجماعة العرقية بناء خاص من وسائل الاتصال والتفاعل الداخلى بين الاعضاء .

(٤) يتميز أفراد تلك الجماعة بشخصيات ذاتية مستقلة من خلال عضويتهم

I — David Davies; A Dictionary of Anthropology, Frederick Muller Ltd., London, 1972.

وانتمائهم لها، كما يتميزون في نفس الوقت بعضويتهم لبعض الجماعات والمنظمات الأخرى داخل المجتمع الكبير (١) .

ولهذا نجد أن النموذج المثالي الذي وضعه بارث لتحديد الجماعة العرقية إنما يشير إلى المحددات التقليدية فيما يتعلق بالجماعات الخاصة أو ذات الاتجاهات أو الاهتمامات المتميزة ، وهذه المحددات تتمثل في نواحي معينة مثل : السلالة ، والثقافة ، واللغة ، ثم المجتمع . كما يرى أن هناك بعض المحددات الأخرى التي يخضع لها النمط التنظيمي لأعضاء تلك الجماعات . ومن هذه المحددات أيضا الايكولوجيا الثقافية ، ودرجة التباير الطبقي ، والذاتية الاثنية المستقلة ، والابعاد أو المحتويات الثقافية ، بالإضافة الى عوامل التعبير الداخلية المؤثرة في الذاتية الاثنية ، ومدى شدة الروابط الاجتماعية التي تدعم مستوى القيم الثقافية الخاصة بتلك الجماعات . وأنه من خلال تلك المحددات يمكن لنا أن نشير الى وضع الجماعة ، الاثنية ، وحما إذا كانت تتميز بأنها ذات ثقافة فرعية تميزها عن غيرها أم لا . وذلك في ضوء بناء النسق الاجتماعي والثقافي الفرعي لها . ويرى بارث أيضا أن الجماعة الاثنية غالبا ما تتميز بالاقامة المحلية بالإضافة الى السمات الثقافية الخاصة بها ، ولهذا فهي غالبا ما تشير إلى منطقة ثقافية تقليدية . وإن اهتمام الاثنويولوجيا المتزايد بدراسة الجماعات الاثنية وثقافتها المتمايزة يأتي من خلال العلاقات الدينامية لتلك الجماعات ، والتي تتحدد بوجه خاص في دراسة عمليات التغير والاكساب الثقافي ، وذلك من خلال الانصاف والاحتكاك المستمر بين ثقافة الجماعة الاثنية وبين الثقافة الكلية للمجتمع الأكبر .

I — Fredrick Barth, (ed.); Ethnic Groups and Boundaries, Routledge & Kegan paul, London, 1981. pp. 200—206.

الثقافات الفرعية والجماعات المجتمعية الفرعية :

أما على المستويين المنهجي والتطبيقي عند مناقشة اصطلاح الثقافات الفرعية وارتباط هذا المفهوم بدراسة الجماعات المجتمعية الفرعية ، فيرى كل من فاين Fine وكنيمان Klenman ، بجامعة مينسوتا الأمريكية ، أنه يجب أن تؤخذ في الاعتبار بعض القضايا الهامة الآتية :

- (٢) ضرورة مراعاة عدم الخلط بين الثقافة الفرعية والمجتمع الفرعى .
 - (٢) الأخذ فى الاعتبار النقص الواضح فى حجم المعلومات التى تشير إلى تحديد معنى موحد ومتطابق للثقافات الفرعية .
 - (٣) الانتباه الى ضرورة التمييز بين فكرة مشاركة الأعضاء أو مجرد الانتماء الاجتماعى التى تحيط بهذا الاصطلاح .
 - (٤) التأكد من أن فكرة الثقافات الفرعية المحددة يمكن توضيحها من خلال مصطلحات القيم والمعايير وقواعد السلوك المحورية لمن يشاركون فيها أو ينتمون اليها .
- وعلى هذا الأساس فإنه من المفيد تتبع دراسة الثقافة الفرعية فى ضوء الكشف عن عمليات التفاعل المرتبطة بالاحتياجات أو المطالب أو الأهداف الخاصة ، والتى تسمى الجماعات الى تحقيقها من خلال عمليات التفاعل الداخلية فيما بينها ، كما يجب النظر والاهتمام بالخصائص الداخلية التى تتميز بها تلك الجماعات ، والتى تمدنا بالفهم فيما يتعلق بشبكة العلاقات الاجتماعية التى تميزها ، وكذا عضوية الجماعة ، والروابط الاجتماعية والثقافية ، والأدوار البنائية التى تعمل على نشر المعلومات بين الأعضاء مع وجود وسائل الاتصال الخاصة بها . ولهذا فنتعيز .

تلك الجماعة المرجعية بتوفير الأمن والرعاية لأعضائها ، كما قد يسود بينها نظام خاص يتصل بالخصائص الفنية والممارسات السلوكية والمعيارية ، واتجاهات القيم الخاصة بتلك الثقافة الفرعية .

وعلى المستوى التطبيقي يمكن أن نعرض من خلال الثقافات الفرعية للشباب بعض التحليلات المرتبطة بهذه العمليات التفاعلية ، حيث أنه من المعروف الآن أن المجتمعات الغربية المعاصرة لا تسودها فكرة التجانس . وقد تكون المجتمعات متجانسة من خلال النظر الى الطبقة والاساس العرقي ، والسلالة ، والدين ، كما أن بعض المجتمعات قد قسمت الى أقاليم ، وإلى فرق أو جماعات عمرية ، بالإضافة الى الجماعات السياسية والايديولوجية . ولاشك أن مثل هذه التقسيمات انما تتوازي الآن مع التقسيمات والتخصصات المعرفية والعلمية الخاصة بمعرفة وتفسير عناصر المجتمع واتجاهاته .

ويرى فاين وكليمان أنه لا يمكن القول أن الثقافة بصفة عامة يمكن أن تسير على اتساق متكامل من خلال تفسيرات النسق الاجتماعي الكلي ، وخصوصا في المجتمعات التي تعتمد على تقسيم العمل المكثف أو الدقيق ، ومن هنا يزداد وصف المجتمع الآن بأنه يتكون من جماعات مجتمعية فرعية - Subsocieties groupings ، وهي التي من خلالها يجب النظر الى تحديد وصياغة مفهوم الثقافات الفرعية وتحليله .

وفي ضوء ذلك فإن هناك بعض القضايا التصورية المعاصرة التي تتصل بمناقشة اصطلاح الثقافة الفرعية ، في ضوء الاستعانة بالاطار التفاعلي لمكونات الثقافة . وقد جرى العرف فيما يختص بالتحليلات الاجتماعية لاصطلاح الثقافة الفرعية أن يعالج الاصطلاح كبناء أو حدث مستقل لأنه من السهل في ذلك امكانية

التعرف والوصف للثقافة الفرعية، على أنها ذات متضمنات خاصة وعملاً مساعد على النظرية على ذلك وجود المحددات أو الفواصل الانقسامية بين السكان في المجتمع الكبير . وهم يستندون في تحليلاتهم الى بعض القضايا التصورية المرتبطة بخصائص وسمات الثقافة الفرعية لديهم على النحو التالي :

(١) ان الثقافة الفرعية تعالج باستمرار على أنها مرادف للمكونات السكانية للمجتمع الفرعي .

(٢) جرت العادة عند بعض الباحثين على أن تفحص الثقافة الفرعية دون الاهتمام بالترايط المتبادل فيها يتعلق بتحديد جماعة الأفراد والتي تكون بمثابة الاطار المرجعي لها .

(٣) يصور النسق الثقافي الفرعي دائماً على أنه متجانس ، وثابت ، ومغلق .

(٤) توصف الثقافة الفرعية بأنها ذات مكونات متكاملة فيما يتعلق بالفهم والمعايير والاهتمامات المحورية Central Themes (١) .

ويرى فاين وكليمنان أن الترادف بين الثقافة الفرعية ، والمجتمع الفرعي جاء نتيجة لعدم الفهم من جانب الباحثين الذين ينظرون الى أعضاء المجتمع الفرعي ، بأنهم يتميزون جغرافياً أو سكانياً عن بقية المجتمع الكبير أو الأشمل ، ولكنه بغض النظر عن تلك التمايزات ، فإن الثقافات الفرعية تتميز ببعض القيم والمعايير الداخلية التي تحدد مستوى قبول الأعضاء في تلك الثقافة ، وهذا الجانب الرمزي هو بمثابة الاطار المرجعي لتلك الثقافة الفرعية .

1 — Gary Alan Fine & Sherry Kleinman; "Rethinking Subculture: An Interactionist Analysis", In, American Journal of Sociology, Vol. 85, No. 1, July, 1979-May, 1980. pp.1-20.

وقد أجرى فاين وكليمنس دراسة شاملة على مجموعة من الشباب بقصد اختيار اصطلاح الثقافة الفرعية والتي أدت بهما إلى أهم النتائج التالية: حيث لاحظ كل منهما أن أغلب الاتجاهات النظرية السابقة إنما عالجت الثقافات الفرعية على أنها تسبق ثابت، وذات اتجاهات محددة أو قيم أو أهداف محورية. إلا أن دراستهما الواحدة كشفت عن اصطلاح الثقافة الفرعية من خلال إطار التفاعلية الرمزية، ويمكن القول أن الثقافة الفرعية تشمل على مستويات من الفهم، وأنماط السلوك وكذلك الأساليب الفنية أو المهارات التي تستخدم بواسطة تلك الجماعات الخاصة، والتي يمكن إدراكها بالنظر إلى مكونات شبكة العلاقات الداخلية لهذه الجماعات. ويستند هذا التصور عندهما إلى ضرورة مراعاة ما يلي:

(١) لابد من معرفة الطريقة أو الكيفية التي من خلالها تستطيع عناصر الثقافة الفرعية من الانتشار بين أعضاء الجماعة السكانية الواحدة.

(٢) ضرورة مراعاة الاختلافات والفوارق البيئية والمحلية والخاصة بتوجيه المحتوى الثقافي من خلال عمليات التفاعل الرمزي التي تتم بين أعضاء الجماعة الفرعية.

(٣) الاهتمام بجوانب ومستويات الفهم الخاص بدinاميات تغير الثقافة الفرعية (١).

وعلى هذا فقد وجد الباحثان أن فكرة الذاتية أو الاستقلالية الخاصة بالثقافة الفرعية يمكن أن تتجدد باستمرار من خلال حركة التنشئة الاجتماعية Socialization التي ترتبط بعناصر ثقافية معينة لها القدرة على إعادة بناء

التصورات والأبعاد الخاصة بتلك الجماعة في أذهان الشيء . وبذلك تكون الثقافة الفرعية ذات اسهامات متصلة ومستمرة ، ويكفى أن يكون ذلك ردا على الذين يدعون أن الثقافة الفرعية تتميز بالثبات والانغلاق على نفسها . هذا بالإضافة أيضا الى امتداد واتساع نطاق تلك الثقافة الفرعية من خلال التزايد المستمر في عضوية أعضائها ، والتي تنزايد معها عوامل ومتضمنات الخلق والابتكار المرتبطة بممارسة الثقافة وتداولها وانتشارها في ضوء اطارها الخاص المحدد لمعاييرها واتجاهاتها وقيمها المتميزة .

الا أن جاي كورزين Jay Corzine يختلف مع فاين وكليمان فيما يتعلق بفكرة وسائل الاتصال بين الجماعات العرقية ، وهو يرى أنها لا تقتصر على حد قولها فيما يتصل بالانتاج أو المضمون الثقافي الذي يقتصر على فكرة التنشئة الاجتماعية . وتزايد أعداد عضوية الجماعة . لكنه يرى أن تؤخذ في الاعتبار عمليات ادراك مستوى الفهم الداخلي لتلك الجماعات ، وخصوصا تلك الناجمة عن التفاعلات التي تتم أثناء قضاءهم لآوقات الفراغ ، ونوعية الأنشطة التي تؤدي من خلاله . كما يجب البحث عن أسس وقواعد الاتصالات الجمعية التي تتم بين الأعضاء ، وخصوصا من داخل الاطار المحوري المحدد لحركة النشاطات والممارسات في ضوء قواعد وضوابط الثقافة الفرعية (١) .

الثقافات الفرعية والمجتمع الفرعي :

وإذا كان التحليل السابق يشير الى مفهوم الثقافة الفرعية من خلال دراسة

1 - Jay Corzine, "Media Diffusion of Subcultural Elements: Comment on Fine and Kleinman", In, American Journal of Sociology, Vol. 87, July, 1981-May, 1982, pp. 170-173.

الجماعات الخاصة ، أو التي أطلق عليها جماعات مجتمعية فرعية ، إلا أن هناك نظرة انثروبولوجية أخرى تمثلت في عرض مفهوم الثقافات الفرعية من خلال تحليل المجتمعات القبلية أو الفرعية . وجاء هذا الاسهام على أيدي جوليان ستيوارد Julian H. Steward استاذ الانثروبولوجيا بالجامعات الأمريكية (أيلينوير وكاليفورنيا ونيويورك) ، عند محاولاته لوضع أسس نظرية للتغير الثقافي في المجتمع الانساني . ويقول ستيوارد في هذا الصدد أن معظم الانثروبولوجيين قد بدأوا اهتماماتهم البحثية بدراسة المجتمعات التقليدية والقبلية ، والتي تطلبت منهم بالضرورة نظرة تحليلية متعمقة للأنساق السوسيوثقافية المعاصرة والعقدية ولهذا فقد اهتمت تلك المحاولات المنهجية ، والتحليلات المستمرة للثقافات المعاصرة ، بوضع صياغة ملاممة أو تحديد مناسب لثقافة المجتمعات الصغيرة ، وقد جاء هذا التحديد مستندا الى ثلاثة أسس أو مظاهر أساسية ترتبط بأعضاء تلك المجتمعات القبلية أو التي يطلق عليها أحيانا المجتمعات الفرعية وهي :

أولا - تتميز ثقافة المجتمعات القبلية أو الفرعية بمعدلات معيارية ثابتة لتوقعات سلوك أعضائها ، والتي تمتاز بالاستقلالية والبساطة والتجانس ، حيث يسود التطابق التام في الأنماط السلوكية بين كافة الأفراد ، على الرغم من وجود بعض الأساليب الخاصة للسلوك والتي ترتبط بدور طبقية العمر ، والجنس ، والمهنة ، أو بعض الأدوار الأخرى . وبهذا يشير اصطلاح الثقافة القبلية الى فكرة السلوك المشترك بين الأعضاء ، والذي يميز الحياة القبلية في ذاتها بأنها أسلوب أو طريقة في الحياة .

ثانيا - تتحدد الثقافة القبلية عادة بأنها نمط pattern ثقافى أو صيغة Configuration ثقافية . ولكن اذا كانت فكرة النمط تشير الى معانى متعددة

ومتغايرة الا. أنها تبدو في عمومها معبرة عن مكونات أو وحدات أساسية للتكامل الشامل. وقد توصلت الاثروبولوجية روث بنديكت Ruth Benedict الى ايجاد مترادفات لفكرة النمط أشارت اليها بما يسمى بالاتجاهات الأساسية Basic Attitudes ، أو نظرة الحياة Life View ، أو نسق القيم Values System الذي يشارك فيه أعضاء المجتمع المحلي ، ويضفي عليهم فكرة التطابق من خلال المشاركة في الممارسات السلوكية . وأنه من الطبيعي أن نجد أن تحديد فكرة النمط بهذه الكيفية قد أدت الى صياغة التصور العام لفكرة الشخصية الثقافية ، لأنه طبقا لتحديد الاتجاهات يمكن التعبير عن نمط الشخصية الذي هو نتاج للتطابقات أو التوحد الثقافي، أو الاشتراك في الخصائص والسمات العامة بأنه نموذج متطابق مع الثقافة .

ثالثا - يتحدد مفهوم الثقافة القبلية الفرعية في ضوء فكرة النسبية الثقافية لأن المعايير والانماط الثقافية تختلف بطبيعة الحال من ثقافة تقليدية الى أخرى ، الامر الذي يجعلها في النهاية تتميز بالاستقلال والتفرد . وهذا ما أدى ببعض الباحثين في دراساتهم الى التمسك بفكرة المنطقة الثقافية Cultural Area ، والطرز أو النموذج الثقافي Cultural Type ، وغير ذلك من التصورات العامة المرتبطة بتحديد مفهوم الثقافة والمناطق القبلية .

وفي ضوء هذا العرض لخصائص المجتمعات القبلية، يناقش ستيوارد مفهوم الثقافة الفرعية ، حيث يرى أن اصطلاح الثقافة الفرعية قد ظهر نتيجة للتحليلات المنهجية المركزة المستمرة للتغير والاكتساب الثقافي للاناساق السوسيوثقافية . ويرى أن هناك بعض الخصائص والسمات والمعايير الثقافية التي لا يمكن فهمها من خلال النظر اليها على أنها تمثل نواحي نسبية بالنسبة

للثقافة الكلية ، ولكنها في الوقت ذاته لا تنفصل عن النسق الثقافي العام . ولهذا فأننا قد نجد أن ثقافة المجتمع الحديث لا تكون على درجة من البساطة ، فيما يتعلق بالمعايير والقيم السلوكية الخاصة بأعضائه ، وذلك نظرا لوجود كثير من الجهات الفرعية التي ينتمى إليها الأفراد داخل الثقافة الواحدة ، ويتميزون في نفس الوقت بثقافات فرعية معينة . (١)

هذا الاصطلاح أو المفهوم الذي رغم أهميته بالنسبة لتفسير وتحليل الحياة الاجتماعية والثقافية ، إلا أنه لم يحظ باقبال شديد من جانب الباحثين والعلماء على استخدامه والاستعانة به بصورة مباشرة . ولكننا نجد أن خصائص ومظاهر الثقافة الحديثة لا يمكن فهمها بدقة وعناية إلا عن طريق الدراسة الجزئية للسلوك الإنساني ، فلا يستطيع باحث معين أو مجموعة من الباحثين مهما أوتيت من الوسائل والامكانيات البحثية أن يقدموا صورة متكاملة ، ومسحاً كلياً عن ثقافة مجتمع القاهرة أو لندن أو باريس ككل مثلاً . لأن مثل هذه المجتمعات المعقدة والتي تحوى عديداً من الثقافات الفرعية طبعا لا بنيتها المورفولوجية ، تتطلب عند دراستها نظرة منهجية ، تسعى إلى تحليل العناصر الجزئية ومدى ارتباطها وعلاقتها بالنسق الثقافي الأشمل .

وطبقاً لذلك يرى ستوارد أنه إذا ما تعرضت تلك الثقافات الفرعية لعملية التغيير والاكتساب الثقافي نتيجة لاحتكاكها بثقافات أخرى أكثر تقدماً ، فإنها تكون في هذه الحالات في وضع اختطبار بالنسبة وضعها المستقل كثقافة محلية أو فرعية . وهنا تظهر عمليات التأثير الثقافي بما يطلق عليه عمليات الاحلال في

I — Julian H. Steward, Theory of Culture Change, University of Illinois press, Urbana, 3rd Printing, 1961, pp. 43-49.

السلوك التقليدى للأفراد ، ، أو بمعنى آخر فى نمط الثقافة الفرعية . وليس بالضرورة — من وجهة نظر ستيوارد — أن يحمل الأفراد أو الجماعات النمط الثقافى الجديد ، ولكن على الأقل يشاركون فى بعض الممارسات الجزئية الخاصة داخل تلك الثقافة الكلية . وهم فى نفس الوقت يعتبرون أعضاء للثقافة فرعية ذات علاقات خاصة بالمجتمع الكلى (١) .

ويبدو أن اتجاه الايكولوجيا الثقافية أكثر وضوحا وتأثيرا على آراء جوليان ستيوارد ، حيث يرى أنه من الضرورى على الباحث الاثنولوجى أو الاثنوجرافى أو الاثروبولوجى أن يهتم بمنهج الملاحظة المباشرة ، وأن ينظر إلى تلك الثقافات الفرعية أما على اعتبار انها خاصة بجماعات محلية Localized groups لها خصائصها الثقافية وأسايبها — فى التكيف الايكولوجى الثقافى ، أو على انها ثقافات فرعية ترتبط بجماعات ذات مستويات أفقية أو متوازية Horizontal groups مثل الثقافات الخاصة ببعض الطوائف Castes أو الطبقات Classes أو الجماعات المهنية وغيرها . ويرى ستيوارد ضرورة تركيز المنهج الاثنوجرافى حول تلك الانقسامات السوسيوثقافية فى منطقة ايكولوجيا محلية ، وأنه لا يمكن أن نستطيع فهم الثقافات القومية أو الخصائص العامة الكلية إلا بالرجوع إلى دراسة وفهم الثقافات الفرعية .

ويسوق ستيوارد مثالا عملياً للاكتساب والتغير الثقافى من خلال عرضه للثقافة والثقافات الفرعية الخاصة بسكان جزيرة بورت ريكو Puerto Rico الأمريكية ، حيث يرى أن أصول ومستوى الانماط الثقافية لسكان تلك الجزيرة ترجع إلى الثقافات التقليدية الخاصة بالمستوطنين الاصليين من جماعات هايسباينيك

Hispanic الاسبانية ، والتي كانت تتميز بأصالتها التقليدية منذ أربعة قرون مضت فيما يتصل بانتشار الحرف والفنون وأساليب التجارة والفلاحة، والممارسات الدينية ، والنظم العائلية ، والتمسك باللغة الاسبانية ، والزي التقليدية، والعادات الغذائية، وغيرها . وذلك على الرغم من وجود بعض المقيمين معهم من الهنود والافريقيين ، وبعض السكان من الجنسيات والطبقات الاوروبية المختلفة والذين كانوا يمثلون أقليات اثنية بين الهايسبانيك ضمن سكان الجزيرة . ولكن في الوقت الحاضر ومع ظهور حركة التصنيع ، وقيام الادارة الامريكية بوضع الترتيبات والخطط اللازمة فيما يتعلق بالمناطق والاقاليم الانتاجية التخصصية من ناحية ، ومن ناحية أخرى ظهور دوافع الهجرة الخارجية بين جماعات الهايسبانيك ، فقد تأثرت تلك الثقافات الفرعية باتجاهات التأمرك Americ anization الثقافي والقومي . الامر الذي أدى إلى تغير الوضع الثقافي في تلك الجزيرة ، حيث بعد أن كانت ثقافة هايسبانيك التقليدية هي السائدة من قبل ، وما عداها كانت تعتبر ثقافات فرعية بالقياس إليها ، أصبحت ثقافة هايسبانيك الآن تمثل هي نفسها ثقافة فرعية بين سكان الجزيرة . ولايزيد عدد سكانهم الآن عن مائة أسرة أو عائلة ، يعيشون حياة منعزلة في المناطق الجبلية ، وخصوصا في منطقة سان جوان San Juan ويطلق عليهم الآن لقب جيبارو Jibaro أى المنعزلين ، وبقومون بزراعة محاصيل التبغ والبن في مناطق اقامتهم، بالإضافة إلى التحاق البعض منهم للعمل بالأجر في مزارع قصب السكر الحكومية الامريكية. ولهذا تعزى الاهداف والقيم والاتجاهات والانماط السلوكية المستحدثة إلى ما قامت به عملياتنا التصنيع والهجرة من تغيير سريع في السلوكيات التقليدية، وبناء النسق الثقافي الفرعي (١) .

I — Ibid., pp. 212—222.

خاتمة :

ولهذا فقد أصبح مدخل فهم الثقافات الفرعية يمثل اتجاها نظريا وتطبيقيا على درجة بالغة الأهمية ، وبخصوصا عندما يقوم الباحثون بدراسة وتحليل حياة المدينة التي تحوى عديدا من الثقافات ذات الاختلافات البنائية ، أو بمعنى آخر فإن كل منطقة من مناطق المدينة تضم مجموعات من الناس ذات ثقافات معينة ، وعادة ما ترحب هذه الثقافات إلى عوامل متعددة منها الاختلافات الانثولوجية والسلالية ، أو الانتماءات الإقليمية وغيرها . وينتج عن ذلك تباين معايير الجماعات المختلفة في مجالات الأسرة ، وأساليب التهيئة الاجتماعية ، وعضوية الجماعات المرجعية ، والنظرة للحياة ، وإدراك الواقع الاجتماعى والثقافى .

تم بحمد الله وتوفيقه

منتہی سورا الازہکیہ

WWW.BOOKS4ALL.NET